الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ)

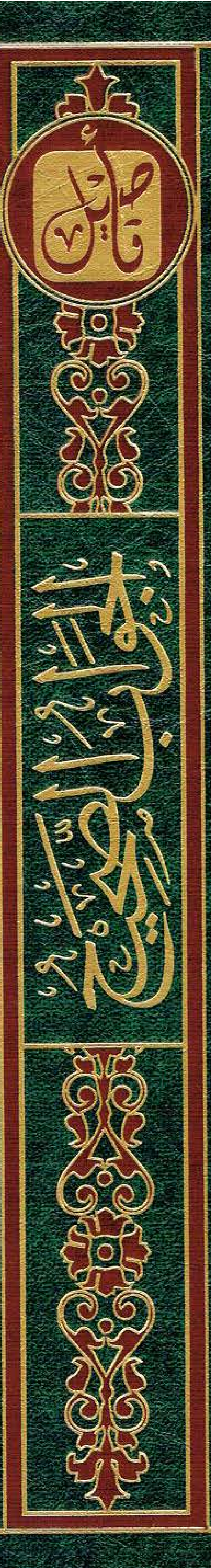
تحقيق

د. أحمد بن فارس السلوم

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الرابع





طبع برعاية

مؤسسة عبد اللطيف العيسى الخيرية

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

Taseel Center for Studies & Research

راجع هذا المجلد

د. سُلَيْمَان بْن عَبْدالله العُمَيْر

د. عَبْدالرَّحِيم بْن صِمَايِل السُّلَمِي

ح مركز دار التأصيل للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. /احمد بن عبد الحليم ابن تيمية ؛ علي محمد العمران - جدة ، ١٤٤٠ هـ

٥ مج.

ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٥-٤-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

١- الإسلام و النصرانية ٢- الديانات المقارنة أ-العمران ، علي محمد (محقق) ب.العنوان

ديوي ٢٩١ ١٤٤٠/١١٣١٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٣١٧
ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٥-٤-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٤)

الطبعة الأولى
١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م



جدة، شارع عبدالله السليمان، مقابل اكسترا
المملكة العربية السعودية

هاتف: 00966126288685
جوال: 00966596747896

الرمز البريدي: 22246، الرقم الإضافي: 6929
البريد الإلكتروني: sabban.taseel@gmail.com



الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)

تحقيق

د. أحمد بن فارس السلّوم

إشراف

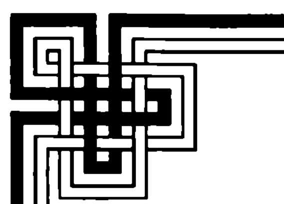
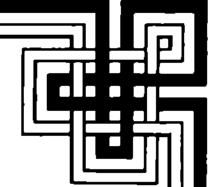
د. علي بن محمد العمران

المجلّد الرابع





بسم الله الرحمن الرحيم

الأصول المعتمدة في تحقيق هذا الجزء

(ظ) نسخة المكتبة الظاهرية كتبت سنة ٧٧٢ بخط ابن المحب.

(د) نسخة دار الكتب المصرية (نسخة عتيقة عليها خط المصنف، ثم جرىٰ ترميمها وإكمال خرومها سنة ١٢٨١)

(ل) نسخة ليدن. (كتبت سنة ٧٣٠)

(ب) نسخة بودليان. كتبت في القرن التاسع احتمالا

(ح) نسخة المتحف البريطاني. لعلها في القرن الثاني عشر

(ف): نسخة الافتاء. كتبت سنة ١٢٧٦

ط. النيل (الطبعة الأولىٰ للكتاب بمطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٢).

فصل[1]

ومما ينبغي أن يعرف -ما قد نبهنا عليه غير مرة- أنَّ شهادة الكتب المتقدمة لمحمد ﷺ: إمَّا شهادتها بنبوته، وإمَّا شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات علىٰ نبوته ونبوة من قبله، وهو حجة علىٰ أهل الكتاب وعلىٰ غير أهل الكتاب مِن أصناف المشركين والملحدين[2]، كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ تَكُن[3] لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ[4] الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقوله ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤][5].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا

---

(١) من هنا إلىٰ بداية الأصل ظ اعتمدنا علىٰ الأصل ب.

(٢) في (ل): المشركين الملحدين.

(٣) كذا في الأصل (ب) بالتاء، وهي قراءة ابن عامر وحده، ويلزم منها رفع آية، وقرأ الباقون: (يكن) بالياء، (آيةً) بالنصب (النشر ٢/ ٣٣٦).

(٤) في الأصل ب (فاسل) بالنقل، وهي قراءة ابن كثير والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بالهمز (النشر ١/ ٤١٤)، وهكذا هي في الأصل (ل، د).

(٥) لم يذكر هذه الآية في (ل) وهي في (ب، د) بدون الواو في أول الآية.

﴿جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وذلك مثل قوله في التوراة -ما قد تُرجم بالعربية-: «جاء الله من طور سيناء» وبعضهم يقول في الترجمة[1]: «تجلىٰ الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»[2].

قال كثير من العلماء -واللفظ لأبي محمد بن قتيبة-: «ليس بهذا خفاء علىٰ من تدبره[3] ولا غموض؛ لأنَّ مجيء الله من طور سيناء: إنزاله التوراة علىٰ موسىٰ بطور[4] سينا، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب

---

(١) «في الترجمة» ليس في (ل).

(٢) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٥٤، خير البشر ص١٢٩، وهذا النص ورد في سفر التثنية (٣٣: ٢) وهو بحسب الترجمة التي بين أيديهم: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسىٰ رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتىٰ من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم».
وبنحو ما ذكره المصنف ذكره ياقوت في معجم البلدان (٣/ ١٧١)، ثم قال: «وهذا في الجزء العاشر في السفر الخامس من التوراة» وانظر أيضًا فيه (٤/ ٢٢٥). بينما في التخجيل: الفصل العشرين من السفر الخمسين.
وكذا نقله البقاعي في نظم الدرر (٣/ ١٨٦)، (٨/ ١١١) ثم ذكر منام السموأل بن يحيىٰ أحد أحبار اليهود (٨/ ١٠٩)، والسموأل هو مؤلف «غاية المقصود في الرد علىٰ النصارىٰ واليهود» وهذه البشارة في كتابه (ص٥٥) حيث أطال في شرحها.

(٣) في هامش (د): «في الأصل: من تدبيره».

(٤) كذا في (ب)، وفي (ل، د): «من طور».

أن يكون إشراقه من سَاعير إنزاله علىٰ المسيح الإنجيل[(١)]، وكان المسيح من سَاعير - أرض الخليل بقرية تدعىٰ «ناصرة» - وباسمها سُمّيَ[(٢)] مَن اتَّبعه: نصارىٰ.

وكما وجب أن يكون إشراقه من سَاعير بالمسيح؛ فكذلك يجب أنْ يكون استعلانُه من جبال فاران: إنزاله القرآن علىٰ محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة.

قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران[(٣)] هي مكة، فإنْ ادعوا أنها غير مكة -وليس يُنكرُ ذلك من تحريفهم وإفكهم- قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن «هاجر» و «إسماعيل» فاران؟

وقلنا: دلونا علىٰ الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتابًا بعد المسيح، أوليس «استعلن» و «علن» بمعنىٰ[(٤)] واحد؟ وهما: ظهر وانكشف، فهل تعلمون دينًا ظهر ظهور دين[(٥)] الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟»[(٦)].

وقال ابن ظَفَر[(٧)]: «ساعير: جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح»[(٨)].

---

(١) (ل، د): «الإنجيل علىٰ المسيح».
(٢) (ل): «يسمىٰ».
(٣) انظر معجم البلدان (٤/ ٢٢٥).
(٤) (ل، د): «وهما بمعنىٰ».
(٥) ليست في (ل، د).
(٦) هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٤٥.
(٧) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن ظفر الصقلي، نشأ بمكة وسكن حماة، وتوفي سنة ٥٦٥، وظفر: بفتح الظاء المعجمة والفاء وبعدها راء، كذا ضبطه ابن خلكان، قال الصفدي: رأيت بعضهم يقول: ابن ظُفُر بضم الظاء والفاء، والاول أشهر (وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٢٣، الوافي بالوفيات ١/ ١٤١). وهو صاحب كتاب: «خيرُ البِشر بخير البَشر»، وهو كتاب مطبوع، ومن مصادر المصنف.
(٨) خير البشر ص١٢٩.

قلت: وبجانب بيت لحم -القرية التي ولد فيها المسيح- (قرية)[1] تسمىٰ إلىٰ اليوم سَاعير، ولها جبال تسمىٰ سَاعير[2].

وفي التوراة: «أن نسل العيص كانوا سكانًا بساعير، وأمر الله موسىٰ أنْ لا يؤذيهم»[3].

وعلىٰ هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقًّا، جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلىٰ منه، ومنه كان نزول أول الوحي علىٰ النبي ﷺ، وحوله من الجبال جبال كثيرة، حتىٰ قد قيل: إنَّ بمكة اثني عشر ألف جبل، وذلك المكان يسمىٰ فاران إلىٰ هذا اليوم، وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبريَّة: التي بين مكة وطور سينا تسمىٰ برِّيَّة فاران، ولا يمكن أحدٌ[4] أن يدَّعي أنه - بعد المسيح - نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلاَّ إرسال محمد ﷺ.

وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة علىٰ الترتيب الزماني، فذكر إنزال التوراة

---

(١) ليست في (ب).

(٢) انظر: معجم البلدان (ساعير:٣/ ١٧١)، وقال: اسم لجبال فلسطين، من حدود الروم، وهو قرية من الناصرة بين طبرية وعكا.

(٣) ذكر هذا النص ابن القيم في هداية الحيارىٰ، ولا شك أنه استفاده من المصنف، ولم أجد النص هكذا فيما بين يدي من المصادر، وقد ذكر السموأل (في غاية المقصود في الرد علىٰ النصارىٰ واليهود ٥٣): أن في الجزء الأول من السفر الخامس، قوله: «اتيم عوبز بقبول اخيحم بنىٰ عيسووهيوشييم بسيعير»، تفسيره: «أنتم عابرون في تخم إخوتكم بنىٰ العيص المقيمين في سيعير، إياكم أن تطيعُوا في شىٰء من أرضهم».

وقريب من هذا ما في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٠، وفيه: «والآن هوذا بنو عمون ومواب وجبل ساعير الذين لم تدع إسرائيل يدخلون إليهم حين جاؤا من أرض مصر بل مالوا عنهم ولم يهلكوهم».

(٤) (ل): أحدا.

ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.

وقال في الأول: جاء، أو: ظهر[1]، وفي الثاني: أشرق، وفي الثالث: استعلن.

وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، زاد به النور والهدىٰ.

وأمَّا نزول القرآن، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء؛ ولهذا قال: «واستعلن من جبال فاران»، فإنَّ محمداً ﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلن[2] في مشارق الأرض ومغاربها؛ ولهذا سماه الله سراجًا منيرًا، وسمىٰ الشمس سراجًا وهاجًا.

والخلق يحتاجون إلىٰ السراج المنير، أعظم من حاجتهم إلىٰ السراج الوهاج؛ فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وكما قيل: قد يتضررون به بعض الأوقات، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت وفي كل مكان ليلاً ونهارًا، سرًّا وعلانية.

وقد قال ﷺ: «زُويتْ لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[3].

وهذه الأماكن الثلاثة[4] أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤

---

(١) (ل): «وظهر».

(٢) (د): «استعلنت».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) (ل): الثلاث.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ١-٨].

فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سينين، وهو الجبل الذي كلَّم الله فيه موسىٰ وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة، وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمَّه هاجر(١)، وهو الذي جعله الله حرمًا آمنا ويتخطف الناس من حوله، وجعله آمنا خلقًا وأمرًا قدرًا وشرعًا.

فإنَّ إبراهيم حرَّمه ودعا لأهله فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٥، ١٢٦].

فأخبر الله تعالىٰ أنَّ إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدًا آمنًا، واستجاب الله دعاء إبراهيم، وذكر ذلك في غير موضع، وبها بنىٰ إبراهيم البيت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

(١) ليست في (ل). وفي هامشها: سقط لعله: فيه، أو كان أسكنه.



﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالىٰ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١-٤].

وقال تعالىٰ عن المشركين(١): ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أقسام منه بالأمكنة الشريفة العظيمة(٢) الثلاثة، التي ظهر فيها نوره وهُداه، وأنزل فيها الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن.

كما ذكر الثلاثة في التوراة: «جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير

---

(١) «عن المشركين» ليس في (ل).

(٢) (ل): المعظمة.

واستعلن من جبال فاران».

ولما كان ما في التوراة خبرًا عنها، أخبر بها علىٰ ترتيبها الزماني، فقدَّم الأسبق فالأسبق، وأمَّا في[1] القرآن فإنه أقسم بها تعظيمًا لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته - سبحانه - وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها علىٰ وجه التدريج درجة بعد درجة، فختمها بأعلىٰ الدرجات.

فأقسم أولاً بالتين والزيتون، ثم بطور سيناء، ثم بمكة، لأنَّ أشرف الكتب الثلاثة: القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء، فأقسم بها علىٰ وجه التدريج، كما في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ١-٤].

فأقسم بطبقات المخلوقات، طبقة بعد طبقة، فأقسم بالرياح الذاريات؛ ثم بالسحاب الحاملات للمطر، فإنها فوق الرياح؛ ثم بالجاريات يسرا، وقد قيل: إنها السفن[2]، ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦]، فسماها جواري، كما سمىٰ الفُلك جواري في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورىٰ: ٣٢]،

---

(١) ليست في (ل).

(٢) هذا القول مروي عن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد رحمه الله، وغالب المفسرين لا يذكر سواه، (انظر: جامع البيان ٢٢/ ٣٩١، معالم التنزيل ٧/ ٣٦٨، زاد المسير ٤/ ١٦٧، الدر المنثور ٧/ ٦١٤، فتح القدير ٥/ ٩٨).
وقال الحافظ ابن كثير: «المشهور عن الجمهور أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية» (تفسير ابن كثير ٧/ ٤١٤) فلعله يريد بالبعض شيخه ابن تيمية والله أعلم.

والكواكب فوق السحاب.

ثم قال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] وهي الملائكة التي هي أعلىٰ درجة من هذا كله[١].

وما ذكره ابن قتيبة -وغيره من علماء المسلمين- من تربية إسماعيل في بِرِّيَّة فاران فهكذا هو في التوراة، وقال فيها: «وغدا إبراهيم، فأخذ الغلام وأخذ خبزا وسقاءً من ماء ودفعه إلىٰ هاجر وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر، فضلت في بِرِّيَّة سبعٍ، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست مقابلته علىٰ مقدار رمية بسهم؛ لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام فدعا ملكُ الله هاجر، وقال لها: ما لك يا هاجر لا تخشي؛ فإنَّ الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام وشدي يديك[٢] به، فإني جاعله لأمة عظيمة، وفتح الله عينيها فبصرت بئر ماء فسقت الغلام وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام، فربي وسكن في برية فَاران»[٣].

---

(١) وسميت الملائكة مُقسمات لأنها تقسم الأمور علىٰ ما أمر الله به (زاد المسير ٤/ ١٦٧).

(٢) في (ل): يدك.

(٣) انظر: خير البشر ص١٢٨، سفر التكوين (٢١: ١٤-٢١)، ولفظه بحسب الترجمة الحالية: «فبكر ابراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر، واضعًا إياهما علىٰ كتفها، والولد، وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدىٰ الاشجار، ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس، لأنها قالت: «لا أنظر موت الولد»، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادىٰ ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: «ما لك يا هاجر؟ لا تخافي، لأنَّ الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر». =

فهذا خبر الله في التوراة: أنَّ إسماعيل سكن ورُبِّيَ[1] في برية فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله سقاه من بئر ماء.

وقد علم بالتواتر، واتفاق الأمم أنَّ إسماعيل إنما رُبي بمكة، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت، فعلم أنَّ أرضَ مكة: فاران[2].

وهذه البشارة في التوراة لهاجر بإسماعيل، وقول الله: «إني جاعله لأمة

= والجملة الأخيرة تخالف ما ثبت في البخاري من أن إسماعيل تزوج من جرهم مرتين، وجرهم ليست من مصر، وسيأتي الحديث.

(١) في (ل) ربي وسكن.

(٢) هاهنا زيادة في (د) ليست في (ل)، وهي:

[والله تعالىٰ قد أخبر في القرآن في غير موضع بكون إسماعيل كان بمكة، فقال عن الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٤-١٢٩)].

وهذه الزيادة ثبتت في أصل (ب) إلا أنه ضرب عليها، وكتب في أولها: لا، وفي أخرها: إلىٰ.

فلا شك أن ناسخ (د) أو أصل (د) لم يفطن إلىٰ أنها مضروب عليها.

عظيمة وتعظمه[1] جدا جدا، وإن هاجر فتحت عينيها فرأت بئر ماء فدنت منها» إلىٰ آخر الكلام.

وفي موضع آخر قال عن إسماعيل: «إنه يجعل يده فوق يد الجميع»[2].

ومعلوم باتفاق الأمم والملل[3]، أنَّ إسماعيل تربَّىٰ بأرض مكة، فعلم أنها فاران، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الذي ما زال محجوجًا من عهد إبراهيم، تحجُّه العرب وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حج إليه موسىٰ بن عمران ويونس بن متَّىٰ، كما في الصحيح من رواية ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق، (بين مكة والمدينة)[4]، فقال: أي وادٍ هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلىٰ موسىٰ ﷺ هابطًا من الثنية، واضعًا إصبعيه[5] في أذنيه، له جؤارٌ إلىٰ الله ﷻ بالتلبية، مارًّا بهذا الوادي.

قال: ثم سرنا حتىٰ أتينا علىٰ ثنية، قال: أي ثنية هذه؟ قالوا: هَرْشىٰ، فقال: كأني أنظر إلىٰ يونس علىٰ ناقة حمراء، عليه جبة صوف، خِطام ناقته ليف خُلبة، مارًّا بهذا الوادي ملبيًا»[6].

وفي رواية «أمَّا موسىٰ فرجل آدم جعد، علىٰ جمل أحمر مخطوم

---

(١) في ب: كتب معظمة ثم ضرب عليها، وفي (ل، د): عظيمة ومعظمة.

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٥٤، خير البشر ص١٢٨.

(٣) في (ل، د): الأمم والنقل، زاد في (د): المتواتر.

(٤) ما بين القوسين ليس في ل.

(٥) في (ل): أصبعه.

(٦) صحيح مسلم (١٦٦).

وهرْشىٰ جبل قرب الجُحفة، والخُلبة: الليف، وقد يسمىٰ الحبل نفسه خُلبة، وقوله: ليف خلفة، أي علىٰ البدل (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٥٨).

وفي الأصل ب: جلبة بالجيم، وهو تصحيف.

بخُلبة»(١).

ولما بعث الله محمدًا أوجب حجه علىٰ كل أحد، فحجَّت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها.

والبئر الذي شرب منها إسماعيل وأمه هي بئر زمزم، وحديثها مذكور في صحيح البخاري، عن ابن عباس، قال: «أوَّل ما اتخذ النساء المِنْطق من قِبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا(٢) ليُعفىٰ أثرها علىٰ سارة.

ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل -وهي ترضعه- حتىٰ وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفَّا إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي(٣) ليس فيه أنيس(٤) ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا(٥)، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند البيت(٦) -حيث لا يرونه- استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٠).
(٢) في (ل): «منطقها».
(٣) ليست في (ل، د).
(٤) في (ل): أنس. وفي (د): ليس أنس.
(٥) في د زيادة: «وفي لفظ: وتبعته أم إسماعيل حتىٰ إذا بلغوا كداء نادته من وراء: يا إبراهيم إلىٰ من تتركنا، قال إلىٰ الله، قالت: رضيت بالله، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند البيت..».
(٦) كذا في (ب، د) وفي (ل): الثنية، وهو الذي في نسخ الصحيح، ولم أجد في روايات الصحيح ما يستأنس به لتصحيح ما ورد في (ب، د). (إرشاد الساري ٥/ ٣٥٣).

عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء حتىٰ إذا نفد ما في السقاء وعطشت وعطش ابنها -وجعلت تنظر إليه يتلوَّىٰ- انطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحدًا؟ فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا، حتىٰ إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعيَ الإنسان المجهود، حتىٰ جاوزت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترىٰ أحدًا(١)؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فلذلك سعىٰ الناس بينهما.

فلما أشرفت علىٰ(٢) المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه -تريد نفسها- فسمعت فقالت أيضًا(٣): قد(٤) أسمعتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتىٰ ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه(٥) وتقول بيديها هكذا، تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لم

---

(١) في (ل، د): من أحد.
(٢) ليست في ل.
(٣) كذا في ب، وكتب تحت فسمعت: فتسمعت ص. أي هكذا في نسخة، وفي ل: فسمعت أيضا فقالت، وفي الصحيح: ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت..الخ. (انظر: إرشاد الساري ٥/ ٣٥٤).
(٤) كتب في ب: لقد ثم ضرب عليها، والمثبت من (د) والصحيح.
(٥) في (ل، د): تحوطه. قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٢): «فجعلت تحوضه بحاء مهملة وضاد معجمة وتشديد أي تجعله مثل الحوض».

تغرف من الماء لكان عينًا معينًا».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله»[١]، وذكر تمام الحديث[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤).

(٢) أتمه في (د)، فقال:

[فكانت كذلك حتىٰ مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كُداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطائر يدور علىٰ ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفىٰ ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس» فنزلوا وأرسلوا إلىٰ أهليهم فنزلوا معهم، حتىٰ إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد (إسماعيل)، فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: (نحن) بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، وقال: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرىٰ، فلبث عنهم (إبراهيم) ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل علىٰ امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت علىٰ الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه أن يثبت

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب، جد النبي ﷺ وصارت السقاية في ولده: في العباس، وأولاده يسقون فيها[1]، ويسقون[2] أيضا الشراب الحلو، والشرب من ذلك سنة.

والله تعالىٰ قال في إسماعيل: «إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جدًّا جدًّا»[3].

وهذا التعظيم المؤكد «جدا جدا» يقتضي أن يكون تعظيمًا مبالغًا فيه، فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد، وأن ذريته ليس منهم نبي، كما

= عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت (في الأصل: وغسلت) عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء، قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويقولل لك: أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، (ثم لبث عنهم ما شاء الله)، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك [ربك]، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، [قال: فإن الله أمرني] أن أبني ها هنا بيتا، وأشار إلىٰ أكمة مرتفعة علىٰ ما حولها، [قال: فعند ذلك رفعا] القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتىٰ إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فجعلا يبنيان حتىٰ يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وما بين () من الصحيح وليس من د، وما بين [] بيض له في الأصل فاستدركته من الصحيح.

(١) في (د): منها.

(٢) في (ب): يستقون.

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٧، التكوين (١٧: ٢٠): وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثني عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة.

يقوله كثير من أهل الكتاب، لم يكن هناك تعظيمًا مبالغًا فيه جدًّا جدًّا؛ إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية، ومجرد كون الرجل له نسل وعقب لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله[1].

وكذلك قوله: «أجعله لأمة[2] عظيمة» إن كانت تلك الأمة كافرة لم تكن عظيمة، بل كان يكون أبًا لأمة كافرة، فعلم أنَّ هذه الأمة العظيمة كانوا مؤمنين، وهؤلاء يحجون البيت، فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به.

وليس في أهل الكتاب (من يحج إليه)[3] إلا المسلمون، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجون البيت أمة أثنىٰ الله عليها وشرفها، وأن إسماعيل عظَّمه الله جدًّا جدًّا، بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة، (وهذا هو)[4] كما امتن الله علىٰ نوح وإبراهيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال تعالىٰ في الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، ولما قال في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ كان في ذريته أهل الإيمان كلهم، فعلم بذلك أن[5] إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون، وأن إسماعيل معظم جدًّا جدًّا، كما عظم الله نوحًا وإبراهيم، وإن كان إبراهيم

(١) قال ابن ظفر: قولهم في الترجمة جدا جدا إنما هو تفسير لقوله في التوراة باللسان العبراني: مؤيد مؤيد، وقد اختلفوا في تفسير هذه اللفظة، فقيل: معنىٰ جدا جدا أي : حقا حقا، وقيل: بل معناه طيبا طيبا، وقيل: معناه حمدا حمد. (خير البشر ص١٢٨).
(٢) في (ل): أمةً.
(٣) ما بين القوسين ليس في (ل).
(٤) مابين القوسين ليس في (ب).
(٥) «نوح ...بذلك أن» سقط من (ل).

أفضل من إسماعيل لكنَّ المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة علىٰ دين حق، وهؤلاء يحجون إلىٰ هذا البيت، ولا يحج إليه بعد مجيء[1] محمد غيرهم.

ولهذا لما قال تعالىٰ[2]: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فقالوا: لا نحج، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧][3].

وأيضًا: فهذا التعظيم المبالغ فيه الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس لم يظهر إلاَّ بنبوة محمد، فدل ذلك علىٰ أنها حقٌّ مُبشَّرٌ به[4].

---

(١) ليست في (ب).

(٢) هاهنا زيادة في (د) ضرب علىٰ بعضها، صورتها:
[ولهذا لما قال تعالىٰ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قالت اليهود أو بعض أهل الكتاب: فنحن مسلمون فقال الله تعالىٰ]

(٣) يشير إلىٰ ما روىٰ جويبر، عن الضحاك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال: لما نزلت آية الحج، جَمع رسول الله ﷺ أهلَ الأديان كلَّهم فقال: يا أيها الناس، إن الله ﷻ كتب عليكم الحج فحجُّوا، فآمنتْ به ملة واحدة، وهي من صدّق النبيّ ﷺ، وآمن به، وكفرَتْ به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (انظر تفسير الطبري ٦/ ٥٠).

(٤) في (ب): ومبشرا به.
وهاهنا زيادة في النسخة (ل) خلت منها بقية النسخ، وهي:
[فهذا نعت محمد ﷺ لا نعت المسيح، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودق ملوك الأرض وأممها، حتىٰ امتلأت الأرض منه ومن أمته من مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانه دائم لم يقدر أحد أن يزيله، كما زال ملك اليهود وزال ملك النصارىٰ عن خيار الأرض وأوسطها].
وهذا إقحام وقع فيه الناسخ -لا مناسبة له- فإن العبارة ستأتي بنصها في موضعها من كلام الشيخ عند الحديث عن بشارة دانيال.

ومثل هذا:

بشارة أخرىٰ بمحمد ﷺ من كلام شَمعون بما رضوه من ترجمتهم، وهو: «جاء الله بالبينات من جبال فاران، وامتلأت السماء والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته»(١).

فهذا تصريح بنبوة محمد ﷺ الذي جاء بالنبوة من جبال فاران، وامتلأت السماوات والأرض من تسبيحه *(٢) وتسبيح أمته، ولم يخرج أحد قط(٣) امتلأت السماوات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته(٤) مما يسمىٰ فاران سوىٰ محمد ﷺ.

فإنَّ المسيح(٥) لم يكن بأرض فاران البتة، وموسىٰ إنما كُلِّم من الطور، والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين الطور وأرض الحجاز من فاران، فلم يُنزل الله فيها التوراة، وبشارة التوراة قد تقدمت بجبل (الطور، وبشارة الإنجيل بجبل)(٦) ساعير.

---

(١) نقل هذه البشرىٰ ابن ظفر في خير البشر ١٣٩، وابن القيم في هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٤٨، ولم أجد في نصوص الكتاب المقدس نحوه. وسيأتي نحوه عن حبقوق.

(٢) من هنا بداية نسخة الظاهرية، المرموز لها: ظ، وهي الأصل المعتمد في هذا المجلد.

(٣) ب: قط أحد. وفي (ل): وامتلأت.

(٤) من قوله «فهذا تصريح...» إلىٰ هنا سقط من (د) لانتقال النظر فيما يظهر.

(٥) (ب، ل): والمسيح.

(٦) سقط ما بين القوسين من (ب، ل) لانتقال النظر، ولا بد منه لتصحيح السياق.



ومثل هذا:

ما نقل عن[1] نبوة حبقوق أنه قال: «جاء الله من التيمن، وظهر القدس علىٰ جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، ومَلك بيمينه رقاب الأمم، وأنارت الأرض لنوره وحُملت[2] خيله في البحر»[3].

ومن ذلك:

ما في التوراة التي بأيديهم، في السفر الأول منها، وهي خمسة أسفار في الفصل التاسع في قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها المَلك فقال: «يا هاجر من أين أقبلت؟ وإلىٰ أين تريدين؟» فلما شرحت له الحال قال: «ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتىٰ لا يحصون، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا تسمينَه[4] إسماعيل؛ لأنَّ الله قد سمع تذلُّلَك وخضوعك، وولدك يكون وحشي الناس[5]، وتكون يده فوق الجميع، ويد الكل به، ويكون مسكنه علىٰ تخوم جميع إخوته»[6].

---

(١) (ب، ل): في.

(٢) ب: وجملت.

(٣) وردت العبارة في سفر حبقوق الذي بين أيديهم اليوم (٣: ٣): «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران سلاه جلاله غطىٰ السموات والارض امتلات من تسبيحه».
ويظهر أن المصنف صدر عن خير البشر لابن ظفر فإنه ذكرها بالنص ص١٤٠، وذكر قبل ذلك أن هذا مما نقله قدماء المؤرخين عن حبقوق.

(٤) في (ل، ب): تسميه.

(٥) ب: أخشىٰ الناس. وما ثبت من باقي الأصول يوافق ما في المصادر وسفر التكوين (١٦: ١٢): «وإنه يكون إنسانا وحشيا». ويوافق كذلك ما ذكره ابن ظفر في خير البشر ١٢٨.

(٦) انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٥٣، خير البشر ص١٢٨.
والنص كما ورد في سفر التكوين (١٦: ٨-١٢) بحسب الترجمة التي بين أيديهم اليوم: =



قال المستخرجون لهذه البشارة: «معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحاق، بل كان في بني إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بُعث موسىٰ، وكانوا مع موسىٰ[1] أعز أهل الأرض لم يكن[2] لأحد عليهم يد، ثم[3] مع يوشع بعده إلىٰ زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله، وسُلِّطَ عليهم بعد ذلك بخت نصر، فلم يكن لبني إسماعيل (ظ٢) عليهم أمرٌ[4]، ثم بعث المسيح، وخُرِّب بيت المقدس الخراب الثاني، حيث أفسدوا في الأرض مرتين، ومن حينئذ زال ملكهم فقطعهم[5] الله في الأرض أممًا، وكانوا تحت حكم الروم والفرس، لم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم، ولم يكن لولد إسماعيل سلطان علىٰ أحد من الأمم - لا أهل الكتاب ولا الأميين - فلم تكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع، حتىٰ بُعث[6] محمد ﷺ؛ الذي دعا به إبراهيم لولد إسماعيل[7] حيث

= «وقال: «يا هاجر جارية ساراي، من أين أتيت؟ وإلىٰ أين تذهبين؟». فقالت: «أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي». فقال لها ملاك الرب: «ارجعي إلىٰ مولاتك واخضعي تحت يديها». وقال لها ملاك الرب: «تكثيرا أكثر نسلك فلا يعدُّ من الكثرة». وقال لها ملاك الرب: «ها أنت حبلىٰ، فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل، لأنَّ الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسانًا وحشيا، يده علىٰ كل واحد، ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن».

(١) ليست في (ل).

(٢) ب: «تكن».

(٣) ليست في (ل).

(٤) (ب، ل، المطبوعة): «يدٌ».

(٥) (ل، ب، المطبوعة): «وقطعهم».

(٦) (ل، المطبوعة): «بعث الله محمدا».

(٧) (ل، ب، المطبوعة، د): «إبراهيم وإسماعيل حيث قالا».

قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فلما بُعث صار يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارىٰ والمجوس والمشركين والصابئين؛ فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة: «وتكون يده فوق الجميع[1] ويد الكل به»، وهذا أمر مستمر إلىٰ آخر الدهر[2].

فإن قيل: هذه بشارة بملكه وظهوره؟

قيل: الملك ملكان؛ ملك ليس فيه دعوىٰ نبوة، وهذا لم يكن لبني إسماعيل علىٰ الجميع، وملك صدر عن دعوىٰ نبوة، فإن كان مدعي النبوة كاذبًا فمن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء، وهذا من شر[3] الناس وأظلمهم وأكذبهم وأفجرهم، وملكه شر من ملك الظالم الذي لم يدع نبوة كـ«بخت نصر» و«سنحاريب».

ومعلوم أنَّ الإخبار بهذه لا يكون بشارة، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا، كما لو قيل: يكون جبارًا طاغيًا يقهر الناس علىٰ طاعته، ويقتلهم ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة ولا يسر المخبَر بذلك، وإنما يكون بشارة تسره إذا كان ذلك بِعدل، وكان علوه محمودًا لا إثم فيه، وذلك من مدعي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب.

---

(١) هامش ب: بلغ.
(٢) انظر: خير البشر ص١٢٧.
(٣) ب: «أشر الناس وأكذبهم وأظلمهم». ومثله في (ل) لكن بلفظ: شر.

فصل

قالوا(١): وقال: داود في الزبور في مزمور له(٢): «سبحوا الله تسبيحًا جديدًا، وليفرح بالخالق مَن اصطفىٰ الله له أمته وأعطاه النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحونه علىٰ(٣) مضاجعهم ويكبرون الله بأصواتٍ مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين؛ لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه»(٤).

وهذه الصفات إنَّما تنطبق علىٰ صفات محمدٍ ﷺ وأمته، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات(٥) الخمس، وعلىٰ الأماكن العالية، كما قال جابر بن عبد الله: «كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا، وإذا هبطنا سبَّحنا، فوضعت الصلاة علىٰ ذلك» رواه البخاري(٦).

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) في (ل، د): في الزبور في قوله..

(٣) في (ل): عن.

(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٥٩، خير البشر ص١٤٢، وفي سفر المزامير (٦: ١٤٩) بحسب الترجمة التي بين أيدههم اليوم: «هللويا. غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحته في جماعة الاتقياء. ليفرح إسرائيل بخالقه. ليبتهج بنو صهيون بملكهم. ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له. لأنَّ الرب راض عن شعبه يجمل الودعاء بالخلاص. ليبتهج الاتقياء بمجد ليرنموا علىٰ مضاجعهم. تنويهات الله في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم. ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب. لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد. ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه. هللويا».

(٥) ب: «في إقامتهم الصلوات الخمس».

(٦) صحيح البخاري (٢٩٩٣) بلفظ: «كنا إذا صعدنا كبرنا، وإذا نزلنا سبحنا».
وفي (ب، ل): رواه أبو داود وغيره.
والذي رواه أبو داود في السنن (٢٥٩٩) هو حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ كان إذا استوىٰ علىٰ بعيره خارجا إلىٰ سفر كبر ثلاثا، ثم قال: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، اللهم إني أسألك =



وفي صحيح مسلم[1] عن عبدالله بن عمر (قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج أو العمرة إذا أوفىٰ علىٰ ثنية أو فَدْفَد، كبَّر ثلاثًا، ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[2].

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: «صلىٰ رسول الله ﷺ -ونحن معه بالمدينة- الظهر أربعًا، والعصر بذي الحليفة، ركعتين ثم بات بها حتىٰ أصبح ثم ركب حتىٰ استوت به راحلته علىٰ البيداء، حمد الله وسبح وكبر ثم أهل بعمرة وحج» وذكر الحديث[3].

وعن أبي هريرة: «أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: عليك بتقوىٰ الله والتكبير علىٰ كل شَرف، فلما أن ولىٰ الرجل قال: اللهم اطو له البعد، وهون عليه السفر» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وحسنه الترمذي[4].

= في سفرنا هذا البر والتقوىٰ، ومن العمل ما ترضىٰ، اللهم هون علينا سفرنا هذا، اللهم اطو لنا البعد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال». وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون». وكان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا سبحوا، فوضعت الصلاة علىٰ ذلك.

(١) في (ب، ل): «وفي الصحيحين عن ابن عمر»، ومنه إلىٰ آخر حديث ابن عمر الآتي سقط من النسختين، وهو محصور بين قوسين.

(٢) الحديث في الصحيحين: صحيح البخاري (٢٩٩٥)، صحيح مسلم (١٣٤٤).

(٣) صحيح البخاري (١٥٥١).

(٤) رواه أحمد (٨٣١٠)، والترمذي (٣٤٤٥) ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٠٥)، قال الترمذي: حديث حسن أهـ وفي إسناده أسامة بن زيد الليثي، صدوق يهم، انظر ترجمته في (تهذيب الكمال ٢/ ٣٤٧).
قوله: وحسنه الترمذي ليس في (د).

وروىٰ ابـن ماجـه منـه: «أوصـيك بتقـوىٰ الله (ظ٣) والتكبيـر علـىٰ كـل شرَف»[١].

وعن[٢] ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبَّروا، وإذا هبطوا سبحوا»، رواه أبو داود بإسناد صحيح)[٣].

وهـم يكـبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم: عيد الفطر وعيد النحر، في الصلاة والخطبة، وفي ذهابهم إلىٰ موضع الصلاة، وفي أيام مِنـىٰ: الحُجاج وسائر أهل الأمصار يكبرون عَقب[٤] الصلوات، فإمام الصلاة يسنُّ له الجهر بالتكبير.

وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب: «أنه كان يكبر في قُبَّته[٥] بمنىٰ، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره[٦]، فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون، حتىٰ ترتجَّ منىً تكبيرًا»[٧].

قال[٨]: «وكان ابن عمر وابن عباس يخرجان إلىٰ السوق أيام العشر،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٧١). وفي إسناده أسامة بن زيد ضعفوه من قبل سوء حفظه.
(٢) قدم هنا في (د) فقال: وروىٰ أبو داود وغيره بإسناد صحيح..
(٣) سنن أبي داود (٢٥٩٩)، والثنايا بمعنىٰ الشَّرَف، وهو ما ارتفع من الأرض (النهاية ٢/ ٤٦٢).
(٤) (ب، ل): عقيب.
(٥) ليست في (ل، ب).
(٦) ليست في ب. وعنده: فيستمعهم.
(٧) ذكره البخاري تعليقا في باب التكبير أيام منىٰ وإذا غدا إلىٰ عرفة ٢/ ٢٠، ورواه موصولا أبو عبيد والبيهقي كما في فتح الباري ٢/ ٤٦٢.
(٨) ليست في (ب، ل).



فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما»[1].

ويكبرون علىٰ قرابينهم: هَدْيهم وضحاياهم، كما كان «نبيهم يقول عند الذبح: بسم الله والله أكبر»[2].

ويكبرون إذا رموا الجمار،[3] ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه.

قال تعالىٰ -لما ذكر صوم رمضان الذي يقيمون له عيد الفطر-[4]: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال[5] لما ذكر الهدي الذي يُقرَّب من[6] عيد النحر، وهو يوم الحج الأكبر: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) علقه البخاري في باب فضل العمل في أيام التشريق ٢/ ٢٠، وقال الحافظ: لم أره موصولاً عنهما وقد ذكره البيهقي أيضًا معلقًا عنهما (فتح الباري / ٤٥٨).

(٢) كما روىٰ ذلك جابر بن عبدالله رضي الله عنه، رواه أحمد (١٤٨٣٧) وأبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم: أن يقول الرجل إذا ذبح: بسم الله والله أكبر، وهو قول ابن المبارك والمطلب بن عبد الله بن حنطب يقال إنه لم يسمع من جابر أهـ. وقد توبع فيه المطلب كما قد أخرجه أحمد (١٥٠٢٢) من طريق أبي عياش عن جابر.

(٣) زيادة في (ل، ب، د): ويكبرون علىٰ الصفا والمروة.

(٤) كرر هنا في (ل، ب): قال تعالىٰ.

(٥) ليست في (ب،ل، والمطبوعة)، وتأخرت إلىٰ قبل الآية.

(٦) (ب، ل): في.

﴿سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

والنصارىٰ يسمون عيد المسلمين: عيد الله أكبر، لظهور التكبير فيه، وليس هذا لأحد من الأمم، لا[1] أهل الكتاب ولا غيرهم غير المسلمين، وإنما كان موسىٰ يجمع بني إسرائيل بالبوق، والنصارىٰ شعارهم[2] الناقوس.

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة فإنما هو شعار المسلمين، فإنَّ الأذان شعار المسلمين، وبهذا يظهر تقصير[3] من فسَّر ذلك بتلبية الحجاج.

وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: («أنه كان إذا غزا قوما لم يغزُ حتىٰ يصبح فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع اذانا أغار بعدما يصبح»، رواه البخاري[4]).

وفي لفظ مسلم: «كان يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانًا أمسك وإلاَّ أغار، فسمع رجلا يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: علىٰ الفطرة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: خرجت من النار»[5].

---

(١) ليست في (ل).
(٢) في (ل): «لهم الناقوس».
(٣) ليست في (ل).
(٤) صحيح البخاري (٦١٠). والتخريج ليس في (د).
وهكذا ثبت الحديث في (ظ، د)، وهو الصواب الموافق للبخاري.
وما بين القوسين ليس في (ل، ب،المطبوعة)، بل فيه: «وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ: أنه كان إذا أراد الإغارة إن سمع أذانا أو رأىٰ مسجدا وإلا أغار».
وليس في الصحيحين لفظة: أو رأىٰ مسجدا، ولم أجده في طرق الحديث التي وقفت عليها، وإنما ذكره المصنف من حديث عصام المزني بلفظ آخر.
(٥) صحيح مسلم (٣٨٢).

وعن عصام المزني قال: كان النبي ﷺ إذا بعث السرية يقول: إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مناديًا فلا تقتلوا أحدا»، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه)[1].

وكذلك قوله: «بأيديهم سيوف ذات شفرتين» وهي السيوف العربية التي بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد[2].

وقوله: «يسبحونه علىٰ مضاجعهم» بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنوبهم، ويصلي الفرضَ[3] أحدُهم قائمًا، فإن لم يستطع فقاعًدا، فإن لم يستطع فعلىٰ جنب[4].

فلا يتركون ذكر الله في حال[5]، بل يذكرونه حتىٰ في هذه الحال، ويصلون

---

(١) رواه أحمد (١٥٧١٤)، وأبو داود (٢٦٣٥)، والترمذي(١٥٤٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب».
وإسناده ضعيف لأنه من رواية ابن عصام عن أبيه، وابن عصام لا يُعرف (تهذيب الكمال ٣٤/ ٤٦٢، ميزان الاعتدال ٤/ ٥٩٤).
ولم أجده في ابن ماجه، ولا رمز له المزي برمزه لا في تهذيب الكمال ولا في تحفة الأشراف(٧/ ٢٩٦).

(٢) فإن السيوف العربية قاطعة علىٰ الحدَّيْن. وفي (ب): «فتح بها الصحابة».

(٣) من (ظ، د).

(٤) كما روىٰ البخاري في صحيحه (١١١٧) عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة، فقال: «صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب».
وفي (ب): «جنبه».

(٥) اقتداء بنبيهم ﷺ، كما روىٰ مسلم في صحيحه (٣٧٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه.

في البيوت على المضاجع[1]، والصلاة أعظم التسبيح، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: «كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلىٰ القمر ليلة البدر، فقال: إنكم (ظ٤) سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]»[2].

وهذا معنىٰ قول داود: «سبحوا الله تسبيحًا جديدًا»، يعني التسابيح التي يشرعها الله جديدًا[3]: كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديدًا.

ولما أقامها جبريل للنبي ﷺ قال: «هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك»[4].

---

(١) في (ب، ل) زيادة: (بخلاف أهل الكتاب).

(٢) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٣) في (ب، ل): والتسابيح التي شرعها الله جديدا.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠٨١) (٣٣٢٢)، وأبو داود (١٤٩)، والترمذي (١٤٩) من حديث ابن عباس. قال الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ٤٤٥): وفيه عبد الرحمن بن الحارث بن عياش بن أبي ربيعة مختلف فيه، لكنه توبع أخرجه عبد الرزاق عن العمري عن عمر بن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه عن ابن عباس نحوه، قال ابن دقيق العيد: هي متابعة حسنة، وصححه أبو بكر بن العربي وابن عبد البر...، وقال ابن عبد البر: لا توجد هذه اللفظة وهي قوله: «هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك» إلا في هذا الحديث أهـ.

فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات،وذلك هو[1] التسبيح المقدم[2]، والتسبيح الجديد للمسلمين[3] كما يدل عليه سائر الكلام.

ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارىٰ؛ لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين لينتقم الله بهم من الأمم، بل أخبارهم تدل علىٰ أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم، ولم يكونوا يجاهدونهم بالسيف، بل النصارىٰ قد تعيبُ من يقاتل الكفار بالسيف، ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد ﷺ وأمته، ويغفلون عمَّا عندهم من أنَّ[4] الله تعالىٰ أمر موسىٰ بقتال الكفار، وقاتلهم بنو إسرائيل بأمره، وقاتلهم يوشع وداود، وغيرهما من الأنبياء، وإبراهيم الخليل قاتل لدفع الظلم عن أصحابه[5].

فصل

قالوا: وقال داود في مزاميره - وهي الزبور -: «من أجل هذا بارك الله عليك إلىٰ الأبد، فتقلد أيها الجبار السيف[6]؛ لأنَّ البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق وسمتَ التأله، فإنَّ ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة[7]، والأمم يخرُّون تحتك»[8].

---

(١) في (ب، ل): كما يدل التسبيح..الخ.

(٢) في (ل): المتقدم.

(٣) ليست في ب، ل.

(٤) ليست في ظ، وفي (ل): أن أن.

(٥) في (ب): صح.

(٦) في (ل): «بالسيف».

(٧) في (ظ): «ومسنونة». وما أثبتناه من باقي الأصول أحرىٰ بالصواب.

(٨) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٠، خير البشر ص ١٣٦الذي نحوه، والذي في الزبور (٤٥ : ٢) بحسب النسخة التي بين أيدهم: «أنت أبرع جمالاً من بني البشر =

قالوا[1]: وليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوىٰ محمد ﷺ، وهو الذي خرَّت الأمم تحته، وقرنت[2] شرائعه بالهيبة[3]، كما قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[4].

وقد أخبر داود أنَّ له ناموسًا وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبار، إشارة إلىٰ قوته وقهره لأعداء الله، بخلاف المستضعف المقهور.

وهو ﷺ نبي الرحمة، ونبي الملحمة[5]، وأمته أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم، أذلة علىٰ المؤمنين أعزة علىٰ الكافرين، بخلاف من كان ذليلاً للطائفتين من النصارىٰ المقهورين مع الكفار، أو كان عزيزًا علىٰ المؤمنين من اليهود، بل كان مستكبرًا كلما جاءهم رسول بما لا تهوىٰ أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا[6].

= انسكبت النعمة علىٰ شفتيك لذلك باركك الله إلىٰ الأبد. تقلد سيفك علىٰ فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك. وبجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر فتريك يمينك مخاوف. نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك شعوب تحتك يسقطون».

(١) في (ب، ل): «قال».
والقائل هو أبو البقاء الهاشمي في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٠.

(٢) في الأصل ظ: بدون حرف العطف، ومثل هذا الاختلاف الطفيف الذي لا يضر بالمعنىٰ لن أنبه عليه في الغالب، بل سأتبع ما في الأصل ظ إن كان وجيها، أو ما اتفقت عليه غالب النسخ، وإن لم أشر إلىٰ ذلك.

(٣) تتمة كلام أبي البقاء: فإما القبول بالجزية وإما السيف، وتصديقه قوله ﷺ...الخ.

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر.

(٥) كما ثبت ذلك من حديث أبي أموسىٰ الأشعري عند مسلم (٢٣٥٠٠)، وأحمد (١٩٥٢٥).

(٦) في (ب): صح.

فصـل

قـالوا: وقـال: داود في مزمـور لـه: «إن ربنـا عظـيم محمـود جـدا» وفي ترجمةٍ[1]: «إلهنا قدوس، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحا»[2].

قـالوا[3]: فقـد نـص داود علىٰ اسـم محمـد وبلـده، وسـماها قريـة الله[4]، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها.

قلـتُ: قـد تقـدم الحـديث الصـحيح لمـا قيـل لعبـدالله بـن عمـرو، وروي لعبدالله بن سلام[5]: أخبرنا ببعض صفة رسـول الله ﷺ في التـوراة، فقـال: «إنـه لموصـوف في التـوراة بـبعض صـفته في القـرآن»، وذكـر صـفته موجـودة في نبـوة أشعياء، وليست موجودة في نفس كتاب موسىٰ.

وتقدم أنَّ لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التي عند أهل الكتاب، (وكذلك ما يوجد كثيرًا من قول كعب الأحبار وغيره ممن ينقل عن أهل

---

(١) كذا في الأصول، وفي هداية الحيارىٰ وردت عنده البشارة هكذا: «إن ربنا عظم محمودا جدا، وفي مكان آخر: إلهنا قدوس..».
بينما في الأصل الذي صدر منه، وهو: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦١: «إن ربّنا عظيم محمود جدّاً، وفي قرية إلهنا قدوس، ومحمّد قد عَمَّ الأرض كلها فرحـًا».

(٢) هامش ظ: «ص٩٩، ع٣». وهذا تخريج للبشارة من «الكتاب المقدس».
والنص كما في النسخة المطبوعة اليوم من المزامير (٩٩: ٣): «يحمدون اسمك العظيم والمهوب قدوس هو».

(٣) القائل هو أبو البقاء الهاشمي في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦١.

(٤) كذا في الأصول، ولم يذكر في البشارة اسم بلدته، وفي هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٥٦: فقد نص داود علىٰ اسم محمد وصرح أن كلمته عمت الأرض.

(٥) في (ب): وروي أنه قيل لعبدالله بن سلام. وفي (ط النيل): أنه لعبدالله بن سلام في غير البخاري.

الكتاب: قرأت في التوراة، إنما يريدون به جنس الكتاب الذي عند أهل الكتاب)[1]، لا يخصون بذلك كتاب موسىٰ، وإذا كان هذا معروفًا عندهم، (وقد خوطبوا بهذه اللغة كان[2] قوله تعالىٰ في القرآن: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ)[3]فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ يراد بالتوراة جنس الكتب التي عند أهل الكتاب، فيتناول ذلك كتاب موسىٰ وزبور داود وصحف سائر الأنبياء - سوىٰ الإنجيل - فإنه ليس عند أهل الكتاب، وإنما هو عند النصارىٰ خاصة.

وأما سائر كتب الأنبياء فالأمَّتان تقرُّ[4] بها، ويؤيد ذلك أنَّ الله تعالىٰ كثيرا ما يقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل (ظ٥)[5]، وإنما يذكر الزبور مفردًا، كقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ل، والمطبوعة).

(٢) في (ط النيل): فإن قوله تعالىٰ..

(٣) سقط ما بين القوسين من (ب، ل) لانتقال النظر.

(٤) ط النيل: تقران.

(٥) في (ب،ل، المطبوعة) هنا زيادة: «وبين القرآن». والصواب حذفها، والمثال الثالث يؤيد ذلك، إذ أن مقصود المؤلف أن القرآن يقرن بين التوراة والإنجيل، كما سيبينه بالأمثلة من الآيات الكريمة، وليس مراده أنه يقرن بين القرآن والإنجيل والتوراة من جهة وبين القرآن والزبور، كما ورد في بعض النسخ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأهل الكتاب يجدونه مكتوبًا في الكتب التي بأيديهم، وهو في كثير منها أصرح مما هو في كتاب موسىٰ خاصة.

فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب فلا يستريب عاقل في كثرة ذكره ونعته ونعت أمته في تلك الكتب.

ومعلوم أنَّ الله أراد بذلك الاستشهاد بوجوده في تلك الكتب، وإقامة الحجة بذكره فيها، فإذا كان ذكره في غير كتاب موسىٰ أكثر وأظهر عندهم؛ كان الاستدلال بذلك أولىٰ من تخصيص الاستدلال بكتاب موسىٰ.

فإذا حُمل لفظ التوراة في هذا علىٰ جنس الكتب، كما هو موجود في لغة من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين، كان هذا في غاية البيان والمدح للقرآن والكتب(١) المتقدمة، وتصديق بعضها بعضًا.

وقد أُمرنا أن نؤمن بما أوتي النبيون مطلقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) في (ب): وللكتب.



والزبور ذكره مفردًا في موضعين من القرآن، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٥].

فذكره مفردًا، وذكر كتاب موسىٰ بهذه الإضافة، لا بلفظ التوراة في غير موضع فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠-١٢](١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

---

(١) في (ب): ذكر أول الآيات وآخرها اختصارا.



وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب التي عند أهل الكتابين[1] جميعًا، والزبور وغيره داخل في هذا الاسم، وكان ظهور اسمه ونعته في التوراة ووجودهم ذلك فيما عندهم وتكرره في غاية القوة، وكان معرفتهم ذلك[2] كما يعرفون أبناءهم واضحًا بينًا، وإن قدر هذه الكتب التي يعترف بها عامتهم لم يكتم منها شيء بل هي باقية كما كانت.

فصل

وقالوا: وقال داود في مزموره: «لترتاح البوادي وقراها، ولتَصِر[3] أرض «قيذار» مروجًا، وليسبِّح سكان الكهوف، ويهتفوا[4] من قُلل[5] الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسبيحه[6] في الجزائر»[7].

---

(١) في (ط النيل): أهل الكتاب.

(٢) في (ب، ل، ط النيل): لذلك.

(٣) في (ب): ولتصير..

(٤) (ل): وتصفوا.

(٥) في (ظ، ط النيل): تلك. وما ثبت من (د، والمطبوعة): قلل، وستأتي الكلمة بعد قليل في ظ: قلل، وكانت في (ب): تلك فحولها: قلل. وكذا في (ل) لكن بقيت الكاف آخرها!.
والصحيح: قلل، هكذا أورد البشارة أبو البقاء في التخجيل ٢/ ٦٦٢، وعنه صدر المصنف، وهكذا ذكرها ابن القيم في هداية الحيارىٰ (٢/ ٣٥٦) وهو صدر عن المصنف.

(٦) هامش ظ: تسابيحه خ، أي أنه في نسخة أخرىٰ، وكذا ثبت في (المطبوعة، ب، ل) والتخجيل.

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٢. ولم أجده في المزامير، وقد ذكر محقق التخجيل أن النص ورد في سفر أشعياء ٤٢: ١١-١٢ وليس في مزامير داود. قال: وقد وردت البشارة في الدين والدولة ص ١٤٣، أعلام النبوة ص ٢٠٢، الجواب الصّحيح ٣/ ٣٢٢، هداية الحيارىٰ ص ١٤٧، الأجوبة الفاخرة ص ١٧١، الإعلام ص ٢٧٣، مقامع هامات ص ٢٢٥، إظهار الحقّ ص ٥٢٦.
وفي سفر أشعياء -بحسب الترجمة اليوم-: «غنّوا للرّبّ أغنية جديدة، تسبيحه من أقصىٰ ٱلأرض. أيّها ٱلمنحدرون في ٱلبحر وملؤه وٱلجزائر وسكّانها، لترفع ٱلبريّة ومدنها صوتها، =

قالوا[1]: فلمن البوادي من الأمم سوىٰ أمة محمد؟ ومن «قيذار» سوىٰ ابن (ظ٦) إسماعيل جدُّ رسول الله ﷺ[2]؟ ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوىٰ العرب؟.

فصل

قالوا: وقال داود في مزمور له: «ويحوز من البحر إلىٰ البحر، ومن لدن الأنهار إلىٰ منقطع الأرض، ويخر[3] أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوىٰ منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويصلىٰ عليه، ويبارك عليه[4] في كل حين»[5].

= ٱلدّيار ٱلّتي سكنها قيدار. لتترنّم سكّان سالع. من رؤوس ٱلجبال ليهتفوا. ليعطوا ٱلرّبّ مجدا ويخبروا بتسبيحه في ٱلجزائر».

(١) القائل هو أبو البقاء في التخجيل ٢/ ٦٦٢.

(٢) قيذار هو المذكور في كتب الأنساب باسم: قَيْذَر، وهو ابن إسماعيل لصلبه (انظر: الاشتقاق ٤٣). وفي بعض المصادر والنسخ: قيدار.
قال ابن إسحاق: ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام اثني عشر رجلا: نابتا، وكان أكبرهم، وقَيْذَرُ، وَأَذْبُلَ، وَمُبَشًّا، وَمِسْمَعًا، وَمَاشِي، وَدِمًّا، وَأَذَرُ، وَطَيْمَا، وَيَطُورَ، ونَبِشَ، وقَيْذُما وَأُمُّهُمْ رَعْلَةُ بِنْتُ مُضَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْجُرْهُمِيُّ (سيرة ابن هشام ١/ ٥).
وروىٰ ابن جرير هذا عن ابن إسحاق، لكن وقع عنده: قيدر، بالدال المهملة (تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣١٤) ثم قال: وقد ينطق أسماء أولاد إسماعيل بغير الألفاظ التي ذكرت عن ابن إسحاق، فيقول بعضهم في قيدر: قيدار.

(٣) في (ب) بالتاء في هذا الفعل والأفعال التي تليه.

(٤) ليست في سوىٰ (ظ).

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٢، وفي المزامير: ٧٢: ٨-١٥. نحو هذه البشارة.

وهـذه الصـفات منطبقـة علـىٰ محمـد وأمتـه، لا علـىٰ المسـيح، فـإنَّ محمـدا ﷺ حـاز مـن البحـر الرومـي إلـىٰ البحـر الفارسـي، ومـن لـدن الأنهـار بجيحـون وسـيحون[1]، إلىٰ منقطـع الأرض بـالمغرب، كمـا قـال: «زويـت لـي الأرض، فرأيتُ[2] مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[3].

وهو يُصلىٰ عليه ويُبارك في كل حين، في كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها، يقول كلٌّ من أمته: اللهـم صـل علـىٰ محمـد وعلـىٰ آل محمـد، وبـارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، فيصلىٰ عليه ويبارك.

وقد خرَّتْ أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب، وأهل الجزيرة التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة قبرص، وأهل جزائر[4] الأندلس.

وخضعت له ملوك الفرس، فلم يبق فيهم إلاَّ منْ أسلم أو أدىٰ الجزية عن يد وهو صاغر.

بخلاف ملوك الروم، فإن فيهم من لم يسلم، ولم يؤد الجزية، فلهذا خص ملوك فارس، ودانت له الأمم، فعامة الأمم -التي تعرفه وتعرف أمته- كانت إمَّا مؤمنة به[5]، أو مسلمة له منافقة، أو مهادنة مصالحة، أو خائفة منهم.

وأنقذ الضعفاء من الجبارين.

---

(١) في (ب): كجيحون وسيحون.

(٢) ليست في سوىٰ (ظ).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ب، المطبوعة، ل): «جزيرة».

(٥) في (ب، ل، المطبوعة): «ودانت له الأمم التي تعرفه وتعرف أمته كانت إما مؤمنة به أو مسلمة له منافقة».

وهذا بخلاف المسيح؛ فإنه لم يتمكن هذا التمكن في حياته، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن، ولا حازوا ما ذكر، ولا صلي عليه وبورك عليه في اليوم والليلة، فإنَّ النصارىٰ يدَّعُون إلاهيَّة المسيح، (فلا يصلون عليه وإنما يصلون له)[1].

فصل

[2]وفي نبوة أشعياء: (قال أشعياء)[3]: «قيل لي: قم نظَّارًا، فانظر ماذا ترىٰ، فقلت: أرىٰ راكبين مقبلين[4]: أحدهما علىٰ حمار والآخر علىٰ جمل، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل[5] وأصحابها للمنخر»[6].

قالوا: فراكب الحمار هو المسيح عليه السلام، وراكب الجمل هو محمد ﷺ وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار، وبمحمد ﷺ سقطت أصنام بابل[7].

---

(١) هامش ظ: «بلغ مقابة». وما بين القوسين من ظ، وكتبه في ب ثم ضرب عليه. وبعده صح صح، وليس هو في المطبوعة، وأشار إليه في هامشها.

(٢) في (ب، ل، المطبوعة) زيادة: وقال.

(٣) ليست الجملة في (ب) وأظنه سقط عليه لانتقال النظر.

(٤) في (ل): مقبلة.

(٥) في (ب، ل): «سقطت أصنام بابل».

(٦) كذا مجودة في ظ، وفي (ب، ط النيل، المطبوعة): للمنحر. والنقطة في (ل) ظاهرة، لكن ضرب عليها بقلم آخر. والبشارة في التحجيل: للمنحر، وفي كتاب ابن ظفر خير البشر ص١٣٨، لكن بدون الكلمة الأخيرة، وانظر: هداية الحيارىٰ (٢/ ٣٥٧).

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٦، وعنه صدر المصنف، خير البشر ص١٣٨. ونحو هذه البشارة في سفر أشعياء ٢١: ٦-١٠.
وفي هامش (ف): «قال البغوي رحمه الله: بعث الله أشعياء بن أمضياء قبل مبعث زكريا ويحي وعيسىٰ عليهم السلام، وأشعياء هو الذي بشر بعيسىٰ ومحمد عليهما السلام فقال: أبشري أورشلك الآن يأتيك راكب الحمارومن بعده صاحب البعير».

فصل

ومما ينبغي أن يعلم: أنَّ الكتب المتقدمة بشَّرت بالمسيح، كما بشرت بمحمد ﷺ، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال، والأمم الثلاثة - المسلمون واليهود والنصارىٰ - متفقون علىٰ أن الأنبياء أنذرت[1] بالمسيح الدجال، وحذرت منه، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال[2]، حتىٰ نوح أنذره[3] أمته، وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لأمته: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر[4]: ك ف ر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»[5].

والأمم الثلاثة متفقون علىٰ أنَّ الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود، فالأمم الثلاثة متفقون علىٰ الإخبار بمسيح هدىً من نسل داود، ومسيح ضلالة لم يأت بعد، (وسوف يأتي)[6]، وهم متفقون علىٰ أن مسيح الهدىٰ سيأتي أيضًا، ثم المسلمون والنصارىٰ متفقون علىٰ أنَّ مسيح الهدىٰ هو عيسىٰ ابن مريم، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسىٰ ابن مريم، مع إقرارهم بأنه من ولد داود.

قالوا: لأنَّ المسيح المبشر به تؤمن به الأمم كلها، وزعموا أنَّ المسيح ابن مريم إنما بعث بدين النصارىٰ، وهو دين ظاهر البطلان، (ولهذا إذا خرج

---

(١) في (ب): أخبرت.

(٢) في (ب،ل، المطبوعة): المسيح الدجال.

(٣) في (ب): أنذر.

(٤) ليست في ل.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) ليست في (ب، ل، المطبوعة).

المسيح (ظ٧) اتبعوه[١]، فيخرج معه سبعون ألف مُطيلس من يهود أصبهان، ويسلط المسلمون علىٰ اليهود فيقتلونهم حتىٰ يقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي[٢] فاقتله، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح)[٣].

والنصارىٰ تقرُّ بأنَّ المسيح مسيح الهدىٰ بعث، ويقرُّون[٤] بأنَّه سيأتي مرة ثانية، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثاني هو يوم القيامة، ليجزي[٥] الناس بأعمالهم، وهو في زعمهم هو الله، والله الذي هو اللاهوت يأتي في ناسوته، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك.

وأما المسلمون فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء علىٰ وجهه، وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل، حيث قال في الحديث الصحيح: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، وإمامًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»[٦].

وأخبر في الحديث الصحيح: «أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب، نزل عيسىٰ ابن مريم علىٰ المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[٧]، واضعًا يديه علىٰ منكبي ملكين، فإذا رآه الدجال انماع كما ينماع

---

(١) في (ب): المسيح الدجال فتخرج بعده..
(٢) في (ب): يا مسلم ورائي يهودي تعال فاقتله.
(٣) ما بين القوسين ليس في (ل، المطبوعة). والحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢). وحديث ابن عمر، رواه البخاري (٣٥٩٣)، ومسلم (٢٩٢١).
(٤) في (ل): ومقرون.
(٥) في (ب): ليخزي.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) هامش (ف): «المهرودة بالدال المهملة والمعجمة وهي الثوب المصبوغ هـ رياض النووي».

الملح في الماء، فيدركه فيقتله بالحربة عند باب لـد الشرقي، علىٰ بضع عشرة خطوة منه»[1].

وهذا تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: يؤمن بالمسيح قبل أن يموت، حين نزوله إلىٰ الأرض، وحينئذ لا يبقىٰ يهودي ولا نصراني، ولا يبقىٰ دين إلا[2] الإسلام، وهذا موجود في نعته عند أهل الكتاب[3].

ولكن النصارىٰ ظنُّوا أن ذلك[4] مجيئه بعد قيام القيامة، وأنه هو الله، فغلطوا في ذلك كما غلطوا في مجيئه الأول حيث ظنوا أنه الله[5]، واليهود أنكروا

---

(١) الحديث في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان (٢٩٣٧)، إلا جملة: انماع كما ينماع الملح في الماء، فإنها وردت في صحيح مسلم (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة، بلفظ: «فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتىٰ يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته».
وأما قوله: «علىٰ بضع عشرة خطوات منه» فلم أقف عليه في حديث، لكن في حديث مجمع بن جارية الأنصاري: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد، أو إلىٰ جانب لد». رواه أحمد (١٥٤٦٦).
ولُد: مدينة بفلسطين تقع علىٰ بضعة أميال جنوب شرق يافا، وحوالي ثلاثة أميال شرق توأمها الرملة.

(٢) في (ب، ل): دين الإسلام.

(٣) قال ابن جرير: معنىٰ ذلك: «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به»، يعني: بعيسىٰ، «قبل موته»، يعني: قبل موت عيسىٰ، يوجِّه ذلك إلىٰ أنّ جميعهم يصدِّقون به إذا نزل لقتل الدجّال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفيّة، دين إبراهيم ﷺ، ثم رواه عن ابن عباس، وأبي مالك والحسن البصري وقتادة، ثم ذكر أقوالا أخرىٰ في التفسير (تفسير الطبري ٩/ ٣٨٦).

(٤) ليس في (ل).

(٥) في (ب، ل): هو الله.

مجيئه الأول، وظنوا أن الذي بُشِّر به ليس هو[1] إيَّاه، وليس هو الذي يأتي آخرًا، وصاروا ينتظرون غيره، وإنما هو بعث إليهم أولاً فكذَّبوه، وسيأتيهم ثانيًا فيؤمن به كل من علىٰ وجه الأرض من يهودي ونصراني إلا من قتل أو مات، ويظهر كذب هؤلاء الذين كذبوه، ورموا أُمَّه بالفرية، وقالوا: إنه ولد زنىٰ، وهؤلاء الذين غلوا فيه، وقالوا: إنه الله.

ولما كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ نازلاً في أمة محمد ﷺ صار بينه وبين محمد من الاتصال ما ليس بينه وبين غير محمد، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن أولىٰ الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»[2]، وروي: «كيف تهلك أمة أنا في أولها، وعيسىٰ في آخرها»[3].

وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما، فيما رآه[4] أشعياء: حيث قال: «[5]راكب الحمار وراكب الجمل».

---

(١) ليست في (ب، ل، المطبوعة).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٥٢١) من حديث عبدالله بن عمرو، وفي إسناده عبدالوهاب بن الضحاك الحمصي، متهم بوضع الحديث (ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧٩).
ثم رواه ابن عساكر في التاريخ (٤٧/ ٥٢٢) وفي المعجم (٥٤٤) من حديث ابن عباس بلفظ: كيف تهلك أمة أنا أولها وعيسىٰ بن مريم آخرها والمهدي من أهل بيتي في وسطها، تفرد به خالد بن يزيد القشيري ولم أعثر له علىٰ ترجمة، ثم هو منقطع، لأنه من رواية أبي جعفر عن أبيه عن ابن عباس، ومحمد بن علي والد أبي جعفر لم يدرك ابن عباس.
قال ابن عساكر: هذا حديث غريب جدًّا، وخالد بن يزيد غير مشهور، ومحمد بن إبراهيم هو ابن محمد بن علي الإمام وأبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أهـ.
(٤) في (ب، المطبوعة): رواه.
(٥) في (ب) زيادة: أرىٰ راكبين..

فصل

قالوا: وقال أشعياء النبي عليه السلام مثنيًا[1] على مكة شرفها الله: «ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أنَّ الله يُصيِّر إليك ذخائر البحرين[2]، وتحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل المؤبَّلة[3]، وتضيق أرضك عن القَطَرات[4] التي تجتمع إليك، وتُساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب»[5].

يريد سدنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن إسماعيل[6].

---

(١) في (ل، المطبوعة): متنبيا، وفي (ب) رسمها بصورة تحتمل الأمرين.

(٢) في (ل، المطبوعة): البحر.

(٣) الإبل المؤبَّلة أي: مكملة، وقيل الجماعة من الإبل (جمهرة اللغة ٢/ ١٠٢٧) وقال ابن فارس: أي جعلت قطيعا قطيعا، وذلك نعت في الإبل خاصة (مقاييس اللغة ١/ ٤٠).
قلت ومثله في الغنم قولهم: غنم مغنمة (أساس البلاغة ١٨، وانظر: مشارق الأنوار ١/ ١٢، النهاية في غريب الحديث ١/ ١٦).

(٤) كذا في الأصل مضبوطا بفتح القاف، و(ل)، وفي (ب): «القُطران» بضم القاف.

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٧.

(٦) لم يذكر النسابة لإسماعيل ولدا اسمه مأرب، وهو في النص المترجم الحالي للتوارة: «نبايوت» الذي هو نابت، الجد المذكور في نسب النبي ﷺ عند من ساقه إلى إبراهيم (التاريخ الكبير١/ ٥، سيرة ابن هشام ١/ ١٠٤) وكذا هو في الأصل الذي صدر عنه المصنف: التخجيل، فلعله تصحف على الشيخ: فإن تصحيف نابت إلى مارب قريب جدا.
وفي التوراة (التكوين ٢٥: ١٣): أسماء بني إسماعيل بحسب مواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبئيل، ومبسام.
وقد وقع في خير البشر ص١٣٧: «وسادات بناوت يخدمونك» ثم قال: «هذا تصريح البشرى بنبوة محمد ﷺ لأنه خطاب يجب صرفه إلى الكعبة ألا تسمعون إلى ذكره قيدار وبناوت، فقيدار هو ابن إسماعيل، وبناوت هي بنت قيدار بن إسماعيل».
والنص المترجم من سفر إشعياء (٦٠: ١) يؤيد ذلك، فإن فيه: «قومي استنيري لانه قد جاء نورك ومجد الرب اشرق عليك. لانه ها هي الظلمة تغطي الارض والظلام الدامس الامم.اما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى. فتسير الامم في نورك والملوك =

قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر[1] الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران: الهدايا والأضاحي[2].

وفاران: هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل المؤبلة الحاملة للناس ولأزوادهم[3] إليها، وأتاها[4] أهل سبأ، وهم أهل اليمن[5].

فصل

قالوا: وقال: أشعياء النبي عليه السلام معلنًا باسم رسول الله ﷺ: «إني جعلت أمرك محمداً يا محمد[6]، يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد»[7].

= في ضياء اشراقك ارفعي عينيك حواليك وانظري. قد اجتمعوا كلهم. جاءوا إليك. يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك علىٰ الأيدي. حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع، لأنه تتحول إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنىٰ الأمم. تغطيك كثرة الجمال، بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا. تحمل ذهبا ولبانا، وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة علىٰ مذبحي، وأزين بيت جمالي».

ونحو هذه الترجمة ذكر ابن ظفر في خير البشر ص١٣٨.

(١) في (ل): عسكر.

(٢) القائل هو أبو البقاء في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٦٧.

(٣) (ل): وأزوادهم.

(٤) في (ل): وأتىٰ.

(٥) في (ب) زيادة: وغيرهم.

(٦) كذا نص البشارة في (ظ)، وفي (ب): إني جعلت أمرك يا محمد نافذا، وسر الرب اسمك موجود من الأبد. وفي (ل): إني جعلت أمرك يا محمد يا قدوس الرب اسمك موجود من الأبد.

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٣، وقارن بما في سفر أشعياء ٦٣: ١٥-١٦، وقد نقلها تلميذ المصنف في هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٦٠.

والمصنف صدر عن التخجيل وقد ترك بين البشارة السابقة وهذه البشارة عدة بشارات نقلها أبو البقاء عن سفر أشعياء.

قالوا: فهل بقي بعد ذلك (ظ٨) لزائغ مقال، أو لطاعن مجال؟ وقول أشعياء: إن اسم محمد موجود من الأبد موافق لقول داود عليه السلام الذي حكيناه: أن اسمه موجود قبل الشمس[١].

وقوله: «يا قدوس الرب»[٢] يعني يا من طهره الرب[٣]، وخلصه من بشريته[٤]، واصطفاه لنفسه[٥].

فصل

قالوا: وقال أشعياء - وشهد لهذه الأمة بالصلاح والديانة -: «سأرفع علمًا لأهل الأرض بعيدًا، فيصفر لهم من أقاصي الأرض، فيأتون سراعا»[٦].

والنداء هو ما جاء به النبي ﷺ من التلبية في الحج، وهم الذين جعلوا لله الكرامة، فوحدوه وعبدوه، وأفردوه بالربوبية، وكسروا الأصنام، وعطلوا الأوثان.

والعَلَم المرفوع: هو النبوة، وصفيره: هو دعاؤهم إلىٰ بيته ومشاعره، فيأتونه سامعين مطيعين[٧].

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٣.

(٢) في (ب): وقوله نافذ وسر الرب..

(٣) تصحفت في (ف): يعني بأمره ظهره الرب. فكتب في الهامش: لعله أظهره.

(٤) في (ب): «شوائب بشريته». وهكذا هو في المصدر.

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٣ .

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٣ .

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٣ . وعنه صدر المصنف.

وجاء في آخر الإصحاح الستين من سفر أشعياء الذي نقل المصنف أوله في البشارة بمكة، ما يمكن أن يكون قريبا مما أورده المصنف، ففيه (٦٠: ٢١-٢٢): «شعبك كلهم أبرار إلىٰ الأبد يرثون الأرض غصن غرسي عمل يدي لا تمجد. الصغير يصير ألفا والحقير أمة قوية أنا الرب في وقته أسرع به».

فصل

قالوا: وقال أشعياء النبي - والمراد مكة شرفها الله -: «سُرِّي[1] واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي»[2].

يعني بأهله: بيت المقدس، ويعني بالعاقر: مكة شرفها الله؛ لأنها لم تلد قبل نبينا ﷺ، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس؛ لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي، فلم تزل تلك البقعة ولادة[3].

---

(١) في (ل، المطبوعة): سيري. وهو تصحيف.

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٤. وعنه صدر المصنف، وفي سفر إشعياء (٥٤: ١-١٧) إسهاب في وصف مكة، وقد تولىٰ ابن ظفر (في خير البشر ص١٤١)، شرح هذه البشارة.

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٤.

فصل

قالوا: وقال أشعياء النبي - ونصَّ علىٰ خاتم النبوة[1]-: «ولد لنا غلام، يكون عجبًا وبشرًا، والشامة علىٰ كتفه أُرْكون السلام، إله جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عالمه، يجلس علىٰ كرسي[2] داود»[3].

---

(١) خاتم النبوة كان بين كتفي النبي صيلىٰ الله عليه وسلم، قال ابن حجر: «من علاماته التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها» (فتح الباري ٦/ ٥٦١).
وترجم البخاري في صحيحه (٤/ ١٨٦): باب خاتم النبوة، وروىٰ فيه حديث السائب بن يزيد (٣٥٤١) أنه نظر إلىٰ الخاتم بين كتفيه مثل زر الحجلة. وفي صحيح مسلم (٢٣٤٤) عن جابر بن سمرة أنه في ظهر النبي صلىٰ الله عليه وسلم مثل بيضة الحمام، وعن عبدالله بن سرجس (٢٣٤٦) أن الخاتم عند ناغض -أي أعلىٰ الكتف- كتفه اليسرىٰ، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل. واستوعب الترمذي أحاديثه في الشمائل في باب ما جاء في خاتم النبوة، (١٦-٢٣).
وهذه الروايات متقاربة، قال ابن حجر (في فتح الباري ٦/ ٥٦٣): وأما ما ورد من أنها كانت كأثر محجم أو كالشامة السوداء أو الخضراء أو مكتوب عليها محمد رسول الله أو سر فأنت المنصور أو نحو ذلك فلم يثبت منها شيء وقد أطنب الحافظ قطب الدين في استيعابها في شرح السيرة وتبعه مغلطاي في الزهر الباسم، ولم يبين شيئا من حالها والحق ما ذكرته، ولا تغتر بما وقع منها في صحيح ابن حبان، فإنه غفل حيث صحح ذلك، والله أعلم، قال القرطبي: اتفقت الأحاديث الثابتة علىٰ أن خاتم النبوة كان شيئًا بارزًا أحمر عند كتفه الأيسر، قدره إذا قلل قدر بيضة الحمامة وإذا كبر جمع اليد أهـ.
وقد استظهر ابن حجر -من مجموع روايات ذكرها- أنه ﷺ لم يولد بخاتم النبوة، بل ظهر له بعد حادثة شق الصدر وهو مسترضع في بني سعد (فتح الباري ٦/ ٥٦٢).

(٢) ليست في (ل).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٥، وفي سفر أشعياء (٩: ١-٧): «الشعب السالك في الظلمة أبصر نورا عظيما. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور. أكثرت الأمة. عظمت لها الفرح. يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد...، لأنه يولد لنا ولد ونعطىٰ ابنا، وتكون الرياسة علىٰ كتفه، ويدعىٰ اسمه عجيبا، مشيرا، إلها قديرا، أبا أبديا، رئيس السلام. لنمو رياسته، وللسلام لا نهاية علىٰ كرسي داود وعلىٰ مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر، من الآن إلىٰ الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا».

قالوا[١]: الأُرْكون هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة المعظَّمون.

ولما أبرأ[٢] المسيح مجنونًا من جنونه، قال اليهود: «إن هذا لا يخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون[٣] الشياطين» يعنون عظيمهم.

وقال المسيح في الإنجيل: «إن أركون هذا العالم يدان»[٤]، يريد إمَّا إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين[٥].

وسماه إلهًا علىٰ نحو قول التوراة: «إن الله جعل موسىٰ إلها لفرعون» أي حاكمًا عليه ومتصرفًا فيه، وعلىٰ نحو قول داود للعظماء من قومه: «إنكم آلهة».

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد ﷺ ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري لم تكن الشامة لسليمان، ولا للمسيح، وقد وصفه بالجلوس علىٰ كرسي داود، يعني أنه سيرث بني إسرائيل، نبوتهم وملكهم، ويبتزهم رياستهم[٦].

---

(١) القائل هو أبو البقاء الهاشمي في تخجيل أهل التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٥.

(٢) في (ب): أتوا.

(٣) في (ب): «مايكون» معدلة عن الصواب.

(٤) في (ب) غيرها إلىٰ: قدان.

(٥) قال شمر: أركون القرية: رئيسها، وفلان ركن من أركان قومه أي شريف من أشرافهم. وقال أبو العباس: يقال للعظيم من الدهاقين: أركون (تهذيب اللغة١٠/ ١٠٩، وانظر: الفائق في غريب الحديث ٢/ ٨١، النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٦٠، لسان العرب١٣/ ١٨٦).

(٦) يبتزهم أي يجردهم من الرئاسة (النهاية في غريب الحديث ١/ ١٢٤).
وهذه البشارة مع شرحها في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٦. والكلام المنقول عنه.
وفي (ب): نبشرهم. وهو تصحيف.

فصـل

قالوا: وقال أشعياء في وصف أمة محمد ﷺ: «ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيذار يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر»[1].

قلت: وقيذار هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعة ومضر من ولده، ومحمد ﷺ من مضر، وهذا الامتلاء والتسبيح (في البر والبحر)[2] لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد ﷺ[3]، وقد جعلت لهم الأرض مسجدًا وطهورًا فهم يصلون الخمس في البر والبحر[4].

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٦.

جاء في سفر أشعياء (٤٢: ٨-١٣): «أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات. هوذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها. قبل أن تنبت أعلمكم بها. غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصىٰ الارض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها. لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع. من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر».

وقد تكرر في التوراة ذكر «سالع» وفسرها أصحاب «قاموس الكتاب المقدس/ دائرة المعارف الكتابية المسيحية» بأنها اسم عبراني معناه صخرة.

ولا شك أن المدينة النبوية تحيط بها الصخور -المسماة بالحرار- وفيها جبل عظيم يقال له جبل سلع. ففي هذا النص البشارة بالمدينة كذلك، والله أعلم.

(٢) ضرب في (ب) علىٰ البر والبحر بعد أن كتبها في الأصل. كما ضرب علىٰ قلت من قبل. ولم يكتبه في (ل).

(٣) هنا زيادة في (ط النيل): والتسبيح الصلوات الخمس. وقد ثبتت في (ب) لكنه ضرب عليها.

ولا شك أن الصواب عدم إثباتها لأنه سيعيدها في آخر الكلام.

(٤) «وقد جعلت ... والبحر» ليس في (ل).

فصل

قالوا: وقال أشعياء - والمراد مكة -: «أنا رسمتك علىٰ كفي، وسيأتيك أولادك سراعًا، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويحزنك[1]، فارفعي بصرك إلىٰ ما حولك، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك، فتسمي باسمي[2] إني أنا الحي، لتلبسي الحلل وتزيني بالإكليل، مثل العروس، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك[3] والراغبين فيك، وليهابن كل من يناوئك، وليكثرن أولادك حتىٰ تقولي من رزقني هؤلاء (ظ٩) كلهم؟ وأنا فريدة وحيدة[4]، نزورٌ رَقُوبٌ[5]، فمن ربىٰ لي هؤلاء، ومن تكفل لي بهم؟»[6].

---

(١) في (د، ط النيل): ويخربك. وهو مهمل في (ب). وفي (ل) أهمل الراء ونقط النون، مما يجعلها توافق ما في ظ، وفي المطبوعة: يخونك. وليس في الأصول الخطية ما يوافقه.
وفي التخجيل -الذي صدر عنه المصنف-: ويخزيك.

(٢) في التخجيل: قسما باسمي. وهو أقرب للصواب.

(٣) في (ب): سكاتك.

(٤) في (ل) قدم وأخر.

(٥) الرقوب: الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد، لأنه يرقب موته ويرصده خوفا عليه (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٤٩، لسان العرب ١٠/ ٨٩).

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٦.
وفي سفر أشعياء (٤٩: ١٨-٢٣): «ارفعي عينيك حواليك وانظري. كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حي أنا يقول الرب إنك تلبسين كلهم كحلي وتتنطقين بهم كعروس. إن خربك وبراريك وأرض خرابك إنك تكونين الآن ضيقة علىٰ السكان ويتباعد مبتلعوك. يقول أيضًا: في أذنيك بنو ثكلك. ضيق علي المكان وسعي لي لاسكن. فتقولين في قلبك: مَن ولد لي هؤلاء وأنا ثكلىٰ وعاقر منفية ومطرودة؟ وهؤلاء من رباهم؟ هانذا كنت متروكة وحدي. هؤلاء أين كانوا ؟ هكذا قال السيد الرب: ها إني أرفع إلىٰ الأمم يدي وإلىٰ الشعوب أقيم رايتي. فياتون بأولادك في الأحضان وبناتك علىٰ الأكتاف يحملن. ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلىٰ الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزىٰ منتظروه».

قالوا[1]: وذلك إفصاحٌ من أشعياء بشأن الكعبة، فهي التي ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة، ووكَّل بخدمتها الخلفاء والملوك، ومكة: هي التي ربَّىٰ الله لها الأولاد من حجاجها، والقاطنين بها.

قلت[2]: وذلك أنَّ مكة هي التي أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخزيها[3]، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة[4]، لم يهنها أحد من البشر قط، بل أصحاب الفيل لما قصدوها عذبهم الله تعالىٰ العذاب المشهور، ولم تزل عامرة محجوجة من لدن إبراهيم الخليل، بخلاف بيت المقدس، فإنه قد أخرب[5] مرة بعد مرة، وخلا من السكان، واستولىٰ العدو عليه وعلىٰ أهله.

وكذلك إخباره بإهانة كل من يناوئها هو للكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

والحجَّاج بن يوسف كان معظما للكعبة؛ لم يرمها بمنجنيق، وإنما قصد ابن الزبير خاصة[6].

وأما كثرة أولادها، وهم الذين يحجون إليها و[7]يستقبلونها في صلاتهم، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس.

---

(١) القائل هو أبو البقاء الهاشمي في تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٦٧٧.

(٢) ليست في (ل).

(٣) في ما سوىٰ الأصل ظ: ويخربها. وفي (ل) مهمل فيحتمل هذا وهذا.

(٤) في (ب): محترمة.

(٥) في (ب): أخربت.

(٦) وذلك سنة أربع وستين لما حاصر الحجاج عبدالله بن الزبير ﵁ بمكة، فرماه بالمنجنيق وكانوا يوقدون حول الكعبة، فأقبلت شرارة هبت بها الريح فأحرقت الأستار وخشب سقف الكعبة واحترق قرنا الكبش الذي فدي به إسماعيل وكان في السقف (تاريخ الإسلام ٢/ ٥٩٣).

(٧) في (ب): أو.

فصـل

قـالوا: وقـال أشـعياء - حاكيًـا عـن الله تعـالىٰ -: «اشـكر حبيبـي وابنـي أحمد»[1].

فسمَّاه الله حبيبًا وسماه ابنًا، وداود ابنًا غير أنَّ الله خصه عليهم بمزية فقال: «حبيبي ابني اشكره»، فتعبد أشعياء بشكر محمد، ووظف[2] عليه وعلىٰ قومه شكره وإجلاله، ليتبين[3] قدره ومنزلته عنده، وتلك منزلة لم يؤتها غيره من المرسلين[4].

وقال: أشعياء: «إنَّا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد»[5].

وهذا إفصاح من أشعياء باسم رسول الله ﷺ، فليرنا أهل الكتاب نبيًا نصَّت[6] الأنبياء علىٰ اسمه صريحًا، سوىٰ رسول الله ﷺ.

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٨. ولم أجد نحوه في سفر أشعياء المطبوع.

(٢) في (ل): ووصف.

(٣) ليست واضحة في ظ، ومهملة في ل، وهي تدل علىٰ ما أثبت، وهكذا أثبتها في ط النيل والمطبوعة، وفي ب: ليستيقن.

(٤) في (ل): الرسل.
والمصنف صد عن التخجيل ٢/ ٦٧٨.

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٧٩.
وفي سفر أشعياء (٢٤: ١٦): «من اطراف الارض سمعنا ترنيمة مجدا للبار».

(٦) في (ب): نَصَبَ.

فصل

قالوا: وقال حبقوق: - وسمىٰ محمدا رسول الله ﷺ مرتين في نبوته -: «إنَّ الله جاء من التيمن[1]، والقدوس من جبال[2] فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره مثل النور، يحوط بلاده بعزه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابي، وتزعزعت ستور أهل مدين ولقد حاز المساعي القديمة[3]».

ثم قال: «زجرك في الأنهار، واختدام[4] صوامك في البحار، ركبت الخيول، وعلوت مراكب الإنقاذ[5]، وسينزع في قِسيِّك أعراقًا ونزعًا[6]، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السبيل[7]، ونعرت المهاوي نعيرًا ورعبًا[8]، رفعت أيديها وجلاً

---

(١) في (ب): اليمن.

(٢) في (ب، ل، المطبوعة): جبل.

(٣) الجملة الأخيرة ليست في المطبوعة، وهي في الأصول كلها، إلا أنها ثبتت في (ل) في هامشها لحقا.

(٤) في (ب): واحتدام، وفي (ل) وإقدام، وعليه أثر التصحيح. يوافق ما في المصدر.

(٥) كذا جودها في ظ ب، يوافق ما في المصدر، وفي ط النيل: الإيقاد. وفي (ل، المطبوعة): الإيفاد. وهو وصف لأحوال أمة النبي ﷺ في الجهاد، والإيفاد أي الإشراف علىٰ الشيء (لسان العرب ٣/ ٤٦٥) فمراكب الإيفاد أي التي يشرفون بها علىٰ القرىٰ.

(٦) نزع القوس مدها وجذبها (النهاية في غريب الحديث ٥/ ٤١، تاج العروس٢٢/ ٢٤٠)، وقد نقل ابن القيم النبوءة في هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٤٩ وليس فيها: أعراقا ونزعا.

(٧) الشؤبوب الدفعة، شآبيب المطر أي دفعاته (لسان العرب ١/ ٤٧٩).
وهكذا هو في (ظ، د) وفي (ل، ب، المطبوعة) والمصدر: السيل. وكلاهما صحيح المعنىٰ.

(٨) كذا في ظ، والنعير الصوت من الخيشوم، وفي ط النيل: وتعبرت المهاوي تعبيرا، وفي ل: وتغيرت المهاوي تغيرا ورعبا، وفي ب: وتعيرت المهاوي نعيرا ورعبا. =

وخوفًا، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك[1]، وتدوخ[2] الأرض غضبًا[3]، وتدوس الأمم رجزًا[4]؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراث آبائك[5]».

قالوا: وهذا تصريح بمحمد، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد رسول الله ﷺ (فقد رام)[6] ستر النهار، وحبس الأنهار، وأنىٰ يقدر علىٰ ذلك

= والمهاوي جمع مَهواة، الموضع في الهواء المشرف علىٰ ما دونه من جبل وغيره (تاج العروس ٤٠/ ٣٢٥) أي ما بين الجبلين.
وفي المصدر: المهاري. وهي الإبل المنسوبة إلىٰ المهرة، كذا في شرح القاموس (١٤/ ١٥٨) ولعله الصواب.

(١) هامش (ف): النيزك الرمح القصير، ونزكه طعنه به.

(٢) هامش (ف): داخ البلاد نهزها واستولىٰ عليها كدوخها، قاموس.

(٣) في (د): غصبًا. وما ثبت هو الصحيح.

(٤) في (ب، ط النيل، المطبوعة): زجرا، وفي (ل): جزرا.

(٥) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٠.
وهذه البشارة في الإصحاح الثالث والأخير من سفر حبقوق، وفيه -بحسب الترجمة اليوم- (٣: ٣-١٢): «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران سلاه جلاله غطىٰ السموات والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور له من يده شعاع وهناك استتار قدرته. قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمىٰ. وقف وقاس الأرض نظر فرجف الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم. مسالك الأزل له. رأيت خيام كوشان تحت بلية. رجفت شقق أرض مديان. هل علىٰ الأنهار حمي يا رب هل علىٰ الأنهار غضبك أو علىٰ البحر سخطك حتىٰ إنك ركبت خيلك مركباتك مركبات الخلاص. عريت قوسك تعرية. سباعيات سهام كلمتك. سلاه. شققت الأرض أنهارا. أبصرتك ففزعت الجبال. سيل المياه طما. أعطت اللجة صوتها. رفعت يديها إلىٰ العلاء. الشمس والقمر وقفا في بروجهما لنور سهامك الطائرة للمعان برق مجدك. بغضب خطرت في الأرض. بسخط دست الام. خرجت لخلاص شعبك لخلاص مسيحك. سحقت رأس بيت الشرير معريا الاساس حتىٰ العنق.سلاه».

(٦) ما بين القوسين ليس في (ب).

وقد سماه باسمه مرتين؟ وأخبر بقوة أمته، وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم.

وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد، ولا تصلح إلا له، ولا تدل[1] إلا عليه، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعًا[2].

قلت[3]: وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن - وهي ناحية مكة والحجاز - فإنَّ[4] أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام، ومحمد ﷺ جاء من ناحية اليمن[5]، وجبال فاران هي جبال مكة - كما قد تقدم بيان ذلك - وهذا مما لا يمكن النزاع فيه.

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد؛ فأنوار الإيمان والقرآن التي ظهرت منه ومن أمته، وامتلاء[6] الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم فأمر ظاهر؛ فإن أمته هم الحمَّادون[7]، (ظ١٠) لا بدَّ لهم من حمد الله في كل صلاة وكل[8]

---

(١) في (ب): تنزل.

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٠.

(٣) ليست في (ل).

(٤) ليست في (ب).

(٥) في (ب): التيمن.

(٦) في (ب): وامتلأت.

(٧) يشبه هذا ما روىٰ الدارمي (٥) عن كعب الأحبار قال: «نجده مكتوبا: محمد رسول الله ﷺ لا فظا ولا غليظا، ولا صخابا بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمادون يكبرون الله ﷻ علىٰ كل نجد، ويحمدونه في كل منزلة، يتأزرون علىٰ أنصافهم، ويتوضؤون علىٰ أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، صفهم في القتال، وصفهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام».

(٨) ليست في (ب، ل).

خطبة، ولا بد لكل مصل في كل ركعة من أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَلِك[1] يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. قال: أثنىٰ علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ[2] يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. قال: مجدني عبدي[3].

فهم يفتتحون[4] القيام في الصلاة بالتحميد، ويختمونها[5] بالتحميد، وإذا رفعوا رؤوسهم من الركوع يقول إمامهم: سمع الله لمن حمده، ويقولون جميعًا: ربنا ولك الحمد، ويختمون صلاتهم بتحميده، بجعل التحيات له والصلوات والطيبات، وأنواع تحميدهم لله (وثنائهم عليه)[6] يطول وصفه.

---

(١) في (ب): مالك.

(٢) في (ل): ملك، وباقي النسخ كما أثبت. وهما قراءتان مشهورتان. ومع أن قراءة الشيخ: ملك إلا أنه - فيما يظهر - أثبت مالك تبعا للرواية.

(٣) رواه مسلم في الصحيح (٣٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) في (ل): يفتحون.

(٥) في (ب): ويختمونه.

(٦) بدلها في (ب): مما.

فصل

قالوا: وقال: حِزقيال[1] - وهو يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ-: «وإنَّ الله مظهرهم[2] عليكم، وباعث فيكم[3] نبيًّا، ومنزل[4] عليهم كتابًا، ومملكهم[5] رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني قيذار في جماعات الشعوب، معهم ملائكة علىٰ خيل بيض متسلحين، فيحيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلىٰ النار، نعوذ بالله من النار»[6].

قلت: وذلك أنَّ رجال بني قيذار هم: ربيعة ومضر ابنا عدنان، وهما جميعا من ولد قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم[7]، والعرب كلهم من بني عدنان، وبني قحطان.

فعدنان: أبو ربيعة، ومضر، وأنمار، من ولد إسماعيل باتفاق الناس[8].

وأما قحطان فقيل هم من ولد إسماعيل، وقيل هم من ولد هود[9].

---

(١) في (د، ط النيل): دانيال. وهو تصحيف.

(٢) في (ب): يطهرهم، (ط، النيل): يظهرهم.

(٣) في (ب): عليهم. (ل): فيهم.

(٤) في (ب): وينزل.

(٥) في (ب): ويملكهم.

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٦.

(٧) «بن إبراهيم» ليس في (ب، ل، ط النيل).

(٨) وهؤلاء الثلاثة أبناء نزار بن معد (سيرة ابن هشام ١/ ١٩٨).

(٩) وممن قال بأن نسبة قحطان إلىٰ إسماعيل الإمام البخاري في الصحيح (٤/ ١٨٠)، حيث ترجم: باب نسبة اليمن إلىٰ إسماعيل «منهم أسلم بن أفصىٰ بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة».
وقد ذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في ذلك في فتح الباري (٦/ ٥٣٧).

ومضر ولَدُه إلياس[1]، وإلياس بن مضر، وقريش هم من وَلدِ إلياس بن مضر، وهوازن مثل عقيل وكِلاب وسعد بن بكر وبنو نمير وثقيف[2]، وغيرهم، من[3] ولد إلياس بن مضر.

وهؤلاء انتشروا في الأرض، فاستولوا علىٰ[4] أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها[5]، حتىٰ إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة، سكنت مضر في حرَّان[6] وما قرب منها، فسميت «ديار مضر»[7]، وسكنت ربيعة في الموصل وما قرب منها، فسميت «ديار ربيعة»[8].

(وقال: «تنزل الملائكة علىٰ خيل بيض»، وهذا مما تواترت به الآثار؛ أن الملائكة كانت تنزل علىٰ الخيل البيض، كما[9] نزلت يوم بدر لنصرة النبي ﷺ

---

(١) في (ب، ل): إلياس بن مضر.

(٢) هؤلاء من ولد قيس بن عيلان بن مضر بن نزار وليس إلياس بن مضر (انظر: سيرة ابن هشام ١/ ١٢٣، والأنساب ٣/ ١٣٩)، وكلاب المقصود به هو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، لا كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي (الأنساب ١١/ ١٨٤).

(٣) في (ل): هم من.

(٤) في (ب): فاستدلوا علىٰ الأرض أرض..

(٥) في (ب): وغيرهم.

(٦) هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقّة يومان، وهي علىٰ طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان ٢/ ٢٣٥).

(٧) قال ياقوت الحموي (في معجم البلدان (٢/ ٤٩٤): وهي ما كان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حرّان والرّقّة وشمشاط وسروج وتلّ موزن.

(٨) قال ياقوت الحموي (في معجم البلدان ٢/ ٤٩٤): بين الموصل إلىٰ رأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرىٰ، وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة، وهذا اسم لهذه البلاد قديم، كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديه، واسم الجزيرة يشمل الكلّ.

(٩) في (د، ط النيل): فإنها نزلت.

وأمته، ونزلت يوم الأحزاب وأحاطوا[1] ببني قريظة)[2].

فصل

قالوا[3]: وقال: دانيال عليه السلام، وذكر محمدًا رسول الله ﷺ باسمه، فقال: «سينزع[4] في قسيك[5] إغراقا، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً»[6].

فهذا تصريح بغير تعريض، وتصحيح ليس فيه تمريض، فإنْ نازع في ذلك منازع فليوجدنا آخر اسمه محمد، له سهامٌ تُنزع، وأمرٌ مطاع لا يدفع[7].

وقال: دانيال[8] أيضًا - حين سأله بخت نصر عن تأويل رؤيا رآها ثم نسيها-: «رأيتَ أيها الملك صنمًا عظيمًا قائمًا بين يديك، رأسه من ذهب،

---

(١) في (د، ط النيل): أحاطت.

(٢) ما بين القوسين من الأصل ود، ط النيل، وكتبه في (ب) ثم ضرب عليه، وليس في (ل).
وأما نزول الملائكة في يوم بدر فمذكور في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، وأما إحاطتها ببني قريظة فرواه البخاري في صحيحه (٢٨١٣) (٤١١٧) وترجم في الموضع الثاني: باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلىٰ بني قريظة ومحاصرته إياهم.

(٣) ليست في (ل، د).

(٤) في (ل، د): ستنزع، (ب): سننزع.

(٥) في (د): قيسيك.

(٦) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٦، هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٤٩، ٣٧٥.

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٦، وعنه صدر المصنف.

(٨) في (ب، ل، د، ط النيل) زيادة: النبي.

وساعداه من الفضة، وبطنه وفخذاه من النحاس[1]، وساقاه من الحديد، ورجلاه من خزف[2]، ورأيت حجرًا لم يقطعه يد إنسان، قد جاء وصك ذلك الصنم فتفتت وتلاشىٰ وعاد رفاتًا، ثم نسفته الرياح، فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلاً عظيمًا حتىٰ ملأ الأرض كلها، فهذا ما رأيتَ أيها الملك.

فقال بخت نصر: صدقت. فما تأويلها؟

قال دانيال: أنت الرأس الذي رأيته من الذهب، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة، وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرىٰ هي دونهما[3]، وهي شبه[4] النحاس، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء، فأما الرجلان التي رأيت من خزف فمملكة ضعيفة وكلمتها مشتتة[5]، وأما الحجر الذي رأيت قد صكَّ ذلك الصنم العظيم ففتته فهو نبي يقيمه الله إلهُ السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها، حتىٰ تمتلئ[6] منه الأرض ومن أمته، (ظ١١) ويدوم سلطان ذلك النبي إلىٰ انقضاء الدنيا، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك»[7].

---

(١) في (ب): نحاس.

(٢) في (ل، د): الخزف.

(٣) في (د): دونها.

(٤) في (ب، ط النيل): تشبه.

(٥) في (ب): متشبه، (ط النيل): سخيفة.

(٦) في (ب، المطبوعة): امتلأت.

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٦٩٨، وهذا المنام في الإصحاح الثاني من سفر دانيال.

قلت: فهذا نعت محمد ﷺ لا نعت المسيح، فهو الذي بُعث بشريعة قوية، ودق جميع ملوك الأرض وأممها، حتىٰ امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم[١] دائم، لا[٢] يقدر أحد أن يزيله كما زال سلطان[٣] اليهود وزال سلطان النصارىٰ عن خيار الأرض وأوسطها[٤].

فصل

وقال: دانيال[٥] أيضًا: «سألتُ الله وتضرعتُ إليه أن يبين لي ما يكون من بني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم ويبعث فيهم[٦] الأنبياء[٧]، أو يجعل ذلك في غيرهم؟».

قال دانيال عليه السلام: «فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليك يا دانيال، إن الله تعالىٰ يقول: إنَّ[٨] بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا عليّ وعبدوا من دوني آلهة أخرىٰ، فصاروا من بعد العلم إلىٰ الجهل، ومن بعد الصدق إلىٰ الكذب، فسلطتُ عليهم بخت نصر، فقتل رجالهم وسبىٰ ذراريهم ، وهدم بيت مقدسهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم ولا مقيلهم عثراتهم، فلا يزالون في سخطي حتىٰ أبعث مسيحي

---

(١) في (ب، ل، المطبوعة): وسلطانه.
(٢) في (ب، ل، المطبوعة): لم.
(٣) بدلها في (ب، ل، المطبوعة، ط النيل) : ملك، في الموضعين. وكتب في هامش (ب) خـ سطان. أي هكذا في نسخة.
(٤) في (ب): وأوسعها.
(٥) في ما سوىٰ (ظ): دانيال النبي عليه السلام أيضا. وفي (د): قالوا: وقال دانيال..
(٦) ليست في (ب).
(٧) هاهنا ورقة سقطت من (د) يستمر السقط إلىٰ أول الفصل الآتي.
(٨) في الأصل (ظ) فقط زيادة هنا: في. يظهر لي أنه لا معنىٰ لها.

ابن العذراء البتول، فأختم عليهم عند ذلك باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة حتىٰ أبعث نبي[1] بني إسماعيل[2]، الذي بُشِّرتْ به هاجر، وأرسلتُ إليها[3] ملاكي فبشرها، فأوحي إلىٰ ذلك النبي[4]، وأعلمه السيماء[5]، وأزينه بالتقوىٰ، وأجعل البر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض[6] ما فيها، أسري به إلي وأُرقيه من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلو، فأدنيه وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استُودع، صادعًا بما أُمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه، فيدعو قومه إلىٰ توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي، فيكذبونه ويؤذونه»[7].

قال الناقل لهذه الكلام[8]: «ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ حرفًا حرفًا مما أملاه عليه الملك، حتىٰ وصل آخر أيام أمته بالنفخة وانقضاء الدنيا، ونبوته

---

(١) في (ب): نبي من بني.
(٢) في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل: بني إسرائيل. وهو تصحيف.
(٣) في (ب): عليها.
(٤) ليست في الأصل، وهي ثابتة في (ل، ب)، وبها يصح السياق.
(٥) في (ط النيل، المطبوعة): الأسماء. يوافق ما في المصدر. وما ثبت في الأصول الخطية هو الصحيح، والسيما الأثر، قال تعالىٰ ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].
(٦) في (ب): بعض.
(٧) لم أجد في سفر دانيال ما يقرب من ذلك. وقد ذكرها ابن القيم في هداية الحيارىٰ ٢/ ٣٧٦.
(٨) في (ب، ل، ط النيل): البشارة. وليست الجملة كلها في ط النيل. وهذا الناقل هو أبو البقاء كما في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠١.

كثيرة، وهي الآن في أيدي اليهود والنصارىٰ[١] يقرءونها[٢]، وفيها ما وصفنا من إشادة الله بذكر هذه الأمة، وبذكر نبيهم[٣]، واتصال مملكتهم بالقيامة».

قلت: فهذه نبوة دانيال فيها البشارة بالمسيح، والبشارة بمحمد ﷺ، وفيها من وصف محمد ووصف أمته بالتفصيل ما يطول وصفه، وقد قرأها المسلمون لما فتحوا العراق، كما ذكر ذلك العلماء، منهم أبو العالية الرياحي: ذكر أنهم لما فتحوا تستر وجدوا دانيال[٤] وعنده مصحف.

قال أبو العالية: «أنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم ولحون كلامكم، وكان أهل الناحية[٥] إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيُسقون، فكتب في ذلك أبو موسىٰ[٦] الأشعري إلىٰ عمر بن الخطاب، فكتب إليه[٧]: أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا[٨]، وادفنه بالليل في واحد منها، لئلا يفتتن الناس به»[٩].

---

(١) في (ب، ل): قدم وأخر.

(٢) من هنا إلىٰ قال أبو العالية ليس في (ط النيل)، وفيها بدله: ويقرون ويقولون لم يظهر صاحبها بعد.

(٣) في (ب، ل): وفيها ما وصفنا مما ذكره الله من وصف هذه الأمة ونبيها..

(٤) في (ب): وجدوا دانيال ميتا ووجدوا عنده مصحفا..

(٥) في (ط النيل): وكان أهل الناحية يعني أرض السوس حيث دانيال مدفون بها إذا..

(٦) في (ب، ل، ط النيل): أبو موسىٰ في ذلك.

(٧) في (ب، ل): فكتب إليه عمر.

(٨) ليست في (ب): متشبه، (ط النيل): سخيفة.

(٩) روىٰ قصة أبي العالية ابن إسحاق في سيرته، قال ابن كثير: «وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرا، عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلىٰ عمر بن الخطاب، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ =

= قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها، لنعميه علىٰ الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون. قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناد صحيح إلىٰ أبي العالية ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظا من ثلاثمائة سنة، فليس بنبي بل هو رجل صالح، لأنَّ عيسىٰ ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله نبي» (البداية والنهاية ٢/ ٣٧٦).

وأبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي، تابعي كبير مشهور.

وها هنا زيادة في ط النيل (ولم أجدها في دَ بحسب المصورة التي بين يدي) صورتها:

[فصل:

قالوا: قال كعب – وذكر صفة رسول الله صلىٰ الله عليه في التوراة ويريد بها التوارة التي هي أعم من التوارة المعينة-: «أحمد عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، يعفو ويغفر، مولده بكا، وهجرته طابا، وملكه بالشام، وأمته الحامدون، يحمدون الله علىٰ كل نجد، ويسبحونه في كل نزلة، ويغضون أطرافهم، ويأتزرون علىٰ أنصافهم، وهم رعاة الشمس، ومؤذنهم في جو السماء، وصفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، رهبان بالليل، أسد في النهار، لهم دوي كدوي النحل، يصلون الصلاة حيث أدركتهم، ولو علىٰ كناسة».

فصل:

قالوا: قال ابن أبي الزناد: حدثني عبدالرحمن بن الحارث، عن عمر بن حفص – وكان من خيار الناس– قال: كان عند أبي وجدي ورقة يتوارثونها قبل الإسلام، فيها: اسم الله وقوله الحق، وقول الظالمين تبار، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يتزرون علىٰ أوساطهم، ويرصدون أطرافهم، ويخوضون البحور إلىٰ أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطوفان، وفي ثمود ما هلكوا بالصيحة. =

= فصل:

قالوا: قال أشعياء -وذكر قصة العرب- فقال: «ويدوسون الامم دياس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة وقسي موترة من شدة الملحمة».

وهذا إخبار عما طرأ بعبدة الأوثان من رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم حنين وفي غيرهما من الوقائع].

انتهىٰ ما وجدته زائدا في ط النيل، مع تصحيح بعض التصحيفات.

ويلاحظ علىٰ هذا النص أمور:

الأول: أنه خلت منه نسخة ابن المحب، وحالها كما وصفنا، وكذا بقية النسخ.

الثاني: انه يخالف أسلوب المصنف في تحقيق الروايات في هذا الكتاب، فإنه ذكر حديث كعب، وهو مروي في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وقد ذكره المصنف في موضعه وأشار إليه.

الثالث: أنه إقحام لذكر العرب في الحديث عن البشارات بالنبي ﷺ.

الرابع: أنه مما ذكره ابن القيم في كتاب هداية الحيارىٰ (٢/ ٣٧٧) عقب به علىٰ كلام أبي العالية، ولكنه ليس في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، وهو مصدر المصنف الرئيس في هذه البشارات، فقد اتبعه بذكرها وتسلسلها. وليس بين البشارة التي أثبتناها والبشارة التالية شيء من ذلك في المصدر.

الخامس: أنَّ البيهقي رواه في دلائل النبوة، وهو من مصادر المؤلف، فقد روىٰ البيهقي (دلائل النبوة ١/ ٣٨٢) عن أبي خلدة خالد بن دينار عن أبي العالية قصة دانيال كما نقلها ابن كثير، ثم روىٰ عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، عن عمر بن الحكم بن رافع بن سنان، وهو عم عبد الحميد بن جعفر قال: حدثني بعض عمومتي وآبائي أنهم كانت عندهم ورقة يتوارثونها في الجاهلية، حتىٰ جاء الله تعالىٰ بالإسلام وهي عندهم، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، ذكروا له وأتوه بها مكتوب فيها: اسم الله وقوله الحق، وقول الظالمين في تباب، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان يسبلون أطرافهم، ويأتزرون علىٰ أوساطهم، ويخوضون البحور إلىٰ أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، وفي

فصـل(١)

قالوا: «وقال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر

= عاد ما أهلكوا بالريح، وفي ثمود ما أهلكوا بالصيحة، بسم الله وقوله الحق، وقول الظالمين في تباب، كأنه استقبل قصة أخرىٰ.

قال: فعجب رسول الله ﷺ، لما قرئت عليه لما فيها.

فقد يكون هذا النص كان في نسخة ثم حذفه المصنف أخيرا، أو أنه مما حشاه بعض النساخ، ثم زاده الناقل عن هذا الأصل في النص.

فائدة: ذكر البقاعي أن هذه البشارة هي سبب إسلام كعب الأحبار، وقال في نظم الدرر (١٨/ ٣٤٢): وروىٰ أصحاب فتوح البلاد في فتح بيت المقدس عن كعب الأحبار أن سبب إسلامه أن أباه كان أخبره أنه ذخر عنه ورقتين جعلهما في كوة وطين عليهما، وأمره أن يعمل بهما بعد موته، قال: فلما مات فتحت عنهما فإذا فيهما: محمد رسول الله صلىٰ الله خاتم النبيين لا نبي بعده مولده بمكة ومهاجرة بطيبة ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ويصفح، وإن أمته الحمادون الذين يحمدون الله علىٰ كل شيء وعلىٰ كل حال، ويذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم علىٰ كل من ناواه، يغسلون فروجهم بالماء، ويؤثرون علىٰ أواسطهم، وأناجيلهم في صدورهم، يأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، تراحمهم بينهم تراحم بين الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، هم السابقون المقربون والشافعون والمشفع لهم..

(١) في (د، ط النيل): بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي، فصل في كلمة الإنجيل وتفسيرها..

ومن المراجع المهمة التي تطرقت إلىٰ نقل البشارات من الإنجيل –في زمانه– كتاب: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، حيث عقد فصلا عنوانه: «ذكر ما يصدق هذه الآية من الإنجيل من تصديقه للتوارة وبشارته بأحمد ﷺ» (نظم الدرر ٢٠/ ١٨). ومبحث البشارة بالفارقليط عنده في تفسير سورة النساء (٥/ ٤٨١)، وكذا في آخر آية من سورة الفتح.



من إنجيله: إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء»[1].

وقال: يوحنا التلميذ أيضًا - يعني[2] عن المسيح - أنه قال لتلاميذه: «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أنْ (ظ ١١) يعطيكم فَارقليطًا آخر، يثبت معكم إلىٰ الأبد، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه، لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتامًا؛ لأني سآتيكم عن قريب»[3].

وقال يوحنا: «قال المسيح: من يحبني يحفظ كلمتي، وأبي يحبه، وإليه يأتي، وعنده يتخذ المنزل، كلمتكم بهذا لأني عندكم مقيم، والفارقليط روح الحق[4] الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كلمًّا قلت لكم: استودعتكم سلامي[5]، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع، فإني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلىٰ الأب، فإن أنتم ثبتم في كلامي وثبت كلامي فيكم كان لكم كل ما تريدون، وبهذا يمجد[6] أبي»[7].

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠١، وعنه صدر المصنف، خير البشر ص١٣٢، وفي إنجيل يوحنا: (١٤: ٢٦): «وأما المعزي، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم».

(٢) ليست في (ل).

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٤، وفي إنجيل يوحنا: (١٤: ١٥): «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلىٰ الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامىٰ. إني آتي إليكم.».

(٤) كان كتب في الأصل (ل): روح القدس، ثم كتب ضرب علىٰ القدس، وكتب فوقها: الحق. وكذا وقع في الموضع الآتي. وفي المصدر: روح القدس.

(٥) في (ط النيل): وأمي.

(٦) في (ب): يحمد.

(٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٦، وانظر إنجيل يوحنا (١٤: ٢٣-٣١).

وقال أيضًا: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي يُرسله[1]، روح الحق الذي من أبي، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتىٰ إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه»[2].

وقال أيضًا: «إنَّ خيرا لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبِّخ العالم علىٰ الخطيئة، وإنَّ لي كلامًا كثيرًا، أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك يرشدكم إلىٰ جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب»[3].

وقال يوحنَّا الحواري: «قال المسيح: إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء»[4].

---

(١) في (ب، ل، المطبوعة، ط النيل): أرسله.

(٢) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧٠٨، خير البشر ص١٣٤، وفي إنجيل يوحنا (١٥: ٢٦-٢٧): «ومتىٰ جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق، الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء.». ثم في (١٦: ١): «قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا».

(٣) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧١١، خير البشر ١٣٤، وفي إنجيل يوحنا (١٦: ٤-٨) «لكني قد كلمتكم بهذا حتىٰ إذا جاءت الساعة تذكرون أني أنا قلته لكم. ولم أقل لكم من البداية لأني كنت معكم. وأما الآن فأنا ماض إلىٰ الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم».

(٤) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧١٤، إنجيل يوحنا (١٤: ٢٩-٣٠) وهو بحسب الترجمة الحالية: «وقلت لكم الان قبل ان يكون، حتىٰ متىٰ كان تؤمنون. لا اتكلم ايضا معكم كثيرا، لان رئيس هذا العالم ياتي وليس له في شيء».

وقال متَّىٰ التلميذ: «قال المسيح: ألم تقرؤوا أنَّ الحجر الذي أرذله البناؤون صار رأسًا للزاوية من عند الله، كان هذا وهو عجيب في أعيننا، ومن أجل ذلك أقول لكم: إنَّ ملكوت الله سيُؤخذ منكم، ويُدفع إلىٰ أمة أخرىٰ تأكل ثمرتها، ومن[1] سقط علىٰ هذا الحجر ينشدخ، وكل من سقط هو عليه يمحقه»[2].

وقال يوحنا التلميذ في كتاب «رسائل التلاميذ، المسمىٰ بفراكسيس»[3]:

«يا أحبابي، إياكم أن تؤمنوا بكل روح، لكن ميزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها[4]، واعلموا أنَّ كل روح تؤمن بأنَّ يسوع المسيح قد جاء وكان

---

(١) في (ب): ومتىٰ.

(٢) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧١٥، وفي إنجيل متَّىٰ (٢١: ٤٢-٤٤) بحسب الترجمة: «أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية؟ من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطىٰ لأمة تعمل أثماره. ومن سقط علىٰ هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه».

(٣) كذا في الأصول، موافقا لما في المصدر، وقد ذكره ابن القيم باسم: افراكيس، وهذا الخلاف قد يكون بسبب الترجمة، لأن الاسم أعجمي، والعرب لا تبتدئ بالساكن، فإما أن يحركوا أوله، أو يبتدئوا بهمزة الوصل، وعرفه ابن القيم بقوله: كتاب أخبار الحواريين (هداية الحيارىٰ ١/ ٣٤٢).

ولكن ابن حزم قد ذكره باسم: الأفْركسيس، ونسبه للوقا الطبيب، وقال: «الأفْرَكسيس كتاب ألفه لوقا الطبيب المذكور في أخبار الحواريين وأخبار صاحبه بولش البنياميني، وسيرهم وقتلهم، يكون نحو خمسين ورقة بخط مجموع». وصدر التعريف به بقوله: «وليس للنصارىٰ كتاب قديم يعظمونه بعد الأناجيل الأربعة إلا الأفركسيس» (انظر: الفصل في الملل والنحل ٢/ ٣، تاريخ نص الفصل في الملل والنحل ص٤٦١، تأليف د. سمير قدوري)، وهو نفسه سفر أعمال الرسل المنسوب إلىٰ لوقا.

(٤) هامش ظ: بلغ مقابلة.

جسدانيًا فهي من عند الله، وكل روح لا تؤمن بأن يسوع المسيح جاء وكان جسدانيًا فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب الذي سمعتم به، وهو الآن في العالم»[١].

وقال شمعون الصفا، رئيس الحواريين في كتاب «فراكسيس»: «إنَّه قد حان أن يُبْتَدَأَ الحكم من بيت الله ابتداء»[٢].

قلت: وهذا اللفظ - لفظ الفارقليط - في لغتهم ذكروا فيه أقوالاً[٣]:

قيل: إنه الحمّاد.

وقيل: الحامد[٤].

وقيل: المعزّ[٥].

وقد قيل: إنه الحمد، ورجح هذا طائفة.

---

(١) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧١٧. وقال: «فقد شهد الحواري بأن محمّد من عند الله؛ لأن محمّد قد آمن أن المسيح قد جاء وكان جسدانياً. فأما اليهود فلم يؤمنوا بالمسيح ولا كثير من أهل ذلك الزمان. واليهود إلىٰ الآن في انتظار مسيح آخر، ولا مسيح يأتي سوىٰ المسيح الدجّال الكذاب الذي حذرت منه الأنبياء عليهم السلام فهذا الحواري يوحنا قد شهد بصدق محمّد وأمته، وأن اعتقادهم في المسيح هو الاعتقاد الحقّ، وقد أكذب النصارىٰ بقوله هذا في دعوىٰ ربوبية المسيح. إذ فرَّق في قوله بين الله وبين الميسح. وشهد أن الله غيره وأنه غير الله».

(٢) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧١٧. وقال: بيت الله هو الكعبة.

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٢، هداية الحيارىٰ ٢/ ٤٨٧. وقد أطال عبدالله الترجمان الحديث عن الفارقليط في كتاب: تحفة الأريب في الرد علىٰ أهل الصليب، حيث كان هذا اللفظ سبب إسلامه.

(٤) في (ب، ل، ط النيل، المطبوعة): إنه الحامد.

(٥) في (ل): إنه المعزّ.

وقالوا: الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد، والدليل عليه قول يوشع: «مَن عمل[1] حسنة تكون له فارقليط جيد»، أي حمدٌ جيدٌ.

وقولهم المشهور في مخاطبتهم[2]: فارقليط، وفارقليطان، وما زاد على الجميع، أي: حمدٌ، ومنه كما نقول نحنُ: يد ومنَّة[3].

(وأكثر النصارىٰ[4] علىٰ أنه: المخلص.

وقيل: هو الحكيم[5].

والمسيح نفسه يسمونه المخلِّص، وفي الإنجيل الذي بأيديهم أنه قال: «إني لم آتِ لأزيِّن العالم بل لأخلص العالم»[6].

والنصارىٰ يقولون في صلواتهم[7]: «لقد ولدت لنا مخلصًا»)[8].

---

(١) في (ب): يعمل.

(٢) في (ب، ل، المطبوعة): تخاطبهم.

(٣) في (د، ط النيل): «ومنه كما يقول تجويد – وفي ط النيل: تحويد- ومنه هنا رويده يأتي بعد قوله وواحد منها بقي عبرانيا» وليس هذا في شيء من الأصول الخطية، ويظهر أنه يشير إلىٰ شيء في النسخة الأصل.

(٤) في (ب): كتب فوقها: مقدم، وسيأتي بيان معنىٰ ذلك..وحدد المقدم في (ب) بقوله: مقدم..إلىٰ. وفي (ل): ضرب عليها وكتب فوق السطر: يؤخر.

(٥) الجملة من (ظ) فقط. قال ابن ظفر: «هم مختلفون في معنىٰ الفارقليط، والذي صح عندي من ذلك قول الحكيم الذي يعرف السر». (خير البشر ص١٣٣).

(٦) إنجيل يوحنا ١٢: ٤٧.

(٧) ما سوىٰ (ظ): صلاتهم.

وأصل العبارة في التخجيل ٢/ ٧٠٢: «والنصارىٰ يقرؤون في صلاتهم: يا والدة الإله لقد ولدتي لنا مخلّصـًا».

(٨) ما بين القوسين من الأصل ظ، وقد تأخر في بقية الأصول إلىٰ ما بعد: وواحد بقي عبرانيا، ومحله هنا أليق. وكتب فوقه في (ل) في موضعه: تقدم. =

ومن قال: معناه المخلِّص فيحتجون بأنها كلمة سريانية، ومعناها المخلص، وقالوا: هو مشتق من قولنا: «راوق»[1]، ويقال بالسريانية «فاروق»، فجعل «فارق»، قالوا: ومعنى «ليط» كلمة تزاد للتثبيت[2] والتقدير كما يقال في العربية: رجل هو، وحجر هو، وبدر هو، وذكر هو، قالوا: وكذلك يزاد في السريانية[3]: «ليط».

والذين قالوا: هو المعزِّ، قالوا: هو في[4] لسان اليونان المعز.

ويعترض على هذين القولين: بأنَّ المسيح لم تكن لغته سريانية ولا يونانية، بل عبرانية.

ويجاب عنه: بأنه تكلم بالعبرانية، وترجم عنه بلغة أخرى (ظ١٣) كما أملوا أحد الأناجيل باليونانية، والآخر بالسريانية، والآخر بالرومية، وواحد منها بقي عبرانيا.

وقد اختلف فيه[5]:

فمن[6] النصارى من قال: هو روح نزلت على الحواريين، وقد يقولون:

= وليس هو في ط النيل.

(١) كذا في (ل) وفي الأصل: رادو، وفي (ب): فاروق، وفي المطبوعة في المتن (راوف)، وضبطها في الهامش بالقاف، وفي ط النيل: فار، وفي د: راد.
والذي في هداية الحيارى: فارق. وما أثبتناه أحرى أن يكون صحيحا، وينظر في بيان معنى هذه الكلمة: إظهار الحق ٤/ ١١٨٧.

(٢) ليست في (ب، ل، المطبوعة) وفي د، ط النيل: يراد بها للتثبت والتقدير..

(٣) في (ظ): اليونانية، وهو غلط، صوابه ما أثبت من باقي النسخ.

(٤) ليست في (ب).

(٥) أي في الفارقليط.

(٦) في (ل): عن.



إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلت الآيات والعجائب[١].

ولهذا يقول[٢] مَن خَبر أحوال النصارى: إنه لم ير أحدًا منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفارقليط الموعود به.

منهم من يزعم أنَّه المسيح نفسه؛ لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يومًا، وكونه قام من قبره.

(وتفسيره بالروح باطل، وأبطل منه تفسيره بالمسيح)[٣] لوجوه:

منها: أنَّ روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده[٤]، وليست موصوفة[٥] بهذه الصفات.

وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت -لما كان يهجو المشركين- قال: «اللهم أيده بروح القدس».

(١) ذكره أبو البقاء في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٥. ورده بأن هذه الألسن نزلت ثم انقضت ومضت ولم تدم للأبد ولم تعلم أحداً شيئا!
(٢) في (ب): يقولون.
(٣) ليست في (ب)، وكتب: وهذا ضعيف وتفسيره بهذا ظاهر البطلان، ثم ضرب عليه. بينما في (ل) كتب: وهذا ضعيف، ثم ضرب عليه، وأثبت مثل ما في الأصل.
(٤) هنا زيادة كتبت لحقا في الأصلين (ل، د) وعليها صح، وثبتت في متن (ط النيل، والمطبوعة): «وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب، أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين، قبل المسيح وبعده».
(٥) في (ب): موجودة.



وقال: «روح[1] القدس معك ما دمت[2] تنافح عن نبيه»[3].

وإذا كان كذلك؛ ولم يسمِّ أحدٌ هذه الروح فارقليطًا دلَّ علىٰ أنَّ الفارقليط أمر غير هذا.

وأيضًا: فمثل هذه ما زالت يؤيَّد بها الأنبياء والصالحون[4]، وما بشر به المسيح أمر عظيم، يأتي بعده أعظم من هذا.

وأيضًا: فإنَّه وصف الفارقليط بصفات لا تناسب هذا، وإنما تناسب رجلاً يأتي بعده نظيرًا له، فإنه قال: «إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر، يثبت معكم إلىٰ الأبد»[5].

فقوله: «فارقليطا آخر» دلَّ علىٰ أنَّه ثانٍ لأول كان قبله، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلاَّ هو، لم تنزل عليهم روح، فعلم أنَّ الذي يأتي بعده نظيرًا له، ليس أمرًا معتادًا يأتي للناس.

وأيضًا: فإنَّه قال: «يثبت معكم إلىٰ الأبد»، وهذا إنما يكون لما يدوم، ويبقىٰ معهم[6] إلىٰ آخر الدهر، ومعلوم أنَّه لم يرد بقاء ذاتِه، فعُلم أنَّه بقاء شرعه وأمره، فعُلم أنَّ الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلىٰ الأبد،

---

(١) في ما سوىٰ (ظ): إن روح.

(٢) في ما سوىٰ (ظ): زلت.

(٣) سبق تخريج الحديثين.

(٤) في (ل): والصالحين.

(٥) إنجيل يوحنا (١٤: ١٥-١٦) وهو بحسب الترجمة: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلىٰ الأبد».

(٦) في (ل): معكم.

وهذا يبين أنَّ هذا الثاني صاحب شرع لا يُنسخ[1] بخلاف الأول، وهذا إنما ينطبق علىٰ محمد ﷺ.

وأيضًا: فإنَّه أخبر أنَّ هذا الفارقليط الذي أخبر به يشهد له، ويُعلمهم كلَّ شيء، وأنه يُذكرهم كلَّ مَا قال المسيح، وأنه يوبخ العالم علىٰ الخطيئة[2]، فقال: «والفارقليط الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم».

وقال: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتىٰ إذا كان تؤمنوا به، ولا تشكوا فيه»[3].

وقال: «إنَّ خيرًا لكم أنْ أنطلق؛ لأني إنْ لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقتُ أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم علىٰ الخطيئة، وإنَّ لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلىٰ جميع الحق؛ لأنَّه ليس ينطق من عنده[4]، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم[5] بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب»[6].

---

(١) بيض لها في (ل).

(٢) في (ب، ل، المطبوعة): خطيئته.

(٣) إنجيل يوحنا (١٥: ٢٦) وهو بحسب الترجمة الحالية: «ومتىٰ جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الاب، روح الحق، الذي من عند الاب ينبثق، فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء».

(٤) في (ب، ل): من عند نفسه.

وصدق الله إذ يقول في صفة نبيه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٣-٥].

(٥) في (ل): ويخبر.

(٦) إنجيل يوحنا (١٦: ٥-١٦) بحسب الترجمة: «وأما الآن فأنا ماض إلىٰ الذي أرسلني، =

فهذه الصفات والنعوت -التي تلقوها[1] عن المسيح- لا تنطبق علىٰ شيء في قلب بعض الناس، لا يراه أحدٌ، ولا يسمع كلامَه[2]، وإنما ينطبق علىٰ من يراه الناس، ويسمعون كلامه، فيشهد للمسيح، ويعلمهم كل شيء، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوبخ العالم (ظ١٤) علىٰ الخطيئة، ويرشد الناس إلىٰ جميع الحق، وهو لا ينطق من عنده، بل يتكلم[3] بما يسمع، ويخبرهم بكل ما يأتي، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين.

وهذا لا يكون مَلَكًا لا يراه أحد، ولا يكون هُدىً ولا عِلما في قلب بعض الناس، بل لا يكون إلاَّ إنسانًا عظيم القدر، يخاطب الناس بما أخبر به المسيح، وهذا لا يكون إلا بشرًا رسولاً، بل يكون أعظم من المسيح، فإنَّ المسيح بيَّن أنه يقدر علىٰ ما لا يقدر عليه المسيح، من خطاب الناس بأمور عظيمة لا تحملها عقول أولئك[4]، ويعلم ما لا يعلمه المسيح، ويخبر بكل ما يأتي، وبما يستحقه الرب حيث قال: «وإنَّ لي كلامًا كثيرا أريد أنْ أقوله، ولكنكم لا تستطيعون

= وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتىٰ جاء ذاك يبكت العالم علىٰ خطية وعلىٰ بر وعلىٰ دينونة. أما علىٰ خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما علىٰ بر فلأني ذاهب إلىٰ أبي ولا ترونني أيضا. وأما علىٰ دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متىٰ جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلىٰ جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ما للاب هو لي. لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم. بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل إيضا ترونني، لأني ذاهب إلىٰ الاب».

(١) في (ب): نقلوها.

(٢) أي روح القدس.

(٣) في (ب): بكل ما.

(٤) «من خطاب ... أولئك» ليس في (ل).

حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلىٰ جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب»[1].

وهذه الصفات لا تنطبق إلاَّ علىٰ محمد ﷺ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات، وعن ملائكته وملكوته[2]، وعمَّا أعده في الجنة لأوليائه وفي النار لأعدائه؛ أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته علىٰ التفصيل.

ولهذا قال علي رضي الله عنه[3]: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله»[4].

وقال ابن مسعود: «ما من رجل يحدث قومًا حديثا[5] لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم»[6].

---

(١) حاشية في (ب): والأب بلغتهم هو الله الذي لا إله إلا هو، لا والد له، ولا مولود له.

(٢) في (ب، ل): وعن ملكوته.

(٣) في (ل): عليه السلام.

(٤) رواه البخاري في الصحيح (١٢٧)، وترجم عليه البخاري: باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية ألا يفهموا، دون قوله: «ودعوا ما ينكرون». وهذا الزيادة رواها آدم بن أبي إياس العسقلاني في كتاب العلم له، وأبو نعيم في المستخرج، ذكر ذلك الحافظ في فتح الباري (١/ ٢٢٥)، ثم قال: «ودعوا ما ينكرون أي يشتبه عليهم فهمه وكذا رواه أبو نعيم في المستخرج، وفيه دليل علىٰ أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة».

(٥) في (ب، ل) بحديث.

(٦) رواه مسلم في مقدمة الصحيح (١/ ١١). قال الحافظ في فتح الباري (١/ ٢٢٥): وممن كره التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج علىٰ السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، =

وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، قال: «ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت[1]؟ وكفرك بها تكذيبك بها»[2].

فقال لهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إن لي كلاما كثيرًا أريد أنْ أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله»، وهو الصادق المصدوق في هذا، لهذا ليس في الإنجيل من صفات الله، وصفات ملكوته، ومن صفات اليوم الآخر إلاَّ أمور مجملة، وكذلك التوراة، ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة[3]، مع أنَّ موسىٰ كان قد مهَّدَ الأمر للمسيح، ومع هذا فقد قال لهم المسيح: «إنَّ لي كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله»، ثم قال: «ولكن إذا جاء روح الحق ذلك الذي يرشدكم إلىٰ جميع الحق»، وقال: «إنه يخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للرب».

فدلَّ هذا علىٰ أنَّ هذا الفارقليط هو الذي يفعل هذا دون المسيح، وكذلك كان محمد ﷺ أرشد الناس إلىٰ جميع الحق، حتىٰ أكمل الله له الدين، وأتم به النعمة؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يبق شيء يأتي به غيره.

= وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلىٰ ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك: أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشىٰ عليه الأخذ بظاهره مطلوب.

(١) في (ب، ل): أخبرتكم بها لكفرتم، أي لو أخبرتكم بتفسيرها لكفرتم.
وفيهما تتمة الآية ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

(٢) رواه ابن جرير في التفسير ٢٣/ ٤٦٩، من طريق إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس، وفي ابن مهاجر ضعف يسير، قال الحافظ في التقريب: صدوق فيه لين، لكن روىٰ ابن جرير نحوه (٢٣/ ٤٧٠) من حديث جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في (ب): الجملة.

وأخبر محمد ﷺ بكل ما يأتي من أشراط الساعة، والقيامة، والحساب، والصراط، ووزن الأعمال، والجنة وأنواع نعيمها، والنار وأنواع عذابها، فلهذا كان في القرآن من تفصيل أمر الآخرة، وذكر الجنة والنار، وما يأتي من ذلك أمور كثيرة توجد لا في التوراة، ولا في الإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح: «إنه يخبر بكل ما يأتي».

ومحمد ﷺ بعثه الله بين يدي الساعة كما قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، (وأشار بأصابعه السبابة والوسطىٰ)[1] وكان إذا ذكر الساعة علا صوته، واحمر وجهه، واشتد غضبه (كأنه منذر جيش)[2].

وقال: «أنا النذير العريان»[3].

وقال: «إنْي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[4].

[5] فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يخبر[6] به نبي من الأنبياء، كما نعته به المسيح حيث قال: «إنه يخبركم بكل ما يأتي»، ولا يوجد

---

(١) ليست في الأصل (ظ).

(٢) مابين القوسين ليس في (ب).

والحديث رواه مسلم في الصحيح (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتىٰ كأنه منذر جيش يقول: «صبحكم ومساكم»، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، ويقرن بين إصبعيه السبابة، والوسطىٰ..الحديث.

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسىٰ، رواه البخاري(٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٤) كما في حديث ابن عباس في صدعه ﷺ بالدعوة، ، وهو متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) .

(٥) هنا في (ل) زيادة في المتن: «وقال إنما مثلي ومثلكم».

(٦) في (ل، ب): يأت.

قط مثل[1] هذا عن أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ، فضلاً عن أنْ يوجد عن شيء ينزل في[2] قلب بعض الحواريين.

وأيضًا: فقال: «ويعرفكم جميع ما للرب»، فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله، وذلك (ظ١٥) يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق، وما يجب من الإيمان به، وبملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتي به جامعًا لكل ما يستحقه الرب.

وهذا لم يأت به أحدٌ غير محمد ﷺ، حيث تضمَّن[3] ما جاء به من الكتاب والحكمة هذا كله.

(ومعلوم أنَّ ما نزل علىٰ الحواريين لم يكن فيه هذا كله ولا نصفه ولا ثلثه، بل ما جاء به المسيح أعظم مما جاء به الحواريون، وهذا الفارقليط الثاني جاء بأعظم مما جاء به المسيح)[4].

وأيضًا: فإنَّ المسيح قال: «إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أبي هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتىٰ إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه»، فبيَّن أنه أخبرهم به ليؤمنوا به إذا جاء، ولا يشكُّوا فيه، وأنه يشهد له، وهذه صفة من[5] بشَّر به المسيح وشهد للمسيح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

---

(١) في (ب): ولا يوجد هذا قط. وفي (ل): ولا يوجد مثل هذا قط.

(٢) في (ل): عن شيء نزل علىٰ قلب.

(٣) في (ل): يتضمن.

(٤) محل هذا في (ب) بعد قوله الآتي: تؤمنوا به ولا تشكوا فيه. وفي هذا الموقع اضطراب من الأصل (ب).

(٥) في (ل، ب): نبي.

وأخبر أنَّه يوبِّخ[1] العالم علىٰ الخطيئة، ولم يوجد أحد وبَّخ جميع العالم علىٰ الخطيئة إلاَّ محمد ﷺ، فإنه أنذر جميع العالمين[2] من أصناف الناس، ووبخهم علىٰ الخطيئة: من الكفر والفسوق والعصيان، ([3] وبَّخ المشركين[4] من العرب والهند والترك وغيرهم، ووبَّخ المجوس، وكانت مملكتهم أعظم الممالك، ووبخ أهل الكتابين اليهود والنصارىٰ، وقال في الحديث الصحيح عنه: «إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»)[5].

لم يقتصر علىٰ مجرد الأمر والنهي، بل وبَّخهم وقرعهم[6] وتهددهم.

وأيضًا: فإنَّه أخبر أنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا إخبار بأنَّ كل ما يتكلم به فهو وحي يسمعه، ليس هو شيئًا تعلَّمَه[7] من الناس، أو عرفه باستنباطه.

وهذه خاصة محمد ﷺ، فإنَّ المسيح ومن قبله من الأنبياء كانوا يتعلمون من غيرهم، مع ما كان يوحىٰ إليهم، فعندهم علم غير ما يسمعونه من الوحي، ومحمد ﷺ لم ينطق إلاَّ بما يسمعه من الوحي، فهو مبلِّغ لما أرسل به، وقد قيل له: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) وبَّخ بمعنىٰ لام وعذل وأنب وهدد (تاج العروس ٧/ ٣٦٣). وانظر: خير البشر ص١٣٥.
(٢) في (ل، ب) العالم.
(٣) ما بين القوسين ليس في (ب) وقد سقط من (ل) فاستدرك في الحاشية لحقا.
(٤) في (ل) جميع المشركين.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) في (ب): فزعهم.
(٧) في (ب) يعلم.

فضمن الله له العصمة إذا بلغ رسالاته، فلهذا أرشد الناس إلىٰ جميع الحق، وألقىٰ إلىٰ الناس ما لم يمكن غيره من الأنبياء إلقاءه خوفًا أنْ يقتلوه، كما يذكرون عن المسيح وغيره[1].

وقد أخبر المسيح بأنه لم يذكر لهم جميع ما عنده، وأنهم لا يطيقون حمله، وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم إذا أخبرهم بحقائق الأمور، ومحمد ﷺ أيده الله تعالىٰ تأييدًا لم يؤيده لغيره، فعصمه من الناس حتىٰ لم يخف من شيء يقوله، وأعطاه من البيان والعلم ما لم يؤته غيره، فالكتاب الذي بعث به فيه من بيان حقائق الغيب ما ليس في كتاب غيره.

وأيّد أمّتَه تأييدًا أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة، ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: «إن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تستطيعون حمله».

(وروي أن المسيح قال: جئتكم بالأمثال، وهو يجيئكم بالتأويل)[2].

ولا ريب أنَّ أمة محمد أكمل عقولاً، وأعظم إيمانًا، وأتم تصديقًا وجهادًا، ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية وإيمانهم أعظم، وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم[3].

---

(١) ليست في (ب).

(٢) ما بين القوسين من الأصل (ظ،د، ط النيل) فقط.

(٣) ومع ذلك فقد عوضهم الله خيرا بالبركة في أوقاتهم، حتىٰ يدركوا ما سبقتهم به الأمم السابقة من أعمال الأبدان، فأعطاهم فضيلة يوم عرفة، وفضيلة ليالي رمضان، كما ورد في سبب نزول سورة القدر، قال تعالىٰ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وقد جاء عن بعض السلف أنه قال: عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتىٰ يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتىٰ يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل. (انظر: تفسير الطبري ٢٤/ ٥٣٣، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٤١).

قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦] (ظ١٦).

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أن الله قال: «قد فعلت»[(١)].

وأيضًا: فإنَّه أخبر عن الفارقليط أنَّه يشهد له، وأنه يُعلِّمهم كل شيء، وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح، ومعلومٌ أنَّ هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس، لا يكون هذا شيئًا في قلب طائفة قليلة، ولم يشهد أحد للمسيح شهادةً سمعها عامة الناس إلاَّ محمد ﷺ، فإنه أظهر أمر المسيح، وشهد له بالحق حتىٰ سمع شهادته له عامة أهل الأرض، وعلموا أنه صدَّق المسيح، ونزَّهه عما افترته عليه اليهود، وعما غلت فيه النصارىٰ، فهو الذي شهد له بالحق.

ولهذا لما سمع النجاشي من الصحابة ما شهد به محمد ﷺ للمسيح قال لهم: «ما زاد عيسىٰ علىٰ ما قلتم هذا العود»[(٢)].

وجعل الله تعالىٰ أمَّة محمد شهداء علىٰ الناس، يشهدون عليهم بما

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

علموه من الحق، إذ كانوا وسطًا عدلاً، لا يشهدون بباطل، فإنَّ الشهيد[١] لا يكون إلاَّ عدلاً بخلاف من جار في شهادته، فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصارىٰ في المسيح.

وأيضًا: فإنَّ معنىٰ الفارقليط إنْ كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعزِّ؛ فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله علىٰ كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبهم وصلواتهم[٢]، ولهذا لما[٣] كان حمَّادًا جُوزي بوصفه -فإنَّ الجزاء من جنس العمل- فكان اسمه محمدا وأحمد[٤].

أما محمَّد: فهو علىٰ وزن مُكرَّم ومعظَّم ومقدَّس[٥]، وهو الذي يُحمد حمدًا كثيرًا مبالغًا فيه، ويستحقُّ ذلك، فلما كان حمادًا لله[٦] كان مُحمَّدا[٧].

وفي شعر حسان بن ثابت:

وشـقَّ لـه مـن اسـمه ليجلـه فـذو العـرش محمـود وهـذا محمـد[٨]

---

(١) هامش ظ: الشاهد خ. أي في نسخة. وهكذا ثبت في (ب، ل، د، ط النيل).

(٢) في (ب، ل، د، ط النيل): مفتاح خطبه ومفتاح صلاته.

(٣) في (د): ولما كان.

(٤) في (ب): محمد علىٰ وزن.. ويقط ما بينهما، وفي (ل) كتبها: محمدا ومحمد، فتكرر محمد مرتين، وهو سبق قلم بدليل أنه لم يصرفه، وما أثبت من الأصل وط النيل هو الصحيح، وبقية الكلام يدل عليه.

(٥) ليست في (د).

(٦) في (د): كان أحمد كان محمدا.

(٧) انظر الاشتقاق لابن دريد ص٨.

(٨) ديوان حسان بن ثابت ص٤٠.

وأما أحمد: فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحقُّ بأن يكون محمودًا أكثر من غيره، يقال: هذا أحمدُ من هذا، أي هذا أحق بأن يُحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل له علىٰ غيره في كونه محمدًا[1].

فلفظ «محمد» يقتضي فضله في الكمية، ولفظ «أحمد» يقتضي فضله في الكيفية.

ومن الناس من يقول: أحمد أي أكثر حمدا من غيره، فعلىٰ هذا يكون بمعنىٰ الحامد والحماد.

وقال -مَن رجَّح أنَّ معنىٰ الفارقليط في لغتهم هو الحمد كما تقدم-: وإذا كان كذلك فهو ما جاء في القرآن: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قالوا: ولا شك عندهم أنَّه اسم مشتق من الحمد، مثل ما نقول في لغتنا: ضارب ومضروب.

وأمَّا اسم «المعِزّ»[2] فلم يعرف قط نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزَّهم محمد، فهو أحق باسم المعز من كل إنسان[3].

---

(١) كذا في (الأصل ظ، د، وط النيل) وفي (ب، ل): محمودا، وهما بمعنىٰ، لما قرر من أن محمدا المحمود.

(٢) في د: وأما من فسره بالمعز. وهكذا هو في أصل ل، وكتب في الهامش مثل الذي ثبت هنا وفوقه خ.

(٣) علىٰ هذا المعنىٰ الذي ذكره المصنف فإنه: المعز، اسم فاعل من أعز يعز، لأنه يعز أهل الإيمان.

وفي هداية الحيارىٰ ص٣٣٥: المعزي. وهكذا هو في المطبوع من نسخ الإنجيل بحسب الترجمة الحالية، وفسره بعضهم بمعنىٰ المخفف، أي المعين والوكيل (إظهار الحق:١١٨٧) فتكون الكلمة علىٰ ذلك اسم فاعل من عزىٰ يعزي، والله أعلم.

وأما معنىٰ المخلص: فهو أيضًا ظاهر فيه، فإنَّ المسيح هو المخلص الأول كما ذكر في الإنجيل، وهو معروف عند النصارىٰ أنَّ المسيح صلوات الله عليه سُمِّي[1] مخلصًا، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول، وقد بشَّر بفارقليط آخر، فإنه قال: «وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر، يثبت معكم إلىٰ الأبد».

فهذه بشارة بمخلص ثان يثبت معهم إلىٰ الأبد، والمسيح هو المخلص الأول.

وأمَّا ما ينزل في القلوب فلم يسمه أحدٌ مخلِّصًا، ولا فارقليطًا، فلا يجوز أن يفسر كلام المسيح إلاَّ بلغته، ومعانيه المعروفة في لغته التي خاطب بها، وكذلك سائر الأنبياء، (ظ١٧) بل وسائر الناطقين.

وقد وُصف هذا المخلص الثاني بأنه يثبت معهم إلىٰ الأبد، ومحمد هو المخلِّص الذي جاء بشرع باق إلىٰ الأبد، لا ينسخ.

وأيضًا: ما[2] في إنجيل يوحنا أنَّ المسيح قال: «إنَّ أركون العالم سيأتي وليس لي شيء»[3].

وقد ذكروا أنَّ الأركون بلغتهم: العظيم القدر، والأراكنة العظماء[4]،

---

(١) في (د): قد سمي.

(٢) في (ب، ل، ط النيل): فإن في الإنجيل إنجيل يوحنا.

(٣) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧١٤، إنجيل يوحنا: الإصحاح ١٤: ٣١، ونصه: «أكلمكم كثيرا لأن أركون هذا العالم يأتي وليس له في شيء . ولكن ليعلم العالم أنني أحب الأب وكما أوصاني الأب كذلك أفعل قوموا ننطلق من هاهنا».

(٤) تخجيل من حرف التوارة والإنجيل ٢/ ٧١٤.

وقد كانوا يقولون عن المسيح: «إن أركون الشياطين يعينه[1]» أي عظيم الشياطين، وهو من افتراء اليهود على المسيح، فقول المسيح عليه السلام: «أركون العالم» إنما ينطبق على عظيم العالم وسيد العالم وكبير العالم، وقد أخبر أنه سيأتي، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح، أو أحدًا مثله، ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم وأطاعه العالم غير محمد ﷺ، وهذا من بشارة المسيح به.

وقد سُئل النبيُّ ﷺ: ما كان أول أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبُشرىٰ عيسىٰ، ورؤيا أمي رأت حين ولدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ببُصرىٰ»[2].

وبالجملة، فمعلوم بالاضطرار[3] واتفاق أهل الأرض أنَّه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطنًا وظاهرًا؛ وانقادت له القلوب والأجساد؛ وأطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار؛ وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا أحدٌ غير محمد ﷺ، فإنَّ الملوك يطاعون ظاهرًا لا باطنًا، ولا يطاعون

---

(١) في (ب): تعيبه، وهو تصحيف.
ووقع في إنجيل متىٰ نحو هذه العبارة من قول اليهود لما رأو بعض آيات المسيح عليه السلام، جاء فيه (٩: ٣٢-٣٥): «وفيما هما خارجان، إذا إنسان أخرس مجنون قدموه إليه. فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس، فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيل، أما الفريسيون فقالوا: برئيس الشياطين يخرج الشياطين».
ونحوه في إنجيل لوقا (١١: ١٥) ومرقس (٣: ٢٢) وفيه لما سمع المسيح ذلك قال: «كيف يقدر شيطان أن يخرج شيطانا».
وسموا اسم رئيس الشياطين: علزبول (انجيل متىٰ: ١١: ٢٤) وفي تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٨ أن اسمه: بعل زبول.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ليست في (ب، ل)، وفي (د، ط النيل): باتفاق أهل الأرض والاضطرار.

بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء.

ومحمد ﷺ أظهر دين الرسل قبله، وصدَّقهم، ونوه بذكرهم وتعظيمهم، فبه آمن بالأنبياء والرسل -مثل[1] موسىٰ والمسيح وغيرهما- أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم.

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيهم؛ كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم، وأيضًا فإنَّه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم.

ومحمد ﷺ صدق المسيح في أخباره بأنَّه أركون العالم فقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا»[2].

---

(١) في (ب، ل): قبل.

(٢) روىٰ الإمام مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) الجملة الأولىٰ منه، من حديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».
وروىٰ الترمذي (٣١٤٨) وابن ماجه (٤٣٠٨): عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة، ولا فخر». وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعيف الحديث، وقد اختلف عليه فيه، فرواه بعضهم عنه فقال فيه: عن ابن عباس، رواه الإمام أحمد في المسند (٢٥٤٦) ولفظه: «إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد تنجزها في الدنيا، وإني قد اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد، ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي، ولا فخر» ثم ذكر حديث الشفاعة. =

وهو صاحب لواء الحمد[1]، وصاحب المقام المحمود؛ الذي يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة[2]، فهو سيد العالمين حقًا، وهذا مطابق لقول المسيح: «إنه أركون العالم»، فهو أركون الآخرين في الدنيا والآخرة، وهو أركون الأولين والآخرين في الآخرة.

وقول المسيح: «إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء» تضمن

= وله شاهد من حديث أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة، ولا فخر، وأعطىٰ لواء الحمد، ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة، ولا فخر» رواه الإمام أحمد (١٢٤٦٩) بإسناد حسن.

وأما زيادة: «أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا» فقد روىٰ الدارمي (٤٩)، والترمذي (٣٦١٠)، عن أنس مرفوعا: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم علىٰ ربي»، لفظ الترمذي، وعند الدارمي: «أنا أولهم خروجا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم علىٰ ربي، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون، أو لؤلؤ منثور»

وفي إسناده ليث بن أبي سليم مضطرب الحديث، قال الترمذي: حسن غريب. وقد ذكره الدارقطني في العلل (٦/ ٨٠). إلا أن أحاديث الشفاعة في مجملها تثبت هذا المعنىٰ.

(١) سبق ذكر الأحاديث الدالة علىٰ ذلك، قال المناوي: «لواء الحمد: أي رايته، يومئذ: أي يوم القيامة، بيدي جريا علىٰ عادة العرب أن اللواء إنما يكون مع كبير القوم، ليعرف مكانه، إذ موضوعه أصالة شهرة مكان الرئيس» (فيض القدير ٣/ ٤٠).

(٢) قال ابن عمر: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتىٰ تنتهي الشفاعة إلىٰ النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود»، رواه البخاري (٤٧١٨) ثم رواه البخاري مطولا عن أنس بذكر الشفاعة (٧٤٤٠).

الأصلين: إثبات الرسول، وإثبات التوحيد، وأن الأمر كله لله[1]، وهو تحقيق شهادة: أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

وقول المسيح: «ليس لي شيء» تبرئة[2] له مما نسب إليه من الربوبية، وهذا النفي يشترك فيه جميع الخلق، قال الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ -أي: ملجأ وملاذًا[3]- ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأيضًا: ففي نبوة أشعياء أنَّه وصف محمدًا بأنَّه أركون السلم، والسلم والسلام: الإسلام[4]، فهو يبين أنه سيد[5] دين الإسلام، ولا ريب أن الأنبياء كلهم بعثوا بدين الإسلام، لكن لم يظهر هذا الدين واسمه وانتشر ذكر دين الإسلام في الأرض[6] كما ظهر بمحمد، فمحمد أركون الإسلام الذي يجمع كل خير وبر، كما أنَّ إبليس أركون الشر.

---

(١) في (ب): لله وحده.
(٢) في (د): تنزيه.
(٣) انظر تفسير الطبري ١٧/ ٦٥١، حيث ذكر اتفاق المفسرين علىٰ هذا المعنىٰ وإن اختلفت ألفاظهم.
(٤) في (ب، د): والسلم السلام والإسلام. وفي (ل): والسلام والسلام فهو يبين..
(٥) في (ب): فهو تبين أنه شيد دين الإسلام.
(٦) في (ب) زيادة: كلها. وفي (د، ط النيل): وانتشر ذكره من بينهم في الأرض.

قال تعالىٰ عن نوح: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢].

فهذا نوح -أول رسول بعثه الله تعالىٰ إلىٰ أهل الأرض- يذكر أنه أُمر أن يكون من المسلمين.

وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وقال موسىٰ لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، وقالت السحرة[1]: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦][2]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

---

(١) في (ب، ل، ط النيل) زيادة: «لما أسلموا وأراد فرعون قتلهم».

(٢) قدم في (ب، ل، د، ط النيل) بلقيس علىٰ السحرة. وما ثبت في الأصل أنسب للترتيب الزمني.

(وقال تعالىٰ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾)[1].

فإن قيل: فقد سمىٰ المسيح[2] الفارقليط روح الحق، وسماه روح القدس!

قيل: قد قال يوحنا في كتاب أخبار الحواريين، المسمىٰ «إفراكسيس»: «[3]إياكم أن تؤمنوا بكل روح، لكن ميزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها، واعلموا أنَّ كلَّ روح تؤمن بأنَّ يسوع المسيح قد جاء فكان جسدانيًا فهي من عند الله، وكل روح لا تؤمن بأنَّ المسيح جاء وكان جسدانيًا فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب، وهو[4] الآن في العالم».

وإذا كان كذلك عُلم أن الروح عندهم يتناول النبي المرسل من البشر، وجبريل الذي نزل بالوحي علىٰ محمد ﷺ هو روح الحق وروح القدس[5]، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

---

(١) ما بين القوسين من الأصل ظ، د، ط النيل.
(٢) من الأصل وط النيل.
(٣) في (ب، ل، د، ط النيل) زيادة: «يا أحبابي».
(٤) في (د): الذي هو الآن..
(٥) قدم وأخر في (د): «هو روح القدس وهو روح الحق».

وهذا الروح إنما جعله بمجيء محمد، والكلام الذي نزل به هو الذي بلغه محمد، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

فاصطفىٰ الله جبريل من الملائكة، ومن[1] البشر محمدًا ﷺ، ولهذا يضاف القول[2] الذي هو القرآن إلىٰ نزول هذا تارة، وإلىٰ نزول[3] هذا تارة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، فهذا الرسول[4] جبريل.

وقال[5]: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣]، فهذا الرسول محمد.

وأضافه إلىٰ كل منهما بلفظ الرسول لتضمنه أنه بلغه عن مُرسله، لم يقل: إنه لقول ملك، ولا نبي، بل كفَّر من قال: إنه قول البشر كما ذكر ذلك عن الوحيد[6].

وقد قال تعالىٰ في القرآن: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١]،

---

(١) في (ب، ل، د، ط النيل): «واصطفىٰ محمدا من البشر».

(٢) في (د): ولهذا يشير القول.

(٣) في (ل): قول هذا تارة وإلىٰ قول..، وكان كتب: نزول ثم ضرب عليها.

(٤) في (ب،ل، د) زيادة في الموضعين: هنا.

(٥) في (ب، ل، ط النيل): وقال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ.

(٦) وهو الوليد المذكور في قوله تعالىٰ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلىٰ أن قال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨-٢٥].

ومعلوم أنَّ الرسول نفسه لم ينزل، بل أبدل الرسول(١) من الذكر؛ لأنَّ الرسول جاء بالذكر.

ولما كان الرسول الملكي والرسول البشري والذكر المنزل أمورا متلازمة؛ يلزم من ثبوت واحد ثبوت الآخرين، ومن الإيمان (ظ١٩) بواحد الإيمان بالآخرين، فيلزم من كون القرآن حقًّا كون جبريل ومحمد حقًّا، وكذلك يلزم من كون محمد حقًّا كون جبريل والقرآن حقًّا، ويلزم من كون جبريل حقًّا كون القرآن ومحمد حقًّا، ولهذا جمع الله بين الإيمان بالملائكة(٢) والكتب والرسل في مثل قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فتعليم محمد وتذكيره وشهادته هو تعليم روح القدس وروحه، والإخبار بأنَّ الملك ينطق علىٰ لسان البشر؛ أو الجني ينطق علىٰ لسانه كثير(٣)، كما في حديث ابن عمر: «كنا نتحدث أنَّ السكينة تنطق علىٰ لسان عمر»(٤).

---

(١) كذا في الأصول إلا (ظ) ففيها: «بل أنزل للرسول من الذكر». وهو وإن كان صحيحا إلا أن ما ثبت في بقية الأصول أصح.

(٢) هاهنا سقط في ط النيل وأصلها (د) ينتهي عند قوله الآتي: من وجهين. وسأنبه علىٰ آخره وما كتب الناسخ عليه.

وحاول الناسخ إكمال المعنىٰ فكتب في الهامش: «لعله وبالأنبياء من جهتين».

(٣) في (ب): «والجني ينطق علىٰ لسان البشر». ومثله في (ل) لكن: أو.

(٤) حديث ابن عمر رواه الترمذي (٣٦٨٢) عنه قال: رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق علىٰ لسان عمر وقلبه». وقال ابن عمر: «ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه - شك خارجة - إلا نزل فيه القرآن علىٰ نحو ما قال عمر»، صححه الترمذي، ثم قال: وفي الباب عن الفضل بن العباس، وأبي ذر، وأبي هريرة.

وروىٰ أحمد في المسند (٨٣٤) عن علي قال: «وما نبعد أن السكينة تنطق علىٰ لسان عمر».

ويقال: «ما ألقىٰ هذا علىٰ فِيك[1] إلا الشيطان».

ويكون مع هذا البشر يتكلم[2] بقدرته واختياره، ليس هو كالمصروع الذي يتكلم الجني علىٰ لسانه وهو لا يدري ما يقول، فلهذا يقال: هذا قول الرسول البشري[3]، وهو[4] قول الرسول الملكي.

ويقال: الفارقليط روح الحق وروح القدس يشهد لي وهو يعلمكم، وهو يذكركم، ونحو ذلك، فإنَّ الفارقليط يتضمن ذكر جبريل ومحمد جميعًا، وقول أحدهما هو قول الآخر، ومعروف في اللغة بدل الاشتمال[5]، كقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، والشهر ليس هو نفس القتال، لكن لما اشتمل علىٰ القتال أبدل أحدهما من الآخر[6].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠ - ١١].

ومن هذا النمط أبدل الرسول من الذكر لاشتماله عليه، وهنا[7] الثاني اشتمل علىٰ الأول، والرسول البشري كان الرسول الملكي يتصل به في الباطن

---

(١) في (ل): لسانك.
(٢) في (ب، ل): ينطق.
(٣) في أصل ظ: الملكي، وما ثبت من هامشها وكتب فوقه: خ. ووكذا هو في بقية الأصول.
(٤) في (ب): وهذا.
(٥) بدل الاشتمال: هو بدل شيء من شيء، يشتمل عامله علىٰ معناه اشتمالا بطريق الإجمال، كأعجبني زيد علمه، قال ابن هشام: وضابطه أن يكون بين الأول والثاني ملابسة بغير الجزئية، انظر: المفصل في صنعة الإعراب ١٥٧، أوضح المسالك ٣/ ٣٦٥، شرح قطر الندىٰ ٣٠٩، حاشية الصبان علىٰ الأشموني ٣/ ١٨٥.
(٦) انظر اللمع لابن جني ٨٩.
(٧) في (المطبوعة): وهذا.. وليس في الأصول ما يوافقه.

فيثقل عليه الوحي حين ينزل[1].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام قال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانًا[2] في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم[3] عني، وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»، قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنَّ جبينه ليتفصد عرقا»[4].

والفصم: الفك والفصل في الأمور اللينة، كما قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبالقاف: هو الكسر الذي يكون في الأمور الصلبة[5].

فبين أنَّ الملك حين نزول الوحي يتصل به، ويلتبس به، ثم بعد ذلك ينفصل عنه وينفك عنه، وهذا الاشتمال والاتصال[6] أبلغ من غيره، فيحسن معه أن يكون إبدال أحدهما من الآخر أحسن من غيره، فيقال: هذا القرآن بلغه الرسول النبي، بلغه جبريل عن الله، ونظائر هذا متعددة.

---

(١) في (ب،ل): ينزله.

(٢) في (ب، ل) زيادة: يأتيني.

(٣) في (ب) في الموضعين: فيقصم

(٤) صحيح البخاري (٢)، صحيح مسلم (٢٣٣٣).

(٥) قال الحافظ: «أصل الفصم القطع، ومنه قوله تعالىٰ ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦] وقيل: الفصم بالفاء القطع بلا إبانة، وبالقاف القطع بإبانة، فذكر بالفصم إشارة إلىٰ أن الملك فارقه ليعود والجامع بينهما بقاء العلقة» (فتح الباري ١/ ٢١)، والمنقول ذكره ابن الأثير في النهاية (٤/ ٧٤).

(٦) في (ل): والانفصال.

وفي جميع بشارات المسيح؛ يذكر أنَّ الأب -وهو في لغتهم: هو[1] الله- هو الذي يرسل الفارقليط، وفي بعضها قال: «أنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر، يثبت معكم إلىٰ الأبد»، وفي بعضها: «والفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء»، فقد بيَّن أنَّ الله يرسله، وأنه يطلب من الله أن يرسله.

وأما قوله في بعض الألفاظ: «فإذا انطلقت أرسلته إليكم» فيكون معناه: إني أرسله بدعاء أبي، وطلبي منه أن يرسله، كما يطلب الطالب من ولي الأمر أن يرسل رسولاً، أو يولي نائبًا، أو يعطي أحدًا، ويقول: أنا أرسلتُ هذا، ووليت هذا، وأعطيت هذا؛ أي: كنت سببًا في ذلك[2].

ومما ينبغي أن يُعلم أنَّ الله تعالىٰ إذا قضىٰ بأن[3] يكون الشيء فإنه يقدر له أسبابًا يكون بها، ومن تلك الأسباب دعاء طائفة من عباده به، فيكون في ذلك من النعمة إجابة دعاء هذا وهذا وهذا[4].

ومحمد ﷺ دعا به الخليل عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، مع أن الله تعالىٰ قد قضىٰ بإرساله، وأعلن باسمه قبل ذلك كما قيل له: يا رسول

---

(١) ليست في (ل).

(٢) ويمكن أن يكون مراده أن انطلاقي سبب إرساله، لما يعلمه من أنه لا يأتي هذا حتىٰ يذهب هذا، أي لا يأتي محمد حتىٰ يرفع المسيح عليهما السلام، فجعل انطلاقه سببا لإرساله من هذا الوجه، والله أعلم.

(٣) في (ل): ما يكون.

(٤) سقطت الأخيرة من (ب).

الله، متىٰ كنت[1] نبيًا؟ قال: (ظ ٢٠) «وآدم بين الروح والجسد»[2]، وقال: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته»[3].

وهذا كما أنَّ الله قضىٰ بنصره يوم بدر، ومن أسباب ذلك استعانته[4] بالله.

وكذلك ما يقضيه من إنزال الغيث يكون من أسبابه دعاء عباده له، ونظائره كثيرة، فلا يمتنع أن يكون المسيح سأل ربه بعد صعوده أن يرسل محمدًا ﷺ، ويكون هذا من أسباب إرساله، لكن إبراهيم سأل في الدنيا فذكر الله تعالىٰ ذلك، بخلاف سؤال المسيح، فإنه كان بعد صعوده إلىٰ السماء[5].

---

(١) هذا الحرف مهمل في (ل) لكنه من عدد النبرات يكون: كتبت.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ل):استغاثته.

(٥) أطال المصنف الحديث عن الفارقليط وعن الأركون في هذه البشارة، ومن المهم أن يعلم أن الكلمة الآن ليست موجودة في الأناجيل المنتشرة بين يدي الناس، قال د. محمود قدح في تحقيقه (تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ٢/ ٧٠٣): «إن الطبعات الحديثة للأناجيل لا توجد فيها لفظة: «فارقليط»، وأبدلت بألفاظ أخرىٰ مثل: «المُعزي، المحامي، المعين، المخلص، الوكيل، الشافع». علمًا بأن كلمة «الفارقليط» كانت موجودة في الترجمة العربية للأناجيل المطبوعة في لندن سنة ١٨٢١م، ١٨٣١م، ١٨٤٤م. وقد وقفت علىٰ مخطوطة لترجمة التوراة والزبور والإنجيل في إسطنبول بمكتبه عاطف أفندي تحت رقم: (٧). وفيها ذكرت لفظة الفارقليط. ومعلوم لدينا أن اليهود والنصارىٰ يسعون إلىٰ إخفاء البشارات بالنبيّ ﷺ من كتبهم المقدسة لديهم أو تحريف معناها. وذلك مما أخبرنا الله عزوجل عنهم فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فما معنىٰ كلمة: فارقليط التي اخلف النصارىٰ في معناها؟ إن فارقليط معربة من كلمة: بيركليتوس اليونانية (PERIQLYTOS) التي تعني اسم: أحمد، صيغة المبالغة من الحمد. والأدلة علىٰ ذلك كثيرة منها:

=

فصل:

والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعًا متعددة، مع اشتمال كل نوع علىٰ عدد من الآيات والبراهين.

مثال ذلك:

إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرًا أن يعلمه إلاَّ أن يكون

= ١- شهادة العلامة علي بن ربنّ الطبري - الذي كان مسيحياً فأسلم - في القرن الثالث الهجري بذلك في كتابه: الدين والدولة ص ١٨٤.

٢- إن هذه الكلمة كانت سبباً في إسلام القس الأسباني: أنسلم تورميدا في القرن التاسع الهجري بعدما أخبره أستاذه القسيس - بعد إلحاح منه - أن الفارقليط هو اسم من أسماء محمّد ﷺ. فكان ذلك سبباً في إشهار إسلامه وتغيير اسمه إلىٰ عبد الله الترجمان وتأليف كتابه: تحفة الأريب في الرّدّ علىٰ أهل الصليب، وذكر فيه قصته مفصلة. ر: ص: ٦٥-٧٥.

٣- شهادة القسيس دافيد بنجامين كلداني - الذي هداه الله إلىٰ الإسلام وغيّر اسمه إلىٰ: عبد الأحد داود- في كتابه القيم: «محمّد في الكتاب المقدس» بذلك، فقد وضح فيه أن الفارقليط ليس هو الروح القدس وليس أي شيء يدعيه النصارىٰ، وإنما هو اسم محمّد ﷺ. وبيّن ذلك بأدلة من نصوص الأناجيل وقواميس اللغة اليونانية. (ر: ص: ٢٠٧-٢٢٩ من كتابه المذكور) .

٤- ذكر الأستاذ عبد الوهّاب النجار في قصص الأنبياء ص ٣٩٧، ٣٩٨، أنه كان في سنة ١٨٩٤م زميل دراسة اللغة العربية للمستشرق الإيطالي. (كارلو نالينو) وقد سأله النجار في ليلة ٢٧/ ٧/ ١٣١١هـ ما معنىٰ: بيريكلتوس ؟. فأجابه قائلاً: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها: المعزي. فقال النجار: إني أسأل الدكتور كارلونالينو الحاصل علىٰ الدكتوراه في آداب اليهود باللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيساً. فقال: إن معناها: «الذي له حمد كثير».فقال النجار: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال الدكتور: نعم. فقال النجار: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد، فقال الدكتور: يا أخي أنت كثيراً ثم افترقا. (ر: للتوسع في المزيد من الأدلة: إظهار الحق ص ٥١١-٥١٤، دراسة الكتب المقدسة ص ١٢٥-١٢٩، موريس بوكادي)».



نبيًا، أو يكون ممن تلقاه عن نبي، وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر، لا من أهل الكتاب، ولا غيرهم[١].

وهذا نوعان:

منه: ما كان يسأله عنه المشركون أو[٢] أهل الكتاب لينظروا هل هو نبي أم لا؟

وكان قومه يرسلون إلىٰ أهل الكتاب البعيدين عنهم، مثل مَن كان بالمدينة، وغيرها من أهل الكتاب، يطلبون منهم ما يسألونه عنه، فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك، ويمتحنون بذلك هل هو نبي أم لا؟

ومنه: ما كان الله تعالىٰ يخبره به ابتداءً، ويجعله عَلَما وآية لنبوته، وبرهانًا لرسالته، مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمور أخرىٰ.

فكان كلٌّ من هذين النوعين دليلاً وعبرة علىٰ نبوته، من طريقين، فكانت عبرة ودليلاً[٣] علىٰ نبوته من جهة إخباره بالغيب، الذي لا يعلمه إلا نبي، وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله، وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله، وحكم الشيء حكم نظيره.

فإذا كان مَن كان مثله ومثل من اتبعه سعيدًا، وكان[٤] من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيًا، كان في هذا دلالة[٥] وعبرة توجب اتباعه، وتنهىٰ عن مخالفته.

---

(١) في (ب): ولا من غيرهم.

(٢) في (ب، ل): وأهل.

(٣) في (ل): وكان دليلا وعبرة علىٰ نبوته.

(٤) في (ب،ل): وحال.

(٥) هامش (ف): الدلالة بكسر الدال وفتحها الحجة، من شرح خطب ابن نباتة.

وهذا أيضًا دليل على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين[1]:

من جهة: (أنهم أخبروا به قبل أن يبعث بسنين كثيرة، فكان الأمر كما أخبروا به، وهذا آية لنبوتهم، وإخبارهم بنبوته دليل على نبوته، فصار ما في الكتب المتقدمة من خبره دليلا على نبوة من قبله وعلى نبوته، كما أن إخباره هو أيضًا عنهم مع بعد العهد خبرا لم يتعلمه من بشر دليلا على نبوته، وقد أخبر بنبوتهم، فثبتت نبوته ونبوتهم ﷺ أجمعين.

الجهة الثانية)[2]: أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينه وبينهم[3]، لم يأخذوا عنه، ولم يأخذ عنهم، وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة، يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطؤ، فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة؛ علم أن كلاً من المخبرين صادق.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، وقص قصته في السورة، إلىٰ أن قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢ - ١٠٦].

---

(١) في (ط النيل): من جهتين، وهذا نهاية السقط الذي أشرنا إليه آنفا. وهو بمقدار ورقة من المخطوط (د)، وكتب في هامش د: «هنا نقص ورقة في النسخة المنقول منها فليراجع من نسخة أخرىٰ إن وجد». ثم ضرب عليه.

(٢) سقط ما بين القوسين -وهو الجهة الأولىٰ من تنظير المصنف- من (ب، ل) لانتقال النظر، ولم يثبته في متن المطبوعة، وهو ثابت في الأصل ومطبوعة النيل، وبه يتم الكلام.

(٣) في (ب، ل، د) زيادة: ولا تشاعر. وفي (د، ب، ل): بينهم وبينه.

إلىٰ قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحىٰ[1] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٨ - ١١١].

(ظ٢١) وقال تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

وقال تعالىٰ لما قص قصة نوح من سورة هود، وهي أطول ما قصه في القرآن من قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه (من أنباء الغيب)[2] ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا،

---

(١) كذا ضبطها في ظ، وهي قراءة من سوىٰ حفص، وقرأ حفص: ﴿نُوحِيٓ﴾ (النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٩٦).

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب).

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه -وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون أيضًا أنه هو لم يكن يعلم ذلك، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم وهم لا يعلمون ذلك- صار هذا حجة علىٰ قومه، وعلىٰ من بلغه خبر قومه.

ومثل[1]: ما أخبرهم عن قصة آدم، وسجود الملائكة له، وتزيين إبليس له حتىٰ أكل من الشجرة، وهبط هو وزوجه[2].

وأخبرهم عن نوح[3] (ودعائه لقومه)[4] ومكثه فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، وهذا في التوراة الموجودة بأيدي أهل الكتاب: مقدار لبثه في قومه قبل الغرق وبعده[5].

---

(١) في (د): ومثل هذا.

(٢) في (ب): وزوجته إلىٰ الأرض.

(٣) في (ب، ل): قصة نوح.

(٤) ما بين القوسين ليس في (ل). وفي (ط النيل دون د): ودعاه علىٰ قومه.

(٥) في سفر التكوين (٩: ٢٨-٢٩): «وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة، ومات».
ولا شك أن هذا من تحريف أهل الكتاب فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]. انظر: تفسير الطبري ٢٠/ ١٧، تفسير البغوي ٦/ ٢٣٦.
وذكر ابن عطية (في التفسير ٤/ ٣١٠) احتمالا أن يكون مراده من الألف إلا خمسين مدة مكثه في قومه قبل الرسالة وبعدها، وهذا مخالف للتفسير بالمأثور، والله أعلم.
علىٰ أن المذكور في نسخ التوراة من زمن المصنف وإلىٰ زماننا يخالف المروي عن كعب الأحبار-وهو من أحبار اليهود الذين أسلموا- فإنه قال: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان سبعين عاما فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاما (تفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٢).

وأخبرهم عن قصة الخليل، وما جرىٰ له مع قومه، وإلقائه في النار، وذبح ولده، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وتبشيره بإسحاق ويعقوب، وذهاب الملائكة إلىٰ لوط، وما جرىٰ للوط مع قومه، وإهلاك الله مدائن قوم لوط، وقصة إسرائيل يعقوب[1] مع بنيه، مثل قصة[2] يوسف وما جرىٰ له بمصر، ثم قصة موسىٰ مع فرعون، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة، وآياته: كالعصا واليد[3] والقمَّل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام علىٰ بني إسرائيل، وإطعامهم المن والسلوىٰ، وانفجار الماء من الحجر اثنا عشر عينًا[4] لسقيهم، وعبادتهم العجل، وقتل بعضهم بعضًا لما تاب الله عليهم، وقصة البقرة، ونتق الجبل فوقهم، (وقصة داود وقتله لجالوت، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه)[5]، وغير ذلك من أحوال بني إسرائيل، إلىٰ أنْ ذكر قصة زكريا وابنه يحيىٰ، وعيسىٰ بن مريم، وأحوال المسيح وأيامه[6]، ودعائه لقومه، والآيات التي بعث بها، وتفاصيل ذلك.

وذكر قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار مفصلة مبينة بأحسن بيان وأتم معرفة، مع علم

---

(١) من الأصل ظ فقط.

(٢) في (ل، ط النيل، د): كقصة. وقد سقطت هذه الجملة من (ب) ووضع علامة اللحق علىٰ جهة اليسار، ولم أره كتب شيئا.

(٣) في (ب، ل، د، ط النيل):واليد البيضاء.

(٤) كذا في الأصول إلا د. ففيه: اثني عشر. والوجه: اثنتا عشرة عينا.

(٥) ما بين القوسين علم علىٰ أوله وآخره في ظ بـ: لا... إلىٰ، وكتب فوقه: خ، أي أنه سقط من نسخة. وليس هو في (ب). وثبت في باقي الأصول.

(٦) في (ل، د): وآياته.

قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلىٰ أن ادَّعىٰ النبوة أنه لم يتعلم هذا من بشر، بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك، ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك، لا يهودي ولا نصراني، ولا غيرهم.

فكان هذا من أعظم الآيات والبراهين لقومه بأنَّ هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله، ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبي، أو من أخذ عن نبي، فإذا لم يكن هو قد أخذه عن نبي تعيَّن أن يكون نبيًا.

ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر، من طرق[1]:

أحدها: أن قومه المعادين له الذين هم من أحرص الناس علىٰ القدح في نبوته -مع كمال علمهم- لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر لطعنوا عليه ذلك وأظهروه، فإنهم - مع علمهم بحاله - يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان، ومع[2] حرصهم علىٰ القدح فيه يمتنع أن لا يقدحوا فيه، ويمتنع أن لا يظهر ذلك.

الثاني: أنه قد تواتر (ظ٢٢) عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به من يُعلِّمه ذلك.

الثالث: أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب - مع عداوته لهم - لكانوا يخبِّرون بذلك، ويظهرونه، ولو أظهروا ذلك لنقل[3] وعرف، فإن هذا من الحوادث التي تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله.

الرابع: أنه حين بعث كان الناس إمَّا مشركًا وإمَّا كتابيًا، فلم يكن هناك أحد علىٰ الدين الذي دعا إليه، وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين من قريش

---

(١) وفي هذا جواب علىٰ سؤال: كيف يعرف العجم أوجه إعجاز القرآن.

(٢) في (ب) بدون عطف.

(٣) في (ب، ل، د، ط النيل): لنقل ذلك.

وغيرهم لم يكونوا يعرفون هذه القصص، ولو قدر أنهم كانوا يعرفونها[١] فهم أول من دعاهم إلىٰ دينه فعادوه وكذبوه، فلو كان فيهم من علَّمَه أو من يعلم أنه تعلمه من غيره لأظهر ذلك.

الخامس: أن مثل هذا لو كان فلا بدَّ أن يعرفه ولو خواص الناس، وكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك يشيع ولو تواصوا بكتمانه، كما شاع ما كُتم من أمر الدول الباطنية، ولكان خواصه في الباطن يعلمون كذبه، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه في الباطن كما عُرف في نظائر[٢] ذلك، فكيف وكان أخص أصحابه وأعلمهم بحاله أعظمهم محبة وموالاة، بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر، فإن خواص أصحابه لا يعظمونه في الباطن.

فإذا علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة -وكانوا يطلبون القدح في نبوته بكل طريق- يخبرون[٣] أنه لم يكن عندهم بشر يعلِّمُه مثل هذا -وأنه لم يكن في قومه ولا بلده من يعرف هذا- عَلِمَ الناس ما علمه قومه من أنَّ هذا إنما أنبأه به الله، وكان هذا من أعلامه وآياته وبراهينه.

وهذا مما بيَّن الله في القرآن أنه من آياته، وأنه حين أخبر قومه بهذا - مع تكذيبهم وعداوتهم[٤] له - لم يمكن أحدا منهم أن يقول له: بل فينا من كان يعلم ذلك، وأنت كنت تعلم ذلك، وقد تعلمته منا أو من غيرنا، فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم -مع فرط عداوتهم له- آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك.

---

(١) في (ب): يعرفون.
(٢) في (ب،ل): في مثل.
(٣) في (ب، ل): يعلمون.
(٤) في (ب، ل، د، ط النيل): وفرط عداوتهم.

ولهذا[1] لما كان بعضهم يفتري عليه فرية ظاهرة كانوا كلهم يعلمون كذبه، وإذا اجتمعوا وتشاوروا في أمره يعرفون[2] أنَّ هذا كذب ظاهر عليه، كما كان بعضهم يقول: إنه مجنون، وبعضهم يقول: إنه كاهن، وبعضهم يقول: إنه ساحر، وبعضهم يقول: إنه مُعلَّم تعلمه[3] من بشر، وبعضهم يقول: أضغاث أحلام، فحكىٰ الله أقوالهم مبينًا ظهور[4] كذب من قال ذلك، وأنه قول ضال جائر[5]، قد بهره حال الرسول فحار، فلم يدر ما يقول.

كما قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ١ - ٦].

فأخبر عمن قال ذلك، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب، فإن هذه القصص المذكورة في القرآن لم يكن بمكة من يعرفها، فضلاً عن أن يمليها، كما

---

(١) من هنا سقطت ورقة من الأصل المنقول عنه الأصل(ب)، وسيأتي بيان آخره، وكتب في الهامش: الوريقة أولها ولهذا.

(٢) في (د): يعترفون.

(٣) في (ل): إنه تعلم من بشر.

(٤) في (ل): لظهور.

(٥) في (ل، د، ط النيل): حائر.



قال تعالىٰ[1]: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] ؛ ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: ٦] ؛ فأخبر أن هذا مِن علم مَن يعلم السر، والبشر[2] لا يعلمون ذلك إلا من جهة إخبار الأنبياء، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء.

ثم ذكر ما اقترحوه فقال (ظ٢٣): ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ (فهذه اقتراحات ليست أخبارا)[3]، ثم قال: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٧ – ٩].

(فقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾)[4] أمر بالنظر في كيفية ما ضربوه من الأمثال، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهورا لا يخفىٰ علىٰ الناظر، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٩]، إذ كان ظاهرا أن هذا ضلال عن طريق الحق، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق سبيلاً إليه[5].

---

(١) في (ل، د، ط النيل): «كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال..».

(٢) في (ل، د): إذ كان البشر.

(٣) ما بين القوسين ليس في (ل) ولم يفصل في (د، ط النيل) بين الآية بشيء..

(٤) ما بين القوسين من الأصل ظ فقط.

(٥) في (ب، د): إليه سبيلا.



وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٣].

فأخبر عما افتراه بعضهم، من قوله: إنما يعلمه (هذا القرآن)[1] بشر. وكان بمكة مولىٰ أعجمي -مولىً[2] لبعض قريش- قيل: إنه عبدٌ[3] لبني الحضرمي[4].

والنبي لا يحسن بلسان العجمي، وذاك لا يحسن التكلم[5] بهذا اللسان[6] العربي.

فلما قالوا: إنه افترىٰ هذا القرآن، وأنه علمه إياه بشر قال تعالىٰ:

---

(١) ليست في (ل). وفي ط النيل: «إنما يعلمه هدي القرآن» وهو تصحيف، حيث في الأصل د يكتب هذا هكذا: هدي.

(٢) في (ل، د): مولىٰ أعجمي لبعض.

(٣) في (د): مولىٰ.

(٤) روىٰ ابن جرير عن قتادة قال: قالت قريش: إنما يعلمه بشر، عبد لبني الحضرمي يقال له يعيش، قال الله تعالىٰ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وكان يعيش يقرأ الكتب (تفسير الطبري١٧/ ٢٩٩).

(٥) في (ل، د، ط النيل): يتكلم.

(٦) في (ل، ط النيل فقط): الكلام.

﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ [النحل: ١٠٣]، أي يضيفون إليه هذا التعليم وينسبونه إليه، وعبَّر عنه بلفظ الإلحاد لما فيه من الميل[١].

فقال: لسان هذا الشخص الذي قالوا إنه يعلمه القرآن لسان أعجمي، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلىٰ رجل عربي، بل إلىٰ هذا الأعجمي لكونه كان ربما[٢] يجلس أحيانًا إلىٰ النبي ﷺ، وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم[٣] بهذا الكلام العربي، بل هو أعجمي، ومحمد لا يعرف بالعجمية، ولكن غاية ذاك المولىٰ[٤] الأعجمي -كعبد بني الحضرمي- أن يكون يعرف قليلاً من كلام العرب الذي يحتاج إليه في العادة، مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات؛ كلفظ الخبز والماء والسماء والأرض، لا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من سور[٥] القرآن[٦].

---

(١) ذلك لأن أصل الإلحاد الميل، ومنه اللحد حفرة مائلة من الوسط، قال الراغب: «ولحد بلسانه إلىٰ كذا: مال. قال تعالىٰ: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل: ١٠٣] من: لحد، وقرئ: ﴿يَلحدون﴾ من: ألحد، وألحد فلان: مال عن الحق» (مفردات القرآن ٧٣٧). والقراءة الثانية هي قراءة حمزة والكسائي وخلف (كما في النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٧٣). قال ابن جرير: «يلحدون إليه: بضم الياء من ألحد يلحد إلحادا، بمعنىٰ يعترضون، ويعدلون إليه، ويعرجون إليه...، وبفتح الياء، يعني: يميلون إليه، من لحد فلان إلىٰ هذا الأمر يلحد لحدا ولحودا، وهما عندي لغتان بمعنىٰ واحد» (تفسير الطبري ١٧/ ٣٠١).

(٢) ليست في (ل).

(٣) في (د): أن يتكلم.

(٤) ليست في (ل).

(٥) ليست في (ل).

(٦) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٨.

فبين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة في تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك، وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولاً يخفىٰ بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد[1].

فتبين أنه لم يمكنهم أن يقولوا: إنه تعلم أخبار الغيوب من واحد[2]، وهذه[3] القصة: قصة نوح - لا سيما قصة نوح المستوفاة في سورة هود[4]- لا يعلمها إلا نبي، أو من تلقاها عن نبي، فإذا عرف أنه لم يتلقها عن أحد علم أنه نبي، ولهذا قال تعالىٰ في آخرها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

والقول في سائر القصص كالقول فيها، كما قال في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقال في سورة آل عمران -لما ذكر قصة مريم وزكريا-:[5]﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

---

(١) تناول الأستاذ محمد بن عبدالله دراز هذه المسألة بالتفصيل، وحللها تحليلا رائعا في كتاب: النبأ العظيم، في المرحلة الثانية من بحثه، وهي مرحلة: بيان أن محمدا ﷺ لا بد أن يكون قد أخذ القرآن عن معلم (من ص٨٥)، فمن أراد الاستزادة فليراجعه ففيه فوائد.

(٢) في (د): أحد.

(٣) هنا نهاية السقط في (ب).

(٤) في (ب، ل): لا سيما قصته في سورة هود كما تقدم.

(٥) في (ب، ل، ط النيل): ساق الآية من أولها ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

وقال في قصة موسىٰ (ظ٢٤): ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٥][1].

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر، فنبه بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ علىٰ أنك[2] إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك، إذ كان معلوما عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر، وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، بيَّن ذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب، وإدراؤهم[3] -أي إعلامهم به- هو بمشيئة الله وقدرته لا من تلقاء نفسه، كما قال (قبل هذا)[4]: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥ - ١٦].

---

(١) في (ب، ل، ط النيل) زيادة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآية.
(٢) في (ب، ل): أنه.
(٣) في (ب) زيادة: به.
(٤) ليس في (ب، ل): يتكلم.

بيَّن أنه لبث فيهم عمرا من قبله وهو لا يتلو شيئًا من ذلك، ولا يَعلمه، ولا يُعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو إعلام بغيوب لا يعلمها إلا نبي، فبيَّن أن ذلك من الإرسال الديني الذي يحبه الله ويرضاه، لا من الكوني الذي قضاه[1] وقدره، ولا يحبه ولا يرضاه؛ كإرسال الشياطين.

ولهذا كانوا يعرضون عليه أن يصير ملكًا عليهم، وأن يعطوه حتىٰ يكون من أغناهم، وأن يزوجوه ما شاء من نسائهم، فيقول: «لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه»[2].

وهذه الثلاث هي مطالب النفوس في الدنيا: السلطان، والمال، والنساء، فيعرض عن قبول الدنيا التي هي غاية أماني طالبها، ويبين أنه لا يقدر علىٰ أن يدع ما أُمر به من تبليغ الرسالة.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ[3] إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا

---

(١) ليست في (ب، ل): يتكلم.

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة (انظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٠) من حديث: يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، أنه حدث أن قريشا قالت..الحديث، وهو منقطع، لأن يعقوب أدرك صغار التابعين، وتوفي سنة ١٢٨ .

(٣) كذا كتبها في الأصول، وهي قراءة المدنيين: أبي جعفر ونافع، وابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر بن عياش، وقرأ الباقون: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ (النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٠٨).

تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٧].

بيَّن سبحانه أنهم طلبوا أن يمنعوه بكل طريق، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته، فمع الإرادة الجازمة والقدرة التامة يجب وجود المقدور، وإذا تعذر أحدهما امتنع، فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم فيغير ما أوحي إليه، فعصمه الله وثبته، ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه[1]، حتىٰ يعجز عن تبليغ رسالة ربه، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة، أسوةَ مَن تقدمه مِن الرسل، فإن الله كان إذا أراد إهلاك أمة أخرج نبيها منها ثم أهلكها، لا يهلكها وهو بين أظهرها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] هذا بعد قوله: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم[2] الله بعذاب أليم يوم بدر وغيره.

فقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، إشارة إلىٰ سعيهم في إفساد إرادته[3].

وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] إشارة إلىٰ سعيهم في[4] تعجيزه[5](ظ٢٥).

---

(١) يستفزونه أي يستخِفُّونه، قال ابن جرير: «ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتىٰ أهلكهم بعذاب عاجل» (تفسير الطبري ١٧/ ٥١٠).

(٢) في (ب): واتاهم.

(٣) أي إرادته للدعوة إلىٰ الله.

(٤) في (ب، ل): إلىٰ.

(٥) وذلك بطرده من الأراضي، فلا يلبث في واحدة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] بين سبحانه من حاله -ما تعلمه الخاصة والعامة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس- أنَّه كان أميًّا لا يقرأ كتابًا، ولا يحفظ كتابًا من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئا مكتوبًا، لا كتابًا منزلاً ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابًا، ولا ينسخ شيئًا من كتب الناس لا المنزلة ولا غيرها.

ومعلوم أن من تعلَّم من غيره إما أن يأخذ تلقينًا وحفظًا، وإمَّا أن يأخذ كتابةً[١]، وهو لم يكن يقرأ شيئًا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبًا، والذي يأخذ من كتاب غيره إما أن يقرأه وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن[٣] لَّهُمْ

---

(١) في (ب، ل): من كتابه. (ط النيل): من كتابة.

(٢) وفي كونه ﷺ أميا مطابقة بين صفة نبي آخر الزمان الواردة في الكتاب السابق وبينه ﷺ، ففي سفر إشعياء (٢٩: ١٢): «ويدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: إقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة»، وهذا ما حصل مع النبي الأمي ﷺ، ففي الحديث المشهور، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطني حتىٰ بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتىٰ بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]..» الحديث، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٣) في (ب): تكن. في الموضعين، وهي قراءة ابن عامر، ويلزم منها قراءة آية بالرفع، فاعل تكن علىٰ أنها تامة (النشر ٢/ ٣٣٦، إتحاف فضلاء البشر ٤٢٤).

ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧]، إلىٰ قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢٢٧].

فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]. وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ونزول الوحي عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾(١) [الأنعام: ١١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣] ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر(٢).

---

(١) أتم الآية في (ب).
(٢) انظر تفسير الطبري ١٩/ ٣٩٧.

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته، وعرشه وملائكته؛ وخلقه السماوات والأرض؛ وغير ذلك؛ بمثل ما أخبرت به الرسل قبله، وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهىٰ عن الشرك والظلم والفواحش كما أمرت ونهت الرسل قبله، والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة، التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها، وهي: الإسلام العام الذي لا يقبل الله تعالىٰ من أحد من الأولين والآخرين دينًا غيره.

وأمَّا السور المدنية ففيها هذا، وفيها ما يختص به محمد ﷺ من الشرعة والمنهاج، فإنَّ دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشرَ الأنبياء ديننا واحد»[1]، قال الله تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢] (ظ٢٦).

---

(١) سبق تخريجه.



وأما الشرعة والمنهاج:

فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][1]، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤][2]، وقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧].

وأما القبلة:

فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة، فلذلك قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، لم يقل: إنا جعلنا لكل وجهة، كما قال في المنسك والشرعة والمنهاج[3].

---

(١) قال ابن جرير: «الشرعة هي الشريعة بعينها، تجمع الشرعة شرعا والشريعة شرائع، ولو جمعت الشرعة شرائع كان صوابا، لأن معناها ومعنىٰ الشريعة واحد، فيردها عند الجمع إلىٰ لفظ نظيرها. وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة، ومن ذلك قيل: لشريعة الماء شريعة، لأنه يشرع منها إلىٰ الماء. ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع، لشروع أهله فيه. ومنه قيل للقوم إذا تساووا في الشيء: هم شرع، أي سواء.
وأما المنهاج، فإن أصله: الطريق البين الواضح، يقال منه: هو طريق نَهْجٌ، ومَنْهَجٌ، بيِّن..، ثم يستعمل في كل شيء كان بينا واضحا سهلا، فمعنىٰ الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقا إلىٰ الحق يؤمه، وسبيلا واضحا يعمل به» (تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٤).

(٢) في (ب، ل) ذكر الآية إلىٰ قوله ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ثم قال: إلىٰ قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ..﴾.

(٣) كذا في الأصل وط النيل، وفي (ل): النسك، وفي (ب): في الشرعة والنسك والمنهاج.
الوجهة هي القبلة، روي ذلك عن مجاهد وغيره (تفسير الطبري ٣/ ١٩٣)، وقوله: ﴿مُوَلِّيهَا﴾: أي هو مول وجهه إليها ومستقبلها.
وقرأ ابن عامر -من السبعة-: ﴿هو مولاها﴾ أي: أن الله موليه إياها (تفسير الطبري ٣/ ١٩٥، النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٢٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] فإنه إذا أتاهم ببيان ما في الصحف الأولىٰ - مع علمهم بأنه لم يعاشر أحدا من أهل الصحف الأولىٰ ولا استفاد منهم علما - كان هذا من أعظم الآيات من الله.

وكما أن إخباره عن أمور الغيب تدل علىٰ نبوته؛ فإنه يدل علىٰ أن النبوة إنباء من الله، ليس ذلك كما يقوله بعض المتفلسفة كابن سينا وأمثاله: «إنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية أو العقل الفعال»، ويقولون: «إن النفس أو العقل هو اللوح المحفوظ، وأنَّ من اتصلت نفسه به علم ما تعلمه[1] الأنبياء»، ويقولون: «النبوة مكتسبة لأن هذه صفتها» و[2]«إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية»، ويزعمون[3] أنها اللوح المحفوظ، وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث في الأرض، فتكون عالمة بما يحدث في الأرض؛ لأن العلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب.

فإن هذا مبني علىٰ مقدمات باطلة، قد بسط الكلام علىٰ بطلانها في مواضع أخرىٰ[4]:

منها: إثبات العقل الفعال، ومنها: دعواهم أنه لا سبب للحوادث إلا حركة الفلك، ومنها: أن المحرك له هو النفس، ومنها: اتصال نفوسنا بتلك النفس، والمقصود هنا أنَّ هذا لو كان حقًّا فإنما يفيد علما بالمستقبل الذي

(١) في (ب، ل): علمته.
(٢) في (ب، ل): ويقولون.
(٣) في (ب، ل): وزعموا.
(٤) انظر مثلا: مجموع الفتاوىٰ للمصنف (٩/ ١٢، ١٠٤، ١٢/ ٥٥٦).

تكون الحركة الحاضرة[1] سببا له، أمَّا ما قد مضىٰ (قبل ذلك)[2] بمئين أو ألوف من السنين فليس شيء من حركات الفلك - حين مبعث الرسول - كان سببًا له، وإنما تكون الحركة الموجودة[3] في زمانه سببًا للمستقبل لا للماضي، وحينئذ فلا يكون تحريك النفس للفلك سببًا للعلم بهذه الأمور، ولا يكون ذلك هو اللوح المحفوظ، بل القرآن المجيد في لوح محفوظ، وهو في أم الكتاب[4]: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨ - ٧٩].

وأخبر سبحانه أنه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال في آية أخرىٰ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: في موضع آخر: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بظَنِينٖ[5] ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٩].

---

(١) ليست في (ب).
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).
(٣) في (ب): الجاهزة. ثم أعاد كتابة السطر كله في الهاماش وكتب كما في باقي النسخ.
(٤) في (ب، ل) زيادة: وهو.
(٥) هكذا ضبطه في الأصول، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس، من الظن: أي ما هو بمتهم، وقرأ الباقون ﴿بِضَنِينٖ﴾ من ضنَّ بالشيء إذا بخل به، أي: ما هو ببخيل فيكتم ما أنزل الله إليه. (النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٩٩).

وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، فذكر أنه قول رسول اصطفاه من الملائكة، نزل به علىٰ رسول اصطفاه من البشر، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٥٢].

فنزه كلاً مِن الرسولين عما قد يشتبه به[1].

نزه الملك أن يكون شيطانًا، ونزه البشر أن يكون كاهنًا أوشاعرًا[2]، وبيَّن برهان ذلك وآيته، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

فبين أنه ما يصلح لهم النزول به، بل هم منهيون عن (ظ٢٧) ذلك، وهم ممتنعون عن ذلك لا يريدونه لمنافاته لمقصودهم، وأنهم لو أرادوا ذلك لعجزوا عن ذلك فلم يستطيعوه، إذ كانوا معزولين عن أن يسمعوه من الملأ الأعلىٰ، وهم إنما يقدرون علىٰ أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لم يسمعوه، وذلك[3] أنَّ الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريدًا له قادرًا عليه.

---

(١) لعلها في (ب): يشتبه.

(٢) في (ب، ل): شاعرا أو كاهنا.

(٣) من هنا ورقة سقطت من أصل (ب)، وكتب في الهامش: الوريقة أولها وذلك.

فبين بقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ [الشعراء: ٢١١] أنهم لا يريدون تنزيله، وبقوله: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١] أنهم عاجزون عن تنزيله[1].

أمَّا كونهم لا يريدون:

فلأنه لا ينبغي لهم، و«ينبغي» مضارع[2] بغىٰ يبغي: أي طلب وأراد.

فالذي لا ينبغي للفاعل هو الذي لا يطلبه ولا يريده، إما لكونه ممتنعًا من ذلك، أو لكونه ممنوعًا منه، والشيطان إنما يريد الكذب والفجور، لا يريد الصدق والصلاح، وما جاء به الرسول مناقض[3] لمراد الشياطين غاية المناقضة، فلم يحدث في الأرض أمرٌ أعظم[4] مناقضة لمراد الشياطين من إرسال محمد ونزول القرآن[5]، فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلاَّ نقيضه.

وهم أيضًا ممنوعون من ذلك بحيث لا يصلح لهم ذلك، ولا يتأتّىٰ منهم، كما أنَّ الساحر لا ينبغي له أن يكون نبيًا، والمعروف بالكذب والفجور لا ينبغي له مع ذلك أن يكون نبيًا، ولا أنْ يكون حاكمًا، ولا شاهدًا، ولا مفتيًا، إذ الكذب والفجور يناقض مقصود الحكم والشهادة والفُتيا، فكذلك ما في طَبع الشياطين من إرادة الكذب والفجور يناقض أن تتنزل بهذا الكلام الذي هو في غاية الصدق والعدل، لم يشتمل علىٰ كذبة واحدة ولا ظلم لأحد.

---

(١) هذا أحد الأوجه الثلاثة التي ذكرها المصنف لامتناع تنزل الشياطين به، وقد لخصها ابن كثير -تلميذ المصنف- في التفسير، فانظرها فيه (تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٥).

(٢) في (ل): مطاوع.

(٣) في (ل): مناقص..مناقصة.. كذا في ما يأتي، ولعله ترك النقط لشدة الوضوح.

(٤) في الأصل: أعظم من من مناقضة.

(٥) في (ل) زيادة: عليه.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١] فإنهم عن سمع هذا الكلام معزولون بما حُرست به السماء من الشهب، كما قال عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ - ٩].

وقد ذكرنا تواتر هذا الخبر، وأنَّ السماء حُرست حرسًا لم يعهده الناس قبل ذلك، ورأىٰ ذلك الناس[1] بأبصارهم فكانوا قد عاينوا ما أخبرهم به من الرمي بالشهب التي يرمىٰ بها لطرد الشياطين، فعزلوا بذلك عن سمع الملأ الأعلىٰ، وكان ما عاينه الكفار - من الرمي الشديد العام الذي انتقضت به العادة المعروفة من رمي الشهب - دليلاً علىٰ سبب خارق للعادة[2]، ولم يحدث إذ ذاك في الأرض أمر لم تجر به العادة إلا ادعاءه للرسالة، فلم يعرف قبله ولا بعده من نزل عليه الكلام كنزوله عليه؛ إذ كان[3] موسىٰ عليه السلام إنما أنزلت عليه التوراة مكتوبة، لم تنزل منجمة مفرقة ملقاة إليه حفظًا حتىٰ تحتاج السماء إلىٰ حراستها عن استراق سمعها، والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع علىٰ التوراة، لم ينزل كتاب مستقل إلا التوراة والقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩][4].

---

(١) في (ل) قدم الناس.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام١/ ١٨٩، وتفسير ابن كثير ١/ ١٨٩.

(٣) في الأصل ظ: قال، وهو تصحيف ظاهر.

(٤) ويتضح مراد الشيخ أكثر بالآية التي قبلها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

=

ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيرا كما في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]، إلىٰ قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

قال سعيد بن جبير وغيره: «والأحزاب هي الملل كلها»(١)، قال: «وهذا تصديق قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي(٢) يهودي، ولا نصراني،

= وقد اختلفت القراءة فيها، فقرأ الكوفيون: ﴿سِحْران﴾، وقرأ الباقون: ﴿ساحران﴾ (النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٢)، فمن فسر الآية: بالتوارة والإنجيل فهو يريد قراءة: سحران، ومن فسر الآية بموسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلَّم فهو يريد قراءة: ساحران، قال قتادة: قوله: سحران تظاهرا قال ذلك أعداء الله اليهود للإنجيل والفرقان، ومن قال: ساحران فيقول: محمد وعيسىٰ صلىٰ الله عليهما وسلم (تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٥)، والمعنىٰ علىٰ القراءتين متلازم.

قال البغوي: «قرأ أهل الكوفة: «سحران»، أي: التوراة والقرآن: «تظاهرا» يعني: كل سحر يقوي الآخر، نسب التظاهر إلىٰ السحرين علىٰ الاتساع، قال الكلبي: كانت مقالتهم تلك حين بعثوا إلىٰ رءوس اليهود بالمدينة، فسألوهم عن محمد فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا: سحران تظاهرا. وقرأ الآخرون: «ساحران» يعنون محمدا وموسىٰ عليهما السلام، لأن معنىٰ التظاهر بالناس وأفعالهم أشبه منه بالكتب» (تفسير البغوي ٦/ ٢١٢).

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٠، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥.

(٢) في (ل، ط النيل) زيادة: من هذه الأمة.

ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧][1].

وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا﴾ [الأحقاف: ٣٠] (ظ٢٨).

وقال النجاشي - لما سمع القرآن -: «إن هذا والذي جاء به موسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة»[2].

(وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «يا ابن أخي هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسىٰ»)[3].

---

(١) رواه أيوب السختياني عن سعيد بن جبير، (انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٧٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥) إلا أنه في بعض الروايات قال أيوب: نبئت عن سعيد بن جبير، فذكره (رواه الطبري في التفسير ١٥/ ٢٧٩).
وقد بين أبو بشر جعفر بن أبي وحشية إياس في روايته عن سعيد بن جبير أن سعيدا رواه عن أبي موسىٰ الأشعري، فروىٰ أحمد في المسند (١٩٥٣٦)، والطبري في التفسير (١٥/ ٢٨١) من طريق شعبة عن أبي بشر بإسناده، ولفظه: «من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة» إلا أنه منقطع بين سعيد بن جبير وأبي موسىٰ الأشعري، ورواه البزار في مسنده (كما في الزائد: ١٦)، ثم قال: «لا نعلم أحدا رواه عن النبي ﷺ إلا أبو موسىٰ، بهذا الإسناد، ولا أحسب سمع سعيد من أبي موسىٰ».
وفي صحيح مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار».

(٢) رواه ابن إسحاق في السيرة (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥٧) ومن طريقه أحمد في المسند (١٧٤٠) بإسناد حسن.

(٣) زيادة من الأصل ظ، د، ط النيل.
والحديث متفق عليه، رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠). =

وأيضًا: فكان معروفًا عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التي تسترق السمع، فلما رأوا أنَّ السماء قد حُرست حرسًا شديدًا خلاف العادة علموا أنَّ الشياطين مُنعوا استراق السمع، وعلمت الجن ذلك كما تقدم[1].

وقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠][2].

وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمي بالشهب أمرًا خارقًا للعادة، حتىٰ خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتىٰ نظروا هل الرمي بالكواكب التي في الفلك أم الرمي بالشهب؟

فلما رأوه بالشهب علموا أنَّه لأمر حدث، وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك حتىٰ سمعت القرآن، فعلموا أنه كان لأجل ذلك.

[3]كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلىٰ قومهم، فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا:

= والناموس: صاحب السر، قال الحافظ: «والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام»، ثم بين الحكمة من قوله: «علىٰ موسىٰ» ولم يقل علىٰ عيسىٰ مع كونه نصرانيا، (فتح الباري ١/ ٢٦).

(١) هنا نهاية الوريقة الساقطة من أصل (ب).

(٢) لم يذكر الآية الأخيرة في ب ل.

(٣) من هنا إلىٰ آخر خبر السدي ثبت في الأصل ظ و د و ط النيل، وسقط من باقي الأصول.

ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا حدث[1]، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا[2] ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلقوا نحو تهامة، إلىٰ رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلىٰ سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلىٰ قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلىٰ الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا، فأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[3].

وروىٰ الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقا، وما زادوه باطلا، وكانت النجوم لا يرمىٰ بها قبل ذلك، فلما بعث النبي ﷺ كان أحدهم لا يقعد مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلىٰ إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبُثَّتْ[4] جنوده فإذا هم بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض.

وروىٰ ابن أبي حاتم بإسناده عن السدي: زعم أنَّ السماء لم تكن تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي، أو دين لله ظاهر، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر،

---

(١) في د: لأمر حدث، وفي صحيح البخاري: إلا شيء حدث، وفي موضع آخر: إلا ما حدث، وفي صحيح مسلم: إلا من شيء حدث.

(٢) كذا في الصحيحين و د، وفي ظ: تنظرون.

(٣) صحيح البخاري (٧٧٣)(٤٩٢١)، صحيح مسلم (٤٤٩).

(٤) في د والمسند: فبث.

حتىٰ لما بعث الله محمدا ﷺ نبيا رجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء، واختلاف الشهب، فجعلوا يعتقون أرقاءهم، ويسيبون مواشيهم، فقال لهم عبدياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلىٰ معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة - يعني محمدا (ظ٢٩) ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء، فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم، وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، قدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائما يصلي في المسجد الحرام، يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصا علىٰ القرآن، حتىٰ كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا، فأنزل الله شأن أمرهم علىٰ نبيه ﷺ[1].

وهذا من أعلام النبوة ودلائلها.

وقبل ذلك وبعده[2] كان الرمي خفيفًا، لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن.

وقوله[3]: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

(١) نهاية الزيادة من الأصل ظ، د، ط النيل.
(٢) في (ب، ل): وقبل زمان البعث وبعده.
(٣) في (ب، ل): وقال تعالىٰ.



والأفاك الكذاب، والأثيم الفاجر، كما قال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥ - ١٦].

وقال النبي ﷺ[١] في الحديث المتفق على صحته: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[٢].

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو المناسب لها في الكذب والإثم[٣]، فأما الصادق البار، فلا يحصل به مقصود الشياطين، فإنَّ الشيطان لا يطلب الصدق والبر، وإنما يطلب الكذب والفجور، ومحمد ﷺ ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة، ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب، لا عمدًا ولا خطأ.

ومن تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يخبر بالكذب، فإنَّ الشياطين يلقون إليهم السمع، ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه، بل يكذبون فيه كثيرا، إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم، فإنَّ الشياطين[٤] - وإن كان كلهم كاذبًا - فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما

---

(١) في (ب): والنبي..قال. وفي (ل): وفي الحديث المتفق عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كذا في ظ، وفي هامشها: والفجور خ، أي في نسخة أخرى. وهكذا هو في (ب،ل).

(٤) في (ب، ل): والشياطين.



يلقيه، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ولو مرة[١]، ولكن أكثرهم يكذبون، والذي يصدق منهم مرة يكذب مرات، والذي ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم.

(وفي صحيح البخاري: عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلىٰ الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»)[٢].

فالفرق بين الصادق البار الذي يأتيه الملك الكريم، والكاذب الأثيم الذي يأتيه الشيطان الرجيم فرق مبين، يعرف بأدنىٰ معرفة بحال الاثنين، ولما كان الكاهن الذي يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة بين سبحانه أن هذا يكون[٣] - وإن صدق في بعض الأخبار - كاذبًا فاجرًا، والذي يأتيه أيضًا يأتيه بالكذب، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر، وهذا مما يبين أن النبي لا يكون إلا بارًّا معصوما أن يصرَّ علىٰ ذنب[٤].

---

(١) في (ب، ل): من السمع ويسترقه.

(٢) سقط هذا الحديث من النسخة (ب، ل).
والحديث في صحيح البخاري (٣٢١٠)(٣٢٨٨).

(٣) في (ب): يكذب.

(٤) هامش ظ: بلغ مقابلة. وفي (ب): صح.
ولهذا كان القرآن أعظم معجزات النبي ﷺ، وسائر معجزاته -مهما بلغت- فهي تبع له، وقد بدأ المصنف ببيان إعجاز القرآن في هذا الفصل، ثم عرج بالتفصيل والتمثيل لسائر المعجزات والخوارق، وقال المصنف رحمه الله:« وأنفع الخوارق الخارق الديني وهو حال نبينا محمد ﷺ، قال ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» =

فصل:

وقد ذكرنا أنَّ قومه المعادين له غاية[1] العداوة ما زالوا[2] معترفين بصدقه ﷺ، وأنهم لم يجربوا عليه كذبًا قط[3]، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشعر ولا كهانة، وأنه ليس بساحر، وكانوا في أول أمره يرسلون إلىٰ البلاد التي فيها علماء أهل الكتاب يسألونهم عنه؛ لأن مكة لم يكن بها ذلك.

ففي الصحيحين[4] عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب (ظ ٣٠) حدثه، قال: «انطلقت إلىٰ الشام في المدة[5] التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا[6] أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله ﷺ إلىٰ هرقل، قال: وكان دحية الكلبي جاء به، فدفعه إلىٰ عظيم بصرىٰ، فدفعه عظيم بصرىٰ إلىٰ هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيتُ في نفر من قريش فدخلنا علىٰ هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قال أبو سفيان: فقلت أنا،

= أخرجاه في الصحيحين. وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء.
ولهذا نجد كثيرا من المنحرفين منا إلىٰ العيسوية يفرون من القرآن والقال إلىٰ الحال كما أن المنحرفين منا إلىٰ الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلىٰ القال ونبينا ﷺ صاحب القال والحال وصاحب القرآن والإيمان. ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له لأن الخارق في مرتبة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والدين في مرتبة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾» (مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٣٣٤).

(١) سقطت من (ب).

(٢) في (ب): يزالوا.

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب): الصحيح. وهكذا في أصل (ب) ثم عدلها.

(٥) في هامش (ب): الهدنة، صح.

(٦) في (ل): فبينما.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، فدعا بترجمانه، فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كَذَبَني فكذِّبُوه.

قال[1] أبو سفيان: وايم الله! لولا مخافة أن يؤثر علي كذبٌ[2] لكذبتُ عليه.

ثم قال لترجمانه: سله كيف نسبه[3] فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو نسب[4]، قال: فهل كان في آبائه من ملك، قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا»، وذكر الحديث[5].

(وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة ينزل على سعد، فقال لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت، فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالبيت،فقال: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنًا وقد آويتم محمدا وأصحابه، قال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي، ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد، فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمدا ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث.

---

(١) في (ب): «قال: فقال أبو سفيان». ومثله في (ل) بدون: «أبو سفيان».
(٢) في (ب): كذبا.
(٣) في (ب، ل): حسبه...حسب.
(٤) في (د): حسب، وكتب في الهامش: نسب خ.
(٥) في (ب،ل): باقي الحديث.
وقد مر الحديث مرارا، انظر صحيح البخاري (٧) ومسلم (١١٧٣).

فرجع إلىٰ امرأته فقال: أما تعلمين ما قال أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أن محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد.

قال: فلما خرجوا إلىٰ بدر وجاء الصريخ، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي، قال: وأراد ألا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوما أو يومين، فسار معهم فقتله الله(١).

وفي رواية أنه قال: والله ما يكذب محمد، وعزم أن لا يخرج خوفًا من هذا، حتىٰ قال له أبو جهل: إنك متىٰ رآك(٢) الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فقال: أما إذ غلبتني فلأشترين أجود بعير بمكة، وذكَّرته امرأته بقول سعد، فقال: ما أريد أن أكون معهم إلاَّ قريبا)(٣).

---

(١) في ط النيل: فقتله رسول الله.

(٢) في (ط النيل): يراك.

(٣) رواه البخاري في الصحيح (٣٦٣٢)، وفي روايته أن أمية بن خلف قال: والله لا يكذب محمد، ثم قالت زورجه مثل ذلك، وفي الحديث قصة تنظر في موضع الحديث، وقد ترجم عليه البخاري ترجمتين: الأولىٰ باب علامات النبوة في الإسلام، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر.
وما بين القوسين من الأصل، د، ط النيل.
واختصره في (ب، ل) وساقه بالمعنىٰ، «فقال: وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود حديث حديث سعد بن معاذ لما قال (لصفوان بن) أمية إنهم قاتلوك، يعني النبي ﷺ وأصحابه، وفزع (صفوان –في ل بدلها: منه–) لذلك، وقال لامرأته ذلك، فقالت: والله ما يكذب محمد، وقال هو في رواية أخرىٰ: ما يكذب محمد، وعزم أن لا يخرج خوفا من هذا، فقال: والله لا أخرج من مكة، وأراد التخلف عن بدر، حتىٰ قال له أبو جهل: إنك متىٰ يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فقال:
أما إذ غلبتني فلأشترين أجود بعير بمكة، وذكرته امرأته قول سعد، فقال: ما أريد أن أكون معهم إلا قريبا». وما بين القوسين سقط من ل.

وكذلك ما ذكره أهل المغازي وغيرهم «أنَّ أُبيَّ بن خلف[١] لما بلغه أن النبي ﷺ قال: أنا أقتله، ثم طعنه رسول الله ﷺ فخدشه، وجعل أصحابه يجزِّعونَه[٢] ويقولون: إنما هو خدش[٣]، فقال: والله لو كان بمُضَر لقتلهم، أليس قال: «لأقتلنك»[٤].

وعن مجاهد قال: قال مولاي السائب بن يزيد: «كنت فيمن بنىٰ البيت، وإنَّ قريشًا اختلفوا في الحجر حين أرادوا أن يضعوه، حتىٰ كادوا يقع بينهم قتال بالسيوف، فقالوا: اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله ﷺ وكانوا يسمونه في الجاهلية الأمين، فقالوا: يا محمد، قد رضينا بك»[٥].

(وقال ابن إسحاق -في قصة بناء البيت واختلاف قريش في من يضع الحجر، وأنهم مكثوا علىٰ ذلك أربع ليال أو خمسًا-: ثم إنهم اجتمعوا في

---

(١) في (ب، ط النيل): أمية بن خلف. وما ثبت هو الصواب، فإنه هو الذي قتله النبي ﷺ، وأما أمية فسبقت قصته (وانظر: دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٥٨، فتح الباري ١/ ٣٥١).

(٢) في (ب): يشجعوه.

(٣) في (ب، ل، ط النيل) زيادة: وليس بشيء.

(٤) رواه عبدالرزاق في مصنفه (٩٧٣١) من حديث مقسم والزهري مرسلا، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٠٦) من طريق موسىٰ بن عقبة عن الزهري مرسلا، و(٣/ ٢٥٨) من حديث عروة بن الزبير مرسلا.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٧) من طريق هلال بن خباب ثنا مجاهد قال قال لي مولاي عبد الله بن السائب، فذكره، ثم قال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه وله شاهد صحيح علىٰ شرطه.
ورواه عبدالرزاق في المصنف (٩١٠٣) من طريق ابن جريج عن مجاهد مرسلا، لم يذكر السائب فيه.
والشاهد الذي أشار إليه الحاكم هو حديث علي بن ابي طالب (المستدرك ١/ ٤٥٨) وإسناده حسن.

المسجد فتشاوروا، وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أنَّ أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو[1] بن مخزوم -وكان عامئذ أسن قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: (هذا الأمين)[2]، هذا الأمين قد جاء، رضينا، هذا محمد، فلما انتهىٰ إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: هلمَّ لي ثوبًا، فأُتي به، فأخذ الركن -يعني الحجر الأسود- فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتىٰ إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنىٰ عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين)[3].

وعن عقيل بن أبي طالب قال: «جاءت قريش إلىٰ أبي طالب فقالوا له: إنَّ ابن أخيك يأتينا في كعبتنا ونادينا ويُسمعنا ما يؤذينا، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل. قال: فقال لي: يا عقيل التمس ابن عمك. قال: فأخرجته من كبس من أكباس[4] شعب أبي طالب، فأقبل يمشي حتىٰ انتهىٰ إلىٰ أبي طالب، فقال له:

---

(١) كذا في الأصل ظ مجودا، وعلىٰ العين فتحة، وفي آخره واو، وكذا في بقية النسخ.
والذي في السيرة: عمر، وكذا في أكثر المصادر، انظر: سبل الهدىٰ ٢/ ١٧١، البداية والنهاية ٣/ ٤٨٧. وهكذا ثبت اسمه في كتب الأنساب، انظر: نسب قريش ١٨.

(٢) ما بين القوسين ليس في (ط النيل، وأصلها: د).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩. وما بين القوسين ثبت في الأصل ظ، د، ط النيل.

(٤) في (الأصل ظ، ب، د، ط النيل): «كيس من أكياس»، بالياء. وفي (ل) أهمل الحرف.
وفي المصدر: كبس، وفسره بقوله: يقول من بيت صغير. وكذا في البداية والنهاية (٤/ ١٠٧)، وقال ابن الأثير: «في حديث عقيل «إن قريشا قالت لأبي طالب: إن ابن أخيك قد آذانا فانهه، فقال: يا عقيل ائتني بمحمد، قال: فانطلقت إلىٰ رسول الله ﷺ فاستخرجته من كبس» الكبس بالكسر: بيت صغير، ويروىٰ بالنون، من الكناس، وهو بيت الظبي».

يا ابن أخي، والله ما علمت إن كنتَ لي مُطيعا، وقد جاءني قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وناديهم[1] فتسمعهم ما يؤذيهم، فإنْ رأيت أن تكف عنهم؟ قال: فحلق ببصره إلىٰ السماء، فقال: والله ما أنا بأقدر علىٰ أن أدع ما بُعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار، فقال أبو طالب: إنه - والله - ما[2] كذب قط فارجعوا راشدين».

رواه البخاري في تاريخه[3]، وأبو زرعة في الدلائل[4].

ورواه محمد بن إسحاق قريبًا من هذا اللفظ، وقال: «فأخرجته من حفش -وهو بيت صغير- وقال فيه: فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال: «يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركتُ هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك في طلبه»[5].

---

(١) في (ب، ل): وتأذيهم.

(٢) في (ب): والله إنه..

(٣) رواه البخاري في التاريخ (٧/ ٥١)، وأبو يعلىٰ (٦٨٠٤)، والبزاز في مسنده (٢١٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٩١)، والأوسط (٨٥٥٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٧). وقال الهيثمي: «رجال أبي يعلىٰ رجال الصحيح». قلت: وإسناده حسن.

(٤) دلائل النبوة لأبي زرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي (ت:٢٦٤) من مصادر المصنف، قد ذكره في آخر هذا الكتاب، ذكره البرذعي في سياق سؤالاته لأبي زرعة الرازي ص ٦٩٢، ونقل عنه ابن كثير كثيرا في التفسير (٣/ ١٠١)، وفي البداية والنهاية (انظر: ١/ ٣٢٦-٤/ ٢٥٩-٦/ ٧٥-٧٧-٢٧٨-٢٨٣)، وذكره أيضا السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ص١٦٦ (بواسطة: من مصادر السيرة النبوية كتب دلائل النبوة، للباحث: أحمد محمد فكير، ص٧)، قلت: وقد نقل عنه المصنف في هذا المجلد كثيرا، مما يدل علىٰ أن الكتاب كان مشهورا، منتشرا في دمشق، في زمنه وزمن تلميذه ابن كثير.

(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٠)، من حديث يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس مرسلا.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن الصامت قال: «قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أنيس وأمُّنا، فنزلنا علىٰ خال لنا فأكرمنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومه، فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس، فجاء خالنا فنَثَا[1] علينا الذي قيل له، فقلت له: أما ما مضىٰ من معروفك فقد كدَّرته، ولا جماع لك فيما بعد، فقربنا صِرمتنا، فاحتملنا عليها، وتغطىٰ خالنا ثوبه[2] يبكي، وانطلقنا حتىٰ نزلنا بحضرة مكة.

فنافر[3] أنيس رجلاً عن صرمتنا وعن مثلها، فأتينا[4] الكاهن فخير أنيسًا فأتىٰ بصرمتنا ومثلها معها.

قال: وقد صليتُ يا ابن أخي قبل أن ألقىٰ رسول الله ﷺ بثلاث[5] سنين، قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء، حتىٰ إذا كان من آخر الليل أُلقيت كأني خِفاء[6]، حتىٰ تعلوني الشمس.

---

(١) نثا: أي أشاعه وفشاه. قال النووي: «هو بنون ثم مثلثة أي أشاعه وأفشاه»(شرح مسلم ١٦/ ٢٧).
وهكذا هو في الأصل ظ، د، وفي ط النيل: فتنا، وهو تصحيف يخالف أصله، وفي (ب): فنبأ. وهو مهمل في (ل).

(٢) كذا في عامة الأصول، وفي الأصل (ل): «بثوبه» والباء كأنها ملحقة. وما ثبت في الأصول هو الصحيح الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) قال النووي: «قال أبو عبيد وغيره في شرح هذا: المنافرة المفاخرة والمحاكمة، فيفخر كل واحد من الرجلين علىٰ الآخر ثم يتحاكمان إلىٰ رجل ليحكم أيهما خير وأعز نفرا وكانت هذه المفاخرة في الشعر أيهما أشعر كما بينه في الرواية الأخرىٰ» (شرح مسلم ١٦/ ٢٧).

(٤) في (ب، ط النيل) فأتيا.

(٥) في (ب): ثلاث.

(٦) الخفاء هو الكساء، وزنا ومعنىٰ. وفي هامش ظ حاشية: الخفاء كساء يطرح علىٰ السقاء.
وفي (ب): جفا، وهو تصحيف. وفي (ل) مهمل.

فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني، فانطلق أنيس حتىٰ أتىٰ مكة فراث علي، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلاً بمكة علىٰ دينك يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر.

وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله علىٰ أقراء الشعر[1] فما يلتئم علىٰ لسان أحد يقري[2] بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون. قال: قلت: فاكفني حتىٰ أذهب فأنظر، (قال: نعم، وكن علىٰ حذر من أهل مكة، فإنهم قد شنفوا[3] له وتجهموا)[4].

قال: فأتيت مكة فضعَّفتُ رجلا منهم(ظ٣٢)، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟ فأشار إلي فقال: الصابئ، فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتىٰ خررتُ مغشيًا علي»، وذكر الحديث وصفة إسلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ مسلم[5].

وفي حديث البخاري عن ابن عباس: «أن أبا ذر أرسل أخاه، وقال: اعلم لي عِلْم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله، ثم ائتني، فانطلق الآخر حتىٰ قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع[6] إلىٰ أبي ذر

---

(١) (في ط النيل وأصلها د): الشعراء.

(٢) هذه اللفظة ثبتت في (ظ، د، ط النيل) وليست هذه الكلمة في نسخ صحيح مسلم المطبوعة ولا ذكرها النووي، وأقراء الشعر: طرقه وأنواعه (شرح مسلم ١٦/ ٢٨).

(٣) في (د، ط النيل): سبقوا. وهي تصحيف

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل)، وليس هو كذلك في صحيح مسلم، وهو في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٩ حيث صدر المصنف عنه.

(٥) صحيح مسلم (٢٤٧٣)، ولم يخرجه البخاري من هذا الوجه.

(٦) في (ب): أتىٰ.

فقال: رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني فيما أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتىٰ قدم مكة فأتىٰ المسجد»، وذكر تمام الحديث[1].

وعن جابر بن عبدالله قال: «قال الملأ وأبو جهل: لقد غلبنا أمر[2] محمد، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلمه، فأتانا ببيان من أمره، قال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علما، فما يخفىٰ علي إن كان كذلك، فأتاه، فلما خرج إليه قال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبدالمطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فبمَ تشتم آلهتنا، وتُضلِّل آباءنا؟ فإنْ كنت إنَّما بك الرياسة عقدنا لك الرياسة، فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كان بك الباه زوَّجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعد.

ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤]، إلىٰ قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسك عُتبة علىٰ فيه، وناشد بالرحم أن يكف، ورجع إلىٰ أهله، فلم يخرج إلىٰ قريش، فاحتبس عنهم عُتبة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله[3] ما نرىٰ عتبة إلا قد صبأ إلىٰ محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فأتاه أبو جهل فقال: يا عُتبة، ما حبسك عنا إلا

---

(١) صحيح البخاري (٣٨٦١)، وصحيح مسلم (٢٤٧٤).
(٢) ليست في (ب).
(٣) ليست في (ب).

أنَّك صبوتَ إلىٰ محمد، وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما نُغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم أن لا يكلم محمدًا أبدا، وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر[1]: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ١-٣]، إلىٰ قوله: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب».

رواه أبو بكر أحمد بن مردويه، في كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذيَّال بن حرملة عنه، ورواه يحيىٰ بن معين عن محمد بن فضيل، ورواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده، ورواه عبد بن حميد عن شيخ أبي يعلىٰ: ابن أبي شيبة[2].

وفي بعض الطرق: «إنْ كنتَ تزعم أنَّ هؤلاء خيرٌ منك فقد عبدوا الآلهة، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتىٰ نسمع»[3].

---

(١) في (ب): ولا أن محمد سحر.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٧١٥)، ومن طريقه عبد بن حميد (المنتخب من المسند ١١٢٣)، وأبو يعلىٰ (١٨١٨)، ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح. ومن طريق الحاكم وآخر رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٢)، وهو حديث حسن، فالأجلح الكوفي صدوق شيعي، والذيال بن حرملة معروف، وقد روىٰ عنه غير واحد، ووثقه ابن حبان (الثقات ٤/ ٢٢٢) ولم يجرحه أحد.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٧١٥)، مسند أبي يعلىٰ (١٨١٨)، دلائل النبوة لأبي نعيم (٢٣٠)، وتتمته – وفيه بيان غلظتهم عليه ﷺ -: «إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم =

ورواه ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد مولىٰ لبني هاشم، عن محمد بن كعب، قال: حُدِّثتُ أنَّ عتبة بن ربيعة وكان سيدًا حليما، وذكر الحديث إلىٰ أن قال: «لما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد، قال: ورائي أني - والله[1]- قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإنْ تصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإنْ يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك - والله - يا أبا الوليد بلسانه[2]، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم (ظ٣٣).

ثم ذكر شعر أبي طالب يمدح عتبة فيما قال»[3].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «قدم ضماد مكة -وهو رجل من أزد شنوءة- وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء أهل مكة يقولون: إنَّ

= علىٰ قومه منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتىٰ لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلىٰ أن يقول بعضنا لبعض بالسيوف حتىٰ نتفانىٰ أيها الرجل، إن كان إنما بك الباءة..» الحديث.

(١) في (ب): ورائي والله أني.

(٢) في (ب): بكلامه.

(٣) رواه ابن إسحاق (كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٢٤٥). ويزيد بن زياد فيه ضعف، انظر: الكامل في الضعفاء (٩/ ١٧٥) ميزان الاعتدال (٤/ ٤٢٣) ثم لم يبين محمد بن كعب من الذي حدثه.

وفي (ب): يمنع عنه فيما قال.

محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيتُ هذا الرجل لعلَّ الله أن يشفيه علىٰ يدي، قال: فلقيت محمدًا، فقلت: إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي علىٰ يدي من شاء، فهلم، فقال محمد: «إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد» قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت بمثل[1] كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس[2] البحر.

قال: فقال: هات يدك أبايعك علىٰ الإسلام، قال: فبايعه رسول الله ﷺ فقال: «وعلىٰ قومك»، فقال: وعلىٰ قومي» الحديث[3].

وعن ابن عباس قال: «جاء الوليد بن المغيرة إلىٰ النبي ﷺ، فقال: إقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ فقال: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا البشر».

---

(١) في (ب): مثل.

(٢) كذا في الأصول كلها: قاموس، إلا أن الحرف الأول في (ل) غير واضح، وثبت في (المطبوعة): ناعوس موافقة لما في مطبوعة صحيح مسلم.
وناعوس البحر وسطه، وقعره الأقصىٰ، قال النووي: «ضبطناه بوجهين أشهرهما ناعوس بالنون والعين هذا هو الموجود في أكثر نسخ بلادنا والثاني قاموس بالقاف والميم وهذا الثاني هو المشهور في روايات الحديث في غير صحيح مسلم» (شرح مسلم ٦/ ١٥٧).
قلت: وضبط المصنف جاء علىٰ الرواية الثانية. وفي هامش (ف): البحر أو أبعد موضع فيه.

(٣) صحيح مسلم (٨٦٨).

وفي لفظ: قال ابن عباس: «إنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: ولم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعوض مما قِبَله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقُل فيه قولاً يبلغ قومك أنَّك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه[1] ولا بقصيدته مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة[2]، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلىٰ، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه، قال: فدعني حتىٰ أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ [المدثر: ١١]».

رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب[3] عن عكرمة عنه[4].

---

(١) في (ب): «بزجره». في الموضعين. وهي في (ل) مهملة.

(٢) في (ب): حلاوة.

(٣) تصحفت في (ب): ابن عمر!.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٧)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (١٣٣)، ودلائل النبوة (٢/ ١٩٨)، من طريق إسحاق بن إبراهيم عن عبدالرزاق، قال الذهبي: هكذا رواه الحاكم موصولا، ورواه معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة مرسلا، ورواه مختصرا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة مرسلا (تاريخ الإسلام١/ ٥٥٨).

قلت: حديث عباد بن منصور عند الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٤)، وهذا هو الصحيح، فإن عبدالرزاق رواه في تفسيره (٣/ ٣٦٢) عن معمر عن رجل عن عكرمة مرسلا، فلو كان عنده موصولا لما اقتصر علىٰ هذا المرسل، وإسحاق بن إبراهيم هو الدبري لا ابن راهويه، لأن الراوي عنه: محمد بن علي الصنعاني، شيخ الحاكم سمع منه بمكة أحاديث =

وفي رواية أخرىٰ: «أن الوليد بن المغيرة اجتمع، ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضا، ويرد بعضكم قول بعض، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقُل، وأقم لنا رأيًا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع، فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن[1]، فقالوا: نقول مجنون، فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر، فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريظه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر[2]، قالوا: فنقول ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عُقَده، فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغَدق، وإن فرعه لجنىٰ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإنَّ أقرب القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه[3]، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين[4] قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له[5] أمره، فأنزل الله تعالىٰ في الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] إلىٰ قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾

= الدبري، وصرح بذلك في أول حديث رواه عنه في المستدرك (١/ ٢١٤)، فقد يكون الدبري أخطأ في هذا الحديث، والله أعلم.

(١) كتب في الأصل ظ: الكهان ثم ضرب عليه وكتب الكاهن. وفي (ل، د): الكهان.

(٢) في (ب): بشعر.

(٣) في (ب): ابنه، وهو مهمل في (ل) فيحتمل كلا الكلمتين.

(٤) في (ب): حتىٰ.

(٥) في (ب): لهم.

[المدثر: ٢٦]، وأنزل في النفر الذين كانوا معه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، أي أصنافًا[١].

وروى ابن إسحاق، عن شيخ من أهل مصر، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قام النضر بن الحارث فقال: «يا معشر قريش، والله لقد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بسحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعُقَدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، لقد روينا[٢] الشعر، وسمعنا أصنافه كلها؛ هزجه ورَجَزَه[٣] وقريظه، وقلتم: مجنون، ولا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون فما هو بخنقه، ولا تخليطه، يا معشر قريش انظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة[٤].

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة (انظر: سيرة ابن إسحاق ١٥٠، وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤٣) من طريق محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس، ومن طريقه البيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٢٠٠) وهذا إسناد يتكرر كثيرا عند ابن إسحاق، ومحمد بن أبي محمد مجهول (ميزان الاعتدال ٤/ ٢٦).

(٢) في (ب): رأينا. وفي (ل): روانا.

(٣) في (ب): وزجره.

(٤) رواه ابن إسحاق في السيرة (٢٠١، وانظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٥) ومن طريق ابن إسحاق: رواه الطبري في التفسير (١٧/ ٣٩٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠١)، وعندهم: حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس.

قال: وحدثني الزهري قال: «حُدثتُ أنَّ أبا جهل وأبا سفيان، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلةً ليسمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي في الليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكلاً[1] لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلىٰ مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة فعلوا كذلك، ثم جمعتهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم أتىٰ أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، فقال الأخنس: وأنا، والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، ثم إذا تجاثينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه أبدًا»[2].

وكذلك رُويَ عن المغيرة بن شعبة، أن أبا جهل قال له مثل ذلك، وقال: إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، فينا

---

(١) كذا في الأصول (ظ،ب) مجودا، وفي (ل، د): وكل.

(٢) سيرة ابن إسحاق ص١٩٠. وانظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٦، تاريخ الإسلام ١/ ٥٦١.

الحجابة، فقلنا: نعم، فينا السقاية، فقلنا: نعم[1]. وذكر نحوه[2].

وقد كانوا يرسلون إلىٰ أهل الكتاب ليسألوهم عن أمره ﷺ[3].

فقال محمد بن إسحاق: حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة[4]، عن ابن عباس قال: «بعثت قريش النضر بن

---

(١) كذا في الأصول كلها.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٠٧) من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن المغيرة، ولفظه: عن المغيرة بن شعبة قال: «إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلم إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، أدعوك إلىٰ الله. فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منته عن سب آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقا ما اتبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل علي فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، وقالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتىٰ إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل».

وهشام بن سعد فيه ضعف، ولكنه كان يتيم زيد بن أسلم، ولذا قال أبو داود: أثبت الناس في زيد بن أسلم (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٤٥، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٩٨)، لكن في رواية زيد بن أسلم عن المغيرة انقطاع والله أعلم.

(٣) في هامش الأصل ظ حاشية فيها:

[قال الإمام أحمد: ثنا حسين بن حسن، حدثنا أبو كدينة، ثنا أبو كدينة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله، قال: مر يهودي برسول الله ﷺ، وهو يحدث أصحابه قال: فقالت قريش: يا يهودي، إن هذا يزعم أنه نبي فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاء حتىٰ جلس، ثم قال: يا محمد، مم يخلق الإنسان؟ قال: «يا يهودي، من كل يخلق: من نطفة الرجل، ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة، منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة، منها اللحم والدم»، فقام اليهودي، فقال: هكذا كان يقول من قبلك].

وهذا الحديث رواه أحمد (٤٤٣٨)، وفيه حسين بن حسن الأشقر ضعيف الحديث، وقد توبع فيه، إلا أن عطاء بن السائب مختلط، والله أعلم.

(٤) في (ب، ل، ط النيل) زيادة: مولىٰ ابن عباس.

الحارث وعقبة بن أبي مُعيط إلىٰ أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: اسألوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتىٰ قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل (ظ٣٤)، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فرَوْا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتىٰ قدما مكة علىٰ قريش، فقالا: يا معشر[1] قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم، فجاءه جبريل من الله بسورة الكهف[2]، فيها خبر ما سألوه عنه، من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]»[3].

---

(١) في (ب): معاشر.

(٢) في (ب): أصحاب الكهف.

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة ص٢٠٢، (وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٦)، ومن طريقه الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٣، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٠).

قال ابن إسحاق: بلغني أن رسول الله ﷺ افتتح السورة فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني محمدًا، إنك رسولي في تحقيق ما سألوا عنه من نبوته ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا﴾ أي أنزله قيِّما أي معتدلا لا اختلاف فيه.

وذكر تفسير السورة إلىٰ قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: وما قدروا من قدرتي[1]، وفيما صنعت في أمر الخلائق، وما وضعت علىٰ العباد من حجتي، ما هو أعظم من ذلك[2].

وقال مجاهد: «ليسوا بأعجب آياتنا[3]، من آياتنا من هو أعجب من ذلك»[4].

وفي تفسير العوفي[5] عن ابن عباس: «الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف»[6].

قلت[7]: والأمر علىٰ ما ذكره السلف، فإنَّ قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله، فإنَّ مُكثهم نيامًا لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة علىٰ قدرة الله ومشيئته، وأنه يخلق ما يشاء، ليس كما يقوله أهل الإلحاد.

---

(١) في (ب، ل، ط النيل): قدري.
(٢) سيرة ابن إسحاق ص٢٠٣.
(٣) في (ب): من آياتنا. وما بين القوسين ليس في (ل).
(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٦٠١)، وروىٰ نحوه عن قتادة وابن إسحاق.
(٥) في (ب): البغوي، وهو تصحيف.
(٦) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧/ ٦٠١، والعوفي هو: عطية بن سعد العوفي، ضعيف الحديث (الكامل لابن عدي ٧/ ٨٤)، وله نسخة عن ابن عباس تروىٰ من طريق آل بيته، وهي من النسخ التفسيرية الضعيفة المشهورة.
(٧) ليست في (ب،ل).

وهي آيةٌ علىٰ معاد الأبدان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

وكان الناس قد تنازعوا في زمانهم:

هل تعاد الأرواح دون الأبدان، أم الأرواح والأبدان، فجعل الله تعالىٰ أمرهم آية لمعاد الأبدان[١].

وإخبار النبي ﷺ بقصتهم من غير أن يُعلِّمه بشر آية علىٰ نبوته، فكانت قصتهم آية علىٰ أصول الإيمان الثلاثة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإيمان برسوله.

ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك.

وقد ذكر الله تعالىٰ سؤالهم له عن الآيات التي كانوا يسألوه[٢] عنها ليعلموا: هل هو نبي صادق أم كاذب؟ فقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، إلىٰ قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، إلىٰ قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

---

(١) ذكر ذلك بعض المفسرين، قال عكرمة: «تنازعوا في الأرواح والأجساد، فقال المسلمون: البعث للأرواح والأجساد، وقال بعضهم: البعث للأرواح دون الأجساد، فبعثهم الله من رقادهم وأراهم أن البعث للأرواح والأجساد». (انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٦٤٠، والكشف والبيان للثعلبي ٦/ ١٦٢).

(٢) في (ب): سالوه.

قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال تعالىٰ لما ذكر قصة (ظ٣٦) أهل الكهف التي سألوه عنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣]، أي يسألونك عن ذاك، ويسألونك عن هذا.

والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضي، الذي لا يعلمه أحد من البشر، إلاَّ من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشيء الذي تزعمه ملاحدة المتفلسفة، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبي، كموسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم، وليس أحد ممن يدعي المكاشفات؛ لا من أولياء الله، ولا من غير أولياء الله يخبر بشيء من ذلك، ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم التي لا يشركهم فيها غيرهم.

وأهل الملل متفقون علىٰ ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يُعلم إلا بخبر نبي؛ فإذا كان محمد قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسىٰ وغيره من الأنبياء، وأخبر بما يعلمونه مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم، وقد عرف أنَّ محمدا لم يتعلم هذا من بشر، كان هذا آية وبرهانًا قاطعًا علىٰ نبوته، ثم العلم بأنَّ محمدا لم يتعلم هذا من بشر يحصل[1] بوجوه:

---

(١) في (ب، ل): يحصل في حياته أما قومه..



-أمَّا قومه المباشرون له، الخبيرون بحاله، فكانوا يعلمون أنه لم يتعلم هذا من بشر، فقامت عليهم الحجة بذلك.

-وأمَّا من لم يعرف حاله إلاَّ بالسماع فيعلم ذلك بطرق:

منها: تواتر أخباره، وكيف كان من حين ولد إلىٰ أن مات، كما هي مستفيضة مشهورة متواترة، يعلمها من كان له خبرة بذلك، أعظم مما يُعلم به حال موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، فإنَّ محمدا ﷺ ظهر أمره، وانتشرت أخباره، وتواترت أحواله، أعظم من جميع بني آدم؛ فما بقي ما دون هذا من أحواله يخفىٰ علىٰ الناس فكيف مثل هذا؟

ومنها: أنه أخبر[1] في القرآن بما لا يوجد عند أهل الكتاب، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، وبعض التفاصيل في قصة إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ؛ مثل تكليم المسيح في المهد، ومثل نزول المائدة، فإنَّ هذا لا يعرفه أهل الكتاب[2]، ومثل إيمان امرأة فرعون، وغير ذلك؛ فيمتنع أن يُقال: إنَّ هذا تعلمه من أهل الكتاب، وقومه لم يكونوا يعلمون ذلك.

بل قد رأوا هُم[3] وغيرهم آثار المنذَرين الذين عاقبهم الله لما كذبوا الرسل، كقوم عاد وثمود وغيرهم؛ فيستدلُّ الناس بالآثار الموجودة علىٰ صدق الرسل، وعقوبة الله لمن يكذبهم، ويستدل قومه وغيرهم علىٰ صدقه فيما أخبر به من هذه الأمور التي لم يتعلمها من أهل الكتاب بتصديق أهل الكتاب له فيما

---

(١) في (ب): قد أخبر.

(٢) هنا في زيادة في الأصل: إلا. فصارت الجملة: لا يعرفه إلا أهل الكتاب، وفي سائر النسخ بحذف إلا، وهو الصحيح، لأنه قرر أول الكلام أن هذا مما لا يعرفه أهل الكتاب.

(٣) في (ب، ل): أراهم.

وافقهم فيه، مع علمهم أنه لم يتعلم ذلك منهم، ويكون هذا مما يدل علىٰ أنه لم يتعلم ذلك من أهل الكتاب[1] كما قد يظنه بعضهم، وذلك من الوجهين كما تقدم.

ومنها: أنَّ أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له، وحرصًا علىٰ تكذيبه والطعن فيه، وبحثًا عما به يقدحون فيه، فلو كان قد تعلم هذه الأخبار من بشر لكانوا يعلمون ذلك، ويقدحون به فيه ويظهرونه، وكان[2] ذلك مما يظهر أعظم مما ظهر غيره؛ فلما لم يقع ذلك دلَّ علىٰ أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ولم يتمكنوا من القدح به فيه مع علمهم بحاله، ورغبتهم في القدح فيه، ومع كمال الداعي والقدرة يجب وجود المقدور، فلما كان داعيهم تامًّا ولم يقدحوا؛ عُلم أن ذلك لعجزهم، وعجزهم عن القدح مع علمهم بحاله دليل علىٰ أنهم علموا أنَّه لم يتعلمه من بشر.

ومنها: أن يُقال: مثل هذا لو وقع لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله، ويشيع[3]، بل كان المتبعون له المؤمنون به إذا اطلعوا علىٰ ذلك فلا بد أن يشيعوه ويعلنوه، فكيف (ظ٣٧) المخالفون له المكذبون له؟ فإنَّ القوم المتفرقين الذين لم يتواطؤوا -كما لا يجتمعون علىٰ تعمد الكذب- فلا يجتمعون علىٰ كتمان مثل هذا، بل يجتهد الملوك والرؤساء في إخفاء ما يبطنونه من أمر ملكهم الذي بنوه عليه، ويُحلِّفون أولياءهم علىٰ كتمان ذلك، ويبذلون لهم الرغبة والرهبة في ذلك، ثم يظهر ذلك.

---

(١) في (ب، ل) زيادة: شيئا.
(٢) هامش الأصل ظ: ولكان. وفوقها: خ، أي من نسخة أخرىٰ. وكذا ثبت في (ب، ل).
(٣) ليست في (ب، ل).

-كما فعل القرامطة الباطنية من أهل البحرين، وبني عبيدالله بن ميمون القداح[1]، وكما عرف الناس أنَّ النُّصيرية لهم خطاب يسرونه إلىٰ أوليائهم، وإن لم يعلم أكثر الناس ما ذلك الخطاب الذي يسرونه[2]-.

لا سيما والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه -أولاً من المهاجرين كانوا مؤمنين به باطنًا وظاهرًا، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال، وصبروا علىٰ أنواع المكاره والأذىٰ- طائفة كبيرة ذهبت إلىٰ الحبشة، مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له حتىٰ يرجعوا عن دينه، وطائفة كانوا بمكة يعذبون: هذا يُقتل، وهذا يخرج به إلىٰ بطحاء مكة في الحرِّ وتوضع الصخرة علىٰ بطنه حتىٰ يكفر، (فلا يكفر)[3]، وهذا يمنع رزقه ويترك جائعا عُريانا، ثم إنهم هجروا أحبَّ البلاد إليهم، وأفضلها عندهم: مكة أم القرىٰ إلىٰ مدينة كانوا فيها محتاجين إلىٰ أهلها، وتركوا أموالهم بمكة.

قال[4] تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ

---

(١) انظر عن القداح وأسراره: كشف أسرارا الباطنية ص٣٢ فما بعد.

(٢) انظر لخطابهم ما ذكره المصنف في الفتاوىٰ ٢٨/ ٥٥٣، ٣٥/ ١٤٥، وشيخ الإسلام من أخبر الناس بالنصيرية، حيث كانوا في بلاد الشام.

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب، ل): كما قال تعالىٰ.

عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابٗا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعًا واختيارًا، قبل أن يؤمر أحد بقتال، بل مكث بمكة بضع عشرة سنة لا يقاتل[١] أحدًا، ولم يُؤمر بقتال، بل كان لا يُكره أحدًا علىٰ الدين كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكانوا خلقًا كثيرًا، ومعلوم أن الخلق الكثير[٢] الذين اتبعوا شخصًا قد جاء بدين لا يوافقه عليه (في زمنه)[٣] أحد، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا[٤] علىٰ عداوة الناس لهم وأذاهم، ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن، وهو مع ذلك لم يُعط أحدًا منهم مالاً، ولا كان له مال يعطيهم إياه، ولا ولَّىٰ أحدا ولاية، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها، ولا أكره أحدا، ولا بقرصة في جلده، فضلاً عن سوط[٥] أو عصا أو سيف، وهو مع ذلك يقول عما يخبرهم به من الغيب: الله تعالىٰ أخبرني به، لم يخبرني بذلك بشر.

فلو كانوايعلمون مع ذلك[٦] أنه تعلمه من بشر لكان هذا مما يقوله

---

(١) في (ظ) وضع النقطتين من أسفل فصارت: يقايل.
(٢) ليست في (ب).
(٣) ليست في (ب، ل).
(٤) في (ب): ويصيروا.
(٥) في (ب): «يقرضه في جلده فضلا عن صوت».
(٦) في (ب، ل): «مع ذلك يعلمون».

بعضهم لبعض، ويمتنع في جبلَّة بني آدم وفطرهم[1] أن يعلموا أنه كاذب وأنه قد تعلم هذا من بشر، وليس فيهم من يخبر بذلك، مع أنهم كانوا كثيرين لا يمكن تواطؤهم علىٰ الكذب أو الكتمان، بل ولا داعي لهم يدعوهم إلىٰ ذلك، ويمتنع أن لا يعلموا ذلك، وهم بطانته المطلعون علىٰ أحواله، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين علىٰ حاله.

والقرآن كان ينزل شيئًا فشيئًا، لم ينزل جملة، بل كانوا يسألونه عن الشيء بعد الشيء من الغيب بين الذين آمنوا به وباطنوه واطلعوا علىٰ أسراره، وهو لا يعلم (ظ٣٨) شيئًا من ذلك، ثم يخبرهم به، وهم مطلعون علىٰ أمره خبرًا بعد خبر، وسؤالاً بعد سؤال، وهذا كان بمكة، وليس بها أحد من علماء أهل الكتاب، لا اليهود ولا النصارىٰ.

ثم هاجر إلىٰ المدينة وبها خلق كثير من اليهود؛ قينقاع والنضير وقريظة، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها، أو أقل أو أكثر، وهم أيضًا يسألونه عن الغيوب التي لا يعلمها إلاَّ نبي فيخبرهم بها، ويتلو عليهم ما سأله[2] عنه المشركون من الغيب، وما أخبرهم به، ويتلو عليهم هذا الغيب الذي أوحاه الله إليه، ويبين أنَّ الله تعالىٰ علَّمه ذلك، لم يُعلمه إياه بشر، فآمن به طائفة من أهل الكتاب وكفرت به[3] طائفة أخرىٰ، والطائفتان ليس فيهم من يقول: إنَّ هذا تعلمتَه منا أو من إخواننا أو نظرائنا، ولا إنك قرأته في كتبنا.

مع أنه لو كان قد تعلم ذلك منهم لكان شيوخه منهم وشيوخهم[4] إذا

---

(١) في (ب): «وفطرتهم».
(٢) في (ب): «سألوه».
(٣) ليست في (ب).
(٤) في الأصل (ظ): «أو شيوخهم» وما ثبت أجود.

علموا أنه كاذب تعلَّم[1] منهم يمتنع أن يصدقوه باطنًا وظاهرًا، بل تصديقهم للكتاب الأول، وعلمهم بكذب من ادعىٰ نزول كتاب ثان -وقد تعلم منهم- يدعوهم إلىٰ أن يبينوا أمره، ويظهروا كذبه، ويقولوا للناس: تعلم منا، ونحن أخبرناه بذلك، لا سيما مع ما فعله باليهود من القتل والسبي والحصار[2].

وهذا لو وقع لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله، ينقله الموافق والمخالف، فلما لم يقل ذلك أحد ولم ينقله أحد -مع ما أظهره من الأخبار المستفيضة[3] المتواترة التي علمها الخاص والعام، بأنَّ هذا إنَّما أنبأني الله به لم يخبرني به بشر- كان هذا دليلاً قاطعًا بينًا في أنَّ هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلاَّ نبي أو من تعلمها من نبي (أعلمه الله بها)[4] هي مما أنبأه الله به، ولم يعلمه ذلك بشر، وهذا من الغيب الذي قال الله تعالىٰ فيه في السورة التي ذكر فيها استماع الجن للقرآن وإنذار قومهم به[5] حيث قال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ١-٣]، إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ

---

(١) في (ب، ل، ط النيل): تعلمه.

(٢) في (ب، ل، ط النيل): من القتل والحصار والجلاء والسبي وغير ذلك.

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٥) ليست في (ب).

﴿إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ١٩-٢٨].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾[١] يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به، لا يعلمه أحد إلا من جهته، بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم، فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض.

(قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

فهذه أنباء الغيب التي أوحاها إليه هي من الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحدا، إلا من ارتضىٰ من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه (ظ٣٩) رصدا، يرصدون من يأتيه من إنسي وجني فيدفعونه، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)[٢][٣].

---

(١) زاد في (ب): أحدا.

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٣) قال ابن عباس: «قوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فأعلم الله سبحانه الرسل من الغيب الوحي وأظهرهم عليه بما أوحي إليهم من غيبه، وما يحكم الله، فإنه لا يعلم ذلك غيره».
وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فقد قال ابن جرير: «فإنه يرسل من أمامه ومن خلفه حرسا وحفظة يحفظونه، ثم روىٰ عن الضحاك قال: كان النبي ﷺ إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، أن يتشبه الشيطان علىٰ صورة الملك» (تفسير الطبري ٢٣/ ٦٧١).
=

فمما سأله عنه أهل الكتاب في المدينة مسائل، وهي غير المسائل التي كان يُسأَل عنها وهو بمكة، كما كان مشركو قريش يرسلون إلىٰ اليهود بالمدينة، يسألونهم[1] عن محمد ﷺ، فيرسل اليهود إليهم[2] بمسائل يمتحنون بها نبوته.

وذلك مثل:

ما في صحيح البخاري عن أنس قال: «جاء عبد الله بن سلام إلىٰ رسول الله ﷺ مقدمه المدينة فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلاَّ نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلىٰ أمه وإلىٰ أبيه، قال: أخبرني جبريل آنفًا، قال عبدالله[3]: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

= وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ هذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهكذا قال هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وإنه لا يطلع أحد من خلقه علىٰ شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالىٰ عليه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري.

ثم قال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه علىٰ ما معه من وحي الله؛ ولهذا قال: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾.

وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ إلىٰ من يعود؟ فقيل: إنه عائد إلىٰ النبي ﷺ.. ثم ذكر القول الثاني: وهو ليعلم أهل الشرك ومن كذب الرسل أنهم قد ابلغوا رسالات ربهم» (تفسير ابن كثير ٨/ ٢٤٧).

(١) في (ب، ل، د): يسألوهم.

(٢) في (ب): فيرسلون إليهم اليهود بمسائل يمتحنون، وفي (ل، د) مثله لكن قدم اليهود.

(٣) ليست في (ب).

«أمَّا[1] أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلىٰ المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت[2]، وأما الولد فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد إلىٰ أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلىٰ أمه».

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، قال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني[3] عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي[4] ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله (بن سلام)[5] فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: فهذا ما كنت أخاف وأحذر»[6].

وروىٰ مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: «كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، وقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ قال: قلت: ألا تقول يا رسول الله؟ قال: إنما سمَّيته باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: إن اسمي الذي سماني به أهلي محمد، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: ينفعك

---

(١) كذا في الأصول، والقول من هنا للنبي ﷺ. وقد رواه البخاري في موضعين، قال في كل منهما: قال..الخ.

(٢) في (د): الحوت.

(٣) في هامش (ب): يتهموني.

(٤) في (د): رسول الله.

(٥) ليست في (ب، ل، د، ط النيل).

(٦) صحيح البخاري (٣٩٣٨)(٤٤٨٠).

شيء إن حدثتك، قال: أسمع بأذني، فنكت بعود معه، فقال له: سل، فقال اليهودي: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: رسول الله ﷺ: في الظلمة دون الجسر، قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد نون[(١)]، قال: وما غذاؤهم علىٰ أثره؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: من عين فيها[(٢)] تسمىٰ سلسبيلا، قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: ينفعك إن حدثتك، قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرَ بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله[(٣)].

فقال اليهودي: صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف.

فقال: النبي ﷺ: إنه سألني عن هذا الذي سألني عنه وما أعلم شيئًا منه حتىٰ أتاني به الله تعالىٰ»[(٤)].

وروىٰ[(٥)] أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شَهر بن حوشب، عن ابن عباس، قال: «حضرتْ عصابة من اليهود يومًا إلىٰ[(٦)]

---

(١) في رواية أخرىٰ عند مسلم: زائدة كبد الحوت، والمقصود طرف الكبد، وهو أطيبها.
(٢) ليست في (ب).
(٣) قدم وأخر في (ب).
(٤) صحيح مسلم(٣١٥).
(٥) في الأصل د: «ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن احمد بن يونس عن عبدالحميد به». وهذا حاشية في الأصل أدرجها الناسخ كما سيأتي في التعليقة في آخر الحديث.
(٦) ليست في (د)، وفي (ب): أتوا. وفي (ل): فقالوا يا رسول الله حدثنا عن خلال..

النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله (ظ ٤٠) حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمها إلا نبي، فقال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب علىٰ بنيه إن أنا حدثتكم بشيء تعرفونه صدقا لتبايعوني[(١)] علىٰ الإسلام[(٢)]، فقالوا: لك ذلك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا عن الطعام الذي حرم إسرائيل علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا عن ماء الرجل كيف يكون الذكر منه حتىٰ يكون ذكرا، وكيف تكون الأنثىٰ حتىٰ تكون أنثىٰ، وأخبرنا كيف هذا النبي في النوم، ومن وليك من الملائكة[(٣)]؟

قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا حدثتكم لتبايعوني، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضًا شديدًا طال سقمه فيه؛ فنذر لله نذرًا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحب الشراب إليه، وأحب الطعام إليه[(٤)]، وكان أحب الشراب إليه ألبان الإبل، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل؟

قالوا: اللهم نعم.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد عليهم، قال: فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ هل تعلمون أنَّ ماء الرجل غليظ أبيض[(٥)]، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الولد والشبه له بإذن الله؟

---

(١) في (د، ل): لتتابعوني.
(٢) حاشية بهامش الأصل: [شيئا فعرفتموه لتبايعني علىٰ الإسلام].
(٣) حاشية بهامش الأصل: [في عبد وأحمد: وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم، ومن وليه من الملائكة].
(٤) في (ب): قدم الطعام علىٰ الشراب.
(٥) في (ب): أبيض غليظ.

قالوا: اللهم نعم.

فقال: اللهم اشهد، قال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، وأنزل[1] التوراة علىٰ موسىٰ، هل تعلمون أن هذا النبي[2] تنام عيناه ولا ينام قلبه؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: اللهم اشهد.

قالوا: أنت الآن حدثنا[3] مَن وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك.

قال: وليي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه.

قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره لاتبعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه[4]، قالوا: إنه عدونا من الملائكة.

فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩٧]. إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]»[5].

---

(١) في (ب): الذي أنزل.

(٢) في هامش الأصل ظ: [في عبد: الأمي].

(٣) في (ب): حدثتنا، وله وجه من الصحة علىٰ أن ما بعده استئناف.

(٤) في هامش الأصل: [في عبد: أن تصدقوا به]. قلت: وكذا ثبت في (ط النيل، وهامش د).

(٥) في أول الحديث حاشية في الأصل:

[ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن أحمد بن يونس عن عبدالحميد به، ورواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا هاشم بن القاسم ثنا عبدالحميد، ثنا شهر، قال: قال ابن عباس فذكره].

والحديث رواه الطيالسي (٢٨٥٤)، وأحمد في المسند (٢٥١٤)، وعبد بن حميد (كما في تفسير ابن كثير ١/ ١٨٦)، وابن جرير الطبري (١/ ٤٣١) وشهر بن حوشب صدوق كثير الأوهام.

وفي هامش الأصل: بلغ.

ففي هذه الأحاديث أنَّ علماء اليهود -كعبد الله بن سلام وغيره- كانوا يسألونه عن مسائل، يقولون فيها: لا يعلمها إلا نبي، أي: ومن تعلمها من الأنبياء، فإن السائلين كانوا يعلمونها، كما جاء - أيضا -: «لا يعلمها إلا نبي أو قليل من الناس»[1].

وكانوا يمتحنونه بهذه المسائل[2] ليتبين هل يعلمها، وإذا كان يعلم ما لا يعلمه إلا نبي كان نبيًّا، ومعلوم أنَّ مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يتعلم[3] هذه المسائل من أهل الكتاب، ومن تعلم منهم، وإلا فمعلوم أن هذه المسائل كان يعلمها بعض الناس، لكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء.

وهذا يبين أنَّ هؤلاء السائلين له من أهل الكتاب كانوا يعلمون أنَّ أحدًا من البشر لم يعلمه ما عند أهل الكتاب من العلم، إذ لو جوزوا ذلك عليه لم يحصل مقصودهم من امتحانه هل هو نبي أم لا؟ فإنهم إذا جوزوا أن يكون تعلم ما لا يعلمه إلا نبي من أهل الكتاب، كان من جنسهم، فلم يكن في علمه[4] بها وإجابتهم عنها دليل علىٰ نبوته، فلا بد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلم من أهل الكتاب.

وهذا كان بالمدينة بعد أن أقام بمكة بضع عشرة سنة، وانتشر أمره، وكذبه قومه، وحرصوا[5] علىٰ إبطال دعوته بكل طريق يقدرون عليه، فلو كان بمكة أو

---

(١) في ما سوىٰ الأصل (ظ): أو رجل أو رجلان.

(٢) في (ب): بالمسائل.

(٣) في (ب، ل): يعلم... ومن يعلم.

(٤) في (ب): علمهم.

(٥) في (ب): وحرضوا.

بالمدينة أحدٌ من أهل الكتاب يتعلم منه؛ أو لقي أحدا من أهل الكتاب في طريق فتعلم منه؛ لكان ذلك يقدح في مقصود هؤلاء السائلين، فتبين أنه كان معلوما عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئا من الغيب من بشر، لا سيما ولو كان قد تعلمه من أهل الكتاب وقد كذبهم وحاربهم لأظهروا ذلك، ولشاع في أهل الكتاب، فكان إذا أجابهم[1] قالوا: هذا تعلمته من فلان وفلان منا، أو هذا علمكه بعض أهل ديننا.

وهذا كما كانوا (ظ٤١) يرسلون إلىٰ قومه من قريش ليسألوه عن مسائل، ويقولون: إن أخبركم بهنَّ فهو نبي مرسل، وإلاَّ فهو متقول، ويقولون: سلوه عن مسائل لا يعلمها إلاَّ نبي.

فهذا من أهل المدينة ومن قريش قومه يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين علىٰ أنه لم يتعلم شيئا من ذلك من البشر، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك، ولم يجز أن يقولوا لا يعلمها إلا نبي، فإنهم كانوا جميعًا يعلمون أن من أهل الكتاب من يعلم هذه المسائل، وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء، أو بخلاف ذلك.

ويعلمون أن من كان يعلمها من أهل الكتاب ومن تعلم منهم لا يدل جوابه عنها علىٰ نبوته؛ كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب، وكما لو سأل في زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب التي لا يعلمها إلاَّ نبي، فإن ذلك لا يدل علىٰ نبوته؛ لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء، فدلَّ علىٰ أن مرادهم بقولهم: لا يعلمها إلا نبي: أي لا يعلمها ابتداءً بدون تعليم بشر إلاَّ نبي.

---

(١) في (ب): حدثهم.

ويدلُّ علىٰ أنَّ المشركين وأهل الكتاب كانوا جميعًا متفقين علىٰ أنه لم يتعلم من بشر مع انتشار أخباره، ومع اطلاع قومه علىٰ أسراره، ومع ظهور ذلك لو وجد، مع أنهم لو جوزوا تجويزا أن يكون قد تعلمها من بشر في الباطن لم يجز أن يستدل بها علىٰ نبوته، فدلَّ علىٰ أنهم كانوا قاطعين بأنه لم يتعلم ذلك من بشر، لا في الباطن ولا في الظاهر، وهذا طريق بيِّنٌ يدل علىٰ أنه لم يتعلم ذلك من بشر سوىٰ الطرق المذكورة هنا.

فصل:

ولمَّا كان محمد[1] ﷺ رسولاً إلىٰ جميع الثقلين جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، وهو خاتم الأنبياء - لا نبي بعده - كان من نعمة الله علىٰ عباده، ومن تمام حجته علىٰ خلقه: أن تكون آياتُ نبوته وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذين بعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين علىٰ نبوته ما ليس عند هؤلاء.

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبين به أن القرآن حق، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢، ٥٣].

أخبر سبحانه أنه سيُري العباد الآيات في أنفسهم وفي الآفاق، حتىٰ يتبين لهم أن القرآن حق، فإنَّ الضمير عائد إليه، إذ هو الذي تقدم ذكره، كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ

(١) في (ب): محمد رسول الله.



بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

والضمير في «كان» عائد إلىٰ معلوم، يقول: أرأيتم إن كان القرآن من عند الله، ثم كفرتم به، من أضل ممن هو في شقاق بعيد[1].

فإنه علىٰ هذا التقدير يكون الكافر[2] في شقاق بعيد، قد شاق الله ورسوله، ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق، حيث كان في شق، والله ورسوله في شق[3]، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

---

(١) وفي ذلك يقول ابن جرير: «وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ يقول جل ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم وبهم حتىٰ يعلموا حقيقة ما أنزلنا إلىٰ محمد، وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهرو ما بعثناه به من الدين علىٰ الأديان كلها، ولو كره المشركون» (تفسير ابن جرير ٢١/ ٤٩٤).

فهذا هو القول الأول في عود الضمير، وهو الذي رجحه المصنف، ونقل ابن الجوزي قولا آخر، وهو: جميع ما دعاهم إليه الرسول (زاد المسير ٤/ ٥٧) والمعنىٰ علىٰ كلا القولين متفق، فإن كل ما دعاهم إليه الرسول إنما هو من مرجعه إلىٰ مشكاة القرآن.

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) الشقاق: هو المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك، أو من شق العصا بينك وبينه (المفردات للراغب الأصفهاني ٤٦٠).

قال ابن جرير: وأصل «الشقاق» عندنا، والله أعلم، مأخوذ من قول القائل: «شق عليه هذا الأمر»، إذا كربه وآذاه. ثم قيل: «شاق فلان فلانا»، بمعنىٰ: نال كل واحد منهما من صاحبه ما كربه وآذاه، وأثقلته مساءته. ومنه قول الله تعالىٰ ذكره: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا ﴾ [النساء: ٣٥] بمعنىٰ: فراق بينهما (تفسير الطبري ٣/ ١١٦).

بيَّن أن من تولىٰ عن ذلك لم يكن متبِّعا للحق قاصدًا له، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولىٰ عنه من أهل الكتاب من قصده الحق، وإنما يتولىٰ عنه من قصده المشاقة والمعاداة لهوىٰ نفسه، وهذا يكفيك الله أمره[(١)].

والقرآن إن كان من عند الله ثم كفر به من كفر فلا أحد أضل (ظ٤٢) ممن هو في مثل حاله إذ هو في شقاق بعيد، وإن قُدِّر أنه لم يعلم أنَّه حق فهو ضال، والشقاق قد يكون مع العناد، وقد يكون مع الجهل، فإنَّ الآيات إذا ظهرت فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مُشاقًّا، ولهذا قال عقب ذلك: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فأخبر أنه سُيري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين[(٢)] أنه حق.

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وشهادته للقرآن ولمحمد تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك علىٰ أنبيائه، كما قال تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

(وتكون بأقواله التي أنزلها علىٰ محمد، فإن القرآن نفسه آية بينة ومعجزة قاهرة)[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣/ ١١٥، الكشاف ١/ ١٩٦.

(٢) في (ب): يبين لهم.

(٣) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدَّالة علىٰ صدق رسله، فإنه صدَّقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم[1] بأنهم صادقون.

والقرآن - نفسه - هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله علىٰ محمد وإتيان محمد به هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله[2] إذ كان البشر لا يقدرون علىٰ مثله، لا يقدر عليه أحد من الأنبياء، ولا الأولياء، ولا السحرة، ولا غيرهم، كما قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أوَّل أمره، إذْ كانت هذه الآية[3] في سورة «سبحان» وهي مكية، صدَّرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس[4]، وقد أخبر خبرا وكَّده[5] بالقسم عن جميع الثقلين - إنسهم وجنهم - أنهم إذا اجتمعوا علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، بل يعجزون عن هذا[6].

وهذا فيه آيات لنبوته:

منها: إقدامه علىٰ هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلىٰ يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون عنه.

هذا لا يُقدم عليه مَن يطلب مِن الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأنَّ الأمر

---

(١) في (ب، ل): «وشهد لهم بها».
(٢) أي إنزاله والإتيان به.
(٣) ليست في (ب).
(٤) هامش ظ: بلغ مقابلة.
(٥) في (ب، ط النيل، د): «واكده».
(٦) في (ب، ل): ذلك.

كذلك، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجوز[1] أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم -المؤمن بمحمد، والكافر به- علىٰ كمال عقله ومعرفته وخبرته، إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلىٰ يوم القيامة، الذي يقرأ به في الصلوات، ويسمعه العام والخاص، والولي والعدو، دليل علىٰ كمال ثقته بصدق هذا الخبر.

وإلاَّ لو كان شاكًّا في ذلك لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذا لا يفعله من يقصد أن يُصدَّق[2]، فمن يقصد[3] أن يُصدقه الناس لا يقول مثل هذا -ويظهره هذا الإظهار، ويشيعه هذه الإشاعة، ويخلده هذا التخليد- إلاَّ وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يتصور أن بشرًا يجزم بهذا الخبر[4] إلا أن يعلم أنَّ هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ عِلْمُ[5] العالم بعجز جميع الإنس والجن إلىٰ يوم القيامة هو من أعظم دلائل كونه معجزًا، وكونه آية علىٰ نبوته، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام، وعلم أنه من القرآن الذي أُمر ببلاغه إلىٰ جميع الخلق، وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز.

دع ما سوىٰ ذلك من الدلائل الكثيرة علىٰ أنه معجز، مثل:

عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص علىٰ معارضته، وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم (ظ٤٣) عدم القدرة، فلما كان

---

(١) في (ط النيل وأصلها د): «لجواز».

(٢) في (ب، ل، ط النيل): «يصدقه الناس».

(٣) في (ب): «قصد».

(٤) في (ب): «بهذا الأخبار».

(٥) في (ب): «وهو إذ علم».

داعي[1] العرب وغيرهم على المعارضة تامًّا -(وانتفت المعارضة)[2]- عُلم عجز جميع الأمم عن معارضته، وهذا برهان ثانٍ يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية[3] لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز، فإن ذلك آية مستقلة لنبوته، وهي آية باقية ظاهرة[4] إلى آخر الدهر، معلومة لكل أحد، وهي من أعظم الآيات.

فإنَّ كونه مُعجزًا يعلم بأدلة متعددة، والإعجاز فيه من[5] وجوه متعددة، فتنوعت دلائل إعجازه، وتنوعت وجوه إعجازه، وكل وجه من الوجوه فهو دليل[6] على إعجازه، وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل[7].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]،

---

(١) في (ب، ل): «دواعي».

(٢) سقط (من المطبوعة) وهو ثابت في كل الأصول.

(٣) في (ب): «أنه آية».

(٤) في (ب، ل): «ظاهرة باقية».

(٥) ليست في (ل).

(٦) في (ب، ل): هو دال.

(٧) يفرق الشيخ بين إعجاز القرآن، وبين أوجه إعجاز القرآن، فقد يعلم إعجازه بأدلة من أظهرها الآية التي شرحها آنفا، وهي قوله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾الآية، فيعلم بذلك الناس أنه معجز، لكن ليس بالضرورة أن يعلموا أوجه إعجازه، ومنها: الغيبيات التي في القرآن، ويرى المصنف أن ظهور كون القرآن معجز أشهر وأظهر للناس من معرفة أوجه إعجازه، ثم بيَّن العلاقة بين كون القرآن معجزة، وبين أوجه إعجازه، فكل وجه من أوجه إعجازه دليل على إعجازه، وهذا بين لمن تأمله.

فهو كافٍ في الدعوة والبيان، وهو كافٍ في الحجة والبرهان[١].

فصل:

والآيات والبراهين الدالة علىٰ نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ويسمِّيها من يسميها من النُّظَّار «معجزات»، وتُسمىٰ «دلائل النبوة» و«أعلام النبوة» (ونحو ذلك)[٢].

وهذه الألفاظ إذا سُمِّيت بها آيات الأنبياء كانت أدل علىٰ المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ «المعجزات» موجودًا في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ: الآية، والبينة، والبرهان.

كما قال تعالىٰ في قصة موسىٰ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]، في العصا واليد[٣].

وقال تعالىٰ في حق محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

---

(١) قال القرطبي (في التفسير ١٣/ ٣٥٥): «قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا جواب لقولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسىٰ وعيسىٰ لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدور، لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة».

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٣) البرهان: بيان للحجة، قال الراغب (في المفردات ١٢١): «البرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدا لا محالة، وذلك أن الأدلة خمسة أضرب: دلالة تقتضي الصدق أبدا، ودلالة تقتضي الكذب أبدا، ودلالة إلىٰ الصدق أقرب، ودلالة إلىٰ الكذب أقرب، دلالة هي إليهما سواء».

وقد قال في مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤، ٧٥].

وأما لفظ «الآيات» فكثير في القرآن[1].

كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَٰلَتِهِۦ[2]﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) الآية هي الدلالة الواضحة (تفسير الطبري ١٧/ ١٧٩، الكشاف ٢/ ٥٩٧، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٨٣).

وقال الراغب: «واشتقاق الآية إما من أي فإنها هي التي تبين أيا من أي، أو من قولهم: أوىٰ إليه. والصحيح أنها مشتقة من التأيي الذي هو التثبت والإقامة علىٰ الشيء» (المفردات ١٠٢).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وهي قراءة من سوىٰ ابن كثير وحفص، حيث قرآ بالتوحيد (النشر ٢/ ٢٦٢). وهكذا ثبت في المطبوعة و ط النيل، وهو من تغيير المحققين.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ[1] ﴾ [النمل: ١٢]، وقول فرعون له: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣١].

وقال قوم صالح له: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٤، ١٥٥]، وقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال المسيح: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال في حقِّ محمد: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ٤، ٥]، (وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾)[2]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١، ٢]، وقال (ظ٤٤): ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

---

(١) في الأصول زيادة: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾، وهي من آية ٢٢ في سورة طه، وليست من آية سورة النمل.
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١][1].

وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥][2].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء، قال في آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) أخطأ في الأصول كلها في أول الآية، فكتب: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ..﴾ ولم ينتبه لها في ط النيل، ويظهر أن الخطأ قديم لاتفاق الأصول عليه، وهما آيتان: الأولىٰ في طه:١٣٣، والثانية في العنكبوت: ٤٩.

(٢) كتب في (ب): ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ ثم ضرب عليها، وليست في (ل).

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، إلىٰ أن قال في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] إلىٰ قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وأما لفظ «المعجز»، فإنما يدل علىٰ أنه أعجز غيره(١):

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

---

(١) العجز هو التأخر عن الشيء والضعف، وقال ابن فارس: «عجز عن الشيء يعجز عجزا، فهو عاجز، أي ضعيف. وقولهم إن العجز نقيض الحزم فمن هذا؛ لأنه يضعف رأيه. ويقولون: المرء يعجز لا محالة، ويقال: أعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه. ولن يعجز لله تعالىٰ شيء، أي لا يعجز الله تعالىٰ عنه متىٰ شاء» (معجم مقاييس اللغة ٤/ ١٨٩، وانظر: المفردات ٥٤٨).
وللمصنف رسالة في حد المعجزة وحقيقتها، والفرق بينها وبين الكرامة، عنوانها: قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات، وذلك في مجموع الفتاوىٰ: ١١/ ٣١١.
افتتحها بقوله: اسم «المعجزة» يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره - ويسمونها: الآيات - لكن كثيرا من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي و «الكرامة» للولي وجماعهما الأمر الخارق للعادة.

ومن لا يثبت فعلا إلاَّ لله يقول: المعجز هو الله، وإنما يسمَّىٰ غيره معجزا مجازًا.

وهذا اللفظ لا يدل علىٰ كون ذلك آية ودليلا إلاَّ إذا فسر المراد به وذكر شرائطه، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزًا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء -إن أثبت لهم خرق عادة- سماها كرامة.

وأحمد وغيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزًا[1]، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذ لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، بخلاف ما كان آية وبرهانًا علىٰ نبوة النبي، فإن هذا يجب اختصاصه به.

وقد يسمون الكرامات آيات، لكونها تدل علىٰ نبوة من اتبعه الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهانا -وهو الدليل والعلم علىٰ نبوة النبي- يمتنع أن يكون لغير النبي، وبسط هذا له موضع آخر[2].

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة كما قد تكلمنا علىٰ ذلك في غير هذا الكتاب، وبيَّنا أنَّ من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط، بل هي أنواع كثيرة.

لكن الآيات نوعان:

منها: ما مضىٰ وصار معلوما بالخبر، كمعجزات موسىٰ وعيسىٰ.

ومنها: ما هو باق إلىٰ اليوم، كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد ﷺ،

---

(١) في (ب، ل، ط النيل): «والسلف كأحمد وغيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزا».
(٢) انظر: قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات مجموع الفتاوىٰ: ١١/ ٣١١.

وكالعلم والإيمان الذين في أَتْباعه، فإنه من أعلام نبوته، وكشريعته التي أتىٰ بها، فإنها أيضا (ظ٤٥) من أعلام نبوته، وكالآيات التي يظهرها الله وقتًا بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته، ووقوع ما أخبر بوقوعه، كقوله: «لا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا الترك»[١].

وقوله: «لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرىٰ»[٢]، وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستمائة، وشاهد الناس أعناق الإبل في ضوء النار ببصرىٰ[٣].

وظهور دينه وملته بالحجة والبرهان، واليد والسنان[٤].

ومثل المثلات والعقوبات التي تحيق بأعدائه، (وغير ذلك)[٥].

وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله، وغير ذلك.

والقرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة، فله به اختصاص علىٰ غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٩١٢) من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) سيأتي حديث المصنف عن هذه النار قريبا.
(٤) هذا معطوف علىٰ النوع الثاني، وهو: الباقي إلىٰ اليوم. وكذلك ما بعده. وفي (ل، ب): واللسان.
(٥) ما بين القوسين ليس في (ب).
(٦) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة.

والقرآن يظهر كونه آية له[1] وبرهانًا من وجوه: جملة وتفصيلا[2].

أمَّا الجملة:

فإنه قد عَلمت الخاصة والعامة من عامة الأمم عِلمًا[3] متواترًا أنَّه هو الذي أتىٰ بهذا القرآن، وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة، وغيرهم.

والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة، والتحدي هو أن يحدوهم: أي يدعوهم ويبعثهم إلىٰ أن يعارضوه، (فيقال فيه)[4]: حداني علىٰ هذا الأمر: أي بعثني عليه، ومنه سمي حادي العيس؛ لأنه بحداه يبعثها علىٰ السير.

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوىٰ النبوة، ولكن أصله الأول[5].

قال تعالىٰ في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ

---

(١) أي للنبي ﷺ. وتأخرت (له) في (ب، ل) بعد برهانا.

(٢) هذا الفصل في الحديث عن إعجاز القرآن بناه المصنف علىٰ طريقتين، إجمالية وتفصيلية، وهذا من أحسن ما يلخص به إعجاز القرآن، فحري بطالب العلم حفظه والاعتناء به.
وقد ذكر المصنف نحو هذا المبحث في العقيدة الأصفهانية ص٢٢٠.

(٣) ليست في (ب).

(٤) ليست في (ب).

(٥) التحدي هو المباراة ومنازعة الغلبة، قال الزمخشري: «تحدىٰ أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة، وتحدىٰ رسول الله ﷺ العرب بالقرآن، وتحدىٰ صاحبه القراءة والصراع، لينظر أيهما أقرأ وأصرع، وأصله في الحداء، يتبارىٰ فيه الحاديان ويتعارضان، فيتحدىٰ كل واحد منهما صاحبه، أي يطلب حداءه كما تقول توفاه بمعنىٰ استوفاه. وأنا حدياك أي معارضك» (أساس البلاغة ١/ ١٧٥، تاج العروس ٣٧/ ٤١٠).
وينظر فصل التحدي من كتاب: إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٥١ حيث بين الحاجة للتحدي في إعجاز القرآن للعربي والأعجمي علىٰ حد سواء.

﴿ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣،٣٤].

فهنا قال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ في أنه تقوله، فإنه إذا كان محمد قادرًا علىٰ أن يتقوله -كما يقدر الإنسان علىٰ أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر- كان هذا ممكنًا للناس، الذين هم من جنسه، فأمكن الناس أن يأتوا بمثله.

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

ثم تحداهم بسورة واحدة منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٧ - ٣٨].

فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات -هُم وكل من استطاعوا من دون الله- ثم تحداهم بسورة واحدة -هم ومن استطاعوا- وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [هود: ١٤]، وهذا أصل دعوته، وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله، والشهادة بأن محمدا رسول الله[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ١٤]، كما قال: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء: ١٦٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٢٦١، إعجاز القرآن للباقلاني ص١٧.

أي: هو يعلم أنه منزل، لا يعلم أنه مفترىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] أي: ما كان لأن يفترىٰ، يقول: ما كان ليفعل هذا، فلم ينف مجرد فعله، بل نفىٰ احتمال فعله، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع، بل يمتنع وقوعه، فيكون المعنىٰ: ما يمكن، ولا يحتمل، ولا يجوز أن يَفتريَ هذا القرآن من دون الله، فإنَّ الذي يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لا يقدر علىٰ ذلك[1].

وهذا التحدي كان بمكة، فإن هذه السور مكية: سورة يونس وهود والطور، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة[2]، فقال في البقرة -وهي سورة مدنية- (ظ٤٦): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

فذكر أمرين:

أحدهما: قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حقٌّ، فخافوا الله أن تكذبوه، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين، وهذا دعاء إلىٰ سبيل ربه بالموعظة الحسنة، بعد أن دعاهم بالحكمة، وهو جدالهم بالتي هي أحسن.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٩٠، تفسير القرطبي ٨/ ٣٤٣، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٨.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٩٩.

والثاني: قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ و «لن» لنفي المستقبل، فبتَّ[1] الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك[2].

وأمره أن يقول في سورة «سبحان» -وهي سورة مكية- افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر، وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ما يبين ذلك، بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فعمَّ (بأمره له أن يخبر)[3] بالخبر جميع الخلق معجِّزًا لهم، قاطعًا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا علىٰ ذلك، وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام، وعُلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورة مثله، ومن حين بعث وإلىٰ اليوم الأمر علىٰ ذلك، مع ما علم من أنَّ الخلق كلهم كانوا كفارًا قبل أن يبعث، ولما بعث إنما تبعه قليل، وكان الكفار من أحرص الناس علىٰ إبطال قوله، مجتهدين بكل طريق ممكن[4]، تارة يذهبون إلىٰ أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتىٰ يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين (كما تقدم)[5]، وتارة يجتمعون في مجمع

---

(١) في (ب): فثبت.

(٢) ولذا قال قتادة: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، أي: لا تقدرون علىٰ ذلك ولا تطيقونه (تفسير الطبري ١/ ٣٧٩).
وفي (ب): «كما أخبره قبل ذلك».

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب، ل): يمكن.

(٥) ليست في (ب).

بعد مجمع علىٰ ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس مثله لمُجرَّد شبهٍ مَا مع ظهور الفرق.

فتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شاعر، إلىٰ أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون - هم وكل عاقل يسمعها - أنها افتراء عليه.

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة - مرة بعد مرة - وهي تبطل دعوته، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها، فإنَّه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض.

فهذا القدر يوجب علمًا بيِّنًا لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة، وهذا أبلغ من الآيات التي تكرَّر جنسها كإحياء الموتىٰ، فإنَّ هذا لم يأت أحد بنظيره[1].

وكون القرآن آيةً معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صَرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم علىٰ معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة:

من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ علىٰ المعنىٰ، ومن جهة (معانيه التي أمر بها)[2]، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد،

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص١٨.

(٢) سقط من المطبوعة لانتقال النظر.

ومن جهة ما بيَّن فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩][1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة علىٰ إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم بيَّنوا لما تنبهوا له[2].

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام[3] الموجب لها، أو بسلب القدرة الجازمة[4]، (وهو: أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضىٰ التام)[5]، أو سَلَبَهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عامًا، مثل قوله تعالىٰ لزكريا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

---

(١) أخطأ في ظ في أول الآية فكتب: ولقد ضربنا..

(٢) في (ب): «يثبتوا لما ينتهوا له»، وفي (ل): «تنبهوا لما تنبهوا له».

(٣) في (ب، ل): «مع تمام».

(٤) في (ب، ل): «التامة».

(٥) ما بين القوسين تأخر في (ل، ب، المطبوعة) بعد الآية.

فإنَّ هذا يقال علىٰ سبيل التقدير والتنزيل[1]، وهو أنَّه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس علىٰ الإتيان بمثله فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلىٰ المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة من يقول: إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون علىٰ أن يشكوا إلىٰ الله، أو إلىٰ ولي الأمر، وليس فيهم مع ذلك من يشتكي[2]، فهذا من أبلغ الأعاجيب[3] الخارقة للعادة.

ولو قدر أنَّ واحدًا صنف كتابًا يقدر أمثاله علىٰ تصنيف مثله، أو قال شعرًا يقدر أمثاله علىٰ أنْ يقولوا مثله، وتحداهم كلهم وقال: عارضوني، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار مأواكم النار، ودماؤكم لي حلال، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد، فإذا لم يعارضوه كان هذا من أبلغ[4] العجائب الخارقة للعادة.

والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعًا[5]، ومن آمن بي دخل الجنة، ومن لم يؤمن بي دخل النار، وقد أبيح لي قتل رجالهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجبت[6] عليهم كلهم طاعتي، ومن لم يطعني كان من أشقىٰ الخلق، ومن آياتي هذا القرآن، فإنَّه لا يقدر أحد علىٰ أن يأتي بمثله، وأنا أخبركم أن أحدًا لا يأتي بمثله.

فيقال: لا يخلو إمَّا أن يكون الناس قادرين علىٰ المعارضة أو عاجزين، فإن كانوا قادرين ولم يعارضوه بل صرف الله دواعي قلوبهم، ومنعها أن تريد

---

(١) في (ب، ل): «التنزل».

(٢) في (ب): يشتكيني.

(٣) هامش الأصل ظ: العجائب. ص. وهكذا ثبت في (ب، ل).

(٤) في (ب، ل): «أبلغ من».

(٥) في (ب، ل): «جميعكم».

(٦) في (ب، ل): «ووجب».

معارضته مع هذا التحدي العظيم، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم علىٰ الكلام ولا علىٰ الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد، فهذا من أبلغ الخوارق.

وإن كانوا عاجزين ثبت أنَّه خارق للعادة.

فثبت كونه خارقًا[1] علىٰ تقدير النقيضين: النفي والإثبات، فثبتَ أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر.

فهذا غاية التنزل، وإلاَّ فالصواب المقطوع به أنَّ الخلق كلهم عاجزون عن مُعارضته، لا يقدرون علىٰ ذلك، ولا يقدر محمد ﷺ نفسُه من تلقاء نفسِه علىٰ أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنىٰ تدبر، كما قد أخبر الله تعالىٰ به في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأيضًا: فالناس يجدون دواعيهم إلىٰ المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه.

وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه، وظهر[2] تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة الكذاب، كقوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك في الماء، وذنبك في الطين»[3].

---

(١) في (ب): «خارقا للعادة».

(٢) في (ب، ل): «وظهر به».

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٤٧٣، حيث نقل بعض النصوص من قرآن مسيلمة المزعوم، وقد أفرد الحافظ المستغفري بابا في كتاب فضائل القرآن عن قرآن مسيلمة وخرج فيه بعض ذلك (٢٨٣)-(٢٨٤).

وكذلك أيضًا يعرفون أنَّه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام (ظ٤٨) بعد قدرته عليه.

وأيضًا: فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد ﷺ والمكذبين له أنَّه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه، وكان مع ذلك مِنْ أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما به ينال مقصوده، سواء قيل إنه صادق أو كاذب، فإنَّ من دعا الناس إلىٰ مثل هذا الأمر العظيم -ولم يزل حتىٰ استجابوا له طوعًا وكرهًا، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار- هو من عظماء الرجال علىٰ أي حال كان.

فإقدامه - مع هذا القصد - في أول الأمر وهو بمكة -وأتباعه قليل- علىٰ أن يقول خبرًا يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، لا في ذلك العصر ولا في سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه[1] بذلك، وتيقنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه، وإذا كان جازمًا بذلك متيقنا له لم يكن ذلك إلاَّ عن إعلام الله له بذلك.

وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أنَّ جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا عَلم العالم أنه خارج عن قدرة البشر، والعلم بهذا يستلزم كونه معجزًا، فإنا نعلم ذلك وإن لم يكن علمنا بذلك خارقًا للعادة، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم، وإلاَّ كان العلم جهلاً، فثبت أنَّه علىٰ كل تقدير يستلزم كونه خارقًا للعادة.

---

(١) في (ب): «خبرته».



(ولو قال مفتر: بل أنا أقول الذي أخبر بهذه الغيوب وأتىٰ بهذه العجائب كان جاهلاً أخرق لاً يدري ما يقول، قيل له: فهذا أبلغ في الإعجاز وخرق العادة أن يكون مجنونا قد أتىٰ بهذه الغيوب والعجايب التي لا يقدر عليها أحد من العقلاء والمجانين)[1].

وأما التفصيل:

فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز[2] ولا الخطابة ولا الرسائل، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم.

ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا وتفصيله طويل، يعرفه من له نظر وتدبر.

ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر، لا نبي ولا غير نبي.

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم، وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن من الدين والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو أيضًا كذلك.

ومَن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية - التوراة والإنجيل والزبور وصحف

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٢) في (ب): الزجر.

الأنبياء - (تفاوت عظيم)[1]، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجاز في معناه أعظم وأكبر[2] من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.

وما في التوراة والإنجيل -لو قُدِّر أنه مثل القرآن- لا يقدح في المقصود، فإنَّ تلك كتب الله أيضًا، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي، كما أتىٰ المسيح بإحياء الموتىٰ، وقد وقع إحياء الموتىٰ علىٰ يد غيره، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية، بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب.

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة[3] ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفىٰ بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله، كعجز جميع الخلق عن (ظ٤٩) الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم، فإنَّ هذا أمر ظاهر لكل أحد.

(ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد)[4]، كالحوادث[5] المشهودة، مثل: خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر، وغير ذلك، وفيها ما يختص به مَن عرفه، مثل دقائق التشريح[6]، ومقادير الكواكب وحركاتها، وغير ذلك.

---

(١) ليس في (ب، ل).

(٢) في (ل): وأكثر.

(٣) في (ب): بالمعرفة.

(٤) سقط من (ب) لانتقال النظر فيما يظهر.

(٥) في (ب): كالخوارق المشهودة.

(٦) هامش (ف): التشريح علم يبحث فيه عن أعضاء الإنسان وكيفية تركيبها، قاله السيوطي.

فإنَّ الخلق كلهم محتاجون إلىٰ الإقرار بالخالق والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به علىٰ عباده جودًا عامًّا مُيسَّرا.

فلما كانت حاجتهم إلىٰ النَّفَس أكثر من حاجتهم إلىٰ الماء، وحاجتهم إلىٰ الماء أكثر من حاجتهم إلىٰ الأكل، كان سبحانه قد جاد بالهواء جودًا عامًّا في كل مكان وزمان لضرورة الحيوان إليه، ثم الماء دونه، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر؛ لأنَّ الحاجة إليه أشد.

فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات، ثم دلائل النبوة، فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما لا يحتاج إليه العامة، مثل تماثل الأجسام واختلافها، وبقاء الأعراض أو فنائها، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفائه، ومثل مسائل المستحاضة، وفوات الحج وفساده[1]، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء.

---

(١) هذه أمثلة للمسائل التي لا يحتاجها العامة وتخفىٰ علىٰ أكثرهم. بل حتىٰ الخاصة قد اختلفوا فيها.
قال الشيخ: «القول في العقليات المحضة كمسألة الجوهر الفرد، وتماثل الأجسام، وبقاء الأعراض، ودوام الحوادث في الماضي أو المستقبل أو غير ذلك، كل هذه مسائل عقلية قد تنازع فيها العقلاء، وهذا باب واسع» (درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٩٣).
وقال كذلك: «تنازع الناس في دقيق الكلام كمسألة الجوهر الفرد وتماثل الأجسام؛ وبقاء الأعراض ونحو ذلك فليس في هذا تكفير ولا تفسيق» (مجموع الفتاوىٰ ١٩/ ٢٠٨، منهاج السنة ٥/ ٨٩).
وقد سبق له الكلام عن بقاء الأعراض وفنائها فيما مضىٰ (٣/ ٣٠٦).

فصل[1]:

وسيرة الرسول ﷺ (من آياته)[2]، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته.

وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين وُلد وإلىٰ أن بُعث، ومن حيث بُعث إلىٰ أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، (فلم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته)[3]، وجعل له ابنين: إسماعيل وإسحاق عليهما الصلاة والسلام، وذكر في التوراة هذا وهذا، وبشر في التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن في ولد إسماعيل من ظهر فيه ما بَشَّرتْ به النبوات غيره، ودعا[4] إبراهيم لذرية إسماعيل[5] بأن يبعث فيهم رسولاً منهم.

---

(١) هذا الفصل من محاسن هذا الكتاب -وكله محاسن- قال الحافظ ابن كثير: «ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه الصلاة والسلام الطاهرة وخلقه الكامل، وشجاعته، وحلمه، وكرمه، وزهده، وقناعته، وإيثاره، وجميل صحبته، وصدقه، وأمانته، وتقواه، وعبادته، وكريم أصله، وطيب مولده ومنشئه ومرباه، كما قدمناه مبسوطا في مواضعه، وما أحسن ما ذكره شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية، رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه الذي رد فيه علىٰ فرق النصارىٰ واليهود ومن أشبههم من أهل الكتاب وغيرهم، فإنه ذكر في آخره دلائل النبوة، وسلك فيها مسالك حسنة صحيحة منتخبة بكلام بليغ يخضع له كل من تأمله وفهمه» ثم ذكر هذا الفصل (البداية والنهاية٨/ ٥٤٩).
في هامش (ب): بلغ.

(٢) ما بين القوسين تأخر في (ب) بعد قوله: النبوات غيره..

(٣) في (ب): «كالخوارق المشهودة».

(٤) في (ب): «عن دعا».

(٥) في (ب، ل): لذريته. وخط تحتها في (ب) خطا، وكتب: إسماعيل، وفي هامش (ل) كتب: إسماعيل.

ثم من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرىٰ وبلد البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلىٰ حجِّه، ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم، مذكورًا في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهودًا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، وممن آمن به وممن[1] كفر بعد النبوة، لا يُعرف له شيء يعاب به، لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جُرِّب[2] عليه كذبة قط، ولا ظُلم ولا فاحشة.

وكان خَلْقُه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة علىٰ كماله، وكان أُمِّيًّا من قوم أميِّين لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب: التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ولا جالس أهلها، ولم يدع نبوة إلىٰ أن أكمل الله له أربعين سنة، فأتىٰ بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبرنا بأمر لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثله، (ولم يعرف قبله ولا بعده -لا في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار - من أتىٰ بمثل ما أتىٰ به، ولا من ظهر كظهوره، ولا من أتىٰ من العجائب والآيات بمثل ما أتىٰ به، ولا من دعا إلىٰ شريعة أكمل من شريعته، ولا من ظهر دينه علىٰ الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره)[3].

---

(١) في (ب): وكفر.

(٢) في (ب): ولا جرت.

(٣) ما بين القوسين ثبت في الأصل ظ، د، وط النيل فقط.

ثم إنه[1] اتبعه ضعفاء الناس وهم أتباع الأنبياء، وكذبه أهل الرياسة (ظ٥٠) وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم.

والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه.

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذىٰ، وهم صابرون محتسبون لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فتجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة، ويدعوهم إلىٰ الله، صابرًا علىٰ ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي، وإعراض المعرض، إلىٰ أن اجتمع بأهل يثرب وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم، وعرفوه، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإنَّ أمره كان قد انتشر، وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به، وبايعوه علىٰ هجرته وهجرة أصحابه إلىٰ بلدهم، وعن[2] الجهاد عنه، فهاجر هو ومن اتبعه إلىٰ المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر، ثم حسن إسلام بعضهم.

ثم أُذن له في الجهاد، ثم أُمر به، ولم يزل قائمًا بأمر الله علىٰ أكمل طريقة، وأتمها من الصدق والعدل والوفاء، لا يحفظ له كَذبة واحدة ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلهم، وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف

(١) في (ب، ل، ط النيل): ثم اتبعه أتباع الأنبياء وهم ضعفاء الناس.

(٢) في (ب، ل، ط النيل): وعلىٰ الجهاد معه.

الأحوال عليه من حرب وسِلْم وأمن وخوف وغنىٰ وفقر وقلة وكثرة[1]، وظهوره علىٰ العدو تارة وظهور العدو عليه تارة، وهو علىٰ ذلك كله لازم لأكمل الطرق وأتمها، حتىٰ ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معادًا، فصاروا به[2] أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتىٰ إنَّ النصارىٰ لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا: «ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء»[3].

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ -مع ظهور أمره، وطاعة الخلق له، وتقديمهم له علىٰ الأنفس والأموال- مات ولم يخلف درهمًا ولا دينارًا، ولا شاة ولا بعيرًا، إلاَّ بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي علىٰ ثلاثين وسقًا[4] من شعير

---

(١) في (ب): «وفقر وقدرة وعجز وتمكن وضعف وقلة وكثرة».

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) انظر قولهم هذا في إغاثة اللهفان ٢/ ٢٩٨، وزاد المعاد ٣/ ٣١٥، البداية والنهاية ٨/ ٥٤٩.

(٤) كذا في جميع الأصول التي بين يدي. وفي أصل المطبوعة: «صاعا»، ونبه أنه صححه من البخاري.
وفي (هامش ط النيل): «صاعا – نسخة». أي هكذا ثبت في نسخة، وفي (هامش د): «قوله ثلاثين وسقا، الذي في الصحيح والمسند وغيرهما: ثلاثين صاعا من شعير».
وهذا الذي ثبت في هذه النسخة المقابل عليها (ط النيل) لعله من تصحيح بعض النساخ لاتباع لفظ الحديث. فإن قوله: «وسقا» هو الصحيح في الكتاب، وهو سبق قلم من المصنف، فإن الثلاين وسقا سترد في هذا الكتاب في حديث دَين جابر الذي لليهودي.
«والصاع إناء يسع خمسة أرطال وثلثا بالبغدادي، وقال بعض الحنفية: ثمانية» (فتح الباري١/ ٣٠٥). والمد يساوي رطلا وثلث (شرح مسلم للنووي٤/ ٢)، أي أن الصاع: أربعة أمداد، بينما الوسق هو ستون صاعا (فتح الباري ٣/ ٣١١).

ابتاعها لأهله[1].

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في[2] مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يُورث ولا يأخذ ورثته شيئًا من ذلك[3].

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئًا بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف[4] العقول أنَّه معروف إلاَّ أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلاَّ نهىٰ عنه، لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهىٰ عن شيء قيل: ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات لم يحرم شيئًا منها كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئًا كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم،

---

(١) روى البخاري في صحيحه (٢٩١٦) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعا من شعير».
وروى أحمد (١٣٤٩٧) بإسناد صحيح عن أنس بن مالك، قال: لقد دعي نبي الله ﷺ ذات يوم على خبز شعير، وإهالة سنخة، قال: ولقد سمعته ذات يوم المرار وهو يقول: «والذي نفس محمد بيده، ما أصبح عند آل محمد صاع حب، ولا صاع تمر، وإن له يومئذ لتسع نسوة، ولقد رهن درعا له عند يهودي بالمدينة، أخذ منه طعاما فما وجد لها ما يفتكها به».

(٢) في (ب): على.

(٣) روى البخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقتسم ورثتي دينارا ولا درهما ما تركت بعد نفقة نسائي، ومئونة عاملي فهو صدقة».
ورويا كذلك حديث أبي بكر أنه قال لفاطمة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة» (صحيح البخاري: ٣٠٩٣، مسلم: ١٧٥٩).
وقد ترجم البخاري في صحيحه: باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» فخرج فيه هذه الأحاديث وغيرها.

(٤) في (ب): يعترف.

فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخير[١] عن الله وعن الملائكة[٢] وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به علىٰ أكمل وجه.

وأخبر بأشياء ليست في هذه[٣] (ظ ٥١) الكتب، (فليس في تلك[٤] الكتب)[٥] إيجاب لعدل، وقضاء بفصل، وندب إلىٰ الفضائل، وترغيب في الحسنات إلاَّ وقد جاء به وبما هو أحسن منه، وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام، وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإنْ قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم علىٰ المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهادًا وأشجع قلوبًا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم، تبين أنهم أسخىٰ وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور، وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده كالحواريين[٦]، وقد استعانوا بكلام

---

(١) في (ب، ط النيل): الخبر.
(٢) في (د): وعن ملائكته.
(٣) ليست في (ب، ل).
(٤) ليست في (ل).
(٥) سقط من (ب) لانتقال النظر فيما يظهر.
(٦) في (ب) زيادة: ومن بعد الحواريين.

الفلاسفة وغيرهم، حتىٰ أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دين المسيح أمورًا من أمور الكفار المناقضة(١) لدين المسيح.

وأمَّا أمة محمد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرءون كتابًا، بل عامتهم ما آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلاَّ من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويُقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالىٰ في الكتاب الذي جاء به: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئًا من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدثهم

---

(١) في (ب): أمور الكفار المناقضين.



به[1] أهل الكتاب موافقًا لما عندهم صدقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطل كذبوه[2].

ومَن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند أو الفرس أو اليونان أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة الدين[3]؛ الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذمومًا مدحورًا عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الظاهرون إلىٰ قيام الساعة، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتىٰ تقوم الساعة»[4].

وقد يتنازع (ظ٥٢) بعض المسلمين مع اتفاقهم علىٰ هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا، ودين محمد خصوصًا، ومن خالف في هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا، ليسوا كالنصارىٰ الذين ابتدعوا دينًا قام به أكابر علمائهم وعبادهم، وقاتل عليه ملوكهم، ودان به جمهورهم، وهو دين مبتدع ليس هو دين المسيح، ولا دين غيره من الأنبياء.

والله ﷻ أرسل رسله بالعلم النافع والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) فصل المصنف في حكم نقل الاسرائيليات وروايتها في المقدمة التي كتبها في أصول التفسير ص٤٢، وقرر فيه أن مبدأ ذكر الإسرائيليات مبني علىٰ كونها: «للاستشهاد لا للاعتقاد».

(٣) في (ب، ط النيل): المسلمين.

(٤) سبق تخريجه.



حصل له سعادة الدنيا والآخرة، وإنَّما دخل في البدع من قصَّر في اتباع الأنبياء علمًا وعملاً.

ولما بعث الله تعالىٰ محمدًا بالهدىٰ ودين الحق تلقىٰ ذلك عنه المسلمون أمته، فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد ﷺ أخذوه عن نبيهم، مع ما يظهر لكل عاقل أنَّ أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أنَّ كل كمال في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علمًا وديّنا، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] لم يكن كاذبًا مفتريًا، فإنَّ هذا القول لا يقوله إلاَّ من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقًا، أو هو من شر الناس وأخبثهم إن كان كاذبا، وما ذكر من كمال علمه ودينه، يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين[1] أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لأنَّ الذي لم يكن صادقًا إمَّا أن يكون متعمدًا للكذب أو مخطئا:

والأول: يوجب أنَّه كان ظالما غاويًا، والثاني: يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً، وكمال علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمدًا للكذب[2]، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم، وإذا انتفىٰ هذا وذاك تعين أنه كان صادقًا عالما بأنه صادق.

---

(١) في (ب): فتبين.

(٢) هامش ظ: بلغ مقابلة.

ولهذا نزَّهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٤].

وقال تعالىٰ عن الملك الذي جاء به: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]، ثم قال عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٢ - ٢٤]، أي: بمتهم أو بخيل[1]، كالذي لا يُعلِّمُ إلا بجُعل، أو لمن يكرمه، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٥ - ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، إلىٰ قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

بيَّن سبحانه أنَّ الشيطان إنما ينزل علىٰ من يناسبه ليحصل به غرضه، فإنَّ الشيطان يقصد الشر؛ وهو الكذب والفجور، لا يقصد الصدق والعدل،

---

(١) قراءة الشيخ بالظاء ﴿بظنين﴾، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس، وقرأ الباقون: ﴿بِضَنِينٍ﴾ (النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٩٩).
وأشار الشيخ إلىٰ القراءتين بقوله: بمتهم أو بخيل، قال أبو علي الفارسي: «معنىٰ بظنين أي: بمتهم، وهو من ظننت التي بمعنىٰ: اتهمت...، وعلىٰ هذا قول عمر: أو ظنين في ولاء..
ومن قال: بضنين فهو من البخل، قالوا: ضننت أضن، مثل: مذلت أمذل، وهو مذل ومذيل، وطب يطب فهو طبيب، والمعنىٰ: إنه يخبر بالغيب فيبثه ولا يكتمه، كما يمتنع الكاهن من إعلام ذلك حتىٰ يأخذ عليه حلوانا» (الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٨٠).

فلا يقترن إلا بمن فيه كذب؛ إمَّا عمدًا وإمَّا خطأ وفجور[1]، فإنَّ الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضًا، كما قال ابن مسعود - لما سُئل عن مسألة -: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه»[2].

فالرسول بريءٌ من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ، بخلاف غير الرسول، فإنه قد يخطئ، ويكون خطؤه من الشيطان، وإن كان خطؤه مغفورًا له، فإذا لم يُعرف له خبرٌ أخبر به كان فيه مخطئًا، ولا أمرٌ أمر به كان فيه فاجرًا، عُلم أنَّ الشيطان لم ينزل عليه، وإنما ينزل عليه ملك كريم، ولهذا قال في الآية الأخرىٰ عن النبي ﷺ (ظ٥٣): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٣][3].

---

(١) كذا في ظ، وفي (ب، ل): وفجور أيضا. وفي (ط النيل): «إلا بمن فيه كذب وفجور، إما عمدا وإما خطأ».

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٠٩٩) (١٨٤٦٠)، وأبو داود في السنن (٢١١٦) عن عبدالله بن عتبة، قال: «أتي ابن مسعود في رجل تزوج امرأة، فمات عنها ولم يفرض لها، ولم يدخل بها، فسئل عنها شهرا، فلم يقل فيها شيئا، ثم سألوه، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، وإن يك صوابا، فمن الله: لها صدقة إحدىٰ نسائها، ولها الميراث، وعليها العدة. فقام رجل من أشجع فقال: أشهد لقضيت فيها بقضاء رسول الله ﷺ في بروع ابنة واشق، قال: فقال هلم شاهداك، فشهد له الجراح وأبو سنان، رجلان من أشجع»، وإسناده صحيح.

وروىٰ الدارمي نحو هذه العبارة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مسألة الكلالة (مسند الدارمي:٣٠١٥).

(٣) هامش (ب): بلغ.

فصل[1]:

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة علىٰ كماله، ونقلوا أخلاقه مِنْ حلمه وشجاعته وكرمه وزهده وغير ذلك، ونحن نذكر بعض ذلك[2]:

ففي الصحيحين: عن البراء بن عازب قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنه[3] خَلْقًا، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير»[4].

وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجُمَّة إلىٰ شحمة أذنيه، عليه حُلة حمراء، ما رأيت قط شيئًا أحسن منه»[5].

وفي البخاري -وسئل البراء-: «أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف،

---

(١) ترك مكان الكلمة في (ب) بياضا.

(٢) من عادة بعض العلماء ذكر أخلاق النبي ﷺ الشريفه ومناقبه المنيفة في أبواب دلائل النبوة، فإن هذه الأخلاق دالة علىٰ عناية الله به، وصنعه علىٰ عينه، كما قال تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، قال أبو عبدالله الحاكم منبها علىٰ ذلك: «وقد قدمت هذه الأحاديث الصحيحة في دلائل النبوة من أخلاق سيدنا المصطفىٰ لقول الله عز وجل ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢] وقول الله عز وجل ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] وقوله تعالىٰ ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١-٤]» (المستدرك٢/ ٦١٣).

(٣) في (ب، ل): وأحسنهم. وهو كذلك في بعض نسخ الصحيح (إرشاد الساري٦/ ٢٧).

(٤) صحيح البخاري (٣٥٤٩)، صحيح مسلم (٢٣٣٧)، واللفظ له، وعند البخاري: الطويل البائن، قال ابن حجر: «المراد بالطويل البائن المفرط في الطول مع اضطراب القامة» (فتح الباري٦/ ٥٦٩).

(٥) صحيح البخاري (٥٩٠١)، صحيح مسلم (٢٣٣٧) واللفظ له، وقوله: «بعيد ما بين المنكبين أي عريض أعلىٰ الظهر» (فتح الباري ٦/ ٥٧٢).

قال: لا، بل مثل القمر»[1].

وفي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال: «كان النبي ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتىٰ كأنَّه فلقة قمر»[2].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ ضخم الرأس والقدمين، لم أرَ قبله ولا بعده مثله، وكان بَسِط[3] الكفين ضخم اليدين»[4].

وسئل عن شعره، فقال: «كان شَعرًا رجِلاً، ليس بالجعد ولا بالسَّبْط، بين

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٥٢) قال الحافظ: «كأن السائل أراد أنه مثل السيف في الطول فرد عليه البراء فقال: بل مثل القمر، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في اللمعان والصقال، فقال بل فوق ذلك، وعدل إلىٰ القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان» (فتح الباري ٦/ ٥٧٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٥٦)، صحيح مسلم (٢٧٦٩)، وقال الحافظ: «أي الموضع الذي يبين فيه السرور، وهو جبينه، فلذلك قال: قطعة قمر ولعله كان حينئذ ملثما، ويحتمل أن يكون يريد بقوله: قطعة قمر القمر نفسه، ووقع في حديث جبير بن مطعم عند الطبراني: التفت إلينا النبي ﷺ بوجهه مثل شقة القمر، فهذا محمول علىٰ صفته عند الالتفات، وقد أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها: كأنه دارة قمر» (فتح الباري٦/ ٥٧٤).

(٣) في الأصول كلها: بسيط، وهو تصحيف. ولم أجد في روايات البخاري ما يعضده، بل قال الحافظ: «كان بسط الكفين ووقع هنا في رواية الكشميهني سبط الكفين بتقديم المهملة علىٰ الموحدة وهو موافق لوصفها باللين، قال عياض: وفي رواية المروزي سبط أو بسط بالشك» (فتح الباري ١٠/ ٣٥٩، وانظر: إرشاد الساري ٨/ ٤٦٨).

(٤) صحيح البخاري (٥٩٠٦)، ولم يخرجه مسلم، وليس في النسخ المطبوعة من الصحيح: «ضخم الرأس»، وفي كلام الحافظ ما يشعر أنها في الصحيح حيث قال: «ثم أورده من طريق أخرىٰ عن جرير -وهو ابن حازم- أيضا زاد فيها كان ضخم اليدين وفي ثالثة كان ضخم الرأس والقدمين» (فتح الباري ١٠/ ٣٥٨)، قلت: وقد ثبتت هذه اللفظة في المختصر النصيح للمهلب بن أبي صفرة (٢٢١٥) في حديث أبي النعمان عن جرير بن حازم.

أذنيه وعاتقه»[١].

وفي الصحيحين عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة، قال: «كان رسول الله ضَليع الفم، أشكَل العينين، منهوس العقبين»، وفسرها سماك بن حرب فقال: «واسع الفم[٢]، طويل شَق العين، قليل لحم العقب»[٣].

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمْهَق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسَّبِط»[٤].

وفي الصحيحين عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأنَّ عرقه اللؤلؤ، إذا مشىٰ تكفأ، وما مسست ديباجة ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شمِمت مسكًا ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ»[٥].

---

(١) لفظ مسلم في الصحيح (٢٣٣٨)، الشعر الجعد هو الذي يتجعد كشعور السودان والسبط هو الذي يسترسل فلا يتكسر منه شيء كشعور الهنود (فتح الباري ١٠/ ٣٥٧).

(٢) في صحيح مسلم: عظيم الفم، وما ثبت هو رواية الترمذي (٣٦٤٧).

(٣) رواه مسلم في الصحيح (٢٣٣٩)، ولم يخرجه البخاري.

(٤) صحيح البخاري (٣٥٤٨)، صحيح مسلم (٢٣٤٧) المهق هو الكريه من البياض، كلون الجص (النهاية في غريب الحديث ٤/ ٣٧٤)، والقطط: البالغ في الجعودة بحيث يتفلفل (فتح الباري ١٠/ ٣٥٧).
وفي (ب): ولا بالبسيط. وهو تصحيف.

(٥) صحيح البخاري (٣٥٤٧)، صحيح مسلم (٢٣٣٠) واللفظ له، والأزهر الأبيض المستنير (النهاية ٢/ ٣٢١)، قال الحافظ: «أزهر اللون أي أبيض مشرب بحمرة» ثم ذكر اختلاف الروايات في بيان لونه الشريف، وخلص إلىٰ القول: «تبين من مجموع الروايات أن المراد بالسمرة الحمرة التي تخالط البياض وأن المراد بالبياض المثبت ما يخالطه الحمرة والمنفي ما لا يخالطه وهو الذي تكره العرب لونه وتسميه أمهق» (فتح الباري ٦/ ٥٦٩).

وروىٰ الدارمي عن ابن عباس، قال: «كان رسول الله ﷺ أفلج[1] الثنيتين، إذا تكلم رئي النور يخرج[2] من ثناياه»[3].

وروىٰ عن ابن عمر، قال: «ما رأيت أحدا أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوء[4] من رسول الله ﷺ»[5].

وعن أنس قال: «دخل علينا رسول الله ﷺ فقالَ[6] عندنا، فعرق، وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرَق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: يا أمَّ سليم، ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو أطيب من الطيب»، أخرجاه[7].

وروىٰ الدارمي عن جابر، قال: «كان رسول الله ﷺ لا يسلك طريقًا فيتبعه أحد إلاَّ عرف أنَّه قد سلكه من طيب عرقه»[8].

---

(١) في ط النيل: أبلج، وهو تصحيف.

(٢) في (ب): قد خرج.

(٣) رواه الدارمي (٥٩)، وفي إسناده: عبدالعزيز بن أبي ثابت الزهري متروك الحديث (ميزان الاعتدال ٢/ ٦٣٢)، وقوله: أفلج -بالجيم- قال ابن الأثير: الفلج بالتحريك: فرجة ما بين الثنايا والرباعيات، والفرق: فرجة بين الثنيتين (النهاية ٣/ ٤٦٨).

(٤) في (ب): ولا أوضأ.

(٥) رواه الدارمي (٦٠)، ورواته ثقات، لكن لم يبين عبدالملك بن عمير سماعه من ابن عمر، وهو مشهور بالإرسال والتدليس.

(٦) في (ب): فنام، وكان كتب فقال ثم ضرب عليه.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٣١)، ولم يخرجه البخاري.
وكلمة أخرجاه ليست في (ب). وفي (ل) كتب لحقا: أخرجاه في الصحيحين.

(٨) رواه الدارمي (٦٧)، بلفظ: «من طيب عرفه، أو قال: من ريح عرقه» وهو حديث غريب، فيه مغيرة بن عطية لم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحا ولا تعديلا (٨/ ٢٢٧)، والراوي عنه هو إسماعيل بن الفضل بن عبدالرحمن ذكره البخاري بروايته عن المغيرة هذا الحديث (١/ ٣٩٩).

وفي حديث أم معبد المشهور، لما مر بها النبي ﷺ في الهجرة هو وأبو بكر، ومولاه، ودليلهم، وجاء زوجها فقال: صفيه لي يا أم معبد، فقالت: «رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، حلو المنطق، فصلٌ لا نزر ولا هَذَرٌ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن»[1].

وروى (أبو زرعة بإسناده)[2] عن محمد بن عمار بن ياسر[3]، قال: قلت للرُّبيِّع بنت معوذ بن عفراء: صفي لنا رسول الله ﷺ، فقالت: «يا بني، لو رأيته

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٦٠٥)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٩)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢٧٧) من حديث حبيش بن خالد الخزاعي رضي الله عنه، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل، فمنها: نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواترا في أخبار صحيحة ذوات عدد، ومنها أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظا بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي رويناه بسياقة الحديث عن الكعبيين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة وقد علونا في حديث الحر بن الصباح» ثم رواه من طريقه.

وقد اختصر المصنف حديثها، وتكملته في المصادر، وينظر في تفسير ألفاظه: شرح السنة للبغوي (١٣/ ٢٦٦).

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب). وهو في هامش (ل) لحقا.

وأبو زرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي (ت:٢٦٤) له كتاب في دلائل النبوة سبقت الإشارة إليه، وهو من مصادر المصنف.

(٣) كذا وقع في الأصول، وهو أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، كما في المصادر، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر من رجال السنن، وقال أبو حاتم: منكر الحديث (الجرح والتعديل٩/ ٤٠٥)، وفي قول آخر منقول من كتاب الكنى أنه قال: صحيح الحديث (كما في تهذيب الكمال ٣٤/ ٦٢)، وقال ابن الجنيد عن ابن معين: ثقة (السؤالات ٢١٨).

رأيت الشمس طالعة»[1].

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «كان رسول الله أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعًا، وقد سبقهم (ظ٥٤) إلىٰ الصوت، وقد استبرأ الخبر، وهو علىٰ فرس لأبي طلحة عُري في عنقه السيف وهو يقول: لَمْ تراعوا، وقال: «وجدناه بحرا»، وكان الفرس قَبل ذلك بطيئًا فعاد لا يجارىٰ»[2].

وفي الصحيحين عن ابن عباس، قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[3].

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «كنا إذا احمر البأس نتقي به، وإنَّ الشجاع منا الذي يحاذي به -يعني النبي ﷺ-»[4].

---

(١) رواه الدارمي (٦١)، والطبراني في الأوسط (٤٤٥٨)، والكبير (٢٤/ ٢٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٥٤)، ودلائل النبوة (١/ ٢٠٠)، وابن عساكر في التاريخ (٣/ ٣١٢) كلهم من طريق عبدالله بن موسىٰ التيمي، عن أسامة بن زيد عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وأفاد الطبراني تفرد التيمي به، والتيمي من رجال ابن ماجه، قال ابن معين: صدوق كثير الخطأ، (تهذيب الكمال ١٦/ ١٨٤، تاريخ الإسلام ٤/ ٩٠٢)، وقال أحمد: كل بلية منه (تهذيب التهذيب ٦/ ٨٢)، وقال ابن حبان: في أحاديثه رفع الموقوف وإسناد المرسل كثيرا حتىٰ يخطر ببال من الحديث صناعته أنها معمولة من كثرتها لا يجوز الاحتجاج به عند الانفراد ولا الاعتبار عند الوفاق (المجروحين ٢/ ١٦).

(٢) صحيح البخاري (٢٩٠٨)، صحيح مسلم (٢٣٠٧)، وقوله: عري أي ما عليه سرج (فتح الباري ٦/ ٧٠).

(٣) صحيح البخاري (٦)، صحيح مسلم (٢٣٠٨).

(٤) صحيح مسلم (١٧٧٦) ولم يخرج البخاري هذا اللفظ، إنما أخرج أصله في غزوة حنين (٤٣١٧).

وعن علي بن أبي طالب، قال: «لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسًا، وما كان أحد أقرب إلىٰ العدو منه»، ذكره البيهقي بإسناد صحيح(١).

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «خدمت رسول الله عشر سنين، والله ما قال لي أفٍّ(٢) قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»(٣).

وفي (رواية في)(٤) الصحيحين أيضًا قال: «خدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا؟ وكان أحسن الناس خُلقا»(٥).

وفي الصحيحين عن جابر، قال: «ما سُئل رسول الله ﷺ (شيئا، فقال: لا»(٦).

وفي الصحيحين عن أنس قال: «ما سئل رسول الله ﷺ)(٧) علىٰ الإسلام شيئًا إلاَّ أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلىٰ قومه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٦١٤)، وأحمد في المسند (٦٥٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٥٨٥)، وأبو يعلىٰ (٤١٢) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٧٥)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٢٤).
وقد صححه المصنف كما في عامة النسخ، وفي (ب): ذكره البيهقي بإسناده.
(٢) في (ب): أفا. وهي رواية في مسلم.
(٣) هذا لفظ مسلم في الصحيح (٢٣٠٩).
(٤) ليست في (ب).
(٥) صحيح البخاري (٢٧٦٨)، صحيح مسلم (٢٣٠٩).
وجملة: كان أحسن الناس خلقا، رواها مسلم في الصحيح (٢٣١٠).
ولفظ الحديث في (ب): «أفًّا قط، ولا قال لي لم فعلت كذا».
(٦) صحيح البخاري (٦٠٣٤)، صحيح مسلم (٢٣١١).
(٧) ما بين القوسين سقط من (ط النيل وأصلها د) لانتقال النظر.

فقال: يا قوم، أسلموا، فإنَّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة»[1].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخُدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خُدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه»[2].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو -وذكر رسول الله ﷺ- قال: «لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا»[3].

وروىٰ البخاري عن أنس قال: «لم يكن رسول الله ﷺ سبَّابًا ولا فاحشًا[4] ولا لعَّانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له تربت جبينه»[5].

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنَّها قالت: «ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلاَّ أن تُنتهك حرمة الله»[6].

---

(١) صحيح مسلم (٢٣١٢)، ولم يخرجه البخاري.
(٢) صحيح البخاري (٣٥٦٢)، صحيح مسلم (٢٣٢٠) .
(٣) صحيح البخاري (٣٥٥٩)، صحيح مسلم (٢٣٢١).
(٤) في هامش (د): فحاشا خ.
(٥) صحيح البخاري (٦٠٣١)، وعنده: ترب جبينه، قال الحافظ: «قوله ترب جبينه أي قتل، لأن القتيل يقع علىٰ وجهه ليترب، وظاهره الدعاء عليه بذلك، ولا يقصد ذلك، وكذا قوله تربت يداك، أي افتقرت فامتلأت ترابا، وقيل: المراد ضعف عقلك بجهلك بهذا، وقيل: افتقرت من العلم، وقيل: معناه استغنيت، يقال هي لغة القبط استعملها العرب واستبعد، والراجح أنه شيء يدعم به الكلام؛ تارة للتعجب، وتارة للزجر، أو التهويل، أو الإعجاب، وهو كويل أمه، ولا أبا لك، وعقرىٰ حلقي، وقال الداودي: إنما هو ثربت بالمثلثة، وغلط» (هدي الساري ٩٢)، وينظر فتح الباري ١٠/ ٤٥٣.
وفي (ب): تربت يمينه.
(٦) صحيح البخاري (٣٥٦٠)، صحيح مسلم (٢٣٢٧).

وعنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط، لا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله فيَنتقم لله»(١).

وروىٰ مسلم في صحيحه عنها، وقد سُئلت(٢) عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: «كان خُلقه القرآن»(٣).

وروىٰ أبو داود الطيالسي عن شعبة، ثنا أبو إسحاق، ثنا أبو عبد الله الجدلي(٤)، قال: «سمعت عائشة، وسألتُها(٥) عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا سخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح أو يغفر» شك أبو داود، ورواه الحاكم في مستدركه علىٰ الصحيحين(٦).

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٢٣٢٨).
(٢) السائل هو سعد بن هشام بن عامر.
(٣) صحيح مسلم (٧٤٦).
(٤) في (ب): الخلال، وكتب تحتها: «اسم لرجل». وهو تصحيف. ومثله ما ثبت في (ل): الهذلي.
(٥) في (ل، ط النيل): وسألها.
(٦) رواه أبو داود الطيالسي (١٦٢٣)، وأحمد (٢٥٤١٧)، والترمذي (٢٠١٦)، وقال: حسن صحيح.
وعندهما: يعفو ويصفح بدون شك، ولم أجده في مستدرك الحاكم.
قال الحافظ: «قوله فاحشا ولا متفحشا أي ناطقا بالفحش، وهو الزيادة علىٰ الحد في الكلام السيء، والمتفحش المتكلف لذلك، أي لم يكن له الفحش خلقا ولا مكتسبا» (فتح الباري ٦/ ٥٧٥).
وقوله: ولا سخابا، قال ابن الأثير: والسخب والصخب: بمعنىٰ الصياح (النهاية ٢/ ٣٤٩).

[(١)] وروىٰ مسلم في صحيحه عن سعد بن هشام، وقد سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: «ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلىٰ، قالت: فإن خلق نبي الله القرآن»[(٢)].

وفي صحيح الحاكم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق»[(٣)].

وفي الصحيحين عن علقمة، قال: سألتُ عائشة: «كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ وهل كان يخص شيئًا من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع»[(٤)] (ظ٥٥).

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، قال: «قام رسول الله حتىٰ تورمت قدماه، فقيل: يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم (من ذنبك)[(٥)]

---

(١) في (ب، ل، ط النيل) تأخر هذا الحديث إلىٰ ما بعد حديث علقمة الآتي.

(٢) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٣) رواه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠)، وصححه، ورواه البيهقي في السنن الكبير (١٠/ ٣٢٣) وفي إسناده عبدالعزيز بن محمد الدراوردي يرويه عن محمد بن عجلان، والدراوردي سيء الحفظ (ميزان الاعتدال٢/ ٦٣٣)، وقال الهيثمي (مجمع الزوائد٨/ ١١٧): «رجاله رجال الصحيح».
لكن أشار البيهقي إلىٰ أن الدراوردي تفرد به بهذا اللفظ، وغيره رواه عن ابن عجلان بإسناده بلفظ: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا»، ثم قال ابن عجلان -مرسلا-: وقال رسول الله ﷺ فذكره.
تأخر هذا الحديث في (ل، ط النيل) إلىٰ ما بعد الحديث الآتي.

(٤) صحيح البخاري (١٩٨٧)، صحيح مسلم (٧٨٣)، والديمة: المطر الدائم في سكون، شبهت عمله في دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر (النهاية ٢/ ١٤٨).
وقد تقدم هذا الحديث في المطبوعة وغيرها قبل حديثين.

(٥) ليست في ب.

وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلاَّ تركه»[2].

وروىٰ الإمام أحمد وأبو داود والترمذي[3] من حديث بَهز بن حكيم، عن أبيه عن جده، أن أخاه أتىٰ النبي ﷺ فقال: جيراني علامَ أُخذوا؟ فأعرض عنه النبي ﷺ فقال: إنَّ الناس يزعمون أنك نهيت عن البغي[4]، ثم تستخلي[5] به، فقال: «لأن كنتُ أفعلُ ذلك إنَّه لعلي وما هو عليهم، خلوا له جيرانه»[6].

وروىٰ الإمام أحمد[7] عن أنس بن مالك قال: «ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهته لذلك».

رواه عن عبدالرحمن بن مهدي: حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عنه، (ورواه أبو داود والترمذي)[8].

---

(١) صحيح البخاري (١١٣٠) صحيح مسلم (٢٨١٩).
(٢) صحيح البخاري (٣٥٦٣)، صحيح مسلم (٢٠٦٤).
(٣) زاد في (ل، ط النيل): وأبو الشيخ الأصبهاني.
(٤) في (ب،ل): الغي.
(٥) في (ب، ط النيل): تستحلي. وهو مهمل في (ل).
(٦) رواه أحمد (٢٠٠١٧)، وأبو داود مختصرا (٣٦٣١)، والترمذي (١٤١٧) بدون القصة، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٦٩)، وإسناده حسن.
(٧) في (ل): وروىٰ الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.
(٨) رواه أحمد (١٢٣٤٥)، والترمذي (٢٧٥٤)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (١٢٥)، وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.
ولم أجده في سنن أبي داود، ولا عزاه له المزي في تحفة الأشراف (١/ ١٨٢).
وما بين القوسين من (الأصل، ط النيل).

وروىٰ أبو الشيخ وأبو نعيم وغيرهما، عن ابن عباس: «أن الله أرسل إلىٰ نبيه ﷺ مَلكًا من الملائكة معه جبريل، فقال الملك[1]: إن الله خيَّره بين أن يكون عبدًا نبيًّا وبين أن يكون مَلِكًا نبيًّا، قال: فالتفت رسول الله ﷺ إلىٰ جبريل كالمستشير، فأشار جبريل بيده: أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: لا، بل أكون عبدًا نبيًّا» ورواه النسائي والبخاري في تاريخه[2].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فعاده[3] النبي ﷺ فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ فنظر الغلام إلىٰ أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[4].

---

(١) ليست في (ب).

(٢) رواه النسائي في الكبرىٰ (٦٧١٠)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٦١٨)، من طريق بقية، قال: حدثني الزبيدي، قال: حدثني الزهري، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، قال: كان ابن عباس يحدث فذكره، وهو منقطع فإن محمد بن علي لم يدرك جده ابن عباس رضي الله عنهما.

والذي في تاريخ البخاري الكبير (١/ ١٩٤) روايته مرسلا عن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب، ولم أجد فيه حديث ابن عباس.

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلىٰ (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥) من حديث عمارة، عن أبي زرعة، قال: ولا أعلمه إلا عن أبي هريرة، قال: جلس جبريل إلىٰ النبي ﷺ، فنظر إلىٰ السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق، قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، أفملكا نبيا يجعلك، أو عبدا رسولا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: «بل عبدا رسولا». وهذا إسناد جيد، والحديث صحيح.

(٣) في (ل): فأتاه.

(٤) هو في صحيح البخاري (١٣٥٦).

وعن (قيس بن)[1] أبي حازم أن النبي ﷺ كلَّم رجلاً فأرعد[2]، فقال له رسول الله ﷺ: «هون عليك، فإني لست بملك، إنَّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

رواه ابن الجوزي من طرق بعضها متصلاً[3] عن ابن مسعود[4]، قال ابن الجوزي: وروي متصلا، والصواب إرساله كما تقدم[5].

وفي الصحيح عن أنس: «أنَّ امرأة كان في عقلها شيء، قالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، قال: يا أم فلان، خذي في أي الطرق شئت، قومي فيه حتىٰ أقوم معك، فخلا معها يناجيها حتىٰ قضت حاجتها» رواه مسلم[6].

وعن أنس قال: «كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ

---

(١) ليس في (ل).

(٢) في (ب) زيادة: منه.

(٣) كذا في جميع الأصول.

(٤) كذا في جميع الأصول: عن ابن مسعود. وكتب حاشية في (ظ): وجرير. وهذه الحاشية ثبتت في المتن في (ط النيل).

وقوله ابن مسعود تصحيف فيما يظهر، صوابه: عن أبي مسعود، فإن الحديث حديثه، كما في مصادر التخريج.

(٥) رواه ابن ماجه (٣٣١٢) والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٧) من حديث جعفر بن عون، ثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن أبي مسعود.

قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رواته ثقات (زوائد ابن ماجه ٤/ ١٩).

ورواه الطبراني في الأوسط (١٢٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٧) من طريقين -فيهما ضعف- عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير، وهو وهم.

فالحديث معلول، بين ذلك الدارقطني (في العلل ٦/ ١٩٥) أنه مرسل عن قيس، وكذا ابن حجر (في إتحاف المهرة ١١/ ٢٧٣).

(٦) صحيح مسلم (٢٣٢٦).

فتدور به في حوائجها حتىٰ تفرغ، ثم يرجع[1]» رواه البخاري في الأدب[2].

وروىٰ عن ابن أبي أوفىٰ قال: «كان رسول الله ﷺ يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته»[3].

وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستنكف أن يمشي مع العبد ولا مع الأرملة حتىٰ يفرغ من حاجتهم» ورواه الدارمي والحاكم في صحيحه[4].

وروىٰ أبو داود الطيالسي عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولقد رأيته يوم خيبر علىٰ حمار خطامه ليف»[5].

---

(١) في (ب): ترجع.

(٢) رواه أحمد (١١٩٤١)، والبخاري في الصحيح معلقا (٦٠٧٢)، وإسناده صحيح، ولم أجده في الأدب المفرد ولم يعزه إليه أحد من الحفاظ، فمراد المصنف كتاب الأدب من الصحيح.
قال الحافظ: «والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل علىٰ أنواع من المبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله حيث شاءت أي من الأمكنة، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلىٰ غاية التصرف حتىٰ لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد علىٰ ذلك، وهذا دال علىٰ مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ» (فتح الباري ١٠/ ٤٩٠).

(٣) رواه الدارمي (٧٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١٧٢٨).

(٤) رواه الدارمي (٧٥)، والحاكم (٢/ ٦١٣) وإسناده صحيح.

(٥) رواه الطيالسي (٢٢٦٢)، وابن ماجه (٤١٧٨)، وإسناده ضعيف لأنه من رواية مسلم الأعور عن أنس، ومسلم منكر الحديث (الجرح والتعديل ٨/ ١٩٢).

وروىٰ مسلم في صحيحه عن أنس، قال: «ما رأيت أرحم بالعيال من رسول الله»[1].

وروىٰ البخاري عنه قال: «مر رسول الله (ظ٥٦) ﷺ علىٰ صبيان فسلَّم عليهم»[2].

وروىٰ ابن عباس قال: «كان رسول الله يجلس علىٰ الأرض، ويأكل علىٰ الأرض، ويعتقل الشاة[3]، ويجيب دعوة المملوك»[4].

وعن قدامة بن عبد الله: «رأيت رسول الله ﷺ علىٰ بغلة شهباء، لا ضَرْب ولا طَرْد ولا إليكَ إليكَ» رواهما أبو الشيخ[5].

وعن عائشة قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ قط مستجمعًا ضاحكًا حتىٰ أرىٰ منه لهواته، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأىٰ غَيْمًا أو ريحا عُرف في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية، قال: يا عائشة، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قوم بالريح، وقد أتىٰ العذاب قوما، وتلا قوله تعالىٰ:

---

(١) صحيح مسلم (٢٣١٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٢٤٧).

(٣) اعتقل الشاة أي: وضع رجليها بين ساقيه وفخذه فحلبها (تاج العروس ٣٠/ ٢٦)، وهي من علامات التواضع، قال علي الأزدي: ثلاث من كن فيه لم يكن متكبرا، أن يعتقل الشاة، ويركب الحمار.. (غريب الحديث للحربي ٣/ ١٢٢٧).

(٤) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (١٢٨)، وفيه مسلم الأعور منكر الحديث.

(٥) رواه الطيالسي (١٤٣٥) وأحمد (١٥٤١٠) والترمذي (٩٠٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٤٠٥٣)، وابن ماجه (٣٠٣٥)، وأبو الشيخ (١١٨) بإسناد حسن، وعندهم: رمىٰ جمرة العقبة علىٰ ناقه صهباء، وبعضهم قال: شهباء..الحديث.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»، أخرجاه في الصحيحين[١].

وفي الصحيحين أيضًا عن أنس قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذًا شديدًا، حتىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته[٢]، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، قال: فالتفت إليه رسول الله فضحك، ثم أمر له بعطاء»[٣].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة، قال: «كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه حتىٰ تطلعَ الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»[٤].

وفي رواية أخرىٰ صحيحة: «كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه[٥] ربما تناشدوا عنده الشعر، والشيء من أمورهم، فيضحكون ويتبسم»[٦].

وفي صحيح البخاري عن عائشة وسألها الأسود: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ فقالت: «كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٨)، صحيح مسلم (٨٩٩).
(٢) في (ب): جذبته.
(٣) صحيح البخاري (٣١٤٩)، صحيح مسلم (١٠٥٧).
(٤) صحيح مسلم (٦٧٠).
(٥) في (ب): وكانوا الصحابة. وفي (ل): وكانوا أصحابه.
(٦) رواه الطيالسي (٨٠٨)، وأحمد (٢٠٨١٠)، وأبو الشيخ (٥).
(٧) صحيح البخاري (٦٧٦).

وفي رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة قال: «سأل رجل عائشة: هل كان يعمل في بيته؟ فقالت: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته»[1].

وروىٰ الطيالسي: حدثنا شعبة، ثنا «الأعور»[2]، قال: سمعت أنسا يقول: «كان رسول الله يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك.

ولقد رأيته يوم خيبر علىٰ حمار خطامه من ليف»[3].

[4]وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام (من خبز بُرٍّ تباعًا، حتىٰ مضىٰ لسبيله)[5]»[6].

وعنها قالت: «كنا آل محمد ﷺ يمر بنا الهلال والهلال والهلال[7]، ما نوقد بنار لطعام، إلا أنه التمر والماء، إلا أنه حولنا أهل دور من الأنصار، فيبعث أهل كل دار بغزيرة[8] شاتهم إلىٰ رسول الله ﷺ، وكان للنبي ﷺ[9] من

---

(١) رواه أحمد (٢٥٣٤١)، وليس هو في المصنف لعبد الرزاق.

(٢) في الأصول كلها: «الأغر» وهو تصحيف، فإنه مسلم أبو عبدالله الأعور، كما في مسند الطيالسي(٢٢٦٢).

(٣) ذكره المصنف آنفا، وخرجته هناك.

(٤) كرر هنا في (ب، ل) ما مضىٰ من حديث مسلم، فقال: «وروىٰ مسلم في صحيحه عن أنس قال: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، وروىٰ عنه البخاري قال: مر رسول الله ﷺ علىٰ صبيان فسلم عليهم».

(٥) ليس ما بين القوسين في (ب).

(٦) متفق عليه، صحيح البخاري (٦٦٨٧)، صحيح مسلم (٢٩٧٠).

(٧) سقط الهلال الثالث من (ط النيل).

(٨) في (ب): «برة ما يهتم» وهو تصحيف. (ط النيل): بفزيرة. والمثبت هو الصحيح.

(٩) كذا في الأصل ظ، ومثله في (ل) لكن قال: وكان النبي، وفي (ب): وكان النبي ﷺ يشرب من ذلك اللبن.

ذلك اللبن» أخرجاه في الصحيحين[1].

وفي صحيح البخاري قال أنس: «ما رأىٰ رسول الله ﷺ رغيفًا مرققًا حتىٰ لحق بالله، ولا رأىٰ شاةً سميطًا بعينه قط»[2].

وفي صحيح البخاري عنه: «ما أكل رسول الله ﷺ علىٰ خِوان، ولا في سُكُرُّجة، ولا خُبز له مُرقق، فقيل له: علىٰ ما كانوا يأكلون؟ قال: علىٰ السفر»[3].

---

(١) يظهر أن المصنف صدر عن دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٤١) فإن اللفظ أقرب إليه، وقريب منه رواية مسند الإمام أحمد(٢٤٧٦٨)، حيث ذُكر فيها: «غزيرة الشاة».
والحديث متفق عليه من طريق عروة بن الزبير عن عائشة؛ صحيح البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت لعروة: ابن أختي «إن كنا لننظر إلىٰ الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار»، فقلت يا خالة: ما كان يعيشكم؟ قالت: «الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم، فيسقينا».
والغزيرة: كثيرة اللبن (النهاية ٣/ ٣٦٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٤٢١)، قال ابن الأثير: «سميطا: أي مشوية، فعيل بمعنىٰ مفعول» (النهاية ٢/ ٤٠٠). وقال الحافظ:«المسموط: الذي أزيل شعره بالماء المسخن، وشوي بجلده، أو يطبخ، وإنما يصنع ذلك في الصغير السن الطري، وهو من فعل المترفين من وجهين؛ أحدهما: المبادرة إلىٰ ذبح ما لو بقي لازداد ثمنه، وثانيهما أن المسلوخ ينتفع بجلده في اللبس وغيره، والسمط يفسده» (فتح الباري ٩/ ٥٣١).

(٣) صحيح البخاري (٥٣٨٦).
والخوان: ما يعد للسفرة من الخشب، ولا يقال له سفرة إلا إذا كان عليه طعام (هدي الساري١٩١)، وكونه يأكل علىٰ السفرة بلا خوان، أي أنه يأكل علىٰ الأرض.
والسكرجة: هكذا ضبطها الحافظ، ونقل عن بعضهم جواز فتح الراء، وناقشه في ذلك، ثم نقل عن ابن مكي أنه قال: «وهي صحاف صغار يؤكل فيها ومنها الكبير والصغير فالكبيرة تحمل قدر ست أواق وقيل ما بين ثلثي أوقية إلىٰ أوقية قال ومعنىٰ ذلك أن العجم كانت تستعمله في الكواميخ والجوارش للتشهي والهضم» (فتح الباري ٩/ ٥٣٢) قلت: =



وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب: «أنه خطب وذكر ما فتح علىٰ الناس، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يلتوي[1] يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما (ظ٥٧) يملأ به بطنه»[2].

وفي صحيح البخاري عن أنس: «أنه مشىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ بخبز شعير، وإهالةٍ سَنِخَة، ولقد رهن درعه عند يهودي فأخذ لأهله شعيرًا، ولقد سمعته يقول: ما أمسىٰ عند آل محمد صاع تمرٍ[3] ولا صاع حبٍّ، وإنهم يومئذ تسعة أبيات»[4].

وفيه عن عائشة، قالت: «كان فراش رسول الله من أدم حشوه ليف»[5].

وفي الصحيحين[6] من حديث عمر بن الخطاب - لما ذكر اعتزال رسول الله نساءَه - قال: «فدخلتُ علىٰ رسول الله ﷺ في خزانته، فإذا هو مضطجع علىٰ حصير، فأدنىٰ إليه إزاره وجلس، وإذا الحصير قد أثر بجنبه، وقلبت عيني في بيته فلم أجد شيئًا يرد البصر غير قبضة من شعير، وقبضة من قرظ نحو

= وهي أشبه ما تكون بالأطباق الصغيرة التي تقدم فيها المقبلات في زماننا هذا..
والخبز المرقق هو الملين المحسن، كخبز الحواري، قال الحافظ: «الرغيف الواسع الرقيق» (فتح الباري ٩/ ٥٣٠).

(١) كذا في الأصول الخطية كلها، وهو يوافق ما في صحيح مسلم، وفي المطبوعة: «يتلوىٰ». وهو من تغيير المحقق.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٧٨)، والدقل رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا (النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٢٧).

(٣) كذا في الأصل، وفي (ب، ل، ط النيل): صاع بر، وهو الذي يوافق ما في الصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٢٠٦٩)، والسنخة: المتغيرة الريح (النهاية ٢/ ٤٠٨).

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري (٦٤٥٦)، صحيح مسلم (٢٠٨٢)، والأدم الجلد.

(٦) في (ب، ل) وفي صحيح مسلم.

الصاعين، وإذا أَفيق معلقة، فابتدرت عيناي، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت[1]: يا رسول الله، وما لي لا أبكي وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه، وهذه خزانتك، وهذه الأعاجم -(وفي رواية)[2]: كسرىٰ وقيصر- في الثمار والأنهار، فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا.

[3]أو ما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟ قال: بلىٰ، قال: فاحمد الله ﷻ، قال: فقلت: أستغفر الله»[4].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»[5].

وروىٰ الطيالسي -بإسناد صحيح- عن ابن مسعود، قال: «اضطجع النبي علىٰ حصير، فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه وأقول: بأبي أنت وأمي

---

(١) في (ب): فقال.
(٢) ليست في (ب).
(٣) في (ب، ل): وفي رواية..
(٤) يظهر أن المصنف صدر عن دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٣٦)، فإن هذا اللفظ أقرب إليه، وهو حديث متفق عليه كما ذكر الشيخ، انظر: صحيح البخاري (٤٩١٣)، صحيح مسلم (١٤٧٩).
وقوله: أفيق، هو بفتح أوله، وجمعه: أفق، كقوله: قفيز وقفز (شرح مسلم للنووي: ٩/ ١٧٨)، قال ابن الأثير: هو الجلد الذي لم يتم دباغه، وقيل هو ما دبغ بغير قرظ (النهاية في غريب الحديث ١/ ٥٥، وانظر: فتح الباري ٩/ ٢٨٨).
(٥) متفق عليه، رواه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، وهذا مما يؤكد صدور المؤلف عن دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٣٣٩) فإن البيهقي عزاه أولا لمسلم.
والقوت: قدر ما يمسك الرمق من المطعم (النهاية ٤/ ١١٩).

يا رسول الله، ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك منه تنام عليه؟ فقال: ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»[1].

ورواه الحاكم في صحيحه عن ابن عباس أن عمر[2] دخل علىٰ النبي ﷺ فذكر نحوه[3].

وفي الترمذي عن أنس بن مالك، قال: «حج النبي ﷺ علىٰ رحل رثٍّ وقطيفة»[4].

ورواه البخاري عن أنس أيضًا في كتاب الحج فقال: «حجَّ أنس علىٰ رحل رثٍّ، ولم يكن شحيحًا، وحدَّث أن النبي ﷺ حج علىٰ رحل، وكانت زاملته»[5].

---

(١) رواه الطيالسي (٢٧٥)، والترمذي(٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح، والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٣٧).

(٢) في (ب): ابن عمر، وهو تصحيف.

(٣) رواه أحمد (٢٧٤٤)، والحاكم (٤/ ٣٠٩)، وإسناده صحيح.
كتب في هامش ظ: حاشية ورواه أحمد.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠)، والترمذي في الشمائل (٣٣٥).
وفي إسناده يزيد بن أبان الرقاشي ضعيف الحديث جدا (ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨)، وتتمة الحديث: وقطيفة تساوي أربعة دراهم، أو لا تساوي، ثم قال: «اللهم حجة لا رياء فيها، ولا سمعة».

(٥) علقه البخاري عن شيخه محمد بن أبي بكر المقدمي (١٥١٧)، وهو في النسخ المطبوعة موصول، إذ فيها: حدثنا محمد، وفي المختصر النصيح (٧٢٠)، وتحفة الأشراف (١/ ١٦٠): وقال محمد بن أبي بكر، وأشار إلىٰ ذلك البيهقي في السنن ٤/ ٣٣٢، وبين الحافظ أن قوله: حدثنا، هو في رواية أبي ذر وحده، ولغير أبي ذر: قال، وقال الحافظ: «قوله: وكانت زاملته أي الراحلة التي ركبها، والمراد أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه بل كان ذلك محمولا معه علىٰ راحلته وكانت هي الراحلة والزاملة» (فتح الباري ٣/ ٣٨١).

وفي صحيح الحاكم عن أنس: «أن النبي ﷺ لبس خشنا، وأكل خشنًا، ولبس الصوف، واحتذىٰ المخصوف، قيل: للحسن: ما الخشن؟ قال: غليظ الشعير، ما كان يسيغه إلاَّ بجرعة ماء»[1].

فصل[2]:

وممَّا يبين[3] به فضل أمته علىٰ جميع الأمم - وذلك مستلزم لكونه رسولاً صادقا كما تقدم، وهو آية وبرهان علىٰ نبوته، فإن كل ملزوم فإنه دليل علىٰ لازمه- أنَّ الأمم نوعان:

نوع لهم كتاب منزل من عند الله، كاليهود والنصارىٰ.

ونوع لا كتاب لهم كالهند، واليونان، والترك، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ.

وما من أمة إلاَّ ولا بدَّ لها[4] من علم وعمل بحسبهم، يقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم، وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حيوان[5]، كما يهدي الحيوان إلىٰ جلب ما ينفعه بالأكل والشرب، ودفع ما يضره باللباس والسكن، وقد خلق الله فيه حبًّا لهذا، وبغضًا لهذا.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٨٤)، والحاكم (٤/ ٣٢٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
واحتذىٰ المخصوف، أي اتخذه حذاء، وأصل الخصف ضم الشيء إلىٰ الشيء (النهاية ٢/ ٣٨).
هامش ظ: بلغ.

(٢) في (د، ط النيل): فصل «في المعاد». وهذا الفصل عقده المصنف ليبين فضل أمة الإسلام في العلم والعمل، واختار المعاد مثالاً للمقارنة بين أمة الإسلام وسائر الأمم.

(٣) في (ب): «تبين».

(٤) في (ب): «لهم».

(٥) هامش ظ: حي خ. أي أنها كذلك في نسخة. وهكذا هو في (ب).



قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣].

وقال موسىٰ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

(وقال الخليل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:])[١].

وقال في أول ما أنزل علىٰ محمد (ظ٥٨) ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠].

ثم الأمم متفاضلون في معرفة الخالق تعالىٰ، وفي الإقرار بمعادٍ[٢] بعد الموت، إما للأرواح فقط، وإمَّا للأبدان فقط، وإما لمجموعهما كما هو قول سلف المسلمين وأئمتهم وعامتهم أهل السنة والجماعة.

ومتفاضلون فيما يحمدونه، ويستحسنونه من الأفعال والصفات، وما يذمونه ويستقبحونه من ذلك، لكن عامة بني آدم علىٰ أن العدل خير من الظلم، والصدق خير من الكذب، والعلم خير من الجهل، وأن المحسن إلىٰ الناس خير من الذي لا يحسن إليهم.

---

(١) هذه الآية ليست في (ل، ب).

(٢) في (ب، ل): بالمعاد.

وأمَّا المعاد[1] - إما للأرواح أو[2] للأبدان، وإن الناس بعد الموت يكونون سعداء وأشقياء[3]- فيقر به كثير من الأمم غير أهل الكتاب -وإن كان علىٰ وجه قاصر- كحكماء الهند، واليونان، والمجوس، وغيرهم.

وذلك أن أهل الأرض في المعاد علىٰ أربعة أقوال[4]:

أحدها:

وهو مذهب سلف المسلمين؛ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين المشهورين، وغيرهم من أهل السنة والحديث من الفقهاء والصوفية والنظار، وهو إثبات معاد الروح والبدن[5] جميعًا، وأن الإنسان إذا مات كانت روحه منعمة أو معذبة، ثم تعاد روحه إلىٰ بدنه عند القيامة الكبرىٰ.

ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيامتين: القيامة الصغرىٰ بالموت، والقيامة الكبرىٰ حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلىٰ أبدانهم، كما ذكر الله القيامتين في سورة الواقعة حيث قال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١-١١].

---

(١) في (ط النيل): فهو إما.

(٢) في (ب): وإما.

(٣) في (ل): أو أشقياء.

(٤) انظر: الصفدية ٢/ ٢٦٧، المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ ١/ ٩١، درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٠١.

(٥) في (ل): الأرواح والأبدان.

ثم ذكر سبحانه حال الأصناف الثلاثة في القيامة الكبرى، وقال في آخر السورة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٤].

وكذلك قال في سورة القيامة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١-١٣] فذكر القيامة الكبرى، ثم قال في آخر السورة: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

وبسط هذا له موضع آخر، فإنَّ ذكر ما ينال الروح عند فراق البدن من النعيم والعذاب كثير في النصوص النبوية، وأما وصف القيامة الكبرى في الكتاب والسنة فكثير جدا لأنَّ محمدا ﷺ خاتم الأنبياء، وقد بعث بين يدي الساعة، فلذلك[1] وصف القيامة بما لم يصفه به غيره، كما ذكر المسيح - في صفته - فقال: «إنه يخبركم (ظ٥٩) بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للرب».

---

(١) في (ب): فكذلك.

والقول الثاني:

قول من يثبت معاد الأبدان فقط، كما يقول ذلك كثير من المتكلمين الجهمية والمعتزلة المبتدعين من هذه الأمة، وبعض المصنفين يحكي هذا القول عن جمهور متكلمي المسلمين، أو جمهور المسلمين، وذلك غلط، فإنه لم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا هو قول جمهور نظارهم، بل هو قول طائفة من متكلميهم المبتدعة، الذين ذمَّهم السلف والأئمة.

والقول الثالث:

المعاد للنفس الناطقة بالموت فقط[1]، وأنَّ الأبدان لا تعاد، وهذا لم يقله أحد من أهل الملل لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارىٰ، بل هؤلاء كلهم متفقون علىٰ إعادة الأبدان، وعلىٰ القيامة الكبرىٰ، ولكن مَن يُفَلسف[2] من هؤلاء -فوافق سلفه من الصابئة والفلاسفة المشركين علىٰ أنَّ المعاد للروح وحده- فإنَّه يزعم أن الأنبياء خاطبوا الجمهور بمعاد الأبدان، وإن لم يكن له حقيقة، وخاطبوهم بإثبات الصفات لله وليس له حقيقة، وأن الأنبياء لم يظهروا الحقائق للخلق، وأنه لا يستفاد من أخبارهم معرفة شيء من صفات الله ولا معرفة شيء من أمر المعاد.

وحقيقة قولهم: أنَّ الأنبياء كذبوا للمصلحة.

وهؤلاء ملاحدة كفَّار عند المتبعين للأنبياء من المسلمين واليهود والنصارىٰ، وإن كان هؤلاء كثيرين موجودين فيمن يتظاهر بأنه من أهل الملل، لظهور أديانهم، وهو في الباطن علىٰ هذا الرأي.

---

(١) النفس الناطقة هي الروح (درء تعارض العقل والنقل٦/ ٣٢)، وبين الشيخ أنه مصطلح فلسفي (مجموع الفتاوىٰ ٣/ ٣٢)، وانظر: الصفدية ٢/ ٢٦٧.

(٢) كذا في ظ مظبوطا، وفي (ب، ل، ط النيل): تفلسف.



وهؤلاء -القائلون بمعاد الأرواح[1] فقط- منهم من يقول: بأنَّ الأرواح تتناسخ إمَّا في أبدان الآدميين، أو أبدان الحيوان مطلقًا، أو في جميع الأجسام النامية، ومنهم من يقول: بالتناسخ للأنفس[2] الشقية فقط، وكثير من محققيهم ينكر التناسخ.

والقول الرابع:

إنكار المعادين جميعًا، كما هو قول أهل الكفر من العرب واليونان والهند والترك وغيرهم.

والمتفلسفة أتباع أرسطو -كالفارابي وأتباعه- لهم في معاد الأرواح ثلاثة أقوال:

قيل: بالمعاد للنفس[3] العالمة والجاهلة.

وقيل: بالمعاد للعالمة دون الجاهلة.

وقيل: بإنكار الاثنين.

والفارابي نفسه قد قال الأقوال الثلاثة.

وبسط الكلام علىٰ هذه الأمور له موضع آخر[4].

والمقصود هنا أنَّ كل ما عند أهل الكتاب -بل وسائر أهل الأرض- مِن علم نافع وعمل صالح فهو عند المسلمين، وعند المسلمين ما ليس عند غيرهم

---

(١) في (ب): الروح.
(٢) في (ب): في النفس.
(٣) في (ب): للأنفس.
(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٤/ ٢٨٣، ٣١٤، ٥/ ٣٣.

في جميع المطالب التي تنال بها السعادة والنجاة.

وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، وتنهىٰ عن الظلم والفواحش، ولهم علوم إلهية وعبادات بحسبهم، ويعظمون أهل العلم والدين منهم، والهند واليونان والفرس في ذلك أكمل من كفار الترك والبربر ونحوهم، مع أن هؤلاء أيضا فيهم قسط من ذلك بحسبهم[1].

ومعلوم عند الاعتبار أنَّ الأمم الذين لهم كتاب -كاليهود والنصارىٰ- أكمل من الأمم الذين لا كتاب لهم في الفضائل العلمية والعملية، فإن ما لم يأخذه الناس عن الأنبياء يعلم بالعقل والاعتبار، أو بالمنام والإلهام، وإخبار الجن، ونحو ذلك من طرق الأمم، وكل طريق صحيح من الطرق العقلية والإلهامية وغيرهما[2] يشارك[3] أهل الكتاب فيه من لا كتاب له، ويمتاز أهل الكتاب بعلوم وأعمال أخذوها عن الأنبياء، ليس في قوة من ليس بنبيٍّ أن يعلمها، وهذا ظاهر في الأخلاق والسياسات المنزلية والمدنية، فإن جنس أهل الكتاب -ولو كان منسوخا مبدلاً- أحسن حالاً ممن لا كتاب له.

وأمَّا في العبادات والإيمان بالله واليوم الآخر: فرجحانهم فيه ظاهر.

وأمَّا علوم وأعمال يكون ضررها (ظ٦٠) راجحًا؛ كالسحر والطلسمات وما يتوسل به من الشرك إلىٰ استخدام الشياطين، ونحو ذلك، فهذا وإن كان غير أهل الكتاب أقوم به، فإنما ذاك لاستغناء أهل الكتاب بما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) ليست في (ب، ل).
(٢) في (ب، ل): وغيرها.
(٣) في (ل): شارك.

ولهذا لما ذكر الله سبحانه في قصة سليمان براءته عن ذلك، وكانت الشياطين قد[1] كتبت كتب كفر وسحر، ودفنتها تحت كرسي سليمان، فلما مات أظهروا ذلك وقالوا: إنما كان يُسخر الجن بهذه الأسماء والعزائم، فصدقهم فريقان:

فريق قدحوا في سليمان بل كفروه من أهل الكتاب، وقال: من فعل ذلك فهو كافر.

وفريق قالوا: نحن نقتدي بسليمان ونفعل كما كان يفعل، وهم أهل العزائم والطلاسم التي يستخدمون بها الجن، ويقولون: إن سليمان كان يستخدمهم بها، حتىٰ يقولوا: إن هذه الأسماء كانت مكتوبة علىٰ تاجه، وهذا صورة خاتمه، وهذا كلام آصف بن برخيا، إلىٰ أمثال ذلك مما يضيفونه إليه، وهو كذب علىٰ سليمان.

وقد ذكر ذلك علماء المسلمين[2] في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ

---

(١) ليست في (ب).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢/ ٤٠٧، تفسير البغوي ١/ ١٢٧، تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٩.

﴿أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٣].

فذمَّ سبحانه من عدل عن اتباع كتاب الله ورسوله واتبع ما تتلوه الشياطين علىٰ عهد سليمان، وبيَّن سبحانه أنَّ سليمان لم يكفر ولكن الشياطين كفروا، وأنهم يعلمون الناس السحر، وما أنزل علىٰ الملكين ببابل هاروت وماروت، وأنَّ الملكين ما يعلمان من أحد حتىٰ يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر[1].

وأخبر سبحانه أنهم لا يضرون به أحدًا إلا بإذن الله، وأنهم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي من نصيب، أي هؤلاء يعلمون أن صاحبه لا نصيب له في الآخرة، وإنما يطلبون أنهم يقضون به أغراضهم الدنيوية لما لهم في ذلك من الهوىٰ، وذلك ضار لهم لا نافع، كما قال في المشرك: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فبين سبحانه أنه بالإيمان والتقوىٰ يحصل[2] من ثواب الله ما هو خير لهم من هذا، (فإنهم إنما يطلبونه لما يرجون به من الخير

(١) قال ابن جرير: معنىٰ الكلام: واتبعوا ما تتلوا الشياطين من السحر علىٰ ملك سليمان فتضيفه إلىٰ سليمان، وما كفر سليمان، فيعمل بالسحر، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر (جامع البيان ٢/ ٤١٨).
(٢) في (ب): يحصل له.

لهم، وهذا خير لهم)[1]، وهذا كقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ [الجمعة: ٩].

فإنَّ ما تطلبه النفوس فيه لها لذة، يُجعل خيرا بذلك الاعتبار، لكن إذا كان الألم زائدًا علىٰ اللذة كان شره أعظم من خيره.

والشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فهي تأمر بما ترجَّح مصلحته، وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد، وتنهىٰ عما ترجحت مفسدته، وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره، ولهذا أمر تعالىٰ أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا.

فالأحسن: إما واجب وإما مستحب، قال تعالىٰ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] فأمر باتباع الأحسن والأخذ به، وقال تعالىٰ (ظ٦١): ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧،١٨] فاقتضىٰ أن غيرهم لم يهده، وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن، وهو مُشكل، وقد تكلم الناس فيه[2].

ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]

---

(١) سقط ما بين القوسين من (ب).
(٢) انظر: تفسير المصنف لهذه الآية في مجموع الفتاوىٰ ١٦/ ٥-٧. وما ذكره زين الدين الرازي في: أنموذج جليل ص١٤٧.

مع قوله تعالىٰ في موضع آخر[1]: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ في موضعين [الأنعام:١٥٢] [الإسراء:٣٤].

وقد يقال: هذا نظير قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، (إلىٰ قوله ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾)[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

ونظائر[3] هذا كثيرة، مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه، وإن كان الأول واجبًا والثاني محرمًا، وذلك لأنَّ المأمور به قد يشتمل علىٰ

(١) حاشية في هامش الأصل ظ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.
(٢) ليس في (ب، ل).
(٣) هامش (د): «في الأصل وتظاهر».

مفسدة مرجوحة، والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة، فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن، وفي هذا شر وسيئ، لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبًا.

فقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور، وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب، فإنَّ كلاهما أحسن من المحرم والمكروه، لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب، كما أمر بالإحسان في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] والإحسان منه واجب، ومنه مستحب[1].

(١) لشيخ الإسلام رسالة صغيرة في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الآية، وذلك ضمن مجموع الفتاوى ١٦/ ٥، ذكر وجهين لمعنى الأحسن، الأول: أن هذا مثل قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ واتباع القول إنما هو العمل بمقتضاه، ومقتضاه فيه حسن وأحسن ليس كله أحسن وإن كان القرآن في نفسه أحسن الحديث؛ ففرق بين حسن الكلام بالنسبة إلى غيره من الكلام وبين حسنه بالنسبة إلى مقتضاه المأمور والمخبر عنه.
والثاني، وهو أن يقال: القرآن تضمن خبرا وأمرا فالخبر عن الأبرار والمقربين وعن الكفار والفجار؛ فلا ريب أن اتباع الصنفين حسن واتباع المقربين أحسن والأمر يتضمن الأمر بالواجبات والمستحبات. ولا ريب أن الاقتصار على فعل الواجبات حسن وفعل المستحبات معها أحسن ومن اتبع الأحسن فاقتدى بالمقربين وتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كان أحق بالبشرى.

فصل[1]:

وإذا كان جنس أهل الكتاب أكمل - في العلوم النافعة والأعمال الصالحة - ممن لا كتاب له، فمعلوم أنَّ أمته ﷺ أكمل من طائفتي أهل الكتاب: اليهود والنصارىٰ وأعدل، وقد جمع لهم محاسن ما في التوراة وما في الإنجيل.

فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد ﷺ أكمل منهم فيها.

فأمَّا العلوم:

فهم أحذق في جميع العلوم من جميع الأمم حتىٰ العلوم التي ليست بنبوية، ولا أخروية، كعلم الطب مثلاً والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأمتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل هم أحسن علمًا وبيانًا لها من الأوائل الذين كانت هي غاية علمهم، وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ[2] بنفاق وإلحاد، ولا قدر له عندهم، لكن حصل له بما[3] تعلمه من المسلمين من العقل والبيان ما أعانه علىٰ الحذق في تلك العلوم، فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة وبيانًا لهذه العلوم من أولئك المتقدمين.

وأمَّا العلوم الإلهية والمعارف الربانية وما أخبرت به الأنبياء من الغيب كالعرش والملائكة والجن والجنة والنار وتفاصيل المعاد:

---

(١) في هامش (د): «فصل في وجوه العدل ومقصود العبادات وصفاتها».

(٢) في (ل): منبوز.

(٣) في (د): مما.



فكل من نظر في كلام المسلمين فيها وكلام علماء اليهود والنصارىٰ وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتم.

ومعلوم أن علم أهل الكتاب والملل بذلك أتم من علم غيرهم.

وأما العبادة والزهد والأخلاق (ظ٦٢) والسياسة المنزلية والمدنية:

فالكلام فيها مبني علىٰ أصل، وهو: «معرفة المقصود بها وما به يحصل المقصود».

فنقول: للناس في مقصود العبادات مذاهب:

منهم من يقول: المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها لتستعد بذلك للعلم، وليست هي مقصودة في نفسها، ويجعلونها من قسم الأخلاق، وهذا قول متفلسفة اليونان، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين؛ كالفارابي وابن سينا وغيرهما، ومَن سلك طريقهم[1] من متكلم ومتصوف ومتفقه، كما يوجد مثل ذلك في كتب أبي حامد[2]، والسهروردي المقتول، وابن رشد الحفيد، وابن عربي، وابن سبعين[3].

لكن أبو حامد يختلف كلامه: تارة يوافقهم، وتارة يخالفهم.

---

(١) في (ب): طريقتهما.

(٢) يعني الغزالي.

(٣) وبين المصنف أن هؤلاء يجعلون العبادات وسائل محضة إلىٰ ما يدعونه العلم، ولذلك يرون هذا ساقطا عمَّن حصَّل المقصود، قال المصنف: «كما تفعل الملاحدة الإسماعيلية ومن دخل في الإلحاد أو بعضه وانتسب إلىٰ الصوفية أو المتكلمين أو الشيعة أو غيرهم» انظر: مجموع الفتاوىٰ ٩/ ١٣٦.

وهذا القدر فعله ابن سينا وأمثاله ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء، وبين فلسفة المشائين: أرسطو وأمثاله، ولهذا تكلموا في الآيات، وخوارق العادات، وجعلوا لها ثلاثة أسباب:

القوىٰ الفلكية، والقوىٰ النفسانية، والطبيعية.

إذ كانت هذه هي المؤثرات في هذا العالم عندهم، وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات وما للسحرة من العجائب هو قوىٰ[1] النفس، لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير، وهذا قصده الشر[2].

وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء، كما قد بُسط الكلام عليه في غير هذا الموضع، فإنه مبني علىٰ إنكار الملائكة، وإنكار الجن، وعلىٰ أنَّ الله لا يعلم الجزئيات، ولا يخلق بمشيئته وقدرته، ولا يقدر علىٰ تغيير العالم.

ثم إنَّ هؤلاء لا يُقرُّون من المعجزات إلاَّ بما جرىٰ علىٰ هذا الأصل، وأمكن أن يقال فيه هذا، مثل: نزول المطر، وتسخير السباع، وإمراض الغير وقتله، ونحو ذلك، فأما قلب العصا حية، وإحياء الموتىٰ، وإخراج الناقة من الهضبة، وانشقاق القمر، وأمثال ذلك فلا يقرون به.

وقد عُلم بطرق متعددة ما يكون من الخوارق بسبب أفعال الجن، وبسبب أفعال الملائكة، وأحوال الجن معلومة عند عامة الأمم: مسلمهم وكافرهم، لا يجحد ذلك إلاَّ من هو من أجهل الناس، وكذلك من فسرها بقوىٰ الأنفس، وهذا غير إخبار الله عنهم فيما أنزله من الكتب.

(١) في (ب، ل): من قوىٰ النفس.

(٢) انظر: الصفدية للمصنف ١/ ١٦٥ ، ومفتاح دار السعادة لتلميذه ابن القيم ٢/ ١١٩.



وأما الملائكة فأمرهم أجل، وهم رسل الله في تدبير العالم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال[١]: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

وقد ذكر الله تعالىٰ في كتبه من أخبارهم وأصنافهم ما يطول وصفه، وآثارهم موجودة في العالم، يُعرف ذلك بالاعتبار كما قد بسط في موضعه؛ إذ المقصود هنا ذكر مذاهب الناس في العبادات، وهؤلاء غاية ما عندهم في[٢] العبادات والأخلاق والحكمة العملية[٣] أنهم رأوا النفس لها[٤] شهوة وغضب من حيث القوة العملية، ولها نظر[٥] من جهة القوة العلمية، فقالوا: كمال الشهوة في العفة، وكمال الغضب في الحلم والشجاعة، وكمال القوة النظرية في العلم، والتوسط في جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو: العدل.

وما ذكروه من العمل متعلق بالبدن[٦] لم يثبتوا خاصية النفس التي[٧] هي محبة الله وتوحيده، بل ولا عرفوا ذلك كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا

---

(١) ليست في (ب).

(٢) في (ب): من.

(٣) في (ظ): «والحكمة والعملية». وهو سبق قلم، وسيذكر المصنف لاحقا: «الحكمة العملية» وتتفق عليه النسخ.
والحكمة العملية يراد بها العبادات، والحكمة النظرية يراد بها الاعتقاد (انظر: الصفدية ٢/ ٢٤٠، والرد علىٰ المنطقيين ص٤٢٥ حيث ذكر مبحثا نفيسا في الفرق بين المتفلسفة وبين المسلمين في العلم والعمل).

(٤) في (ب، ل): فيها.

(٥) في (ب): نظير.

(٦) في (د، ط النيل، المطبوعة): «الندب».
وهو تصحيف، وما أثبت من الأصول هو الصحيح، إذ المقصود البدن الذي هو في مقابل النفس، ومقاصد العبادات يختلف نظر الناس فيها ما بين ناظر إلىٰ البدن أو النفس، انظر: (مدارج السالكين ١/ ١٠٧).

(٧) في (ب): خاصة النفس الذي هو.

قليل مع كثير من الباطل، كما قد بسط الكلام عليهم في موضع آخر[1].

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك، وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها، كما قد بسط الكلام على ذلك في موضع آخر.

ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل، (وهو جماع دعوة المرسلين)[2]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، (ظ٦٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى[3] إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وأن[4] هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣].

وقال -لما ذكر قصص الأنبياء-: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا

---

(١) انظر في درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٥٩، في سياق رد المصنف على قول ابن سينا: «العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره».

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٣) ضبطها في الأصول الخطية بالياء المضمومة، وهي قراءة الجمهور إلا حفصا وحمزة والكسائي وخلفا (النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٩٦).

(٤) بفتح همزة أن في الأصل ظ، وهي قراءة من سوى الكوفيين (النشر ٢/ ٣٢٨).

﴿رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢، ٩٣].

وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم: عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله، وبهذا بعث الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب، ولا تصلح النفس وتكمل وتزكو[1] إلا بهذا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦] أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان[2].

---

(١) في (ب، ل) قدم وأخر.

(٢) وهذا أحد قولين وردا في هذه الآية، قال ابن جرير: «الذين لا يؤتون الزكاة: اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: معناه: الذين لا يعطون الله الطاعة التي تطهرهم، وتزكي أبدانهم، ولا يوحدونه وذلك قول يذكر عن ابن عباس».
ثم روىٰ عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة أنه قال: هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله (تفسير الطبري ٢١/ ٤٣٠).
=

وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] في موضعين من كتابه.

وهذا أول الكلمات العشر التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ حيث قال: «أنا الله لا (إله إلا أنا إلهك الذي أخرجتك من أرض مصر، من التعبد: لا يكون لك إله غيري، لا تتخذ صورا ولا تمثالا، ما في السماوات من فوق، ومن في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن إني أنا ربك العزيز»[1].

= ثم ذكر ابن جرير القول الثاني، وأن المراد زكاة الأموال، وصوبه تقديما للحقيقة الشرعية، لكن قال ابن كثير: «فيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلىٰ المدينة، علىٰ ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله علىٰ رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئًا» (تفسير ابن كثير ٧/ ١٦٤).

(١) حاشية بهامش الأصل ظ: «هكذا في السفر الثاني من التوراة، وهو: سفر المخرج، أي سفر خروج بني إسرائيل من مصر، وفي السفر الخامس، وهو سفر السين، قال: أنا الرب إلهكم الذي أخرجتكم من مصر ومن بيت التعبد، لئلا يكون لك إلها آخر غيري، ولا تعمل لك كل صنم وكل شبه، الذي في السماء من فوق والذي في الأرض من أسفل؛ والذي في الماء من أسفل من الأرض، ولا تسجد لهم، ولا تعبدهم، من أجل أني أنا الرب إلهك الله المعبود».
قلت: هكذا سمىٰ السفر الثاني: المخرج، وهو يسمىٰ اليوم: سفر الخروج، وكذا السفر الخامس، سفر السين -ولعلها: الثين- وهو يسمىٰ اليوم: سفر التثنية. =

وقد شهد المسيح عليه السلام أنَّ هذا هو أعظم وصية في الناموس)[1].

فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلىٰ العبد من كل ما سواه، هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون؛ كموسىٰ والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وضد هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقد بسط الكلام علىٰ هذا في غير موضع.

وبين أنَّ النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلاَّ بأن يكون الله معبودها ومحبوبها، الذي لا أحب إليها منه، ولهذا كثر في الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده.

= والذي في أيدينا اليوم من سفر (الخروج: ٢٠)، وسفر (التثنية: ٥) -وفيها الوصايا العشر- مع خلاف يسير بين السفرين: «أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من مصر من بيت العبودية * لا يكن لك آلهة أخرىٰ أمامي * لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض* لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني * وأصنع إحسانا إلىٰ ألوف من محبي وحافظي وصاياي * لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا * اذكر يوم السبت لتقدسه * ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك * وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك * لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه * أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك علىٰ الأرض التي يعطيك الرب إلهك * لا تقتل * لا تزن * لا تسرق * لا تشهد علىٰ قريبك شهادة زور * لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئا مما لقريبك».

(١) ما بين القوسين ترك مكانه بياضا في (ب، ل) وكتب فيه: صح. كأنه هكذا هو من الأصل المنقول منه. والمثبت من الأصلين: ظ، د.

ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب، فلا بدَّ أنْ يكون العابد محبًّا للإله المعبود كمال الحب، ولا بدَّ أن يكون ذليلاً له كمال الذل، فمن أحب شيئًا ولم يذل له لم يعبده، ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده، وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده، فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو، وذلك يتضمن كمال الحب، والذل، والإجلال، والإكرام، والتوكل، والعبادة[١].

والنفوس محتاجة إلىٰ الله من حيث هو معبودها ومنتهىٰ مرادها وبغيتها، ومن حيث هو ربها وخالقها، فمن أقر[٢] بأن الله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد الله[٣] وحده -بحيث يكون الله أحب إليه مما[٤] سواه، وأخشىٰ عنده من كل ما سواه، وأعظم عنده من كل ما سواه، وأرجىٰ عنده من كل ما سواه (ظ٦٤)، بل من سوَّىٰ بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله، ويخشاه مثل ما يخشىٰ الله، ويرجوه مثل ما يرجو الله، ويدعوه مثل ما يدعوه- فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله، ولو كان مع ذلك عفيفًا في طعامه ونكاحه، وكان حليمًا شجاعًا.

فما ذكره المتفلسفة من الحكمة العملية ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس، وتنجو من العذاب، كما أن ما ذكروه من الحكمة النظرية ليس فيها

---

(١) تكررت هذه المعاني في كتب الشيخ المصنف ورسائله كثيرا، انظر: التدمرية ص١٦٦، جامع الرسائل ٢/ ٢٤٨، درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٥٩. وينظر له: «قاعدة في المحبة» حيث أفاض في ذلك.

(٢) في (ب، ل): آمن بالله.

(٣) كتب إلا فوق لفظ الجلالة في (ب) وهو خطأ يحيل المعنىٰ، وقع به محقق المطبوعة.

ومراد المصنف أن من أقر بالربوبية ولم يفرد الله بالعبادة فهو مشرك، ولعل اللبس وقع من طول الفصل بين من وجوابها، وقد ميزت ذلك بعلامتين ليتضح المعنىٰ.

(٤) في (ب، ل): من كل ما سواه.

الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فليس عندهم من العلم ما تهتدي به النفوس، ولا من الأخلاق ما هو دين حق، ولهذا لم يكونوا داخلين في أهل السعادة في الآخرة المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢][1].

وهذه الفضائل الأربع التي ذكرها المتفلسفة لا بد منها في كمال النفس وصلاحها وتزكيتها، والمتفلسفة لم يحدوا ما يُحتاج إليه بحدٍّ يُبيِّن مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة، ولكن الأنبياء بينوا ذلك، وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه الأنواع الأربعة هي التي حرمها تحريمًا مطلقًا لم يبح منها شيئًا لأحد من الخلق، ولا في حال من الأحوال، بخلاف الدم والميتة ولحم الخنزير، وغير ذلك، فإنه يحرم في حال، ويباح في حال، وأمَّا الأربعة فهي محرمة مطلقًا.

فالفواحش متعلقة بالشهوة.

والبغي بغير الحق يتعلق بالغضب.

والشرك بالله فساد أصل العدل، فإنَّ الشرك ظلم عظيم.

والقول على الله بلا علم فساد في[2] العلم.

فقد حرم سبحانه هذه الأربعة، وهي: فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم.

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين ص١٤٥.

(٢) ليست في (ب).



وقوله: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الأعراف: ٣٣] تضمَّن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حق الله تعالىٰ، وهو عبادته وحده لا شريك له، فإنَّ النفس لها القوتان: العلمية، والعملية، وعمل الإنسان عملٌ اختياري، والعمل الاختياري إنما يكون بإرادة العبد.

وكل إنسان له إرادة وعمل بإرادته؛ فإنَّ الإنسان حساس متحرك بالإرادة، ولهذا قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء الحارث وهمام»[١] والإرادة لا بدَّ لها من مُراد، وكل مُراد فإمَّا أن يُراد لنفسه، وإمَّا أن يراد لغيره، (والمراد لغيره)[٢] لا بدَّ أن ينتهي إلىٰ مرادٍ لنفسه[٣].

فالقوة العملية تستلزم أنْ يكون للإنسان مرادا[٤]، وذلك المراد لنفسه «هو المحبوب لنفسه، وهو الإله الذي يستحق أن يكون محبوبا لذاته، وهذا هو العلة الغائية، الذي»[٥]هو علة فاعلة للعلة الفاعلية[٦]، ولهذا قيل: «العامة

---

(١) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وأبو داود (٤٩٥٠)، وفي إسناده ضعف.

(٢) ليست في (ب).

(٣) فيمتنع أن تكون جميع المرادات مرادات لغيرها، فإن هذا تسلسل في العلل الغائية، وهو ممتنع، كامتناع التسلسل في العلل الفاعلية، بل أولىٰ، وإذا كان لا بد للإنسان من مراد لنفسه، فهذا هو الإله الذي يألهه القلب، فإذا لا بد لكل عبد من إله، فعلم أن العبد مفطور علىٰ أنه يحب إلهه، (عارض العقل والنقل ٨/ ٤٦٥).

(٤) كذا في الأصل ظ، د: وفي (ل، ب): للإنسان مراد.

(٥) سقط ما بين القوسين من (ل).

(٦) في (ب،ل): الفاعلة.

الربوبية هي العلة الفاعلية، والألوهية هي العلة الغائية، (بيان تلبيس الجهمية ٤/ ٥٣٣).

قال المصنف: الإلهية هي الغاية؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم؛ والمصلي إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية علىٰ الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة؛ =

تقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه، والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب».

وفي بعض الكتب المتقدمة: «إني لا أنظر إلىٰ كلام الحكيم وإنما أنظر إلىٰ همته»[1].

وهؤلاء المتفلسفة لم يذكروا هذا في كمال النفس، وإنما جعلوا كمالها العملي في تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم، وهذا غايته ترك الإسراف في الشهوة والغضب.

والشهوة: هي جلب ما ينفع البدن ويبقي النوع.

والغضب: دفع ما يضر البدن.

ولم يتعرضوا لمراد الروح الذي يحبه لذاته مع أنهم إنما تكلموا فيما يعود إلىٰ البدن (ظ٦٥)، وجعلوا ذلك إصلاحًا للبدن الذي هو آلة للنفس، وجعلوا كمال النفس في مجرد العلم.

وقد بسطنا[2] غلطهم في هذا الأصل من وجوه في غير هذا الموضع، وبينا أنَّ النفس لها كمال في العمل والإرادة، كما أنَّ لها كمالاً في العلم، وأنَّ العلم المجرد ليس كمالاً لها ولا صلاحًا، ولو كان كمالاً لم يكن ما عندهم من العلم

= والاستعانة وسيلة إليها؛ تلك حكمة وهذا سبب؛ والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف؛ ولهذا يقال: أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك، فالعلة الغائية متقدمة في التصور والإرادة وهي متأخرة في الوجود (مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٨٤، وانظر: جامع المسائل ٦/ ٨٩، درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٣٠).

(١) نقله ابن القيم عن شيخه سماعا، قال: سمعت شيخنا يقول: وفي بعض الآثار الإلهية..فذكره (مدارج السالكين٣/ ٥).

(٢) ضرب عليها في (ب) وكتب فوقها: بينا.

ما هو كمال النفس[1].

وبيَّنا غلط الجهمية الذين قالوا: الإيمان هو مجرد العلم، وأنَّ الصواب قول السلف والأئمة: إنَّ الإيمان قول وعمل، أصله قول القلب، وعمل القلب المتضمن علم القلب وإرادته، وإذا كان لا بدَّ للنفس من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلا به، ولا تكمل إلا به -وذلك هو إلهها- فليس لها إله يكون به صلاحها إلا الله، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وليس ذلك للإنسان فقط بل للملائكة والجن، فإنهم كلهم أحياء عقلاء ناطقون، لهم علم وعمل اختياري، ولا صلاح لهم إلا بمرادهم المحبوب لذاته، وهو معبودهم، ولا يجوز أنْ يكون معبودًا محبوبًا لنفسه إلا الله، فلو كان في السماوات والأرض إله إلا الله لفسدتا، فلهذا كان دين جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له.

وهؤلاء المتفلسفة لا يعرفون ذلك، فليس عندهم من صلاح النفس وكمالها في العلم والعمل ما تنجو به من الشقاء، فضلاً عما تسعد به، ومما يبين ذلك أن أرسطو -معلمهم الأول- هو وأتباعه إنما أثبتوا العلة الأولىٰ بالحركة الفلكية، فقالوا: الحركة الدَّوْرية حركة اختيارية نفسانية، فقوامه بحركته الاختيارية، وفساده بعدمها، وقوام حركته بما يتحرك لأجله، فإنَّ الفاعل بالاختيار إنما قوامه بعلته الغائية التي يتحرك لأجلها، وغايته التي يتحرك لأجلها هو العلة الأولىٰ فإنه يتحرك للتشبه بها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٩٤، فما بعد.



فجعلوا قوام العالم كله بالعلة الأولىٰ من حيث هو متشبه به؛ لأنَّ المتحرك باختياره لا بد له من مراد.

ومعلوم أنَّ الحركة الإرادية تطلب مرادًا محبوبًا لنفسه[(١)]، وتستلزم ذلك أعظم من استلزامها مُتشبَّهًا[(٢)] به، فإن كل متحرك بإرادة[(٣)] لا بد له من مراد محبوب لنفسه، فإن الإرادة لا بد لها من مراد، والمراد يكون إمَّا مرادًا لنفسه، وإمَّا لغيره، والمراد لغيره إنما يراد لذلك الغير فلا بدَّ أن يكون ذلك الغير مُرادًا لنفسه، أو ينتهي إلىٰ مراد لنفسه، وإلاَّ لزم التسلسل في العلل الغائية، وذلك باطل كبطلان التسلسل في العلل الفاعلية بصريح العقل، واتفاق العقلاء، وبسط هذا له موضع آخر.

وإذا كان الفاعل بالاختيار يستلزم مرادًا محبوبًا لنفسه؛ فلا بدَّ أن يكون لما يتحرك في السماوات بإرادته، سواء كان هؤلاء الملائكة، أو ما يسمونه هم نفسًا من محبوب مراد لذاته يكون هو[(٤)] الإله المعبود المراد بتلك الحركات.

وكذلك نَفسُ الإنسان حركتها بالإرادة من لوازم ذاتها، فلا بد لها من محبوب مراد لذاته، وهو الإله، وهذا المحبوب المراد لذاته هو الله تعالىٰ، ويمتنع أن يكون غيره، كما قد بسط هذا في موضع آخر.

وبينٌ أنه كما يمتنع أن يكون موجودًا بغيره -بل هو واجب الوجود

(١) في (ل): «لنفسها». وهو خطأ.
(٢) في (ل): مشبها. وفي (ب): مشبه.
(٣) في (ب، ل): «بالإرادة».
(٤) في (ب): «يكون هو الله تعالىٰ هو الإله».

بنفسه- فيمتنع أن يكون مرادًا لغيره بل مراد لنفسه، كما يمتنع أن يكون للعالم ربان قادران، يمتنع أن يكون للعالم إلهان معبودان، فإن كون أحدهما قادرًا يناقض كون الآخر قادرًا؛ لامتناع اجتماع القادرين علىٰ مقدور واحد، وامتناع كون أحدهما قادرًا علىٰ الفعل حين يكون الآخر قادرا عليه، وامتناع ارتفاع قدرة أحدهما بقدرة الآخر مع التكافؤ، لذلك[1] يمتنع أن يكون إلهان معبودان محبوبان لذاتهما؛ لأن كون أحدهما هو المعبود لذاته يناقضه أن يكون غيره معبودا لذاته، فإن ذلك يستلزم أن يكون بعض المحبة والعمل لهذا، وبعض ذلك لهذا، وذلك يناقض كون الحب (ظ٦٦) والعمل كله لهذا، فإن الشركة نقص في الحب، فلا تكون حركة المتحرك بإرادته له، فلا يكون أحدهما معبودًا معمولاً له إلاَّ إذا لم يكن الآخر كذلك، فإن العمل لهذا يناقض أن يكون له شريك فضلاً عن أن يكون لغيره.

وكل من أحب شيئين فإنما يحبهما لثالث غيرهما، وإلا فيمتنع أن يكون كل منهما محبوبًا لذاته؛ إذ المحبوب لذاته هو الذي تريده النفس وتطلبه، وتطمئن إليه، بحيث لا يبقىٰ لها مراد غيره، وهذا يناقض أن يكون له شريك.

والقول الثاني (في مقصود العبادات)[2]:

قول من يقول: إنَّ الله عرض[3] الناس بالتكليف بالعبادات ليثيبهم علىٰ ذلك بعد الموت؛ فإنَّ الإنعام بالثواب لا يحسُن[4] بدون التكليف؛ لما فيه من

---

(١) في (ب): «كذلك».

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) في (المطبوعة): «عوض»، وهو تصحيف إذ إن كل النسخ الخطية التي بين يدي اتفقت عليه، وافقتها ط النيل.

(٤) في (ب): «الإنعام لا يحسن بالثواب».

الإجلال والتعظيم الذي لا يستحقه إلا مُكلِّف[1]، كما يقول ذلك القدرية (كالمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة وأهل الكتاب من)[2] المسلمين واليهود[3] وغيرهم.

وهؤلاء قد يقولون: إنَّ[4] الواجبات الشرعية لطفًا في الواجبات العقلية، وقد يقولون: إن الغاية المقصودة التي بها يحصل الثواب هو العمل، والعلم ذريعة إليه، حتىٰ يقولوا مثل ذلك في معرفة الله تعالىٰ، يقولون: إنما وجبت لأنها لطف[5] في أداء الواجبات العقلية العملية.

والقول الثالث:

قول من يقول: بل الله تعالىٰ أمر بذلك لا لحكمة مطلوبة ولا بسبب، بل لمحض المشيئة، وهذا قول الجبرية المقابلين للقدرية: كالجهم، والأشعري، وخلق كثير من المتكلمين[6] والفقهاء والصوفية وغيرهم[7].

القول الرابع:

قول سلف الأمة وأئمتها، وهو: أنَّ نفس معرفة الله تعالىٰ ومحبته مقصودة لذاتها، وأن الله سبحانه محبوب مستحق للعبادة لذاته لا إله إلا هو، ولا يجوز أن يكون غيره معبودًا محبوبًا لذاته، وأنه سبحانه يحب[8] عباده الذين يحبونه،

---

(١) في (ب): بتكلف.

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) ليست في (د، ل).

(٤) في (ب، ل، د): يجعلون الواجبات.

(٥) في (ب): تطلب.

(٦) في (ب): من المسلمين. وهو تصحيف.

(٧) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٣٧.

(٨) في (ب): يحبه. وهو تصحيف.

ويرضىٰ عنهم، ويفرح بتوبة التائب، ويبغض الكافرين ويمقتهم، ويغضب عليهم ويلعنهم[1]، وأنَّ في ذلك من الحكم البالغة، ولذلك[2] من الأسباب ما يطول وصفه في هذا (الخطاب كما قد بسط في موضعه.

إذ المقصود هنا هو[3]: التنبيه علىٰ أن المسلمين)[4] أكمل من غيرهم في العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

وإذا عرف مذاهب الناس في مقاصد العبادات فهم أيضا مختلفون[5] في صفاتها:

-فمن الناس من يظن أنَّ كلَّ ما كان أشق علىٰ النفس وأشد إماتة لشهوتها فهو أفضل، وهذا مذهب كثير من المشركين والهند[6] وغيرهم، وكثير من أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، وكثير من مبتدعة المسلمين[7].

-والقول[8] الثاني: قول من يقول: إن أفضلها ما كان أدعىٰ إلىٰ تحصيل الواجبات العقلية.

-والثالث: قول من يقول: فضل بعضها علىٰ بعض لا علة له، بل يرجع إلىٰ محض المشيئة.

---

(١) في (ب، ل): ويذمهم.
(٢) في (ب، د): وكذلك.
(٣) ليست في (ب).
(٤) ما بين القوسين ليس في (ل).
(٥) في (ب): يختلفون.
(٦) في (ب، ل): المشركين الهند.
(٧) وهذا المذهب الأول.
(٨) ليست في (ب، ل).

-والرابع -وهو الصواب-: أن أفضلها ما كان لله أطوع، وللعبد أنفع.

فما كان صاحبه أكثر انتفاعًا به، وكان صاحبه أطوع لله به من غيره فهو أفضل، كما جاء في الحديث: «خير العمل أنفعه»[1].

وعلىٰ كل قول فعبادات المسلمين أكمل من عبادات غيرهم:

أمَّا علىٰ الأول فأولئك يقولون: كلما كانت الأعمال أشق علىٰ النفس

---

(١) ذكره المصنف بالمعنىٰ، ولفظه: «خير العمل ما نفع»، فقد ورد هكذا ضمن حديث طويل.
رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٣٣) وقوام السنة في الترغيب والترهيب (١٢٥٣) وابن عساكر في معجمه (١/ ٥٦٦) من طريق عبدالله بن مصعب بن خالد بن زيد الجهن عن أبيه عن جده زيد بن خالد قال: تلقفت هذه الخطبة من في رسول الله ﷺ بتبوك سمعته يقول في خطبة طويلة فيها: «خير العمل ما نفع، وخير الهدي ما اتبع، وخير ما ألقي في القلب اليقين».
ورواه أبو القاسم بن أبي قعنب في حديثه، كما في السلسلة الضعيفة للألباني (٥/ ٨٠، رقم:٢٤٦٤)، ثم أعاده فيها برقم (٥٦٤١).
قال ابن عساكر بعد أن رواه: حسن غريب لم يرو إلا بهذا الإسناد أهـ.
وفي إسناده عبدالله بن مصعب عن أبيه، قال ابن القطان: مصعب وابنه غير معروفين (الوهم والإيهام ٤/ ٦٠٥)، قال الذهبي: عبد الله بن مصعب بن خالد الجهني، عن أبيه، عن جده، فرفع خطبة منكرة، وفيهم جهالة (ميزان الاعتدال ٢/ ٥٠٦).
قلت: روىٰ الدارقطني منه في السنن (٥/ ٤٤: ٤٦١١) قوله: والخمر جماع الإثم.
وله شاهد موقوف، رواه هناد في الزهد (٤٩٧)، والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن (ص٤٢٦) من طريق عبدالرحمن بن عابس حدثني أناس عن ابن مسعود، فذكر خطبة طويلة، فيها: خير العلم ما نفع، ثم قال البيهقي في آخره: كذا قال: خير العمل ما نفع!
ثم رواه من طريق أحمد بن حنبل، ثنا عبد الرحمن بن مهدي، في حديث ابن مسعود إنما قال سفيان: العمل، فكتبتها ليحيىٰ يعني القطان: العلم فقال: إنه قرأه علي: العلم وقال حدثني ناس من أصحاب عبد الله قال: ثم سألته فقال: حدثني ناس ولم يذكر عن أصحاب عبد الله يعني: خير العلم ما نفع.

فهي أفضل، ثم هؤلاء قد يفضلون الجوع والسهر والصمت والخلوة ونحو ذلك، كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين الهند وغيرهم، ومن النصارىٰ ومبتدعة هذه الأمة.

ولكن يقال لهم: الجهاد أعظم مشقة من هذا كله، فإنه بذل النفس، وتعريضها للموت، ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها، وفيه جهاد النفس في الباطن، وجهاد العدو في الظاهر، (وتلك العبادات توجد من الضعفاء)[1]، ومعلوم أن المسلمين أعظم جهادًا من اليهود والنصارىٰ، فإن اليهود خالفوا موسىٰ في الجهاد وعصوه، والنصارىٰ لا يجاهدون علىٰ دين.

وأمَّا علىٰ قول من يجعل العبادات العقلية[2] لطفًا في الواجبات (ظ٦٧) العقلية[3]، فلا ريب أنَّ عبادات المسلمين - كصلاتهم وصيامهم وحجهم - أدعىٰ إلىٰ العدل الذي هو جماع الواجبات العقلية، من عبادات غيرهم التي ابتدعوها، فإنها متضمنة للظلم المنافي للعدل.

وأمَّا علىٰ قول نفاة التعليل، ورد ذلك إلىٰ مشيئة الله: فيكون الأمر في ذلك راجعًا إلىٰ محض مشيئة الله، وتعبده للخلق، وحينئذ فمن تكون عباداته تابعة لأمر الله الذي جاءت به الرسل يكون متعبدًا بما أمر الله به، بخلاف من تكون عباداته قد ابتدعها أكابرهم من غير أن يأتيهم بها رسولٌ من عند الله.

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) هامش الأصل ظ: الشرعية خ، أي هكذا في نسخة، ومثله ثبت في بقية الأصول، وهو الأنسب للسياق.

(٣) ليست في (ب، ل).

وأما علىٰ القول الرابع: فإنَّ ما علم أنَّ الله أمر به يتضمن طاعة الله، وهذا إنما يكون في عبادات أمر الله بها، وهي عبادات المسلمين دون من ابتدع كثيرًا من عباداتهم أكابرُهم.

وأما انتفاع العباد بها فهذا يعرف بثمراتها[١] ونتائجها وفوائدها، ومن ذلك آثارها في صلاح القلوب، فليتدبر الإنسان عقول المسلمين وأخلاقهم وعدلهم يظهر له الفرق بينهم وبين غيرهم.

ثم صفات عباداتهم فيها من الكمال والاعتدال، كالطهارة والاصطفاف والركوع والسجود، واستقبال بيت إبراهيم الذي هو إمام الخلائق، والإمساك فيها عن الكلام، وما فيها من الخشوع، وتلاوة القرآن واستماعه الذي يظهر الفرق بينه وبين غيره من الكتب لكل متدبر منصف، إلىٰ أمثال ذلك من الأمور التي يظهر بها فضل عبادات المسلمين علىٰ عبادات غيرهم.

وأمَّا حكم المسلمين في الحدود والحقوق فلا يخفىٰ علىٰ عاقل فضله، حتىٰ إن النصارىٰ في طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضي بينهم بشرع المسلمين إذْ لم يكن لهم شرع عام يُحكم به بين الناس، وليس في الإنجيل حكم عام، بل عامته الأمر بالزهد ومكارم الأخلاق، وهو مما يأمر به المسلمون أيضًا.

وقد ذكرنا في كون المسلمين معتدلين متوسطين بين اليهود والنصارىٰ - في التوحيد والنبوات والحلال والحرام وغير ذلك- مما يبين أنهم أكمل من الأمتين، مع أن دلائل هذا كثيرة جدًّا، وإنما المقصود التنبيه علىٰ ذلك، وحينئذ ففضل الأمة يستلزم فضل متبوعها.

---

(١) في (ب): بشهواتها.

فصل:

وممَّا يبين أمر محمد ﷺ أنَّ من دعا إلىٰ مثل ما دعا إليه لا يخلو من ثلاثة أقسام:

إمَّا أنْ يكون نبيًا صادقًا مرسلاً من الله كما أخبر عن نفسه، بمنزلة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وداود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء، الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٦].

وإمَّا أن يكون ملكًا عادلاً وضع ناموسًا سياسيًا وقانونًا عدليًّا ينفع به الخلق، ويحملهم به[١] علىٰ السيرة العادلة بمبلغ علمه، كما كان للأمم من يضع لهم النواميس، مثل واضعي النواميس من اليونان والهند والفرس وغيرهم.

وإن كان واضع الناموس مختصًا بقوة قدسية ينال بها العلم بسهولة،

(١) في (ب): «ويحمل به الخلق».

وله[1] قوة نفسية يتصرف فيها تصرفات خارجة عن العادة، ويكون له قوة تخييلية تمثل له في نفسه أشكالاً نورانية، وأصواتًا[2] يسمعها في داخل نفسه، فإن هذه الخواص الثلاثة هي التي يقول ابن سينا وأمثاله (ظ٦٨) من المتفلسفة: إنها خواص النبي، ومن قامت به كان نبيًّا، والنبوة مكتسبة عندهم[3].

ولكن لما كانت هذه موجودة لكثير من الخلق ولم يصل بها إلىٰ قريب من درجة الصديقين - أتباع الأنبياء - كالخلفاء الراشدين، وحواريي عيسىٰ، وأصحاب موسىٰ جعلناها من هذا القسم؛ إذ صاحب هذا قد يكون فيه عدل وسياسة بحسب ما معه من العلم والعدل، فهذا القسم الثاني.

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) في (ب): «أشكال نورانية وأصوات». هكذا مجودا ولا وجه له.

(٣) قال المصنف: «وابن سينا عظمها أكثر من ذلك؛ فجعل للنبي ثلاث خصائص:
أحدها: أن ينال العلم بلا تعلم، ويسميها القوة القدسية؛ وهي القوة الحدسية عنده.
والثاني: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه؛ فيرىٰ في نفسه صورا نورانية، ويسمع في نفسه أصواتا؛ كما يرىٰ النائم في نومه صورا تكلمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.
والثالث: أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولي العالم، بإحداث أمور غريبة؛ وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية، أو ملكية، أو طبعية؛ كالنفس الفلكية والإنسانية والأشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة، والمولدات، لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيء يفعل، ولا يحدث شيئا، فلا يتكلم، ولا يتحرك بوجه من الوجوه؛ لا ملك ولا غير ملك، فضلا عن رب العالم» (النبوات ٢/ ٦٩٨).

٣-وإمَّا أن يكون رجلاً كاذبًا فاجرًا أفاكًا أثيما يتعمد[(١)] الكذب والظلم، أو يتكلم بلا علم فيخطئ خطأ من يتكلم بلا علم، ومن يظن الكذب صدقًا والباطل حقًّا، والضلال هدىٰ، والغي رشدًا، والظلم عدلاً، والفساد صلاحًا.

فكلُّ من دعا الخلق إلىٰ متابعته، وطاعته علىٰ سبيل الحتم والإيجاب - بأن يصدقوه فيما أخبر، ويطيعوه فيما أوجب وأمر[(٢)] باطنًا وظاهرًا من غير أن يجبر[(٣)] أحدا علىٰ اتباعه وتصديقه وطاعته، ولا سوَّغ[(٤)] له مخالفته بوجه من الوجوه لا في الباطن ولا في الظاهر- لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة.

وذلك لأنه إمَّا أن يكون قصده الإثم والعدوان، أو قصده البر والعدل، فإن كان قصده الأول فهو ظالم فاجر، ومثل هذا لا يكون إلاَّ كاذبًا عمدًا أو خطأ، وإن كان قصده البر والعدل، فلا يخلو مع ذلك إمَّا أن يكون عالمًا بكل ما يخبر به من الغيوب جازما بصدق نفسه جزما لا يحتمل النقيض، عالمًا بأن ما يأمر به عدل، لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه، وإمَّا أن لا يكون جازمًا بذلك، فإن كان جازمًا بذلك كان هذا هو النبي المعصوم الذي لا يخبر إلا بحق وصدق[(٥)]، ولا يأمر إلا بعدل: ﴿وَتَمَّتْ كلمات[(٦)] رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) في (ب): تعمد.

(٢) في (ب): «فيما أوحيه وأمر به». وفي (ل): «فيما أوجبه وأمر به».

(٣) في (ب): «يخبر». وفي (ل): «يخير».

(٤) في (ل): «يسوغ». وفي (ب): «نوع».

(٥) ليست في (ب، ل).

(٦) كذا في الأصل ظ: «كلمات»، بالجمع وهي قراءة من سوىٰ الكوفيين ويعقوب (النشر ٢/ ٢٦٢).

بخلاف القسم الذي يتحرىٰ العدل والصدق باجتهاده ورأيه، فإنَّ هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تكون المصلحة والعدل[1] في خلافها، ويخبر بأشياء باجتهاده يجوز أن يكون المصلحة والعدل في خلافها، ويخبر بأشياء باجتهاده[2] يجوز أن يكون الأمر فيها بخلاف ذلك، ولا بدَّ أن يغلط في بعض ما يخبر به من العلميات، وما يأمر به من العمليات، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء، ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر إلا أن يكون نبيًّا، فإنَّ الإيمان واجب بكل ما يأتي به النبي.

قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وإذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر أنَّ محمدا ﷺ ذكر أنه رسول نبي[3] كإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، بل أخبر أنه سيد ولد آدم، وأنَّ آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وأنه لما أسري به وعرج إلىٰ ربه علا علىٰ الأنبياء كلهم، علىٰ إبراهيم وموسىٰ وهارون وعيسىٰ ويحيىٰ وغيرهم، وأخبر أنه لا نبي بعده، وأن أمته هم الآخرون في الخلق السابقون يوم القيامة، وأن الكتاب الذي أنزل إليه

---

(١) في (ل) زيادة: «والصدق».

(٢) «يجوز ... باجتهاده» ليس في (ل).

(٣) ليست في (ب، ل): «تعمد».

أحسن الحديث، وأنَّه مهيمن علىٰ ما بين يديه من الكتب[1]، مع تصديقه لذلك، وحينئذ فإن كان عالمًا بصدق نفسه فهو نبي رسول، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب فهو من أظلم الناس وأفجرهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإن كان يظنُّ صِدق نفسه وليس كذلك (ظ٦٩) فهو مخطئ غالط ملبوس عليه، وإذا كان كذلك فلا بد أن يخطئ فيما يخبر به من الغيوب، ويظلم فيما يأمر به من العدل، ولا يتصور استمراره علىٰ هذا بل لا بد أن يتبين له ولغيره أنه صادق أو كاذب.

(كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾)[2].

فإنَّ من ظن صدق نفسه[3] في مثل هذه الدعوىٰ، وليس بصادق يكون من أجهل الناس وأظلمهم[4]، وأبعدهم عن التمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب والخير والشر، فإنَّ هذا بمنزلة من اشتبه عليه النبي الصادق بالمتنبي الكذاب، وهذا من أجهل الناس إذا اشتبه عليه حال غيره فكيف بمن اشتبه عليه حال نفسه؛ ولم يعلم هو[5] ما يقوله أصدق[6] أم كذب؟.

---

(١) في (ب): «الكتاب».
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).
(٣) في (ب): «صدق في نفسه».
(٤) في (ب): «وأضلهم».
(٥) ليست في (ل).
(٦) في (ب): «أصدق هو».

ومن كان جاهلاً مع هذه الدعوىٰ العظيمة -التي[1] لم يدع بشر مثلها- ومع كثرة ما يخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة، ويأمر به وينهىٰ عنه من الأمور الكلية والسنن العامة والشرائع والنواميس؛ فلا بد أن يكون فيها من الضلال والغي ما يبين لأكثر الخلق.

فإذا كانت أخباره عن الماضي والمستقبل يُصدق بعضها بعضًا، والذي يأمر به هو الطريق الأقوم، والكتاب الذي جاء به كتاب متشابه مثاني، يشبه بعضه بعضا في الصدق، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فإنه لو كان من عند غير الله لوجب أن يكون فيه تناقض، لامتناع قدرة البشر علىٰ أن تخبر بهذه الأخبار، وما فيها من الغيوب، ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض، ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك.

وإذا كان محمد ﷺ قد عُلم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرىٰ الصدق والعدل، وأنه ما جُرِّبت عليه كذبة قط، وعلم أنه كان جازمًا بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها، وأنه هو[2] وحده قام يدعو الناس إلىٰ ما جاء به، ومن عادة طالب الملك والرياسة -ولو كان عادلاً- أن يستعين بمن يعينه كأقاربه وأصدقائه ونحوهم، وأن يبذل للنفوس في[3] العاجل ما يرغبها به -كالمال والرياسة- ويرهب من خالفه، ومحمد ﷺ دعا الناس وحده وهو بمكة، فآمن به المهاجرون ثم آمن به الأنصار بالمدينة، ثم آمن به أهل البحرين، ولم يعط

---

(١) ليست في الأصل (ظ).

(٢) في (ب، ل): «وهو».

(٣) في (ب): «وأن تبدل النفوس من». والفعل في (ل) مهمل.

أحدًا منهم درهمًا، ولا كان معه ما يخيفهم لا سيف ولا غيره، بل مكث بمكة بضع عشرة سنة -هو والمؤمنون به- مستضعفين[1]، لم يكن له مال يبذله لهم، ولا سيف يخيفهم[2] به.

وكان[3] أعظم من آمن به أبو بكر الصديق -مع كمال عقله وخلقه ودينه في قومه، ومحبتهم له، وعلو قدره فيهم- أنفق ماله كله في سبيل الله حتىٰ قال له النبي ﷺ: «ما تركت لأهلك؟ قال: تركت[4] الله ورسوله»[5]، ولم يعطه النبي ﷺ درهمًا واحدًا يخصه به، ثم تولىٰ الأمرَ بعده فترك ما كان معه للمسلمين، واكتفىٰ كل يوم بدرهمين له ولعياله، ومات وهو فقير من فقراء المسلمين.

وتولىٰ بعده عمر بن الخطاب، وفتح أعظم ممالك العالم، مملكة فارس والروم فقهر الروم علىٰ بلاد الشام والجزيرة ومصر، وأميره الكبير أبو عبيدة

---

(١) في (ب): «مستضعفون».

(٢) في (ب): «يحتفهم».

(٣) في (ب): «وكان من».

(٤) في (ب، ل، د): «تركت لهم».

(٥) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٥٢٧)، وفي إسناده عبدالله بن عمر العدوي، ضعيف الحديث.

وله شاهد من حديث زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سمعت عمر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما. قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، قال: فأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلىٰ شيء أبدا، رواه الدارمي (١٧٠١)، وأبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، قال الترمذي: حسن صحيح أهـ وفي إسناده هشام بن سعد، صدوق له أوهام، وقد قيل فيه: إنه أوثق الناس في زيد بن أسلم (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٤٤).

(بـن الجـراح)[1] أزهـد الخلـق في ولايتـه[2]، وأعبـدهم للخـالق، وأرحمهـم للمخلوق، وأبعدهم عن هوىٰ النفس، ولهذا قـال النبي ﷺ فيـه: «إن لكـل أمـة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[3] رضي الله عنه.

وأميره علىٰ فارس سعد بن أبي وقاص الذي كان مستجاب الدعوة، وكان من أزهد الخلق، وكان آخر من بقي من أهل الشورىٰ، والناس يتنازعون في الولاية (ظ ٧٠)، وهو معتزل في قصره بالعقيق لا يزاحم أحدا، فقال له ابنه عُمر: تركت الناس يتنازعون الملك وجلست ههنا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي[4] الغني الخفي»[5].

---

(١) من ظ فقط.

(٢) في (ب، ل): «أزهد الخلق في الأموال». وفي (د): «في ولايته الأموال».

(٣) رواه البخاري (٤٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩).

(٤) في (ب): «النقي». وفي (ل): «النقي الخفي». وفي (د): «التقي النقي الخفي». وما ثبت في ظ هو الصحيح.

(٥) رواه مسلم (٢٩٦٥)، دون قوله: النقي، وقال النووي: «المراد بالغنىٰ غنىٰ النفس هذا هو الغنىٰ المحبوب لقوله ﷺ «ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس» وأشار القاضي إلىٰ أن المراد الغنىٰ بالمال، وأما الخفي فبالخاء المعجمة هذا هو الموجود في النسخ والمعروف في الروايات، وذكر القاضي أن بعض رواة مسلم رواه بالمهملة، فمعناه بالمعجمة الخامل المنقطع إلىٰ العبادة والاشتغال بأمور نفسه، ومعناه بالمهملة الوصول للرحم اللطيف بهم وبغيرهم من الضعفاء، والصحيح بالمعجمة» (شرح مسلم ١٨/ ١٠١).

فصل:

ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن قصة الفيل، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة النصارىٰ ساروا بجيش عظيم ومعهم فيل ليهدموا الكعبة -لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن- فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنائسهم، فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكتهم عامتهم[1]، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارىٰ خير من دينهم[2].

فعلم بذلك أنَّ هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي ﷺ، الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته.

فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل؛ فقد عُلم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلىٰ هذا البيت ويصلي إليه إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي فرض حجه والصلاة إليه، فإذا كان هذا البيت عند الله خيرًا من الكنائس التي للنصارىٰ -حتىٰ إنَّ الله

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) قصة الفيل مشهورة في كتب السيرة وكتب التفسير، انظر مثلا: سيرة ابن هشام ١/ ٣٧، تفسير الطبري ٢٤/ ٦٠٩، تفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٨، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٨٣.



أهلك النصارىٰ أهل الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت- عُلم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارىٰ، والمشركون ليسوا خيرًا من النصارىٰ، فتعيَّن[1] أنَّ أمة محمد ﷺ خير من النصارىٰ، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق، وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب فليسوا خيرا من النصارىٰ بل هم من شرار الخلق، كأتباع مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهما.

وقال في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ والأبابيل جماعات في تفرقة، فوج بعد فوج[2].

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: من طين مستحجر، (وهي كلمة معربة، أصلها بالفارسية: سنك وكيل[3]، وكيل بالفارسية هي الطين، ويقولون في الجمع كيلان، أي أطنان[4] لأن الواو والنون في الفارسية للجمع، فيقولون: مسلمان وفقيهان وعالمان، أي: مسلمون وعلماء وفقهاء، ولما عربتها العرب صارت عربية ينطقون بها، ويعرفون معناها، والقرآن نزل بلغتهم العربية، والمعرب عربي)[5].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] كالتبن الذي أُكل.

---

(١) في (ب): فتبين.

(٢) الأبابيل لا واحد لها (معاني القرآن ٣/ ٢٩٢)، قال الطبري: أي طيرا متفرقة يتبع بعضها بعضا من نواح شتىٰ (جامع البيان ٢٤/ ٦٠٥).

(٣) في (د): وكل. في الموضعين.

(٤) في (د): كيلان أي أطيان.

(٥) ما بين القوسين ليس في (ب، ل): تعمد.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام في معنىٰ التقرير، وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه، وقد قررهم علىٰ ذلك؛ لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام علىٰ الخلق[1].

فصل[2]:

ومن آيته الظاهرة التي في القرآن: ما ذكره من أنَّ السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، بخلاف ما كانت العادة جارية به.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢] إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

وهذا كان النبي (ظ ٧١) ﷺ يقرؤه علىٰ الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر، فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرسا شديدًا وشهبًا، وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.

---

(١) هامش ظ: بلغ مقابلة.

(٢) كلمة فصل ليست في (ب، ل) فصار هذا الفصل من جملة الفصل السابق، وهي ثابتة في الأصل ظ و د.

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم فإن امتلاء السماء بالشهب أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤوا يمتنع اتفاقهم علىٰ الكذب وعلىٰ التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلىٰ كتمان ما يعلمونه، وعلىٰ ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجودا - مع أن عامتهم كانوا مكذبين له ولما آمنوا كانوا طوائف متباينين - يمتنع اتفاقهم علىٰ كذب أو كتمان أو سكوت، فلما لم ينكر ذلك أحد، بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب، الذي لم يعهد مثله، حتىٰ صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ وقالوا: إن كان في كواكب الأفلاك فهو خراب العالم، فلما رأوه فيما دونها، علموا أنه لأمر حدث.

ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلىٰ سوق[1] عكاظ، وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلىٰ قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل[2] بيننا وبين السماء، أُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟

---

(١) ليست في (ب).
(٢) في (ب): قد حيل.

فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تِهامة -وهو بنخل- عامدين إلىٰ سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلىٰ قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

فأنزل الله ﷻ علىٰ نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]»[(١)].

وفي لفظ البخاري: «بنخلة[(٢)] قريب من مكة»[(٣)]، وهو الصواب.

وقد ظنَّ بعض الناس أن الشهب لم يكن يُرمىٰ بها قبل ذلك بحال، والصواب أنه كان يرمىٰ[(٤)] بها - كما هو الآن - أحيانًا.

كما ثبت في صحيح مسلم، عن ابن عباس -ورواه أيضًا أحمد في مسنده-: أنَّ رسول الله ﷺ «بينما هو في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمىٰ به في الجاهلية؟ قالوا: كنا (يا رسول الله)[(٥)] نقول حين رأيناها يرمىٰ بها: مات ملك، وولد مولود، فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك كذلك، ولكن الله إذا قضىٰ في خلقه أمرًا يسمعه أهل العرش

---

(١) صحيح البخاري (٧٧٣)، صحيح مسلم (٤٤٩).

(٢) نخلة موضع بمكة (هدي الساري ١٩٣)، وينظر في تحديده ما ذكره ياقوت في معجم البلدان (٥/ ٢٧٨).

(٣) صحيح البخاري (٧٧٣).

(٤) في (ب، ل): الرمي.

(٥) ما بين القوسين ليس في (ل)، وتأخر في (ب) بعد نقول.

فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم، فيسبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهبط حتىٰ ينتهي إلىٰ السماء الدنيا، حتىٰ يقول بعضهم لبعض: لم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم، فيقولون[1]: ألا تسألون مَن فوقكم مم سبحوا؟ فيسألونهم فيقولون: قضىٰ الله في خلقه كذا وكذا -الأمر الذي كان- فهبط[2] به الخبر من سماء إلىٰ سماء حتىٰ ينتهي إلىٰ سماء الدنيا فيتحدثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع علىٰ توهم منهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان[3] من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون، فتحدث به الكهان»[4].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «قلت: يا رسول الله، (ظ٧٢) إنَّ الكهان قد[5] كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقًّا، قال: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها[6] في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة»[7].

وروىٰ البخاري في صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلىٰ الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من[8]

---

(١) في (ب): فيقول.

(٢) في (ب، ل، د): فيهبط.

(٣) في (ب، ل): إلىٰ الكهان.

(٤) مسند أحمد (١٨٨٢) صحيح مسلم (٢٢٢٩).

(٥) ليست في (ب).

(٦) كذا في صحيح مسلم، وعند البخاري: فيقرها، وفي بعضها: يقرقرها، (فتح الباري ١٠/ ٢١٩).

(٧) صحيح البخاري (٥٧٢٦)، صحيح مسلم (٢٢٢٨).

(٨) في (ب، ل، د): من عند.

أنفسهم»[1].

وفي صحيح البخاري أيضًا عن أبي هريرة قال: «إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضىٰ الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقول، كأنه سلسلة علىٰ صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا، بعضهم فوق بعض، فيسمع[2] الكلمة فيلقيها[3] (إلىٰ من تحته، ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته، حتىٰ يلقيها)[4] علىٰ لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا[5]: (كذا وكذا)[6] -الكلمة التي سمعت من السماء- فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»[7].

ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري[8]، وقال في آخره: «ثم إن الله ﷻ حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم، فانقطعت الكهانة فلا كهانة»[9].

ورواه معمر، عن الزهري، وقال: فقلت للزهري: أو كان يرمىٰ بها في الجاهلية؟ قال: نعم.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢١٠).
(٢) في (ب): فيستمع.
(٣) في (ب): فينقلها.
(٤) ما بين القوسين ليس في (ل).
(٥) ليست في (ل).
(٦) سقط من (ب).
(٧) صحيح البخاري (٤٧٠١).
(٨) يريد حديث ابن عباس السابق.
(٩) السيرة لابن هشام ١/ ١٩١.

قلت: يقول الله ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] الآية. قال: غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي ﷺ(١).

وروى الطبري، عن داود(٢)، ثنا عاصم بن علي، ثنا علي بن عاصم(٣)، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي، (وكان الوحي)(٤) إذا أوحي سمعت الملائكة كهيئة الحديدة يرمى(٥) بها على الصفوان، فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحي خر لجباههم مَنْ في السماء من الملائكة، فإذا نزل عليهم أصحاب الوحي قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: فينادون: قال ربكم الحق وهو العلي الكبير.

قال: فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا: يكون في الأرض كذا وكذا موتًا، وكذا وكذا حياةً، وكذا وكذا جدوبةً، وكذا وكذا خَصبًا، وما يريد أن يصنع، وما يريد أن يبتدي تبارك فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس(٦) مما يكون في الأرض.

فبينما هم كذلك إذ بعث الله النبيَّ ﷺ فزجرت الشياطين (عن

---

(١) حديث معمر رواه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٥٢)، ومن طريقه رواه أحمد (١٨٨٢)، والطبري في التفسير (٢١/ ١٤).

(٢) كذا في كل الأصول، وهو علي بن داود كما في المصدر. وعلي بن داود القنطري -وأخوه عاصم بن داود- من شيوخ ابن جرير الطبري.

(٣) وهو أبو الذي يروي عنه، وعلي بن عاصم بن صهيب ضعيف، وهو من رجال التهذيب.

(٤) ما بين القوسين سقط من ب.

(٥) في (ل): رمي.

(٦) في (ب): من الأمر. وهو تصحيف، وما ثبت يوافق ما في جامع البيان للطبري.

السماء)[1]، ورموهم بالكواكب، فمنعوا، فجعل لا يصعد أحد إلا احترق، وفزع أهل الأرض لما رأوا في الكواكب، ولم يكن قبل ذلك، فقالوا: هلك من في السماء، وكان أهل الطائف أول من فزع، فينطلق الرجل إلىٰ إبله فينحر كل يوم بعيرا لآلهتهم، فينطلق صاحب الغنم فيذبح كل يوم شاة، فينطلق صاحب البقر فيذبح كل يوم بقرة، فقال لهم رجل: ويلكم، لا تُهلكوا أموالكم، فإن معالمكم من الكواكب التي تهتدون بها لم يسقط منها شيء، فأقلعوا وقد أسرعوا[2] في أموالهم.

وقال إبليس: حدث في الأرض حدث فأُتي من كل مكان في الأرض بتربة، فجعل لا يؤتىٰ بتربة أرض إلا شمها، فلما أُتي بتربة تهامة، قال: ههنا حدث الحدث.

وصرف الله[3] إليه نفرا من الجن، وهو يقرأ القرآن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] حتىٰ ختم الآية، فولوا إلىٰ قومهم منذرين[4].

ورواه أبو زرعة، عن موسىٰ بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بنحوه، (أو قريبا منه)[5].

---

(١) ليس في (ل).

(٢) في (ب): شرعوا.

(٣) لفظ الجلالة ليس في (ب).

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ١٥)، ثم قال: «فهذه الأخبار تنبئ عن أن الشياطين تسمع، ولكنها ترمىٰ بالشهب لئلا تسمع».

وفي علي بن عاصم بن صهيب اختلاف كثير، وقد تركه بعضهم لكثرة خطئه (انظر: سير أعلام النبلاء٩/ ٢٤٩، تهذيب التهذيب ٧/ ٣٤٤). ولكنه توبع كما بين المصنف.

(٥) ما بين القوسين من الأصل (ظ) فقط.

ورواه البيهقي من طرق، عن حماد بن سلمة، عن عطاء أيضا[1].

فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث ملئت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا، وقبل ذلك (ظ٧٣) لم يكن الحرس شديدًا، ولا كانت السماء[2] مملوءة حرسًا وشهبًا[3]- كما هي الآن - يرمىٰ بها أحيانًا، وكانوا يقعدون منها مقاعد للسمع أي يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلىٰ حديث غيره مختفيًا بسماعه مسترقًا له، فكانت الشياطين تسترق - أي تستمع - ما تقوله الملائكة، فلما بعث محمد ﷺ صار أحدهم إذا استمع وجد الشهاب قد أرصد له، فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك[4].

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٤٠.
وعطاء بن السائب مختلط، واختلف النقاد في سماع حماد بن سلمة منه، والأرجح أنه سمع منه قبل الاختلاط، والله أعلم (انظر: سؤالات السلمي للدارقطني ٤٤٣، في ميزان الاعتدال: ٣/ ٧٠).

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) وضع في (ظ) علامة وكتب في الهامش: صوابه: «بل كانت». كأنه يريد تصويب العبارة إلىٰ النحو التالي: «بل كانت كما هي الآن يرمىٰ بها».

(٤) روىٰ البيهقي من طريق عطية العوفي -وهو ضعيف- عن ابن عباس: «لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة بين عيسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وكانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فلما بعث الله ﷻ محمدا صلىٰ الله عليه وآله وسلم حرست السماء حرسا شديدا، ورجمت الشياطين، فأنكروا ذلك» فذكر الحديث، ثم قال البيهقي: فهذا يوافق الحديث الثابت عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، إلا أن فيه زيادة ينفرد بها عطية العوفي، وهي قوله «لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة بين عيسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم»، وروي ذلك عن ابن عباس ويحتمل أن يكون المراد بذلك أنها لم تكن تحرس الحراسة الشديدة حتىٰ بعث نبينا صلىٰ الله عليه وآله وسلم فملئت حرسا شديدا وشهبا (دلائل النبوة ٢/ ٢٤٢).

فصل:

وقد ذكرنا بعض آياته التي في القرآن؛ لأن من أهل الكتاب من يقول: لا نصدق[1] إلا بما في القرآن كما في التوراة والإنجيل (ما فيهما)[2] من آيات موسىٰ والمسيح عليهما الصلاة والسلام، إذ كان نقل القرآن عنه متواترًا لا يستريب فيه أحد، فنبهنا علىٰ بعض ما في القرآن مع أنَّ آياته التي ليست في القرآن كثيرة جدًا.

وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن، بل كما تواتر عنه من شريعته ما ليس في القرآن -وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه- كذلك تواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن، وهو من آياته وبراهينه، وقد قال تعالىٰ في غير موضع: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فالحكمة منزلة عليه، وهي منقولة في غير القرآن.

وقد تواتر عنه كون الصلوات خمسًا، والفجر ركعتين[3]، والمغرب ثلاثًا، والباقي أربعًا أربعًا[4]، والرباعية في السفر ركعتان، وتواتر عنه سجود السهو، كذلك تتواتر عنه أنواع من المعجزات، والأخبار المأثورة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جدًا، لا يمكن إحصاؤها، وهي مشتملة علىٰ جنس[5] العلم والقدرة، علىٰ أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة مفصلة، كأنما رآها بعينه،

---

(١) في (ب): يصدق.
(٢) ليس في (ب، ل).
(٣) في (ب، ل): ركعتان.
(٤) في (ب، ل): أربع أربع.
(٥) في (ب، ل): جنسي.



لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي.

أمَّا الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء فيكذبون كثيرًا، كما يصدقون أحيانًا[1]، ويخبرون بجمل غير مفصلة.

وأمَّا أهل الولاية والصلاح فأعظمهم كشفًا يخبر من ذلك بأمور قليلة، لا تبلغ عُشر معشار ما أخبر به النبي، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره، وعلىٰ أنواع من القدرة والتصرف الخارق للعادة، والآيات إما من باب العلم والخبر والمكاشفة، وإما من باب القدرة والتأثير والتصرف.

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير، كقوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ [الروم: ١ - ٤] فغلبت الروم فارس في بضع سنين، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضىٰ.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: ٥٥] وكان كما أخبر.

روىٰ الدارمي عن أبي بن كعب قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة -وآوتهم الأنصار- رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتىٰ نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله ﷻ، فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ

(١) ليست في (ب، ل).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور: ٥٥] إلىٰ آخر الآية»[1].

---

(١) لا يقصد المصنف الإمام الدارمي صاحب السنن، وإنما أحمد بن سعيد الدارمي -أحد الرواة- حيث تفرد به عن علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي.
رواه الطبراني في الأوسط مختصرا (٧٠٢٩)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٢) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣/ ٦)، كلهم من طريق الدارمي، قال الطبراني: «تفرد به أحمد بن سعيد الدارمي». وفي علي بن الحسين بن واقد ضعف يسير، وقد خالفه غيره، فرواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية مقطوعا عليه، ولفظه: قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... الآية، قال: فمكث النبي ﷺ عشر سنين خائفا يدعو إلىٰ الله سرا وعلانية، قال: ثم أمر بالهجرة إلىٰ المدينة. قال: فمكث بها هو وأصحابه خائفون، يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح، فقال النبي ﷺ: «لا تغبرون إلا يسيرا حتىٰ يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبيا فيه، ليس فيه حديدة». فأنزل الله هذه الآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾... إلىٰ قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، قال: يقول: من كفر بهذه النعمة (فأولئك هم الفاسقون) وليس يعني الكفر بالله. قال: فأظهره الله علىٰ جزيرة العرب فآمنوا، ثم تجبروا، فغير الله ما بهم، وكفروا بهذه النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم، قال القاسم: قال أبو علي: بقتلهم عثمان بن عفان رضي الله عنه. رواه ابن جرير في التفسير (١٩/ ٢٠٩)، وابن أبي حاتم مختصرا (١٤٧٦٠).
وهاهنا كلمة جيدة في بيان تحقيق هذا الوعد الرباني، للحافظ ابن كثير الدمشقي -تلميذ المصنف- قال في التفسير (٦/ ٧٧): «هذا وعد من الله لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتىٰ فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه، ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهىٰ عند =

وكان كذلك، استخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم دينهم في مشارق الأرض ومغاربها.

وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح: ٢٨] وكان كما أخبر ووعد.

وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان كما أخبر.

وقال تعالىٰ(ظ٧٤): ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ(١) وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] فأخبر أنهم لن يفعلوا، وكان كما أخبر.

= موته ﷺ، وأطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلىٰ بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلىٰ أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلىٰ بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرىٰ ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن علىٰ الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام علىٰ مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلىٰ آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرىٰ وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلىٰ أقصىٰ مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلىٰ قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكىٰ صلاة، ثم لما كانت الدولة العثمانية -أي خلافة عثمان رضي الله عنه- امتدت المماليك الإسلامية إلىٰ أقصىٰ مشارق الأرض ومغاربها».

(١) اختصر في (ب، ل)، وكتب: إلىٰ قوله: فإن..

وأخبر أنه قال للمسيح: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وكان كما أخبر.

وأنزل في مكة:(١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥]، وقال: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] فكان كما أخبر(٢).

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، وكانوا(٣) كما أخبر(٤).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ

---

(١) لم يذكر الآية الأولىٰ في (ب، ل).

(٢) وكان النبي ﷺ في المدينة يستنجز ربه هذا الوعد، ففي صحيح البخاري (٢٩١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: قال النبي ﷺ، وهو في قبة: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت علىٰ ربك وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦].

(٣) في (ب، ل): فكان.

(٤) قال ابن كثير: «﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلىٰ قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارىٰ علىٰ اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا؛ فكل فرقة تحرم الأخرىٰ ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرىٰ في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» (تفسير ابن كثير ٣/ ٦٧).

مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤]

فكان كما أخبر(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١١١ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١ - ١١٢].

وقال: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ﴾ [الفتح: ٢٢].

وقال: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٤].

فكان كذلك، لم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، وما زال الإسلام في عز وظهور حتىٰ ظهر علىٰ أهل المشرق والمغرب(٢).

---

(١) قوله: ألقينا بينهم..أي بين اليهود والنصارىٰ، كما قاله مجاهد وغيره (تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٨).
ثم عاد الحديث عن اليهود، فقال: كلما أقدوا نارا للحرب أطفأها الله، والمعنىٰ: أنهم كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها، وكلما أبرموا أمورا يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيئ بهم، ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ أي: من سجيتهم أنهم دائما يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته (تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٧).

(٢) وإذا نظر للسبب الخاص لنزول آية براءة، وهو ما حصل لخزاعة حلفاء النبي ﷺ من قتل علىٰ يد بني بكر حلفاء قريش، فقد تحقق لهم شفاء الصدر بفتح مكة، (تفسير الطبري ١٤/ ١٦٠)، وإن أريد بها العموم فقد وقع ذلك كذلك، وهو مراد المصنف،
قال ابن كثير: ثم قال تعالىٰ عزيمة علىٰ المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم =

وقال تعالىٰ خطابًا لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١) [الجمعة: ٦-٧].

فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدا، وكان كما أخبر، فلا يتمنىٰ اليهود الموت أبدا، وهذا دليل من وجهين:

١-من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدا.

٢-ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت، مع أن ذلك مقدور لهم.

وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة، وهم - مع حرصهم علىٰ تكذيبه - لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت(٢).

= من الجهاد مع قدرته علىٰ إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم (تفسير ابن كثير ٤/ ١١٨).

(١) الآية الثانية ليست في (ب، ل).

(٢) وذلك لأنهم لو تمنوا الموت لماتوا، روي عن ابن عباس: لو تمنىٰ اليهود الموت لماتوا، وفي لفظ: لشرق أحدهم بريقه (ذكره ابن كثير، ثم قال: هذه أسانيد صحيحة إلىٰ ابن عباس (التفسير ١/ ٣٣١).

وقال في سورة المدثر: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا[(١)] ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٨].

وقال عن أبي لهب عمِّه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ [المسد: ١ - ٣]، فكان كما أخبر، مات الوليد كافرًا، ومات أبو لهب كافرًا.

وقال في سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠][(٢)].

وقال: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الفتح: ١٦] (ظ ٧٥).

---

(١) في (ب، ل): إلىٰ قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ﴾.

(٢) وهذه المغانم علىٰ قول مجاهد هي كل المغانم إلىٰ يوم القيامة، والمعجلة هي فتح خيبر (تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤١).



وهذا كله وقع كما أخبر، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة، ودخلوا المسجد الحرام آمنين، ودعيت الأعراب إلىٰ قتال الروم والفرس، يقاتلونهم أو يسلمون، فلا بد من القتال أو الإسلام، ليس هناك هدنة بلا قتال (ولا إسلام)[1]، كما كان يكون قبل نزول آية الجزية[2].

وقال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]، فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام[3].

وقال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ - ١٢].

---

(١) ليست في (ب).

(٢) في (ب، ل): «نزول الآية». انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٩.

(٣) والفتح هو فتح مكة، وفي صحيح مسلم (٤٨٤) عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟» فقال: «خبرني ربي أني سأرىٰ علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٢-٣]».

وكذلك كان، فروىٰ أهل التفسير والمغازي والسير أنَّ هذه الآية نزلت في المنافقين، كعبد الله بن أُبي، وعبد الله بن نبتل[1]، ورفاعة بن تابوت، ونحوهم[2]، كانوا يقولون لبني النضير، وهم اليهود حلفاؤهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] الآية، فأخبر الله عنهم أنهم لن يفعلوا ذلك وكذلك كان، وضرب الله مثلاً بالشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، كذلك المنافقون وبنو النضير[3].

فصل:

وآياته ﷺ قد استوعبت جميع أنواع الآيات الفعلية والخبرية، فإخباره عن الغيب الماضي والحاضر والمستقبل بأمور باهرة، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله، فضلا عن غير النبيين، ففي القرآن من إخباره عن الغيوب شيء كثير - كما تقدم بعض ذلك - وكذلك في الأحاديث الصحيحة، مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر[4].

ففي الصحيحين عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا ما ترك

---

(١) في (ب): نفتل.

(٢) كأوس بن قيظي (كما في تفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٩ عن مجاهد).

(٣) انظر: السيرة لابن هشام ٢/ ١٢٤، تفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٩، تفسير القرطبي ١٨/ ٣٣، تفسير ابن كثير ٨/ ٧٤.

(٤) وهذا المبحث من أشهر أبواب كتب دلائل النبوة، أعني: الغيبيات التي أخبر بها النبي ﷺ، وقد عدها الحافظ المستغفري أحد الأبواب العشرة الرئيسة لدلائل النبوة، (دلائل النبوة ١/ ١٣٥).

شيئا يكون من مقامه ذلك إلىٰ قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه»[1].

وفي صحيح مسلم، عن أبي زيد عمرو بن أخطب قال: «صلىٰ بنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتىٰ حضرت الظهر، ثم نزل فصلىٰ بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتىٰ حضرت العصر، ثم نزل فصلىٰ بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتىٰ غربت الشمس، قال: وأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأحفظنا أعلمنا»[2].

وفي صحيح البخاري عن عدي بن حاتم قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه[3] قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة[4]؟ فقلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتىٰ تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله، قال: قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ[5] الذين سعروا

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٠٤)، صحيح مسلم (٢٨٩١)، واللفظ له. وفي صحيح البخاري (٣١٩٢) معلقا عن عمر: عن طارق بن شهاب، قال: سمعت عمر رضي الله عنه، يقول: قام فينا النبي ﷺ مقاما، فأخبرنا عن بدء الخلق، حتىٰ دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٩٢).

(٣) في (ب): السنة. وهو تصحيف.

(٤) هامش (ف):الحيرة قرية قريبة من الكوفة بالعراق.

(٥) قوله: دعار طيء، الدعار جمع داعر، وهو الشاطر الخبيث المفسد، وفي هامش (ف): «دعار جمع داعر من الدعارة هي الفساد والشر، وطيء علىٰ وزن سيد أبو قبيلة في اليمن، كذا في الصحاح». =



البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرىٰ، قلت: كسرىٰ بن هرمز! قال: كسرىٰ بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله عنه، فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقينَّ الله تعالىٰ أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن له: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلىٰ. فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول بلىٰ. فينظر عن يمينه فلا يرىٰ إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرىٰ إلا جهنم.

قال عدي: سمعت رسول الله (ظ٧٦) ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتىٰ تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرىٰ بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله ﷺ: يخرج الرجل ملء كفه»[1].

قلت: وهذا الذي أخبر به من خروج الرجل بملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، ظهر كما أخبر في زمن عمر بن عبد العزيز.

وفي صحيح مسلم، عن جابر بن سمرة، عن نافع بن عُتبة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتىٰ النبي ﷺ قوم من قِبل المغرب، عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي

= قال الحافظ: «والمراد قطاع الطريق وطيء قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز، وكانوا يقطعون الطريق علىٰ من مر عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة، قوله: قد سعروا البلاد أي أوقدوا نار الفتنة، أي ملؤا الأرض شرا وفسادا، وهو مستعار من استعار النار وهو توقدها» (فتح الباري ٦/ ٦١٣).

(١) صحيح البخاري (٣٥٩٥).



نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه[1]، قال: ثم قلت: لعله نجيٌّ معهم، فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات أعدهن في يدي، قال: تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تغزون فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»[2].

وروى البخاري عن عوف بن مالك قال: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم، فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، وفتح بيت المقدس، ثم مُوتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم[3]، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية[4]، كل غاية اثنا عشر ألفًا»[5].

قلت: ففتح بيت المقدس بعد موته في خلافة عمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام، طاعون عمواس في خلافة عمر أيضا، ومات

---

(١) في هامش (ل): يقتلونه.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٠)، قوله «لعله نجي معهم» أي: يناجيهم ومعناه يحدثهم (شرح النووي على مسلم ١٨/ ٢٧).

(٣) الموتان بضم الميم الموت الكثير الوقوع، وقيل بفتح الميم فيه، والقعاص كذا ورد في الأصول، إلا (ط النيل)، وكما أثبت ورد في مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/ ١٩١). وهو في المختصر النصيح (١١٥٩)، وفتح الباري (٦/ ٢٧٨): عقاص، بتقديم المهملة، وسيأتي كذلك من كلام المصنف بعد الحديث، قال الحافظ: داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت (فتح الباري ٦/ ٢٧٨).

(٤) هامش (ف): «الوباء الموعود وقع في زمان عمر فمات سبعون ألف في ثلاثة أيام، وبنو الأصفر الروم، والهدنة الصلح، والغاية العلم».

(٥) صحيح البخاري (٣١٧٦).

فيه معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وخلق كثير، وكان ذلك أول طاعون وقع في الإسلام، فكان ما أخبر به، حيث أخذهم طاعون كقُعاص الغنم، ثم استفاض المال في خلافة عثمان بن عفان حتىٰ كان أحدهم يُعطىٰ مائة دينار فيتسخطها، وكثر المال حتىٰ كانت الفَرس تشترىٰ بوزنها[1].

(ثم وقعت الفتنة العامة التي لم يبق بيت من العرب إلا دخلته لما قتل عثمان، ووقعت الفتنة بين المسلمين، واقتتلوا[2] يوم الجمل ويوم صفين)[3].

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا، قال: فجلس محمرًا وجهه، ثم قال: والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويؤخذ[4] فتحفر له الحُفرة فيوضع المنشار علىٰ رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب منكم من صنعاء إلىٰ حضرموت لا يخشىٰ إلا الله ﷻ والذئب[5] علىٰ غنمه، ولكنكم تعجلون»[6].

---

(١) روىٰ البيهقي (في السنن الكبرىٰ ٤/ ٢٠٣): أن عبد الرحمن بن أمية أخو يعلىٰ بن أمية ابتاع من رجل فرسا أنثىٰ بمائة قلوص، فبدا له فندم البائع، فأتىٰ عمر رضي الله عنه فقال: إن يعلىٰ وأخاه غصباني فرسي ، فكتب عمر إلىٰ يعلىٰ بن أمية «أن الحق بي» فأتاه فأخبره، فقال: «إن الخيل لتبلغ هذا عندكم» قال: ما علمت فرسا قبل هذه بلغ هذا!.

(٢) في (ل): «ووقعت الفتنة بين المسلمين أو الملوك يوم الجمل ويوم صفين» وهو تصحيف.

(٣) ما بين القوسين تأخر في ب إلىٰ ما بعد حديث خباب، وثبتت هنا في (ل) لحقا في هامشها.

(٤) في ب: فيؤخذ الرجل.

(٥) في (ب): أو الذئب.

(٦) صحيح البخاري (٣٦١٢)، ولم يروه مسلم، (كما في تحفة الأشراف: ٣/ ١١٧).

وفي الصحيحين -واللفظ للبخاري- عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ (ظ٩٤) تقاتلوا الترك، صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المُطْرَقة، ولا تقوم الساعة حتىٰ تقاتلوا قوما نعالهم الشعر»[١].

قلت: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر[٢] ﷺ، وأمر هذه الطوائف معروف، فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروف مشهور، وحديثهم في أكثر من عشرة آلاف نسخة كبار وصغار من كتب المسلمين، قبل (ظ٧٧) قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق الذين هذه صفتهم، التي لو كلف من رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٢٨)، وصحيح مسلم (٢٩١٢).

(٢) كتب في (ب) فوق السطر: النبي.

(٣) فقد جمع الحديث عدة صفات بأبلغ العبارات، وقوله: كالمجان المطرقة، قال الحافظ: «المجان بالجيم وتشديد النون جمع مجن -أي الترس- والمطرقة التي ألبست الأطرقة من الجلود وهي الأغشية، تقول طارقت بين النعلين أي جعلت إحداهما علىٰ الأخرىٰ» (فتح الباري ٦/ ١٠٤).
وأما قوله: دلف الأنوف، وفي بعض الراويات: فطس الأنوف، فالفطس الانفراش، وأما الدلف -بالدال والذال- قيل معناه الصغر وقيل الدلف الاستواء في طرف الأنف ليس بحد غليظ وقيل تشمير الأنف عن الشفة العليا ودلف بسكون اللام جمع أدلف مثل حمر وأحمر وقيل الدلف غلظ في الأرنبة وقيل تطامن فيها وقيل ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته وقيل قصره مع انبطاحه (فتح الباري ٦/ ٦٠٨).
وقوله: نعالهم الشعر، يحتمل معان، قال الحافظ: «قيل: المراد به طول شعورهم حتىٰ تصير أطرافها في أرجلهم موضع النعال، وقيل: المراد أن نعالهم من الشعر بأن يجعلوا نعالهم من شعر مضفور، ...، ووقع في رواية لمسلم كما تقدم من طريق سهيل عن أبيه عن أبي هريرة: يلبسون الشعر، وزعم ابن دحية أن المراد به القندس الذي يلبسونه في الشرابيش، قال: وهو جلد كلب الماء» (فتح الباري ٦/ ٦٠٨). =

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرىٰ»[1].

وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستماية، ورآها الناس، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرىٰ، وكانت تحرق الحجر، ولا تنضج اللحم[2].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد، وأسماء أن رسول الله ﷺ «قال لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية»[3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك كسرىٰ ثم لا يكون كسرىٰ[4] بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتنفقن

= ووقع في هامش (ف): المجان جمع المجن وهو الترس، والمطرقة التي أطرقت أي ألبست بطراق، وهو الجلد الذي يغشاه، والذلف بضم الذال المعجمة وسكون اللام جمع الأذلف، من الذلف بفتح اللام وهو صغر الأنف مع استواء الأرنبة، والأرنبة طرف الأنف والله تعالىٰ أعلم.

(١) صحيح البخاري (٧١١٨)، صحيح مسلم (٢٩٠٢).

(٢) ذكر أبو شامة والنووي وابن كثير أنها كانت سنة ٦٥٤ (شرح مسلم ١٨/ ٢٨، البداية والنهاية١٩/ ٢٨)، وفصل ابن حجر في شأنها (فتح الباري ١٣/ ٧٩).

(٣) حديث أبي سعيد الخدري رواه البخاري في الصحيح (٤٤٧)، ومسلم في الصحيح (٢٩١٦)، والحديث وإن أخرجه البخاري إلا أنه ترك هذه اللفظة منه، انظر بحث ذلك في: المختصر النصيح للمهلب بن أبي صفرة ١/ ٣٢٤، فتح الباري ١/ ٥٤٢.
ورواه مسلم (٢٩١٦) من حديث أم سلمة.
وأما قوله: أسماء، فهكذا هو في الأصول، ولعله تصحيف عن أم سلمة.

(٤) هامش (ف): «اسم ملك الفرس في ذلك الزمان كان برز بن هرمز» أهـ كأنه يريد: أبرويز.
وقال ابن كثير: كان آخر ملوكهم - الذي سلب منه الملك - يزدجرد بن شهريار بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان وهو الذي انشق الإيوان في زمانه وكان لأسلافه في الملك ثلاثة آلاف سنة ومائة وأربعة وستون سنة وكان أول ملوكهم خيومرت بن أميم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام (البداية والنهاية٣/ ٣٩٩).

كنوزهما في سبيل الله»[١].

وفي الصحيحين عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[٢].

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتفتحن عصابة من المسلمين، أو قال: من المؤمنين كنز آل كسرىٰ الذي في الأبيض»[٣]. والأبيض قصرٌ كان لكسرىٰ[٤].

وفي صحيح البخاري[٥] عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ «أنه قال عن الحسن -ابن ابنته وهو يخطب علىٰ المنبر-: أن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٦].

قلت: فوقع هذا كما أخبر به، بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنة، وهو سنة أربعين من الهجرة، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين بصفين، عسكر علي وعسكر معاوية.

---

(١) صحيح البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨).

(٢) رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩). وجابر هو ابن سمرة.
قال ابن عقيل الحنبلي: «كانت العرب بين هذين الملكين كالكرة يلعبان بهم، ويحملون إليهما الهدايا، فلما جاء الإسلام صارت كلمة العرب هي العليا، فلا كسرىٰ ولا قيصر من حيث المعنىٰ، إنما هو اسم فارغ من المعنىٰ» (كشف المشكل من الصحيحين لابن الجوزي ١/ ٤٤٨).

(٣) هي رواية لحديث جابر بن سمرة الذي ذكره آنفا، وهذا اللفظ عند مسلم (٢٩١٩).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٨/ ٤٣).

(٥) في (ب، ل) زيادة: وغيره.

(٦) صحيح البخاري (٢٧٠٤).

وفي الصحيحين عن ابن عباس «أنَّ رجلا أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت الليلة[1] في المنام ظلة تنطف[2] السمن والعسل، فأرىٰ الناس يتكففون منها بأيديهم، فمنهم المستكثر والمستقل، ثم إذا سبب واصل من الأرض إلىٰ السماء فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل بعدك فَعَلا، ثم أخذ به رجل آخر فَعَلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل له فَعَلا.

قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي لتدعني فلأعبره، فقال: أعبر، فقال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن[3] (حلاوته ولينه، وأما ما يكفف فالمستكثر من القرآن)[4] والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلىٰ الأرض فالحق الذي أنت عليه، فأخذت به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو، ثم يأخذ[5] به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به.

فأخبرني يا رسول الله: أصبت أم أخطأت؟ فقال: أصبت بعضا وأخطأت بعضا، قال: فوالله يا رسول الله لتخبرني بالذي أخطأت، قال: لا تقسم»[6].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيتني علىٰ قليب عليها دلو[7]، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذَنُوبًا أو ذَنُوبين، وفي نزعه ضعف - والله يغفر له - ثم

---

(١) في (ب): الملائكة. وهو تصحيف.

(٢) الظلة السحابة، وتنطف أي تقطر قليلا قليلا (شرح مسلم للنووي ١٥/ ٢٨).

(٣) في (ب، ل): فهو القرآن.

(٤) ما بين القوسين سقط من (ل) لانتقال النظر.

(٥) في (ب): يأتي.

(٦) صحيح البخاري (٧٠٤٦)، صحيح مسلم (٢٢٦٩).

(٧) في (ب): فنزحت عنه فنزعت عنها.

استحالت غَرْبًا فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عَبقَريًّا من الناس ينزع نـزع عمر حتىٰ ضرب الناس بعطن.

وفي رواية: فاستحالت الدلو غَرْبا في يد عمر»[١].

قال الشافعي رحمة الله عليه: «رؤيا الأنبياء وحي، وقوله: في نزعه ضعف، قصر مدته، وعجلة موته، وشغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر في طول مدته»[٢].

وفي الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه «أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئًا فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك ؟ قال: أي كأنها تعني الموت، قال: إن لم تجديني فائتي أبا بكر»[٣].

وروىٰ أبو داود الطيالسي، عن أبي ثعلبة الخشني، وعن أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة،

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٦٤)، صحيح مسلم (٢٣٩٢).
الغرب الدلو العظيمة، والنزع الاستقاء، ومعنىٰ ضرب الناس بعطن، أي أرووا إبلهم ثم آووها إلىٰ عطنها وهو الموضع الذي تساق إليه بعد السقي لتستريح (شرح مسلم ١٥/ ١٥٩).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٤٥)، عقب به علىٰ الحديث، ودلائل النبوة للبيهقي من مصادر المصنف في هذه الفصول.
وقال النووي: «وأما قوله ﷺ في أبي بكر رضي الله عنه: وفي نزعه ضعف؛ فليس فيه حط من فضيلة أبي بكر، ولا إثبات فضيلة لعمر عليه، وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما، وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها، ولاتساع الإسلام وبلاده والأموال وغيرها من الغنائم والفتوحات، ومصر الأمصار، ودون الدواوين، وأما قوله ﷺ: والله يغفر له؛ فليس فيه تنقيص له ولا إشارة إلىٰ ذنب، وإنما هي كلمة كان المسلمون يدعمون بها كلامهم، ونعمت الدعامة، وقد سبق في الحديث في صحيح مسلم أنها كلمة كان المسلمون يقولونها افعل كذا والله يغفر لك» (شرح مسلم ١٥/ ١٦١).

(٣) صحيح البخاري (٣٦٥٩)، صحيح مسلم (٢٣٨٦).

وكائنًا خلافة ورحمة، وكائنًا ملكًا عضوضًا، وكائنًا عنوة وجبرية، وفسادًا في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون علىٰ ذلك، ويرزقون أبدًا حتىٰ يلقوا الله ﷻ»[1].

وروىٰ أبو داود، عن سمرة بن جندب أنَّ رجلاً قال: «يا رسول الله، إني رأيت كأنَّ دلوا دلي من السماء فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بعراقيها[2] فشرب شربًا ضعيفًا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتىٰ تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتىٰ تضلع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منها شيء»[3].

وفي السنن عن سَفينة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تكون خلافة النبوة ثلاثين

---

(١) رواه الطيالسي (٢٢٥)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٤٠)، وفي إسناده: ليث بن أبي سليم مضطرب الحديث.
والملك العضوض: ما يصيب الرعية فيه ظلم وعسف، كأنهم يعضون فيه عضا، والملك العضوض جمع عض، وهو الخبيث الشرس (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٥٣).

(٢) العراقي: جمع عرقوة الدلو، وهو الخشبة المعروضة علىٰ فم الدلو، وهما عرقوتان كالصليب. وقد عرقيت الدلو إذا ركبت العرقوة فيها (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٢١).

(٣) رواه أحمد (٢٠٢٤٢)، وأبو داود (٤٦٣٧)، وفيه: عبدالرحمن الجرمي، ذكره البخاري بهذا الحديث (في التاريخ الكبير ٥/ ٢٦٩)، لم يرو عنه غير ابنه عبدالرحمن، ووثقه ابن حبان (الثقات ٥/ ٨٧) (انظر: ميزان الاعتدال ٢/ ٦٠٢)، وقال الحافظ في التقريب: مقبول، قلت: وفيه توثيق يحيىٰ بن معين كما في سؤالات الدارمي (١١٣)، فإنه قال: سألت يحيىٰ بن معين عن أشعث بن عبد الرحمن الجرمي؟ قال: ثقة، قلت: وأبوه؟ فقال: ثقة أهـ، وهذا التوثيق فات المزي والذهبي وابن حجر فلم يذكروه، فالحديث صحيح.
قال الحافظ بعد أن ذكر الحديث: «هذا يبين المراد بالنزع الضعيف والنزع القوي الفتوح والغنائم» (فتح الباري ١٢/ ٤١٤).

سنة ثم تصير ملكا»[1].

فكان هذا العام تمام الثلاثين سنة من موته، ودخل في ذلك خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم[2].

وفي الصحيحين عنه[3] ﷺ أنه قال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[4].

وفي صحيح مسلم (عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ)[5]: «إنَّ الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة[6]، ولا أسلط عليهم عدوًّا من[7] سوىٰ أنفسهم يستبيح

---

(١) رواه أحمد (٢١٩١٩) وأبو داود (٤٦٤٦)، الترمذي (٢٢٢٦)، وإسناده حسن.

(٢) في بعض طرق أحمد: قال سفينة: «أمسك خلافة أبي بكر سنتين، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي ست سنين». وعند أبي داود: قال سعيد بن جمهان، قلت: لسفينة إن هؤلاء يزعمون أن عليا لم يكن بخليفة قال: «كذبت أستاه بني الزرقاء يعني بني مروان».

وفي هامش (د): «وتمامها ستة أشهر التي استخلف فيها سيدنا الحسن السبط رضوان الله عليه وعلىٰ سائر أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين، هـ س».

(٣) في ظ: وفي الصحيحين عن عن رسول.

(٤) هذا مختصر من الرواية التي تليها، ولم يخرج البخاري هذا الحديث.

قوله: زوريت لي الأرض: أي جمعت وقبضت (مشارق الأنوار ١/ ٣١٣، النهاية ٢/ ٣٢٠).

(٥) ما بين القوسين ليس في (ب)، وبدله في (ل): عنه ﷺ.

(٦) في (ب، ل): عامة.

(٧) ليست في (ب)، وكتبها في (ل) تحت السطر.

بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين[1] أقطارها، حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا (ويسبي بعضهم بعضًا)[2]»[3].

وهذا أخبر به في أول الأمر، وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة، وكان كما أخبر، فإنَّ ملك أمته انتشر في الشرق والغرب، ولم ينتشر في الجنوب والشمال كانتشاره في الشرق والغرب[4]؛ إذ كانت أمته أعدل الأمم؛ فانتشرت دعوته في الأقاليم التي هي وسط المعمور من الأرض، كالثالث والرابع والخامس.

وقد تقدم قوله: «هلك كسرىٰ فلا يكون كسرىٰ بعده» وذاك كسرىٰ بن هرمز آخر الأكاسرة المملكين، ثم ولي بعده ولاة متضعفون[5]، فكان آخرهم يزدجرد، وإليه الإشارة باللفظ الآخر: «إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله ﷻ»[6].

وهذا أخبر به وملك كسرىٰ وقيصر أعز ملك في الأرض، وصدق الله خبره في خلافة عمر وعثمان فهلك كسرىٰ، وهو آخر الأكاسرة في خلافة عثمان بأرض فارس، ولم يبق بعده كسرىٰ، ولم يبق للمجوس والفرس ملك، وهلك قيصر الذي بأرض الشام وغيرها، ولم يبق بعده من (ظ٧٩) هو ملك علىٰ الشام ولا مصر ولا الجزيرة من النصارىٰ، وهو الذي يدعىٰ قيصر.

---

(١) ليست في (ب). واستدركها لحقا في (ل).
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل، ط النيل). وهي ثابتة في (ظ) وصحيح مسلم.
(٣) صحيح مسلم (٢٨٨٩).
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٨/ ١٣).
(٥) في (ب، ط النيل): مستضعفون.
(٦) سبق تخريجه.

قال الشافعي: «كانت قريش تنتاب الشام انتيابًا كثيرًا، وكان كثير من معاشها منه، وتأتي العراق فيقال: لما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي ﷺ خوفها من انقطاع معاشها بالتجارة من الشام والعراق إذا فارقت الكفر ودخلت في الإسلام، وخلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده»، فلم يبق بأرض العراق كسرىٰ يثبت له أمر بعده، وقال: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» فلم يكن بأرض الشام قيصر، فأجابهم علىٰ ما قالوا، وكان كما قال؛ قطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس، وقيصر عن الشام، وقال في كسرىٰ: «مزق الله ملكه» فلم يبق للأكاسرة مُلك، وقال في قيصر: «ثبت ملكه»[1] فثبت ملكهم ببلاد الروم، وتنحىٰ عن الشام، وكل هذا يصدق بعضه بعضا»[2].

وفي الصحيحين عن (سفيان بن)[3] أبي زهير قال: قال رسول الله ﷺ: «تفتح اليمن[4] فيأتي قوم يُبِسُّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٩٤.

(٢) كلام الشافعي رواه عنه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٩٤.

(٣) ليس في (ب، ل). وكتب في هامش ل:صوابه سفيان بن زهير. قلت: وهكذا ثبت في ط النيل، والصحيح ما في الأصل (ظ).

(٤) وقع في إحدىٰ روايات مسلم تقديم الشام علىٰ اليمن، رواه من طريق ابن أبي شيبة عن وكيع، وهكذا هو في مسند ابن أبي شيبة (٧٧٥)، وخالفه كل من رواه فذكروا اليمن قبل الشام، ولم أقف عليه من رواية وكيع عند غير ابن أبي شيبة، فلعل ابن أبي شيبة لم يضبطه، والله أعلم.
قال النووي: «قال العلماء في هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم وأن الناس يتحملون بأهليهم إليها ويتركون المدينة وأن هذه الأقاليم تفتح علىٰ هذا الترتيب ووجد جميع ذلك كذلك بحمد الله وفضله» (شرح مسلم ٩/ ١٥٩).

لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح الشام[1] فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح العراق فيأتي قوم يتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، وفي رواية: «فيخرج من المدينة»[2].

فأخبر ﷺ بفتح اليمن والشام والعراق قبل أن يكون، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوام يتحملون بأهليهم، ومن أطاعهم إلىٰ هذه الأمصار، يطلبون الريف وسعة الرزق، قال: والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: «ستفتح مصر، وهي أرض يسمىٰ فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا».

وفي رواية: «فأحسنوا إلىٰ أهلها، فإن لهم ذمةً ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان علىٰ موضع لبنة فاخرج منها»، فمر أبو ذر بعد فتح مصر بمدة بابني شرحبيل بن حسنة، وهما يتنازعان في موضع لبنة فخرج منها[3].

وفي صحيح البخاري، عن سليمان بن صُرد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «حين أجلي الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزونا»[4] وكذلك كان.

---

(١) هنا في بعض النسخ: فيأتي قوم يبسون، وهو في الصحيح وسقط من ظ.
(٢) صحيح البخاري (١٨٧٥)، صحيح مسلم (١٣٨٨).
قوله: يبسون، أي يسوقون داوبهم ويزجرونها (فتح الباري ٤/ ٩٢).
(٣) صحيح مسلم (٢٥٤٣).
والقيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به (شرح مسلم للنووي ١٦/ ٩٧).
(٤) صحيح البخاري (٤١٠٩)، زاد في موضع (٤١١٠): «نحن نسير إليهم».
قال الحافظ: «وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة، وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش =

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم وأنتم»، قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟ تتنافسون[(١)]، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم علىٰ رقاب بعض»[(٢)].

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أنه[(٣)]: لما أنزل الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ[(٤)]﴾ [الجمعة: ٢ - ٣] سئل النبي ﷺ عن هؤلاء الآخرين، فقال: «لو كان الدين معلقًا بالثُّريَّا لناله رجال من أبناء فارس».

وفي لفظ: «لو كان الإيمان»، وفي لفظ: «لو كان العلم»[(٥)].

= عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلىٰ أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ، وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر شاهدا لهذا الحديث، ولفظه: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب وقد جمعوا له جموعا كثيرة: لا يغزونكم بعد هذا أبدا ولكن أنتم تغزونهم» (فتح الباري ٧/ ٤٠٥).

(١) الأفعال في (ب) كلها بالياء.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٦٢).

(٣) في (ب) زيادة هنا: قال.

(٤) أتم الآية في (ب، ل).

(٥) متفق عليه، صحيح البخاري (٤٨٩٧)، صحيح مسلم (٢٥٤٦). ولفظ: الدين عند مسلم فقط، وأما الإيمان فمتفق عليه، وأما لفظ: العلم، فليس عند الشيخين، بل رواه أحمد (٧٩٥٠) من طريق شهر بن حوشب عن أبي هريرة، وشهر بن حوشب ضعيف، ولفظه: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس».
وفي (ب، ل): «العلم» بدون: لو كان.

وكان كما أخبر، فإنه حصل في التابعين وتابعيهم، وهلم جرا، من أبناء فارس، مثل: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولىٰ ابن عباس[1]، ومجاهد بن جبر، وأضعاف هؤلاء، من نالوا ذلك.

«ولما نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] سئل عنهم، فقال: هم قوم هذا، وأشار إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري»[2].

وقال: «إني لأجد نَفَس الرحمن من قِبَل اليمن»[3].

---

(١) المشهور في ترجمة عكرمة مولىٰ ابن عباس أنه بربري (سير اعلام النبلاء٥/ ١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٢٢٦١) والطبراني (١٧/ ٣٧١) والحاكم في المستدك (٢/ ٣١٤) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٥١) من حديث عياض الأشعري، وقال الحاكم: علىٰ شرط مسلم، وأقره الذهبي.

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة (١٠٩٧٨)، وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل، رواه البزار (٣٧٠٢)، والطبراني في الكبير (٧/ ٥٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٩١).

وقيل: إن المراد الأنصار، لأنهم يمانيون، وقد فرج الله بهم علىٰ المؤمنين، قال ابن الأثير: «وهو مستعار من نفس الهواء الذي يرده التنفس إلىٰ الجوف فيبرد من حرارته ويعدلها، أو من نفس الريح الذي يتنسمه فيستروح إليه، أو من نفس الروضة، وهو طيب روائحها، فيتفرج به عنه، يقال: أنت في نفس من أمرك، واعمل وأنت في نفس من عمرك: أي في سعة وفسحة، قبل المرض والهرم ونحوهما» (النهاية في غريب الحديث ٥/ ٩٣).

وليس هذا الحديث من أحاديث الصفات، كما قد يظنه بعضهم، قال المصنف: «فقوله «من اليمن» يبين مقصود الحديث فإنه ليس لليمن اختصاص بصفات الله تعالىٰ حتىٰ يظن ذلك ولكن منها جاء الذين يحبهم ويحبونه الذين قال فيهم: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية: سئل عن هؤلاء؛ فذكر أنهم قوم أبي موسىٰ الأشعري؛ وجاءت الأحاديث الصحيحة مثل قوله: «أتاكم أهل اليمن أرق قلوبا وألين أفئدة؛ الإيمان يمان والحكمة يمانية» وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة =

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبًا (ظ ٨٠) وألين أفئدة، الإيمان يمانٍ، والفقه يمانٍ، والحكمة يمانية»[(١)].

فلما ارتد من ارتد عن الإسلام أتىٰ الله بهؤلاء الذين يحبهم ويحبونه، فقاتل الصديق بهم أهل الردة، وغلب بهم أبو بكر وعمر كسرىٰ وقيصر[(٢)].

وقال لعثمان بن عفان: «إنَّ الله مُقمِّصُك قميصًا فإن أرادوك علىٰ خلعه فلا تخلعه»[(٣)].

= وفتحوا الأمصار فبهم نفس الرحمن عن المؤمنين الكربات ومن خصص ذلك بأويس فقد أبعد»(مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٣٩٨).

(١) صحيح البخاري (٤٣٣٨)، صحيح مسلم (٥٢).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٣٦٢.وروىٰ البيهقي في السنن الكبرىٰ (٨/ ١٧٧) عن قتادة قال: فىٰ قوله ﷻ (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتىٰ الله بقوم يحبهم ويحبونه) الآية: «نزلت هذه الآية وقد علم الله أنه سيرتد مرتدون من الناس، فلما قبض الله رسوله ﷺ ارتد الناس عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد؛ أهل المدينة وأهل مكة وأهل جواثا من أهل البحرين، من عبد القيس، وقالت العرب: أما الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا، فكلم أبو بكر رضىٰ الله عنه أن يتجاوز عنهم ويخلي عنهم، وقيل له: إنهم لو قد فقهوا لأعطوا الزكاة طائعين، فأبىٰ عليهم أبو بكر رضىٰ الله عنه قال: والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه، والله لو منعوني عناقا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه، فبعث الله عليهم عصائب، فقاتلوا علىٰ ما قاتل عليه رسول الله ﷺ حتىٰ أقروا بالماعون، وهي الزكاة المفروضة، ثم إن وفد العرب قدموا عليه فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية، فاختاروا الخطة، وكانت أهون عليهم أن يشهدوا أن قتلاهم في النار وقتلىٰ المسلمين فىٰ الجنة، وما أصاب المسلمون من أموالهم فهو حلال وما أصابوا من المسلمين ردوه عليهم».

(٣) رواه أحمد (٢٤٤٦٦) وابن ماجه (١١٢) من حديث عائشة قالت: كنت عند النبي ﷺ فقال: «يا عائشة، لو كان عندنا من يحدثنا؟» قالت: قلت: يا رسول الله، ألا أبعث إلىٰ أبي بكر؟ فسكت، ثم قال: «لو كان عندنا من يحدثنا»، فقلت: ألا أبعث إلىٰ عمر؟ فسكت، قالت: ثم دعا وصيفا بين يديه، فساره، فذهب، قالت: فإذا عثمان يستأذن، فأذن له، =

وفي الصحيحين عن أبي موسىٰ قال: «بينا رسول الله ﷺ في حائط من حوائط المدينة، وهو متكئ يركز بعود في الماء والطين، إذ استفتح رجل فقال: افتح وبشره بالجنة. فإذا هو أبو بكر ففتحت له وبشرته بالجنة.

ثم استفتح رجل آخر، فقال: افتح له وبشره بالجنة. فذهبت فإذا هو عمر، ففتحت له، وبشرته بالجنة.

ثم استفتح رجل آخر، فقال: افتح له، وبشره بالجنة علىٰ بلوىٰ تصيبه، فذهبت فإذا هو عثمان ففتحت له[1]، وبشرته بالجنة، وقلت له الذي قال، فقال: اللهم صبرًا، والله المستعان»[2].

وفي الصحيحين حديث حذيفة «عن النبي ﷺ في الفتن التي تموج موج البحر، وقال لعمر: إنَّ بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك ذلك الباب أن يكسر، فسأله مسروق من الباب؟ فقال: عمر»[3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون الفتن، القاعد فيها خير (من القائم، والقائم خير)[4] من الماشي، والماشي فيها خير

= فدخل، فناجاه النبي ﷺ طويلا، ثم قال: «يا عثمان إن الله ﷻ مقمصك قميصا، فإن أرادك المنافقون علىٰ أن تخلعه، فلا تخلعه لهم، ولا كرامة» يقولها: له مرتين أو ثلاثا.

وفي إسناده فرج بن فضالة ضعيف الحديث (ميزان الاعتدال ٣/ ٣٤٤)، وقد اختلف فيه عليه (انظر: العلل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٦١)..

ورواه الترمذي (٣٧٠٥) من طريق أخرىٰ عن عائشة، وقال: حسن غريب أهـ.

وله شاهد من حديث زيد بن أرقم رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٦١)، ومن حديث عبدالله بن عمرو، رواه الطبراني في الأوسط (٨٧٤٩).

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٧٤)، صحيح مسلم (٢٤٠٣).

(٣) صحيح البخاري (٥٢٥)، صحيح مسلم (١٤٤)

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل). وهو في الأصل والمصادر.

من الساعي، من يُشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به»[١].

ورواه أبو بكرة، وقال فيه: «فإذا وقعتْ فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلىٰ سيفه فيدق علىٰ حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت. فقال رجل: أرأيت يا رسول الله إن أكرهت حتىٰ ينطلق بي إلىٰ أحد الصفين، أو إحدىٰ الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»[٢].

وفي صحيح[٣] أبي حاتم قال النبي ﷺ: «ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، من فتنة[٤] عمياء صماء بكماء، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ويل[٥] للساعي فيها من الله يوم القيامة»[٦].

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «إني لأرىٰ الفتن تقع خلال بيوتكم كمواقع القطر»[٧].

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٠١)، صحيح مسلم (٢٨٨٦).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٧).
(٣) في (ب): وفي صحيح مسلم وأبي حاتم.
(٤) في (ل): أو فتنة.
(٥) في (ب): وويل.
(٦) صحيح ابن حبان (٦٧٠٥)، من حديث أبي هريرة، وترجم عليه أبو حاتم بن حبان: البيان بأن الفتن التي ذكرناها قصد العرب بتوقعها دون غيرهم أهـ وفي إسناده الدراوردي، صدوق سيء الحفظ.
(٧) صحيح البخاري (١٨٧٨)، صحيح مسلم (٢٨٨٥)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وفي الصحيحين من غير وجه أنه «لما قال له ذو الخويصرة: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل. فقال: ويحك، قد خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل، فقال بعض أصحابه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليد علىٰ عضده مثل البَضْعة من اللحم تَدرْدر، عليها شعرات»[1].

وفي رواية في الصحيحين: «تمرق مارقة علىٰ حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنىٰ الطائفتين إلىٰ الحق»[2].

وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع وعشرين سنة في أواخر خلافة علي، لما افترق المسلمون، فكانت الفتنة[3] بين عسكر علي، وعسكر معاوية، وقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه، وهم أدنىٰ الطائفتين إلىٰ الحق. والطائفة الأخرىٰ قتلوا عمار بن ياسر، وهي الطائفة الباغية.

وكان علي قد أخبرهم بهذا الحديث، وبعلامتهم فطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه، حتىٰ قام علي - بنفسه - ففتش عليه فوجده مقتولا فسجد شكرًا لله[4].

وفي الصحيح[5] عنه أنه قال (ظ٨١): «سيكون بعدي أمراء يؤخرون

---

(١) صحيح البخاري (٣٦١٠)، صحيح مسلم (١٠٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) لفظ صحيح مسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد، وعند البخاري (٣٦١٠) بعضه.

(٣) في المطبوعة: الفئة. وهو تصحيف.

(٤) صحيح مسلم (١٠٦٦) حيث روىٰ ذلك من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) كذا في (ب، ل)، وفي الأصل (ظ): وفي الصحيحين. والصواب ما أثبت.

الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة»[1].

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة؛ فكانوا يؤخرون الظهر إلىٰ وقت العصر، ويؤخرون العصر إلىٰ اصفرار الشمس.

وفي الصحيحين عنه أنه قال للأنصار[2]: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض»[3].

فلقوا بعده من استأثر عليهم، ولم يعطهم حقهم.

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «ستكون بعدي أمراء يطلبون منكم حقهم، ويمنعونكم حقكم، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله[4]، قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم»[5].

وفي الصحيحين عنه: «أنه سارَّ فاطمة ابنته رضي الله عنها فقال لها وهو في مرضه الذي توفي فيه: إني أقبض في مرضي هذا، ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به»[6].

وفي رواية: «وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين»[7].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكنَّ بي

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (٥٣٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ليست في (ل، ب).

(٣) صحيح البخاري (٣٧٩٢)، صحيح مسلم (١٨٤٥) من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه.

(٤) «يا رسول الله» ليس في (ب).

(٥) صحيح البخاري (٧٠٥٢) صحيح مسلم (١٨٤٣)، من حديث ابن مسعود، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها»، قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم».

(٦) صحيح البخاري (٣٦٢٥)، صحيح مسلم (٢٤٥٠)

(٧) صحيح البخاري (٦٢٨٥)، صحيح مسلم (٢٤٥٠).



لحاقا أطولكنَّ يدًا، قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، فكانت أطولنا يدًا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصَّدَّق»[1].

وفي صحيح البخاري وغيره عن أم حرام[2]، عن النبي ﷺ أنه قال: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم»[3].

وفي صحيح البخاري، عن أم حرام[4] قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا، قالت: قلتُ يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم.

قالت: ثم قال النبي ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: لا»[5].

وغزاها المسلمون في خلافة معاوية، وكان يزيد أميرهم، وكان في العسكر أبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي ﷺ في بيته لما قدم المدينة مهاجرا، ومات ودفن تحت سورها[6].

---

(١) صحيح البخاري (١٤٢٠)، صحيح مسلم (٢٤٥٢).

(٢) في الأصول كلها: عن ابن عمر، وهو تصحيف. وتكراره الحديث قد يفيد أنه صدر عن نسخة فيها تصحيف أو انتقل نظره أثناء النقل، فإن حديث ابن عمر في الصحيح آخر بعد حديث أم حرام، في قتال اليهود، والله أعلم.

(٣) صحيح البخاري (٢٩٢٤)، بلفظ الحديث التالي.

(٤) في (ب) زيادة: أيضا. ثم ضرب عليها. وهي ثابتة في (ل، ط النيل) مما يدل علىٰ أن قوله آنفا: عن ابن عمر سبق قلم أو انتقال نظر.

(٥) صحيح البخاري (٢٩٢٤).

(٦) الاستيعاب لابن عبدالبر ٤/ ١٦٠٦، أسد الغابة ٦/ ٢٢.
وفي (ب، ل، ط النيل) زيادة: «وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون».

ثم غزاها المسلمون مرة ثانية في خلافة عبد الملك غزاها ابنه مسلمة، وحصروها عدة سنين، وبنوا فيها مسجدًا.

وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان النبي ﷺ يدخل علىٰ أم حرام بنت ملحان[1] فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تَفْلي رأسه، فنام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: مم تضحك يارسول الله؟ فقال: عُرِض عليَّ ناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر مُلوكًا علىٰ الأسرة أو مثل الملوك علىٰ الأسرة. فقالت أم حرام: ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، فقالت: مم تضحك؟ فقال: عرض علي ناس من أمتي كما قال في الأولىٰ، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين.

قال أنس: فركبت البحر زمان معاوية بن أبي سفيان فصُرعت عن دابتها لما خرجت من البحر فماتت»[2].

وهذا كان في خلافة عثمان، ومعاوية نائبه، وكان المسلمون في خلافة عمر لم يغزوا في البحر، وأول ما غزوا البحر في خلافة عثمان، وفتحوا جزيرة قبرص، وجاءوا بسبيها إلىٰ دمشق، وكان أبو الدرداء حيًّا بدمشق فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا الدرداء؟ هذا يوم قد أعز الله فيه الإسلام، فقال: إنما أبكي أني رأيت هذه الأمة كانت قاهرة ظاهرة فأضاعت أمر الله ؛ فأصارها الله

---

(١) هامش (ف): «ملحان بكسر الميم وسكون اللام، وبالحاء المهملة، كانت تحت عبادة بن الصامت ولم يكن بينها وبين رسول الله ﷺ محرمية علىٰ الصواب وقيل كانت خالته، وقيل كانت خالته من الرضاعة».
قلت: هذه مسألة مشهورة عند أهل العلم فلا نطيل بذكرها.
(٢) صحيح البخاري (٢٧٨٨)، صحيح مسلم (١٩١٢).

إلىٰ ما ترون، ما أهون العباد علىٰ الله إذا ضيعوا أمره[1].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يسلط علىٰ أمتي عدوًا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[2].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «لا تزال طائفة (ظ٨٢) من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة»[3].

وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم، فانتشرت الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، وكان كما أخبر به، فإن هذه الأمة - ولله الحمد والمنة - لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف، لم يصبها ما أصاب من قبلها من بني إسرائيل وغيرهم، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء، بل إن غلبت طائفة في قطر من الأرض، كانت في القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة، ولم يسلط علىٰ مجموعها عدوا من غيرهم، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعدُ[4]: قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس،

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ١٨٦، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥١.

(٢) رواه مسلم في الصحيح (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان، وليس هو في صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري (٧٣١١)، صحيح مسلم (١٩٢١)، من حديث المغيرة بن شعبة، وهو عندهما كذلك من حديث معاوية، صحيح البخاري (٣٦٤١)، صحيح مسلم (١٠٣٧).

(٤) ليست في (ب، ل).

ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات[1] رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[2].

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة طويلة، وظهر النسوة بعد ذلك بسنين كثيرة، وعلىٰ رءوسهن عمائم كأسنمة الجمال البُخَاتي، يسمون العمامة: سنام الجمل.

وفي حديث مسلم، عن أسماء بنت أبي بكر، عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومُبير»[3].

وظهر الكذاب من ثقيف، وهو المختار بن أبي عُبيد الذي أظهر التشيع والانتصار للحسين، وقتل عُبيد الله بن زياد وغيره من قتلة الحسين، ثم أظهر أنه يوحىٰ إليه، وأنه ينزل عليه، حتىٰ قيل لابن عمر وابن عباس عنه، قيل لأحدهما: إنه يوحىٰ إليه، وللآخر: إنه ينزل عليه. فقال أحدهما: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال الآخر: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢][4].

وأما المبير فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان مبيرًا سفاكًا للدماء بغير حق، انتصارًا لمُلك عبد الملك بن مروان الذي استنابه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: لقد قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي فيجمعه إلىٰ صدره، فإنه لن ينسىٰ شيئا سمعه،

---

(١) قدم وأخر في (ب، ل).
(٢) صحيح مسلم (٢١٢٨).
(٣) صحيح مسلم (٢٥٤٥).
(٤) انظر ترجمة المختار في سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨.

فبسطت بردة علي حتىٰ فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلىٰ صدري فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئا سمعته منه»[١].

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزا إلىٰ اثني عشر خليفة، كلهم من قريش»[٢].

وفي لفظ: «إلىٰ اثني عشر أميرًا»[٣].

وفي رواية لأبي داود الطيالسي: «كلهم يجتمع عليهم الأمة»[٤].

وفي رواية، فقالوا: «ويكون[٥] ماذا؟ قال: ثم يكون الهرج»[٦].

قال أبو بكر البيهقي: «وفي الرواية الأولىٰ بيان العدد، وفي الثانية بيان المراد بالعدد، وقد بين وقوع الهرج[٧]، وهو القتل بعدهم»، قال[٨]: «وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلىٰ وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم وقع الهرج والفتنة العظمىٰ، وإنما يزيدون علىٰ العدد المذكور إذا تركت الصفة

(١) صحيح البخاري (٧٣٥٤)، صحيح مسلم (٢٤٩٢).
(٢) صحيح البخاري (٧٢٢٢)، صحيح مسلم(١٨٢١) واللفظ لمسلم.
(٣) وهو لفظ البخاري في صحيحه (٧٢٢٢).
(٤) رواه أبو داود السجستاني في السنن (٤٢٧٩)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٦/ ٥٢٠)، وفي إسناده أبو خالد البجلي، والد إسماعيل بن أبي خالد، لم يوثقه إلا ابن حبان، وصحح الترمذي حديثه، وقال الحافظ: مقبول (تهذيب الكمال ٣٣/ ٢٧٢، تقريب التهذيب: ٦٣٦)، وأما الذي في رواية أبي داود الطسالسي (٨٠٤): كلهم من قرييش.
(٥) في (ب، ل): يكون.
(٦) رواه البيهقي في الدلائل ٦/ ٥٢٠، وإسناده حسن.
(٧) في دلائل النبوة (٦/ ٥٢٠): وفي الرواية الثالثة بيان وقوع الهرج وهو القتل بعدهم..
(٨) ليست في (ل).



المذكورة فيه، أو عد معهم من كان بعد الهرج»[1].

وفي الصحيحين عن جابر قال: «قال لي رسول الله ﷺ: هل لك من أنماط؟ قلت: يا رسول الله، وأنىٰ يكون لي أنماط، فأنا أقول اليوم لامرأتي: نحي عنك أنماطك، فتقول: ألم يقل رسول الله ﷺ: إنها ستكون لكم أنماط»[2].

وفي الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت أنه وضع في يدي سواران من ذهب، ففظعتهما[3] فكرهتهما، فأذن لي فنفختهما فطارا[4]، وأولتهما كذابين يخرجان بعدي»[5].

---

(١) دلائل النبوة (٦/ ٥٢٠).

وليس في ذكر هذا العدد نفي الزيادة، فقد ذكر ذلك أمام ابن عباس فأنكره، قال سعيد بن جبير: سمعت عبد الله بن عباس- ونحن نقول: اثني عشر أميرا ثم لا أمير واثني عشر أميرا ثم هي الساعة- فقال ابن عباس ما أحمقكم، إن منا أهل البيت بعد ذلك المنصور والسفاح والمهدي يدفعها إلىٰ عيسىٰ ابن مريم (دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٥١٤).

قال البيهقي: «وليس في إثباته هذا العدد نفي الزيادة عليه وقد قيل أراد اثني عشر أميرا كلهم تجتمع عليهم الأمة ثم يكون الهرج.» (دلائل النبوة ٦/ ٥١٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٣١)، صحيح مسلم (٢٠٨٣).

والأنماط جمع نمط، وهو بساط له خمل رقيق، (النهاية ٥/ ١١٩، فتح الباري ٦/ ٦٣٠).

(٣) كذا في ظ، وفي (ب، ل): فقطعتهما. وهو تصحيف.

قال الحافظ ابن حجر: «قوله ففظعتهما وكرهتهما: بفاء وظاء مشالة مكسورة بعدها عين مهملة يقال فظع الأمر فهو فظيع إذا جاوز المقدار قال بن الأثير الفظيع الأمر الشديد وجاء هنا متعديا والمعروف فظعت به وفظعت منه فيحتمل التعدية علىٰ المعنىٰ أي خفتهما أو معنىٰ فظعتهما اشتد علي أمرهما» (فتح الباري ٨/ ٩٣).

(٤) في (د): فأذن لي في فنفختهما، وكتب في الهامش: لعله فأذن لي في نفخهما فنفختهما، من خط م.

(٥) صحيح البخاري (٣٦٢٠)، صحيح مسلم (٢٢٧٤).

قال عبدالله[1]: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة[2].

وفي الصحيحين من حديث (ظ٨٣) ابن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ قال وهو مستقبل المشرق: ها إن الفتنة ها هنا، إن الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان»[3].

وفي بعض طرق البخاري: قام خطيبًا فأشار بيده نحو مسكن عائشة فقال: وذكر الحديث[4].

فالمشرق عن مدينته فيه البحرين، ومنها خرج مسيلمة الكذاب الذي ادعىٰ النبوة، وهو أول حادث حدث بعده، واتبعه خلائق، وقاتله خليفته الصديق رضي الله عنه.

وروىٰ أبو حاتم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: إن بين يدي الساعة كذابين، منهم صاحب اليمامة، ومنهم صاحب صنعاء العنسي، ومنهم صاحب حمير، ومنهم الدجال، وهو أعظمهم فتنة»، وصاحب اليمامة هو مسيلمة. قال: وقال أصحابي: قال: هم قريب من ثلاثين كذابا[5].

---

(١) يعني ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٣٢٧٩)، صحيح مسلم (٢٩٠٥).

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٣١٠٤)، وفي بعض ألفاظ مسلم (٢٩٠٥): قام عند باب حفصة، وفي بعضها: خرج من بيت عائشة، ويجمع بين هذه الألفاظ: بأنه خرج من بيت عائشة فلما قام عند باب حفصة أشار إلىٰ جهة بيت عائشة حيث كان بيتها في الشرق، ثم قال ذلك.

(٥) صحيح ابن حبان (٦٦٥٠)، وإسناده جيد.

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج ثلاثون، دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتىٰ يفيض المال، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج.

قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل»[1].

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر قال: «ركب رسول الله ﷺ حمارًا، وأردفني خلفه، ثم قال: يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد حتىٰ لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلىٰ مسجدك[2] كيف تصنع؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: تعفف. قال: يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موت شديد حتىٰ يكون البيت بالعبد كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: اصبر. يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا حتىٰ تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك. فقال: أرأيت إن لم أُترك؟ قال: فأت من أنت منه، فكن فيهم. قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذًا تشاركهم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق[3] طرف ردائك علىٰ وجهك يبوء بإثمك وإثمه»[4].

وفيه عن ابن مسعود قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو في قبة من[5] أدم، فيها أربعون رجلاً، فقال: إنكم مفتوحون، ومنصورون، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتق الله، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب علي متعمدا

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧١٢١)، صحيح مسلم (١٥٧).
(٢) في (الأصل ظ): مسجد. وما ثبت من باقي الأصول يوافق ما في المصدر.
(٣) في (ل): فأطلق.. وهو تصحيف.
(٤) رواه أحمد (٢١٣٢٥)، وابن حبان في الصحيح (٦٦٨٩)، وإسناده صحيح.
(٥) ليست في (ب).

فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وأما الفتوح التي فتحت عليهم، والنصرة التي نصروا فقد أخبر به في أوائل مبعثه كما تقدم ذكره[2] ووقع ما أخبر به.

وروىٰ أبو حاتم في صحيحه، عن ابن عباس قال: «مرض أبو طالب فأتته قريش، وأتاه النبي ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلىٰ أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا، قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: يا عم، إنما أردتهم علىٰ كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، فقال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. فقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] ؟ قال: ونزلت: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]»[3].

---

(١) صحيح ابن حبان (٤٨٠٤)، ورواه الحاكم (٤/ ١٥٩)، وزاد فيه: «ومثل الذي يعين قومه علىٰ غير الحق كمثل البعير يتردىٰ فهو يمد بذنبه» قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
ورجاله ثقات إلا إنه من رواية عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، وقد سمع منه نحوا من أربعة أحاديث، لم يذكروا هذا منها، قال أحمد: كان له عند موت أبيه ست سنين (تعريف أهل التقديس ٤٠)، وقد أثبت له الإمام أحمد مطلق السماع (سؤالات ابن هانئ: ٢١٧٠)، وكذا علي بن المديني (تهذيب الكمال١٧/ ٢٤٠) والبخاري(التاريخ الكبير٥/ ٢٩٩)، في حين نفىٰ ذلك ابن معين، فقال: لم يسمع من أبيه شيئا (تهذيب الكمال ١٧/ ٢٤٠، تاريخ الإسلام ٢/ ٨٥٤).

(٢) «كما تقدم ذكره» ليس في (ب).

(٣) رواه أحمد (٢٠٠٨)، والطبري في التفسير (٢١/ ١٥١)، وابن حبان (٦٦٨٦)، وفي إسناده يحي بن عمارة، روىٰ عنه الأعمش وعطاء بن السائب، فارتفعت جهالته، (التاريخ الكبير ٨/ ٢٩٦، الجرح والتعديل ٩/ ١٧٥) ووثقه ابن حبان (الثقات ٧/ ٦٠٥).

وفي صحيح ابن حبان،[1] عن (إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم)[2]، قال: لما أقبلت عائشة مرَّت[3] ببعض مياه بني عامر طرقتهم ليلا فسمعت نباح الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب[4]، قالت: ما أظنني إلا راجعة. قالوا: مهلا -يرحمك الله- تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله بك. قالت: ما أظنني إلا راجعة[5]، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كيف بإحداكنَّ ينبح عليها كلاب الحوأب؟»[6].

وفيه أيضًا (ظ٨٤) عن ابن أبي طالب قال: «قال لي عبد الله بن سلام، وقد وضعت رجلي في الغرز، وأنا أريد العراق: لا تأت العراق[7] فإنك إن أتيتهم أصابك ذَنَب السيف، قال علي: وايم الله لقد قالها لي رسول الله ﷺ.

قال أبو الأسود: فقلت في نفسي: ما رأيت كاليوم رجلاً محاربًا يحدث الناس بمثل هذا»[8].

---

(١) هاهنا حاشية في ظ ساق فيها إسناد ابن حبان، صورتها: أنا عمران بن موسىٰ بن مجاشع، ثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا وكيع وعلي بن مسهر، عن إسماعيل بن أبي خالد.

(٢) في (ب، ل): عن إسماعيل بن أبي قيس، وهو تصحيف.

(٣) في (ل، ب): قربت.

(٤) هامش (ف): الحوأب ماء في الطريق ما بين البصرة ومكة من مياه بني كلاب والحوأب الوادي الواسع كثير الماء.

(٥) في (ب، ل): ما أظنني رافعة.

(٦) رواه أحمد (٢٤٢٥٤)، وابن حبان في الصحيح (٦٧٣٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٠)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤١٠).

قال الحافظ: سنده علىٰ شرط الصحيح (فتح الباري١٣/ ٥٥).

(٧) في (ب): أهل العراق.

(٨) رواه ابن حبان (٦٧٣٣)، والحاكم (٣/ ١٤٠)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين أهـ. =

وهذا وأمثاله مما أخبر به ﷺ من المستقبلات فوقع بعده كما أخبر، ورأىٰ الناس ذلك.

وأمَّا ما أخبر به مما لم يقع إلىٰ الآن فكثير.

وقد أخبر بأشياء من المغيبات، ووقعت في زمانه، ووجدت كما أخبر:

كما في الصحيحين عن سهل بن سعد، أنَّ رسول الله ﷺ «قال يوم خيبر: لأعطينَّ الراية[1] غدًا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه»[2] فكان كذلك.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: «شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنينا، فقال - لرجل ممن يدعي الإسلام -: هذا من أهل النار، فلما حضرنا القتال، قاتل الرجل قتالاً شديدًا فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفا: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات، فقال

= وإسناده حسن، من أجل أن فيه: عبدالملك بن أعين، وهو صدوق شيعي، روىٰ له البخاري ومسلم مقرونا بغيره.
وعندهما: ذباب السيف، وهو طرفه الذي ضرب به (النهاية ٢/ ١٥٢).
وفي هامش الأصل ظ حاشية: «وروىٰ أبو حاتم في صحيحه: عن قيس بن أبي حازم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: مثلت لي الحيرة كأنياب الكلاب، وإنكم ستفتحونها، فقام رجل فقال: هب لي يا رسول الله ابنة بقيلة، فقال: هي لك، فأعطوه إياها، فجاء أبوها فقال: أتبيعها، قال: نعم، قال: بكم، احتكم بما شئت، قال: بألف درهم، قال: قد أخذتها، قال: فقيل له: لو قلت ثلاثين ألفا، قال: وهل عدد أكثر من ألف».
وهذا الحديث رواه ابن حبان (٦٦٧٤)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٣٢٦)، وإسناده حسن، تفرد به محمد بن يحيىٰ بن أبي عمر العدني، وهو حافظ صدوق.

(١) في (ب، ل): هذه الراية.

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

النبي ﷺ: إلىٰ النار. فكاد بعض المسلمين أن يرتاب، فبينا هم علىٰ ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جرحًا شديدًا، فلما كان من الليل لم يصبر علىٰ الجراح فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالا فنادىٰ في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

ورواه سهل بن سعد[2].

وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ، وأبا مرثد الغنوي، والزبير بن العوام، والمقداد، وكلنا فارس، فقال: انطلقوا حتىٰ تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة معها كتاب من حاطب إلىٰ المشركين.

قال: فأدركناها تسير علىٰ بعير لها خبب فقلنا لها: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. قال: فأنخنا بها، فالتمسنا الكتاب في رحلها، فلم نر كتابًا، قال: قلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. قال: فلما رأت أني أهويت إلىٰ حجزتها، وهي محتجزة بكساء، فأخرجت الكتاب من عقاصها[3]، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب، ما هذا؟ قال: لا تعجل علي، إني كنت

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٦٢)، صحيح مسلم (١١١).

(٢) وهو متفق عليه كذلك، رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).
وهذه الجملة ليست في (ب).

(٣) هامش (ف): «العقاص جمع عقيصة وهي الشعر المعقوص، وأصل العقص الليُّ وإدخال أطراف الشعر في أصوله».

امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: إنه قد صدقكم.

فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع إلىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

فكان في هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبي ﷺ يريد غزوهم، فأعلمه الله بذلك(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: «نعىٰ رسول الله ﷺ للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج إلىٰ المصلىٰ وكبر أربع تكبيرات»(٣).

وفي رواية عن جابر، قال: «إن رسول الله ﷺ صلىٰ علىٰ أصحمة النجاشي»(٤).

وفي لفظ من رواية أبي هريرة، قال: «قد مات اليوم عبد الله صالح

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٠٧)، صحيح مسلم (٢٤٩٤).
(٢) في هامش الأصل (ب): «وجد في كتاب حاطب: بعث يخبرهم حاطب بأن محمد صلعم متوجه إليكم بجيش كالليل إذا سرىٰ، أو كالسيل إذا جرىٰ، فكونوا منه علىٰ حذر».
(٣) صحيح البخاري (١٢٤٨)، صحيح مسلم (٩٥١).
(٤) صحيح البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٩٥٢).

أصحمة، فقام فأمنا، وصلىٰ عليه»[1].

وفي رواية عمران (ظ٨٥) بن حصين قال: «إنَّ أخاكم قد مات فصلوا عليه»[2]. يعني النجاشي.

وروىٰ موسىٰ بن عقبة، عن ابن شهاب: قصة الصحيفة، ورواها عروة بن الزبير، ومحمد بن إسحاق بمعناه، قال: «ثم إن المشركين اشتدوا علىٰ رسول الله ﷺ كأشد ما كانوا، حتىٰ بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأىٰ أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا علىٰ ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الرسول وأجمعوا علىٰ ذلك اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتىٰ يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق، لا يقبلوا من بني هاشم أبدا صُلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتىٰ يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلم يتركوا طعامًا يقدم مكة[3] ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه؛ يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ[4].

---

(١) هذا لفظ صحيح مسلم (٩٥٢) لحديث جابر لا لحديث أبي هريرة.

(٢) صحيح مسلم (٩٥٣)، وفي لفظ آخر: إن أخا لكم.

(٣) ليست في (ب).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣١٢) وهو من مراسيل الزهري في السيرة النبوية.



زاد ابن إسحاق في روايته[1] قال: حتىٰ كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، وغدوا[2] علىٰ من أسلم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالا شديدا[3].

قال موسىٰ بن عقبة في تمام حديثه: وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع علىٰ فراشه حتىٰ يرىٰ ذلك من أراد مكرًا به واغتياله، فإذا نوم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، أو بني عمه فاضطجع علىٰ فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف، ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع[4] أمرهم من ليلتهم علىٰ نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، والبراءة منه، وبعث الله ﷻ علىٰ صحيفتهم التي فيها المكر برسول الله ﷺ الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق، ويقال: كانت معلقة في سقف البيت، فلم تترك اسما لله ﷻ فيها إلا لحسته، وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم، وأطلع الله رسوله علىٰ الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب فقال أبو طالب: لا

---

(١) في (ب): رواية.

(٢) كذا في الأصل (ظ)، وفي (ب): وبحدوا.وفي (ل): عدوا. وليست هذه الكلمة في سيرة ابن هشام، ولا في المصادر التي نقلت عنه مما وقفت عليه، كدلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣١٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢١٢).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق (٢/ ٣١٥).

(٤) في (ب): وأجمع.

والثواقب ما كذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتىٰ أتىٰ المسجد وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين بجماعتهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم أخرجوا من شدة البلاء، فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ.

فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم، فائتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها، لا يشكون أن الرسول مدفوع[1] إليهم.

فوضعوها بينهم[2]، وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلىٰ أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرا[3] لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم. فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم (ظ٨٦) أمرًا فيه نَصَف، فإن ابن أخي أخبرني -ولم يكذبني- أنَّ الله ﷻ بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كل اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه[4] أبدا حتىٰ نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا:

---

(١) في (ب، ل): مدفوعا.

(٢) ليست في ب.

(٣) كذا في الأصل يوافق ما في البداية والنهاية (٤/ ٢٠٩)، وهو الصواب، وفي (ب): حضر.

(٤) في (ب): يسلم.

والله إن كان هذا إلا سحرا[1] من صاحبكم، فارتكسوا وعادوا أشرَّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة علىٰ رسول الله ﷺ والمسلمين، وعلىٰ رهطه والقيام بما تعاهدوا عليه.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أولىٰ بالسحر والكذب غيرنا، فكيف ترون؟ فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلىٰ الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم علىٰ السحر لم تفسد صحيفتكم، وهي في أيديكم، طمس الله ما كان فيها من اسم، وما كان فيها من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟.

فقال عند ذلك النفر -من بني عبد مناف وبني قصي، ورجال من قريش ولدتهم نساء بني هاشم، منهم أبو البختري، والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة[2]، وزمعة بن الأسود، وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوههم-: نحن براء مما في هذه الصحيفة، فقال أبو جهل: هذا أمر قد[3] قضي بليل.

وأنشأ أبو طالب يقول في ذلك الشعر، في شأن صحيفتهم، ويمتدح النفر الذين تبرءوا منها، ونقضوا ما كان فيها من عهد، ويمتدح النجاشي[4].

---

(١) في (ل): إلا سحر.
(٢) كذا في (ب، ل)، وفي الأصل ظ: زهير بن أبي أمية والمغيرة. وهو تصحيف، وزهير هذا هو: زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب.(سيرة ابن إسحاق ١٦٥، سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٢).
وقد عد زهير من المؤلفة قلوبهم (البداية والنهاية ٦/ ٥٦٤، الإصابة ٢/ ٤٧٣).
(٣) ليست في (ب).
(٤) يعني أن النجاشي أحسن لمن هاجر إليه، قال ابن كثير: «عن موسىٰ بن عقبة أنه قال: =

قال موسىٰ بن عقبة: فلما أفسد الله صحيفة مكرهم، خرج النبي ﷺ فعاشوا وخالطوا الناس»[١].

وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن مسعود، قال: «انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، فنزل علىٰ أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية بن خلف إذا انطلق إلىٰ الشام فمر بالمدينة نزل علىٰ سعد بن معاذ[٢]، فقال سعدٌ لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت.

قال: انتظر حتىٰ إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت[٣]، قال: فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك[٤]؟ قال: هذا سعد، فقال[٥] أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا، وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي

= إنما كانت هجرة الحبشة بعد دخولهم إلىٰ الشعب عن أمر رسول الله ﷺ لهم في ذلك. فالله أعلم، قلت: والأشبه أن أبا طالب إنما قال قصيدته اللامية، التي قدمنا ذكرها، بعد دخولهم الشعب أيضا فذكرها هاهنا أنسب» (البداية والنهاية ٤/ ٢١١).

واللامية أولها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرىٰ والوسائل

أوردها ابن كثير (في البداية والنهاية ٤/ ١٣٥) ثم قال: «هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جدا ؛ لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنىٰ منها جميعا، وقد أوردها الأموي في «مغازيه» مطولة بزيادات أخر».

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤.

(٢) غير منسوب في (ب).

(٣) في (ب): فطفت بالبيت.

(٤) في (ب): الذي معك.

(٥) في (ب): فقال له.

صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالمًا، فقال له سعد -وقد[1] رفع صوته عليه-: لئن منعتني من هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك علىٰ المدينة.

قال: فقال له أمية: لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك. قال: بمكة؟ قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعا شديدًا، وقال: والله ما يكذب محمد، فلما رجع أمية إلىٰ أهله فقال: يا أم صفوان، ألم تري إلىٰ ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري، فقالت: والله ما يكذب محمد، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر[2] أبو جهل الناس، فقال: أدركوا عيركم. قال: فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متىٰ يراك الناس قد تخلفت -وأنت سيد أهل الوادي- تخلفوا معك، فلم يزل أبو جهل حتىٰ قال: إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير (ظ٨٦) بمكة.

قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي. قال: لا، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، قال: فلما خرج أمية جعل لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل كذلك حتىٰ قتله الله ببدر»[3].

وعن كعب بن مالك قال: «كان أبي بن خلف -أخو بني جمح- قد حلف

---

(١) ليست في (ب).

(٢) في (ب): استنصر.

(٣) صحيح البخاري (٣٦٣٢)(٣٩٥٠).



وهو بمكة ليقتلنَّ رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال رسول الله ﷺ: بل أنا أقتله إن شاء الله ﷻ، فأقبل أُبيٌّ مقنعًا في الحديد، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل علىٰ رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير -أخو بني عبد الدار- يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بحربته، فوقع أبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم فأتاه أصحابه، فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك! إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: أنا أقتل أبيا، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون[1]، فمات إلىٰ النار»[2].

---

(١) في (ب): جميعا.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٠٦)، في سياق قصة خروج النبي ﷺ إلىٰ أحد وكيف كانت الوقعة، عن موسىٰ بن عقبة، وفي بعض جمله نسبه موسىٰ إلىٰ كعب بن مالك، ولكن قصة قتل أبي بن خلف لم يضفها إلىٰ كعب، بل هي من مراسيل موسىٰ بن عقبة، وبعضها قال فيه عقبة: عن سعيد بن المسيب، والمصنف قد صدر عن الدلائل.
قال البيهقي بعد أن رواه عن عروة بن الزبير مرسلا (٣/ ٢٥٩): وقد رويناه فيما مضىٰ عن موسىٰ بن عقبة عن ابن شهاب عن سعيد ابن المسيب
ورواه أيضا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب.
وذكره الواقدي عن يونس بن محمد بن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه.
قال الواقدي وكان ابن عمر يقول: مات أبي ابن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هوي من الليل إذا نار تأجج لي، فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها يصيح: العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله، هذا أبي بن خلف.
وروىٰ القصة الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٨) فوصلها عن سعيد بن المسيب عن أبيه، وفي الإسناد محمد بن فليح، وقد خالفه موسىٰ بن عقبة وغيره، فجعلوه من مراسيل سعيد، والقصة صحيحة لورودها من هذه الطرق المختلفة.

ورواه موسىٰ بن عقبة، عن ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب، وذكره الواقدي بإسناده[1]، وهذا لفظه، وهو مما ذكره عروة بن الزبير في مغازيه وابن إسحاق وغيرهما[2].

وذكر موسىٰ بن عقبة في مغازيه «أنَّ عمير بن وهب الجمحي لما رجع فُلُّ المشركين إلىٰ مكة، وقد قتل الله من قتل منهم، أقبل عمير حتىٰ جلس إلىٰ صفوان بن أمية في الحجر، فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلىٰ بدر. قال: أجل، والله ما في العيش خير بعدهم، ولولا دين علي لا أجد له قضاء، وعيال لا أدع[3] لهم شيئا لرحلت إلىٰ محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، فإن لي عنده علة أعتل بها، أقول قدمت علىٰ ابني أفدي هذا الأسير، ففرح صفوان بقوله، وقال له: علي دينك، وعيالك أسوة عيالي في النفقة، فحمله صفوان وجهزه، وأمر بسيف عمير فصقل وسُمَّ.

فأقبل عمير حتىٰ قدم المدينة فنزل بباب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف فعمد[4] لرسول الله ﷺ، فنظر عمر بن الخطاب إليه، وهو في نفر من الأنصار يتحدثون، فقال عمر: عندكم الكلب، هذا[5] عدو الله الذي حرش بيننا يوم بدر، وحزرنا للقوم.

---

(١) في (ل) زيادة: قال ثنا. وفي (ل): بإسناده وعن عروة بن الزبير وهذا لفظه، وهو مما ذكره..

(٢) ورواها السدي كذلك، رواه ابن جرير في التفسير (٧/ ٢٥٤)، ومقسم مولىٰ ابن عباس كما في مصنف عبدالرزاق (٩٧٣١)، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٥٩.

(٣) في (ب): أجد.

(٤) في (ب): يعمد.

(٥) في (ب): هذا هو.

ثم قام عمر حتىٰ دخل علىٰ رسول الله ﷺ، وذكَر الحديث[1]، إلىٰ أن قال: قال له رسول الله ﷺ: ما أقدمك؟ قال: أسيري عندكم، ففادونا في أسرائنا فإنكم العشيرة والأهل، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئا؟ إنما نسيته في عنقي حين نزلت، فقال له رسول الله ﷺ: اصدقني ما أقدمك؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري. قال: فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟ قال: تحملت له بقتلي علىٰ أن يعول بنيك، ويقضي دينك، والله حائل بينك وبين ذلك. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأن لا إله إلا الله، كنا نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وهذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله به». وذكر بقية الحديث[2].

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: «بعث رسول الله ﷺ أقوامًا من بني سُليم إلىٰ بني عامر في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم فإن آمنوني حتىٰ أبلغهم عن رسول الله ﷺ، وإلاَّ كنتم (ق٨٨) مني قريبًا، فتقدم فآمنوه، فبينما هو يحدثهم عن النبي ﷺ إذ أومئوا إلىٰ رجل منهم فطعنه فأنفذه، قال: فزت ورب الكعبة، ثم مالوا علىٰ بقية أصحابه فقتلوهم إلاَّ رجلاً أعرج صعد الجبل وآخر معه، فأخبر جبريل النبي ﷺ أنهم قد لقوا ربهم فرَضِيَ عَنْهُم

---

(١) «وذكر الحديث» ليس في (ب، ل).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٥٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٤٧)، وعنه صدر المؤلف، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٥٦)، والبيهقي في الدلائل ٣/ ١٤٧ عن عروة بن الزبير.

وأرضاهم، فكنا نقرأ: أن بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحًا علىٰ رعل وذكوان وبني لحيان وعصية، الذين عصوا الله ورسوله.

وكان في هؤلاء عامر بن فهيرة قال عنه عامر بن الطفيل: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلىٰ السماء حتىٰ إني لأنظر إلىٰ السماء بينه وبين الأرض»[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي حميد الساعدي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة[2] تبوك، فأتينا وادي القرىٰ علىٰ حديقة لامرأة، فقال رسول الله ﷺ: أُخرصوها، فخرصناها، وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق، قال: أحصيها حتىٰ أرجع[3] إليك إن شاء الله تعالىٰ، فانطلقنا حتىٰ قدمنا تبوك، فقال النبي ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتىٰ ألقته بجبل طيئ»[4].

وروىٰ الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: «كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو وهو كعب بن عمرو أحد بني سلمة، فقال له رسول الله ﷺ: كيف أسرته يا أبا اليسر؟ فقال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل، هيئته كذا هيئته كذا.

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٠١)، صحيح مسلم (٦٧٧).
(٢) في (ب، ل): في غزوة.
(٣) في (ب، ل): نرجع.
(٤) صحيح البخاري (١٤٨١)، صحيح مسلم (١٣٩٢).

فقال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم، وقال للعباس: يا عباس، افد نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن جحدم أخو بني الحارث بن فهر. قال: فإني قد كنت مسلمًا قبل ذلك وإنما استكرهوني، قال: الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعي حقًّا فالله يجزيك بذلك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك.

وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ منه[1] عشرين أوقية ذهبًا، فقال: يا رسول الله، احسبها لي[2] من فداي، قال: لا، ذلك شيء أعطاناه الله منك، قال: فإنه ليس لي مال، قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجتَ عند أم الفضل وليس معك أحد غيركما، فقلتَ: إنْ أُصبت في سفري هذا فللفضل كذا، ولقثم كذا، ولعبد الله كذا.

قال: فوالذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيري وغيرها وإني أعلم أنك لرسول الله»[3].

---

(١) في اصل (ل): معه، وكتب فوقها: منه.

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) رواه أحمد (٣٣١٠) من طريق ابن إسحاق عمن سمع عكرمة عنه عن ابن عباس، وهذا إسناد ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق.
ورواه الطبراني في الكبير (١١٣٩٨)، عن ابن إسحاق عن ابن ابي نجيح عن عطاء عن ابن عباس، وكذا رواه الطبري في التفسير (٥/ ٢٢٦) لكن قال: مجاهد بدل عطار.
ورواه الحاكم (٣/ ٣٢٤) من حديث ابن إسحاق نا يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة.
وله شاهد من حديث عروة والزهري مرسلا (كما في دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ١٤٢).
ونحو هذه القصة ما روىٰ الحاكم (٣/ ٢٤٦) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٤٤) عن علي بن عيسىٰ النوفلي، عن أبيه، عن عمه: إسحاق بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: «لما أسر نوفل بن الحارث ببدر قال له رسول الله ﷺ =

(وفي صحيح البخاري عن نافع عن ابن عمر، قال: «أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فإن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»[1].

قال ابن عمر: كنت معهم ففتشته، يعني ابن رواحة، فوجدنا فيما أقبل من جسده بضعًا وسبعين بين طعنة برمح ورمية)[2].

وروىٰ البخاري عن أنس بن مالك قال: «نعىٰ رسول الله ﷺ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد سيف من سيوف الله، حتىٰ فتح الله عليهم»[3].

= افد نفسك يا نوفل. قال مالي شيء أفدي به نفسي يا رسول الله. قال: افد نفسك من مالك الذي بجدة -وعند البيهقي: بحرة- قال: أشهد أنك رسول الله ففدىٰ نفسه بها فكانت الفرع».

(١) ما بين القوسين من الأصل (ظ)، وفي (ب، ل):
«وفي صحيح البخاري لما أرسل النبي ﷺ الجيش في غزوة مؤتة وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال: فإن قتل فجعفر فإن قتل فعبدالله بن رواحة، فروىٰ البخاري عن أنس..».

(٢) صحيح البخاري (٤٢٦١).

(٣) صحيح البخاري (١٢٤٦).
هامش الأصل ظ: بلغ مقابلة.



فصل:

وآيات رسول الله[1] ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع:

الأول منها: ما هو في العالم العلوي.

كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بُعث، وكمعراجه إلىٰ السماء.

فقد ذكر الله انشقاق القمر (ظ٨٩)، وبيَّن أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

إحداهما: كونه من آيات النبوة، لما سأله المشركون آية، فأراهم انشقاق القمر.

والثانية[2]: أنه دلالة علىٰ جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل علىٰ ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السماوات، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الداعي[3] إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خاشعًا[4] أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ١-٧].

---

(١) في (ب، ل): وآياته..

(٢) في (ب، ل): والثاني.

(٣) كتبها بالياء، أثبتها وصلا أبو جعفر، وأبو عمرو، وورش، وأثبتها في الحالين يعقوب، والبزي (النشر ٢/ ٣٨٠).

(٤) كذا في الأصول، وهي قراءة البصريين وحمزة والكسائي وخلف، وكتب فوقها في (ظ): «خشعا». وهي قراءة الباقين (النشر ٢/ ٣٨٠).



فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب[1]؛ لأنه أقرب إلىٰ الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك؛ إذ هو الجسم المستنير[2] الذي يظهر فيه[3] الانشقاق لكل من يراه ظهورا لا يتمارىٰ فيه، وأنه - نفسه - إذا قبل الانشاق فقبول محله أولىٰ بذلك، وقد عاينه الناس وشاهدوه[4].

وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار مثل: صلاة الجمعة، والعيدين ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة، ودلائلها، والاعتبار بما فيها، فكل الناس تقر بذلك ولا تنكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند الناس عامة.

وفي صحيح مسلم «أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحىٰ والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]»[5].

ومعلوم بالضرورة -في مطرد العادة- أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلىٰ تكذيب ذلك، فضلاً عن أعدائه الكفار والمنافقين، ومعلوم أنه كان من أحرص الناس علىٰ تصديق الخلق له، واتباعهم إياه، فلو لم يكن انشق لما كان يخبر به ويقرؤه علىٰ جميع الناس، ويستدل به، ويجعله آية له.

---

(١) في (ب): وجعل الأمر بين انشقاق القمر والشمس وسائر الكواكب.. وهو تصحيف.
(٢) في (ب، ل): المستدير.
(٣) في (ب): منه.
(٤) انظر تفسير الطبري ٢٢/ ٥٦٥.
(٥) صحيح مسلم (٨٩١).



وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «إن أهل مكة سألوا نبي الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين»[1].

وعنه قال: «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين»[2].

زاد الترمذي فنزلت: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢]، يقول: ذاهب[3].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «انشق القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا»[4].

وعن ابن مسعود أيضًا قال: «رأيت القمر منشقًا شقتين بمكة قبل مخرج النبي ﷺ، شقة علىٰ جبل[5] أبي قبيس، وشقة علىٰ السويداء، فقال كفار قريش - أهل مكة -: هذا سحر سحركم به[6] ابن أبي كبشة، انظروا السُّفَّار فإن كانوا

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٣٧)، صحيح مسلم (٢٨٠٢).

وقوله مرتين: يريد قطعتين، أو شقين، كما في الحديث الآتي عن ابن مسعود، لا أنه أراد تكرر الانشقاق مرتين في وقتين، ومما يدل علىٰ ذلك رواية من روىٰ هذا الحديث عن قتادة عن أنس بلفظ: فرقتين، قال الحافظ: «وقد خفي علىٰ بعض الناس فادعىٰ أن انشقاق القمر وقع مرتين، وهذا مما يعلم أهل الحديث والسير أنه غلط، فإنه لم يقع إلا مرة واحدة، وقد قال العماد ابن كثير: في الرواية التي فيها مرتين نظر، ولعل قائلها أراد فرقتين، قلت: وهذا الذي لايتجه غيره جمعا بين الروايات» (فتح الباري ٧/ ١٨٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٣٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٨٦)، بإسناد علىٰ شرط الشيخين.

(٤) صحيح البخاري (٣٨٦٩)، صحيح مسلم (٢٨٠٠).

(٥) ليست في ب.

(٦) في الأصل (ظ): محمد ابن أبي كبشة وفوق محمد علامة التمريض.

رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن لم يكونوا رأوا ما رأيتم فهو سحر.

قال: فسئل السُّفَّار، وقدموا من كل وجه، فقالوا: رأينا» رواه البخاري ومسلم[1].

وروىٰ البخاري عن ابن عباس أنه قال: «انشق القمر علىٰ زمان رسول الله ﷺ»[2].

وروىٰ مسلم «عن ابن عمر في قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١] قال: قد كان ذلك علىٰ عهد رسول الله ﷺ انشق القمر فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد»[3].

وعن جُبير بن مطعم قال: «انشق القمر ونحن بمكة حتىٰ صار فرقتين علىٰ هذا الجبل، وعلىٰ هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم» (ظ ٩٠) رواه الترمذي[4].

وكذلك صعوده ليلة المعراج إلىٰ ما فوق السماوات، وهذا مما تواترت به الأحاديث، وأخبر به القرآن، أخبر بمسراه ليلا من المسجد الحرام إلىٰ المسجد

---

(١) يريد المصنف أن الشيخين رويا أصله، بلفظ: انشق القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ فلقتين، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، الحديث، واللفظ الذي ذكره المصنف نحوه في الدلائل للبيهقي ٢/ ٢٦٧.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٧٠). ورواه مسلم كذلك (٢٨٠٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٠١)، ولم يسق مسلم لفظه، بل أحال علىٰ حديث ابن مسعود، واللفظ الذي ساقه المصنف هو للبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٧) وعنه صدر المؤلف.

(٤) سنن الترمذي (٣٢٨٩)، وإسناده جيد، وفيه اختلاف لا يضر أشار إليه الترمذي (انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٨).

الأقصىٰ، وهو البيت المقدس، وفي موضع آخر بصعوده إلىٰ السماوات، فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فأخبر هنا بمسراه ليلاً بين المسجدين، وأخبر أنه فعل ذلك ليريه من آياته، ومعلوم أن الأرض قد رأىٰ سائر الناس ما فيها من الآيات، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس، كما قال في السورة الأخرىٰ: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٢-١٨].

وفي الصحيحين «عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به»[١].

فكان في إخباره بالمسرىٰ - ليريه من آياتنا[٢] - بيان أنه رأىٰ من آياته ما لم يره الناس، وقد بين ذلك في السورة الأخرىٰ فإنه رأىٰ جبريل عند سدرة المنتهىٰ، عندها جنة المأوىٰ، إذ يغشىٰ السدرة ما يغشىٰ، وأنه رأىٰ بالبصر آيات ربه الكبرىٰ.

وذكر في تلك السورة المسرىٰ؛ لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانا؛ فإنه لما أخبرهم به فكذبه من كذبه، وتعجبوا من ذلك، سألوه عن نعته وصفته، فنعته

---

(١) صحيح البخاري (٣٨٨٨).
(٢) في (ب): آياته.

لهم لم يخرم من النعت شيئا[1]، وأخبر خبر عيرهم التي كانت في الطريق[2]، فظهر لهم صدقه، وكان صدقهم في هذا آية علىٰ صدقه فيما غاب عنهم، وكان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير لأجل ما أراه من الآيات التي تختص برؤيتها الأنبياء.

وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولي أو بتسخير الجن، كما في قصة بلقيس حيث: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٩-٤٠] فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك، كما كانت الريح: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦-٣٨] وهذا تسخير ملكي.

---

(١) سيذكر المصنف الروايات الدالة علىٰ ذلك.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٥٥)، من حديث شداد بن أوس بلفظ: قال: قلنا يا رسول الله كيف أسري بك، فذكر الحديث إلىٰ أن قال ﷺ: «ثم انصرف بي فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان، فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة فأتاني أبو بكر رضي الله عنه، فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مكانك، فقال: علمت أني أتيت بيت المقدس الليلة، فقال: يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر فيه، لا يسلني عن شيء إلا أنبأته عنه، قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، فقال المشركون: انظروا إلىٰ ابن أبي كبشة يزعم أنه أتىٰ بيت المقدس الليلة، قال: فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتىٰ كان قريب من نصف النهار حتىٰ أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ».
قال البيهقي: هذا إسناد صحيح وروي ذلك مفرقا في أحاديث غيره.

وقطع محمد ﷺ كان لما أراه الله من الآيات التي ميزه بها علىٰ سائر النبيين[1]، وكان ذلك فتنة: أي محنة وابتلاء للناس، ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه.

وأحاديث المعراج وصعوده إلىٰ ما فوق السماوات، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما رآه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة والأنبياء في السماوات، والبيت المعمور، وسدرة المنتهىٰ، وغير ذلك، معروف متواتر في الأحاديث.

وهذا النوع -لم يكن لغيره من الأنبياء مثله- يظهر به تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالدرجات التي رفعها محمد ليلة المعراج - وسيرفعها في الآخرة كالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون - ليس لغيره مثلها.

ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة[2] وأبي ذر[3]، ومن رواية ابن عباس، وأبي حبة (ظ٩١) الأنصاري[4]، وغيرهم.

---

(١) في (ب): الأنبياء.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤) من حديث قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١٦٣) من حديث الزهري عن أنس عن أبي ذر.
هامش الأصل ظ: حاشية من رواية..

(٤) حديث ابن عباس وأبي حبة عقب به الزهري روايته لحديث أنس، فقال بعده: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة..الحديث.
في (ب): وابا جنة. وهو تصحيف.

فروىٰ أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهىٰ بصره، قال: فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلىٰ السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وبعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسىٰ[1]، ويحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، فرحبا بي، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن قال: فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس ﷺ فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

---

(١) في (ب): عيسىٰ بن مريم.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء الخامسة فاستفتح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقيل من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرحب[1] ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء السادسة، فاستفتح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلىٰ السماء السابعة، فاستفتح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي[2] تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلىٰ موسىٰ، فقال: ما فرض ربك علىٰ أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلىٰ ربك فسله التخفيف؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلىٰ ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلىٰ موسىٰ، فقلت: حُطَّ عني خمسٌ، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حتىٰ قال: يا محمد، إنهن خمس

---

(١) في (ب): «فرحب بي».

(٢) في (ب): «غشيها».

صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها (ظ٩٢) لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتىٰ انتهيت إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخبرته، فقال: ارجع إلىٰ ربك فسله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلىٰ ربي حتىٰ استحييت منه»[١].

وفي رواية قال: «فأُتيت فانطُلق بي إلىٰ زمزم فشرح عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أنزلت طست من ذهب مملية[٢] حُكمًا[٣] وإيمانا، فحشي بها صدري»[٤].

وفي رواية: «فشق من النحر إلىٰ مراق البطن»[٥].

وقال عن البيت المعمور: «فقلت: ما هذا؟ قال: هذا بناء بناه الله[٦] يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يقدسون الله ويسبحونه، لا يعودون فيه[٧]»[٨].

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (١٦٢)، ولم يخرج البخاري حديث أنس.

(٢) كذا في الأصول، وكتب فوقها في ظ: كذا.

(٣) في (ب): حكمة.

(٤) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس عن أبي ذر.

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس عن مالك بن صعصعة.

(٦) في (ب،ل): «بناه الله للملائكة».

(٧) في (ل): إليه.

(٨) ليس هذا اللفظ في الصحيحين ولا في الكتب الستة، وقد نقله صاحب الجمع بين الصحيحين (٢/ ٤٠٦) من مستخرج أبي بكر البرقاني، إتماما لحديث صحيح مسلم.
وقد رواه الطبري في التفسير (٢٢/ ٤٥٧) بإسناد علىٰ شرط مسلم.

وفي حديث أبي ذر: «فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلىٰ السماء الدنيا، فلما جئنا[1] السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد[2].

فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، قال: فإذا نظر قِبل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكىٰ، قال: مرحبًا بالابن الصالح، والنبي الصالح، قال: قلت: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار»[3].

قال الزهري: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتىٰ ظهرت بمستوىٰ أسمع فيه[4] صريف الأقلام»[5].

---

(١) في (ب): جئنا إلىٰ.
(٢) اختصر المصنف هنا سؤال: «هل أرسل له» اكتفاء بالرواية المطولة التي ساقها أولا.
(٣) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٣).
(٤) في (ب): منه.
(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٣).
قال ابن رجب: «صريف الأقلام: صوت ما تكتبة الملائكة بأقلامها من أقضية الله تعالىٰ ووحيه، أو ما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله من ذلك، ويقال: أن صريف القلم: هو تصويته في رجوعه إلىٰ ورائه، مثل كتابته لحرف (ک)، وصريره: هو تصويته في مجيئه إلىٰ بين يديه، مثل كتابته لحرف (ن) وما أشبه ذلك». (فتح الباري لابن رجب ١/ ٤٦٢).

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السادسة(١)، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها.

قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله شيئا من أمته المقحمات»(٢).

---

(١) كذا في الأصل ظ، وفي (ب، ل، ط النيل): السابعة.
والذي في (ظ) يوافق ما في مسند أحمد في موضعين (٣٦٦٥) (٤٠١١)، وصحيح مسلم. وهو الصحيح في هذا الموضع.
وقد ذكر الحديث كما في الصحيح النووي وابن رجب وابن حجر (انظر: فتح الباري لابن رجب٢/ ٣٢١، فتح الباري لابن حجر ٧/ ٢١٣)، لكن ورد في حديث أنس ما يفيد أن سدرة المنتهىٰ في السابعة، كما في بقية النسخ.
قال الحافظ ابن حجر: «وقال القرطبي في المفهم: ظاهر حديث أنس أنها في السابعة لقوله بعد ذكر السماء السابعة: ثم ذهب بي إلىٰ السدرة، وفي حديث ابن مسعود أنها في السادسة، وهذا تعارض لا شك فيه، وحديث أنس هو قول الأكثر، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل، وكل ملك مقرب، علىٰ ما قال كعب. قال: وما خلفها غيب لايعلمه إلا الله، أو من أعلمه.
وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد، وقال غيره: إليها منتهىٰ أرواح الشهداء، قال: ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع وحديث بن مسعود موقوف، كذا قال، ولم يعرج علىٰ الجمع، بل جزم بالتعارض، قلت: ولا يعارض قوله إنها في السادسة مادلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة، لأنه يحمل علىٰ أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها» (فتح الباري ٧/ ٢١٣).
(٢) صحيح مسلم (١٧٣).

وعنه «في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]. قال: إن النبي ﷺ رأىٰ جبريل في صورته له ستمائة جناح[١].

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلىٰ الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه»[٢].

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به»[٣].

قلت[٤]: وصعود الآدمي ببدنه إلىٰ السماء قد ثبت في أمر المسيح عيسىٰ بن مريم، فإنه صعد إلىٰ السماء، وسوف ينزل إلىٰ الأرض، وهذا مما يوافق النصارىٰ عليه المسلمين[٥]، فإنهم يقولون: إن المسيح صعد إلىٰ السماء ببدنه وروحه كما يقوله المسلمون، ويقولون: إنه سوف ينزل إلىٰ الأرض أيضا كما يقوله المسلمون، وكما أخبر به النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة، لكن كثيرٌ من النصارىٰ يقولون: إنه صعد بعد أن صلب، وأنه قام من القبر، وكثير من اليهود يقولون: إنه صلب ولم يصعد[٦]، ولم يقم من قبره.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٣)، ومسلم (١٧٤).
(٢) صحيح البخاري (٣٨٨٦)، صحيح مسلم (١٧٠).
(٣) صحيح مسلم (١٧٢).
(٤) ليست في (ب،ل).
(٥) في (ب، ل): للمسلمين.
(٦) «ولم يصعد» ليست في (ب).

وأما المسلمون وكثير من النصارىٰ فيقولون: إنه لم يصلب ولكن صعد (ظ٩٣) إلىٰ السماء بلا صلب.

والمسلمون -ومن وافقهم من النصارىٰ- يقولون: إنه ينزل إلىٰ الأرض قبل القيامة، وأن نزوله من أشراط الساعة كما دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة.

وكثير من النصارىٰ يقولون: إن نزوله هو يوم القيامة، وإنه هو الله الذي يحاسب الخلق.

وكذلك إدريس صعد إلىٰ السماء ببدنه، وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلىٰ السماء ببدنه[1].

ومن أنكر صعود بدن إلىٰ السماء من المتفلسفة فعمدته شيئان:

أحدهما: أنَّ الجسم الثقيل لا يصعد.

وهذا في غاية الضعف، فإن صعود الأجسام الثقيلة إلىٰ الهواء مما تواترت به الأخبار في أمور متعددة، مثل عرش بلقيس الذي حُمل من اليمن إلىٰ الشام في لحظة، لما قال سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤١].

---

(١) ليست في (ب). وكتبها لحقا في (ل).



ومثل حمل الريح لسليمان عليه السلام وعسكره لما كان يحمل البساط في الهواء، وهو جالس عليه وأصحابه.

ومثل حمل قرىٰ قوم لوط، ثم إلقائها في الهواء.

ومثل المسرىٰ إلىٰ بيت المقدس الذي ظهر صدق مُخْبره.

ورجال كثير في زماننا وغير زماننا يحملون من مكان إلىٰ مكان في الهواء، وهذا مما تواتر عندنا وعند من يعرف ذلك.

وأيضًا: فمعلوم أن النار والهواء الخفيف يحرك[1] حركة قسرية[2] فيهبط، وكذلك التراب[3] والماء الثقيلان يحركان حركة قسرية فتصعد، وهذا مما جرت به العادة.

(والشبهة الثانية[4]: ظن بعض المتفلسفة -كأرسطو وشيعته- أنَّ الأفلاك لا تقبل الانشقاق، وحجتهم علىٰ ذلك في غاية الضعف.

فإنهم قالوا: لو كانت تقبل الانشقاق لكان المحدد للأفلاك المحرك لها يتحرك حركة مستقيمة، والحركة المستقيمة تحتاج إلىٰ خلاء خارج العالم، ولا خلاء هنالك[5].

---

(١) في (ب): يتحرك. وفي (د): تحركه..

(٢) في (ل) في الموضعين: قوية.

(٣) في (ب، ل): والتراب.

(٤) في ب: والشبهة في ذلك.

(٥) في (ب، ل، د): هناك.

وهذه الحجة فاسدة من وجوه:

منها: أنها إنما تدل علىٰ ذلك في الفلك الأعلىٰ لا فيما دونه، كفلك القمر، وهذا مما[1] أجابهم به الرازي وغيره.

ومنها: أن وجود أجسام[2] خارج الفلك كوجود الفلك في حيزه، فقول القائل: إن ذلك يحتاج إلىٰ خلاء كقوله: (إن وجود الفلك في حيزه يحتاج إلىٰ خلاء، وقوله)[3] بنفي الخلاء خارجه كقوله بنفي الخلاء عن حيزه، فإن كان الخلاء عدمًا محضًا فهو منتفٍ في الجانبين، وإن قيل إنه أمر وجودي لزم أن يحتاج إليه في الموضعين، وحينئذ فيبطل القول بنفيه[4])[5].

وبهذا يظهر جوابهم عن إنكارهم انشقاق القمر، فإن عمدتهم فيه أن الفلك لا يقبل الانشقاق، وقد عرف فساد ذلك عقلاً وسمعًا، وتواتر عن الأنبياء أنهم أخبروا بانشقاق السماوات.

وإيضاح الرد علىٰ هؤلاء: أن ما يثبتونه من أنَّ الحركة لا بد لها من جهة ومحدد يحدد الجهات؛ إنما يدل علىٰ الافتقار إلىٰ جنس المحدد، لا يدل علىٰ الاحتياج إلىٰ محدد معين[6].

---

(١) في (ل): إنما.

(٢) في (د): الأجسام.

(٣) سقط ما بين القوسين في ب، وجاءت العبارة في (ل): ومنها أن وجود أجسام خارج الفلك كوجود الفلك في حيزه يحتاج إلىٰ خلاء وقوله بنفي الخلاء.. وما ثبت من الأصل ظ هو المستقيم.

(٤) في (ل): بنفسه.

(٥) ما بين القوسين وهو الشبهة الثانية والجواب عنها هنا موضعه في الأصول كلها، وكذا في ط النيل. ولم يذكره في المطبوعة هنا، وتأخر عنده كما سأنبه.

(٦) من هنا إلىٰ آخر هذا النوع سقط من الأصل (ل)، وكتب: يتلوه في وريقة.. وقد سقطت الوريقة فلم أرها في التصوير، والله المستعان.

فإذا قدر أنه خلق وراء المحدد محددًا آخر، وخرق الأول حصل به المقصود، وهكذا عامة أدلتهم، إنما تدل علىٰ شيء مطلق، لكن يعينونه بلا حجة فيغلطون في التعيين، كدليلهم علىٰ دوام الفاعلية[1] أو الحركة، أو زمانها[2]، فإن ذلك لا يدل علىٰ الحركة الفلكية، وأن الزمان هو مقدار الحركة، بل إذا كان الله قد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما أخبرت به الرسل، لم تكن تلك الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض هي مقدار حركة الشمس التي هي مما خلق في تلك الأيام.

بل وقد أخبر الله تعالىٰ أنه كان عرشه علىٰ الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، وأخبر أنه خلق السماوات من دخان، وهو بخار الماء؛ فإذا كان قبل هذه الحركات المشهودة حركات أخر لأجسام غير هذه الأجسام المشهودة، لم يكن هذا مناقضًا لما دل عليه العقل[3].

وكذلك ما يذكرونه في قدم العالم، فليس مع القوم دليل واحد عقلي صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل، ولكن قد يناقض ما يظنه بعض أهل الكلام من دين الرسل كما قد بسط في غير هذا الموضع.

---

(١) الفاعلية: امتناع أنه يصير فاعلا بعد أن لم يكن فيجب أنه ما زال فاعلا (مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) في ب: زمنها.

(٣) هنا في المطبوعة أعاد ما سبق من قول المصنف: ورجال كثيرون..الخ ما ذكر من الشبهة الثانية وجوابها كما سبق ونبهت. وقد أفسد بذلك نظم الكلام واستقامته، مع مخالفته الأصول القديمة.

النوع الثاني[1]: آيات الجو.

كاستسقائه ﷺ، واستصحائه، وطاعة السحاب في[2] حصوله وذهابه بدعائه ﷺ، ونزول المطر بدعائه[3].

ففي الصحيحين «عن أنس بن مالك أن رجلا دخل المسجد في يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه[4]، ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا.

قال أنس: ولا والله ما نرىٰ[5] في السماء من سحاب، ولا من قزعة، وأن السماء لمثل الزجاجة، وما بيننا وبين سلع من دار، فوالذي نفسي بيده ما وضع يديه حتىٰ ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتىٰ رأيت المطر يتحادر عن لحيته»[6].

وفي رواية أخرىٰ: «فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت[7].

قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في

---

(١) في (ل): الثالث. وهو سبق قلم.

(٢) في(ب): من.

(٣) في (ل): وطاعة السحاب له ونزول المطر بدعائه.

(٤) ليست في (ب).

(٥) في (ب): يرىٰ.

(٦) صحيح البخاري (١٠١٣)، صحيح مسلم (٨٩٧).

(٧) يظهر أنه حك الألف في (ب٩، وكتب في الهامش:«كل مطر يكون بألف هو نوع من العذاب، وبضده يكون للرحمة».

الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائمًا يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والضراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر، قال: فما يشير بيده[1] إلى ناحية إلا انفرجت[2] حتى رأيت المدينة في مثل الجوبة، وسال الوادي قناة[3] شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا أخبر بجود»[4].

ومن هذا الباب:

نصر الله تعالى له بالريح التي قال الله فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

قال مجاهد: يعني ريح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم[5] (حتى أظعنتهم)[6]، وجنودا لم تروها: يعني الملائكة[7].

---

(١) في (ب، ل): يديه.

(٢) في (ب،ل): تفرجت.

(٣) قناة اسم الوادي، وأضاف الوادي إلى نفسه.

(٤) صحيح البخاري (٩٣٣)، صحيح مسلم (٨٩٧).

والجوبة: أي الفجوة، والمعنى: تقطع السحاب عن المدينة وصار مستديرا حولها، وهي خالية منه.

ووادي قناة: وادي في المدينة (شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ١٩٤).

(٥) في هامش (ب): جمع فسطاط، وهو عمود الخيمة.

(٦) ما بين القوسين سقط من (ل)، وهو ثابت في الأصول وفي تفسير ابن جرير.

(٧) رواه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٠/ ٢١٦.

وفي صحيح مسلم، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[١].

وفي المغازي والسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليهم الريح والملائكة، وانهزموا بغير قتال معروف[٢].

النوع الثالث: تصرفه في الحيوان الإنس والجن والبهائم.

فرُوي عن عبد الله بن جعفر قال: «أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح رأسه[٣] وذفراه[٤] فسكن، ثم قال: لمن هذا الجمل؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال له

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، قال ابن حجر: «قوله بالصبا بفتح المهملة بعدها موحدة مقصورة يقال لها القبول بفتح القاف لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس وضدها الدبور وهي التي أهلكت بها قوم عاد ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول وكون الدبور أهلكت أهل الإدبار وأن الدبور أشد من الصبا» (فتح الباري ٢/ ٥٢١).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٤، ولشيخ الإسلام تفسير لسورة الأحزاب وتنزيل لمعانيها على ما مر بالقطر الشامي من اجتماع الأعداء وتحزبهم، وذلك في (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٤٠).

(٣) كتب فوقها في الأصل ظ: خ: سراته.

وسراة البعير ظهره وأعلاه، وهذا الذي ذكره هو رواية في الحديث، ذكرها ابن الأثير في النهاية ٢/ ٣٦٤.

(٤) حاشية في هامش (ظ، د):

[الذفران أصول الأذنين، وإنما سميتا بذلك لذفر العرق، والذفر شدة الرائحة من الشيء الطيب أو الشيء الخبيث الريح، فأما الدفر –بالدال المهملة وتسكين الفاء– فإنه البين، ومنه قيل للدنيا: أم دفر]. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٦٠-١٦١، ١٢٤.

النبي ﷺ: ألا (ظ٩٥) تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها؟ فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه».

روىٰ مسلم بعضه وبقيته علىٰ شرطه، رواه أبو داود وغيره[(١)].

وروىٰ أحمد والدارمي وغيرهما، عن جابر قال: «أقبلنا مع رسول الله ﷺ في سفر، حتىٰ إذا دُفعنا إلىٰ حائط من حيطان بني النجار إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحد إلا شدَّ عَليه[(٢)]، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فجاء حتىٰ أتىٰ الحائط فدعا البعير، فجاء واضعًا مشْفَرَه إلىٰ الأرض، حتىٰ برك بين يديه، قال: فقال النبي ﷺ: هاتوا خطامًا، فخطمه ودفعه إلىٰ صاحبه.

قال: ثم التفت إلىٰ الناس فقال: إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس[(٣)]»[(٤)].

وروىٰ الطبراني، عن جابر قال: «خرجنا في غزوة ذات الرقاع[(٥)] حتىٰ إذا

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٥)، وأبو داود (٢٥٤٩)، واقتصر مسلم (٣٤٢) منه علىٰ هدف أو حائش نخل.

(٢) أي: حمل عليه، كأنه وحشي (انظر: النهاية ٢/ ٤٥١).

(٣) في (ب): عاصي الإنس والجن.

(٤) رواه أحمد (١٤٣٣٣)، والدارمي (١٨)، وإسناده جيد.

(٥) غزوة ذات الرقاع بعد خيبر كما قال البخاري في الصحيح (باب: غزوة ذات الرقاع ٥/ ١١٣)، ثم روىٰ عن أبي موسىٰ الأشعري (٤١٢٨) عن أبي موسىٰ ﵁، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزوة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف علىٰ أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق علىٰ أرجلنا».

وأما أصحاب المغازي فقد جزموا أنها قبل خيبر، لكنهم مختلفون بتاريخها، قال الحافظ: «فعند ابن إسحاق أنها بعد بني النضير وقبل الخندق سنة أربع...، وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت في المحرم سنة خمس، وأما أبو معشر فجزم بأنها كانت بعد بني قريظة =

كنا بحرة واقم[1]، عرضت امرأة بدوية بابن لها فجاءت[2] إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، فقال: أدنيه مني، فأدنته منه، فقال: افتحي فمه، ففتحته، فبصق فيه رسول الله ﷺ ثم قال: اخسأ عدو الله، وأنا رسول الله، قالها[3] ثلاث مرات، ثم قال: شأنك بابنك، ليس عليه بأس فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه.

(ثم خرجنا فنزلنا منزلا، صحراء ديمومة ليس فيها شجرة، فقال النبي ﷺ لجابر: «يا جابر، انطلق فانظر لي مكانا - يعني للوضوء - فخرجت أنطلق، فلم أجد إلا شجرتين مفترقتين، لو أنهما اجتمعتا سترتاه، فرجعت إلىٰ النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما رأيت شيئا يسترك إلا شجرتين متفرقتين ولو أنهما اجتمعتا سترتاك، فقال النبي ﷺ: «انطلق إليهما، فقل لهما: إن رسول الله ﷺ يقول: اجتمعا» قال: فخرجت، فقلت لهما، فاجتمعا حتىٰ كأنهما في أصل واحد، ثم رجعت فأخبرت النبي ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ حتىٰ قضىٰ حاجته، ثم رجع، فقال: «ائتهما، فقل لهما: إن رسول الله ﷺ يقول لكما: ارجعا كما كنتما، كل واحدة إلىٰ مكانها»، فرجعت، فقلت لهما: إن رسول الله ﷺ يقول لكما: «ارجعا كما كنتما»، فرجعتا)[4].

= والخندق وهو موافق لصنيع المصنف -أي البخاري- وقد تقدم أن غزوة قريظة كانت في ذي القعدة سنة خمس، فتكون ذات الرقاع في آخر السنة وأول التي تليها وأما موسىٰ بن عقبة فجزم بتقديم وقوع غزوة ذات الرقاع لكن تردد في وقتها» (فتح الباري ٧/ ٤١٧).

(١) وهي الحرة الشرقية من حرتي المدينة النبوية، قال ابن الأثير: «هي بكسر القاف: أطم من آطام المدينة. وإليه تنسب الحرة» (النهاية ٥/ ٢١٦).

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) ما بين القوسين قصة الشجرتين، اختصرها في (ب، ل) وكتب: وذكر قصة الشجرتين إلىٰ أن قال: فنزلنا في واد.. الخ.

ثم خرجنا فنزلنا في واد من أودية بني محارب، فعرض له رجل من بني محارب يقال له: غورث[1] بن الحارث، والنبي ﷺ متقلد سيفه، فقال: يا محمد، أعطني سيفك هذا، فسله فناوله إياه، فهزه[2] ونظر إليه ساعة، ثم أقبل علىٰ النبي ﷺ، فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟[3] فارتعدت يده حتىٰ سقط السيف من يده، فتناوله رسول الله ﷺ ثم قال: يا غورث، من يمنعك مني؟ قال: لا أحد[4].

قال: ثم أقبلنا راجعين، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ بعشِّ طير يحمله، وفيه فراخ، وأبواه يتبعانه، ويقعان علىٰ يد الرجل، فأقبل النبي ﷺ علىٰ من كان معه، فقال: أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما؟.

-زاد في رواية: فربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفراخه-.

ثم أقبلنا راجعين، حتىٰ إذا كنا بحرة واقم عرضت لنا المرأة التي جاءت بابنها بوَطْب[5] من لبن وشاة، وأهدته له، فقال: ما فعل ابنك؟ هل أصابه شيء مما كان يصيبه؟ قالت: لا، والذي بعثك بالحق ما أصابه شيء مما كان يصيبه، وقَبِل هديتها.

---

(١) في (ب): «غوريت». في الموضعين، وهو تصحيف كما لا يخفىٰ.

(٢) «إياه، فهزه» ليس في (ب، ل).

(٣) في الطبراني: قال: الله يمنعني منك، فارتعدت يده، وفي الأصل ظ كتب: قال، ثم ضرب عليها.

(٤) في الطبراني: قال: لا أحد، بأبي أنت، فقال النبي ﷺ: «اللهم اكفنا غورثا وقومه» ثم أقبلنا راجعين.

(٥) الوطب: الزق الذي يكون فيه السمن واللبن وهو جلد الجذع فما فوقه، وجمعه. أوطاب ووطاب (النهاية ٥/ ٢٠٣).

ثم أقبلنا[١] حتىٰ إذا كنا بمهبط من الحرة، أقبل جمل يرقل[٢]، فقال: أتدرون ما قال هذا الجمل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جمل جاءني يستعدي علىٰ سيده(ظ٩٦)، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين، حتىٰ إذا أجربه، وأعجفه، وكبر سنه أراد نحره، اذهب معه يا جابر إلىٰ صاحبه فائت به.

فقلت: يا رسول الله[٣] ما أعرف صاحبه، قال: إنه سيدلك عليه، قال: فخرج بين يدي مُعْنِقًا[٤] حتىٰ وقف بي في مجلسٍ من بني خطمة، فقلت: أين رب هذا الجمل؟ قالوا: فلان بن فلان[٥] فجئته، فقلت: أجب رسول الله ﷺ. فخرج معي حتىٰ جاء النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن جملك هذا يستعدي عليك، يزعم أنك حرثت عليه زمانا حتىٰ أجربته، وأعجفته، وكبر سنه، ثم أردت أن تنحره.

قال: والذي بعثك بالحق إن ذلك لكذلك[٦]، فقال له رسول الله ﷺ: بعنيه، قال: نعم يا رسول الله، فابتاعه منه ثم سيبه في الشجر حتىٰ يصيب سنامًا، فكان إذا اعتل علىٰ بعض المهاجرين والأنصار من نواضحهم شيء أعطاه أياه فمكث بذلك زمانا»[٧].

---

(١) في (ب، ل): أقبلنا راجعين.

(٢) الإرقال ضرب من العدو (النهاية ٢/ ٢٥٣).

(٣) أخر النداء في (ب، ل).

(٤) العنق نوع من أنواع السير.

(٥) «بن فلان» ليس في (ب، ل).

(٦) في (ب، ل): كذلك.

(٧) رواه الطبراني في الأوسط (٩١١٢) من طريق: إبراهيم بن المنذر، نا محمد بن طلحة التيمي، ثنا عبد الحكيم بن سفيان بن أبي نمر، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، =

وهذا الحديث له شواهد:

أخرج أهل الصحيح منه قصة الشجرتين(١).

وقصة الذي شهر السيف علىٰ رسول الله ﷺ(٢).

وقصة الطير رواها أبو داود(٣).

وقصة الصبي ذكرها غير واحد(٤).

وروىٰ الإمام أحمد في مسنده عن يعلىٰ بن مرة الثقفي قال: «ثلاثة أشياء

= عن جابر بن عبد الله، وفي آخره: قال إبراهيم بن المنذر: قال لي محمد بن طلحة: «كانت غزوة ذات الرقاع تسمىٰ غزوة الأعاجيب». قال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن شريك بن عبد الله إلا عبد الحكيم بن سفيان، ولا عن عبد الحكيم إلا محمد بن طلحة، تفرد به إبراهيم بن المنذر».

قلت: وعبدالحكيم لم أجد فيه جرحا ولا تعديلا، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار باختصار كثير، وفيه عبد الحكيم بن سفيان، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد، وبقية رجاله ثقات» (مجمع الزوائد ٩/ ٨).

(١) رواه مسلم في أخريات صحيحه في ذكر حديث جابر الطويل (٣٠١٢).

(٢) وهو متفق عليه من حديث جابر كذلك، رواه البخاري (٢٩١٣)، ومسلم (٨٤٣).

(٣) قصة الطير رواها أبو داود في السنن (٢٦٧٥)، ورواها أبو داود الطيالسي في مسنده (٣٣٤)، ومن طريقه -وطريق غيره- رواها البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٢)، من حديث: عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، وفي سماعه منه خلاف.

ووقع عند البيهقي: تعرض بجناحيها، فقال: كذا في كتابي تعرض، وقال غيره: تفرش: يعني تقرب للأرض وترفرف بجناحيها.

(٤) حديث الصبي رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٠) من طرق عن جابر.

وهذه الآيات الثلاث ترجم عليها البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٨): باب ذكر المعجزات الثلاث التي شهدهن جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره في الشجرتين والصبي والجمل، وما كان في كل واحد منهن من آثار النبوة.

فروىٰ حديث جابر بطوله، ثم أخرج له شواهد، منها ما سيذكره المصنف لاحقًا.

رأيتهنَّ من رسول الله ﷺ، بينا[1] نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يُسنَىٰ عليه[2]، فلما رآه البعير جرجر[3] ووضع جِرانه[4] بالأرض، فوقف عليه النبي ﷺ، فقال: أين صاحب هذا البعير؟ فجاء، فقال: بعنيه. فقال: لا، بل أهبه، قال: لا بعنيه، قال: لا بل نهبه لك، وهو لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، قال: أما إذ ذكرت هذا من أمره فإنه يشتكي[5] إليَّ كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه.

-وفي رواية: أنهم أرادوا نحره-[6].

ثم سرنا فنزلنا منزلاً، فقال النبي ﷺ: انطلق إلىٰ هاتين الشجرتين، فقل لهما: إن رسول الله ﷺ يقول لكما: أن تجتمعا، فانطلقتُ، فقلت لهما ذلك، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها، فنزلت كل واحدة إلىٰ صاحبتها فالتفتا جميعا، فقضىٰ رسول الله ﷺ حاجته من ورائهما، ثم لما فرغ عادت كل واحدة منهما مكانها بأمره.

وأتته امرأة بصبي[7] لها به لمم، فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا به لمم منذ سبع سنين، يأخذه في كل يوم مرتين، فتفل النبي ﷺ في فيه، وقال: اخرج

---

(١) في (ب، ل): بينما.

(٢) السانية هي الإبل التي يستقىٰ عليها.

(٣) الجرجرة صوت البعير عند الضجر (النهاية في غريب الحديث١/ ٢٥٥).

(٤) الجران باطن العنق، قال ابن الأثير: «ومنه حديث عائشة رضي الله عنها «حتىٰ ضرب الحق بجرانه» أي قر قراره واستقام، كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه علىٰ الأرض» (النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٦٣).

(٥) في (ب): شكىٰ.

(٦) وهي في مسند أحمد (١٧٥٥٩).

(٧) في (ب): بابن.

عدو الله أنا رسول الله، فبرئ، فلما رجعنا جاءت أم الغلام بكبشين وشيء من أقط، قالت: والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريبا بعدك، فأخذ أحد الكبشين، والأقط، ورد الكبش الآخر»[1].

(وروىٰ نحو هذه القصة أبو يعلىٰ الموصلي عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2])[3].

ورواه الحاكم في صحيحه قال فيه: «سافرت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأيت منه عجبًا»، وذكر الحديث، وفيه: «أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: للمرأة لما أخرج الشيطان من ابنها: إذا رجعنا فأعلمينا ما صنع»[4].

ورواه الدارمي أيضًا[5].

وروىٰ أبو داود الطيالسي، عن ابن مسعود[6] قال: «كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٧٥٥٩)(١٧٥٦٥)، بإسنادين، الأول: حبيب بن أبي جبيرة، عن يعلىٰ بن سيابة، وهو يعلىٰ بن مرة لكن نسبه إلىٰ أمه، وحبيب مجهول (تعجيل المنفعة ٤٢١).

والثاني: عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حفص، عن يعلىٰ بن مرة الثقفي، وفي عبدالله بن حفص بحث انظره في تهذيب الكمال (١٤/ ٤٢٦)، وإكمال تهذيب الكمال (٧/ ٣٠٩)، وبالجملة فهو مجهول.

(٢) ما بين القوسين محله في (ب) بعد قوله ورواه الدارمي أيضا.

وفي (ل): وروىٰ أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروىٰ هذه القصة أبو يعلىٰ الموصلي عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وما ثبت في الأصلين ظ، د أجود لأنه سيذكر حديث ابن مسعود لاحقا.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٤) وفي إسناده: معاوية بن يحيىٰ الصدفي ضعيف.

(٤) وهذا هو حديث يعلىٰ بن أمية، لكن من طريق المنهال بن عمرو عنه، رواه الحاكم (٢/ ٦١٦)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٠)، ورواه الإمام أحمد (١٧٥٦٤).

(٥) رواه من حديث ابن عباس وسيذكره المصنف بعد حديثين.

(٦) محل هذا الحديث في (ل)، بعد حديث ابن عباس. فقد ذكر حديث الدارمي عن ابن عباس الآتي بعد حديث الحاكم، وأخر حديث سفينة.

في سفر فدخل رجل غَيضة، فأخرج منها بيضة حمَّرة، فجاءت الحمرة ترف علىٰ رأس رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: أيكم فجع هذه؟ فقال رجل من القوم: أنا أخذت بيضتها، فقال: رده، رحمة لها»[1].

وروىٰ الحاكم في صحيحه عن سَفِينة[2] مولىٰ رسول الله ﷺ قال: ركبتُ البحر في سَفينة، فانكسرت (ظ٩٧) السفينة، فركبت لوحًا من ألواحها، فطرحني في[3] أجمة فيها أسد فلم يرعني إلا به.

فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولىٰ رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه، وغمز بمنكبه شقي فما زال يغمزني ويهديني الطريق حتىٰ وضعني علىٰ الطريق، فلما وضعني علىٰ الطريق همهم فظننت أنه يودعني[4].

---

(١) رواه الطيالسي (٣٣٤)، وأحمد (٣٨٣٥)، وهو من رواية عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه، وفي سماعه من أبيه خلاف، وفيه كذلك المسعودي: وهو عبدالرحمن بن عبدالله بن عتبة بن عبدالله بن مسعود، وهو مختلط لكن رواه عنه أحمد من طريق أبي قطن وهو سمع منه قبل الاختلاط، ولكن قد رواه بعضهم عن المسعودي فأرسله عن عبدالرحمن، رواه أحمد (٣٨٣٦)، وقد مر ذكر الحديث آنفا.

(٢) هو سفينة مولىٰ رسول الله ﷺ، أعتقته أم سلمة، واشترطت عليه أن يخدم النبي ﷺ (روىٰ ذلك أبو داود في سننه:١٧٠٧)، واختلف في اسمه، علىٰ واحد وعشرين قولا (الإصابة ٣/ ١١١)، أشهرها: قيس (كذا روىٰ عنه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦٠٦).
وسبب تسميته سفينة أنه كان مع النبي ﷺ في سفر، فكان بعض القوم إذا أعيا ألقىٰ عليه ثوبه حتىٰ حمل من ذلك شيئا كثيرا، فقال له النبي ﷺ: ما أنت إلا سفينة، وكان يسكن بطن نخلة (رواه أحمد في المسند: ٢١٩٢١).

(٣) في (ب): إلىٰ.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٦) وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه المستغفري في دلائل النبوة (٤٥٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٦)، وفي إسناده أسامة بن زيد فيه ضعف، لكنه توبع عليه، فرواه عبدالرزاق عن معمر عن الحجبي عن ابن المنكدر قال: إن سفينة..فذكره، رواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤٦)، وصورته مرسلة والله أعلم.

وروىٰ الدارمي عن ابن عباس: «أنَّ امرأة جاءت بابن لها إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابني به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا، فيخبث علينا، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا، فثعَّ ثعَّة، خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي»[1].

وروىٰ الإمام أحمد وأبو يعلىٰ الموصلي، عن عائشة قالت: «كان لآل رسول الله ﷺ وحش، إذا خرج رسول الله ﷺ اشتد ولعب وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم كراهية أن يؤذيه» ولفظه للإمام أحمد[2]، ورواه أبو نعيم[3].

---

(١) رواه الدارمي (١٩)، وأحمد (٢١٣٣) وفي إسناده فرقد السبخي، ضعيف الحديث.
ثع: أي قاء، والثع: القيء، والثعة: المرة الواحدة، (النهاية ١/ ٢١٢).

(٢) «ولفظه للإمام أحمد» ليس في (ب،ل).

(٣) رواه أحمد (٢٤٨١٨) (٢٥١٦٩)، وأبو يعلىٰ (٤٤٤١) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٣١)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٢٧٧).
من طريق مجاهد عن عائشة، وفي بعض الطرق: عن مجاهد قال: قالت عائشة، وأنكر بعضهم سماع مجاهد من عائشة، ففي العلل لأحمد بن حنبل (١٦٧٣): كان شعبة ينكر أن يكون مجاهد سمع من عائشة، وقال يحيىٰ بن سعيد في حديث موسىٰ الجهني، عن مجاهد: أخرجت إلينا عائشة، أو حدثتني عائشة، قال يحيىٰ بن سعيد: فحدثت به شعبة فأنكر أن يكون مجاهد سمع من عائشة (انظر سؤلات الميموني: ٤٨٥). وانظر: جامع التحصيل ٢٧٣.
قلت: ولا يلتفت إلىٰ هذا الإنكار فإن حديثه عنها في الصحيحين، (انظر مثلا: صحيح البخاري حديث (١٣٩٣)(٦٥١٦)، صحيح مسلم (١٢١١))
قال السندي: قولها: وحش، أي: حيوان وحشي، ولعله كان قبل تحريم المدينة، وكان قد صيد من الحل.
وقوله يترمرم: قال ابن الأثير: أي سكن ولم يتحرك، وأكثر ما يستعمل في النفي (النهاية ٢/ ٢٦٣).

وروىٰ الإمام أحمد عنها أيضًا «أن رسول الله ﷺ كان في نفر من المهاجرين والأنصار، فجاء بعير فسجد له، فقال أصحابه: يا رسول الله، تسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحق أن نسجد لك، فقال: اعبدوا ربكم وأكرموا أخاكم[1] ولو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولو أمرها أن تنقل من جبل أصفر إلىٰ جبل أسود ومن جبل أسود إلىٰ جبل أبيض كان ينبغي لها أن تفعله».

رواه أحمد عن عفان، وابن ماجه بعضه[2] عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان، قال: ثنا حماد بن سلمة -ثنا المعنىٰ-[3] ثنا علي بن زيد، ثنا سعيد، عن عائشة[4].

وقصة هذا الجمل رواها جماعة (من الصحابة[5])[6].

---

(١) «اعبدوا ... أخاكم» ليس في (ب، ل). وهو ثابت في المصدر.

(٢) ليست في (ب).

(٣) في الأصل (ظ، ب) هنا: ثنا المثنىٰ.

وفي (ل، د): أبي.

وهو تصحيف أوجد واسطة بين حماد وشيخه علي، وتصحيحه من المسند -وعنه صدر المصنف- وذلك لأن أحمد رواه في المسند عن شيخين، عبدالصمد وعفان، قالا: حدثنا حماد قال عفان: أخبرنا المعنىٰ، عن علي بن زيد..الحديث، وهذا عادة لهم إذا روىٰ المسند عن شيخين، وساق لفظ أحدهما، ولم يسق لفظ الآخر، فإنه يبين أنه بمعناه، والله أعلم.

(٤) رواه أحمد (٢٤٤٧١)، وابن ماجه (١٨٥٢)، دون قصة الجمل، وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف الحديث.

(٥) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٦) ترجم البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٨): «باب ذكر البعير الذي سجد للنبي ﷺ وأطاع أهله بعد ما امتنع عليهم ببركته ﷺ».

وقد مر ذكر حديث جابر وابن عباس، ومن الأحاديث سواها: =



وروىٰ الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: «عدا الذئب علىٰ شاة فأخذها فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعىٰ الذئب علىٰ ذنبه، فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي؟ فقال: يا عجبًا، ذئب مقعٍ علىٰ ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ قال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق.

قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتىٰ دخل المدينة، فزواها إلىٰ زاوية من زواياها، ثم أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق والذي نفسي[1] بيده، لا تقوم الساعة حتىٰ يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[2].

= ما روىٰ أحمد (١٢٦١٤) عن أنس بن مالك قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسنىٰ عليه، وإنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحيته، فمشىٰ النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس علي منه بأس». فلما نظر الجمل إلىٰ رسول الله ﷺ أقبل نحوه، حتىٰ خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتىٰ أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا نبي الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل، فنحن أحق أن نسجد لك..الحديث.

وروىٰ البيهقي في الدلائل (٦/ ٢٩) من طريق فائد أبي الورقاء عن ابن ابي أوفىٰ، وفائد متروك الحديث، ومن طريق حماد بن سلمة عن رجل من قيس عن أبيه.

(١) في (ب، ل): نفس محمد.

(٢) رواه الإمام أحمد (١١٧٩٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٧)، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٤١، من طريق: القاسم بن الفضل الحداني، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم.
وفي (ب ل): تكلم..تخبر.

وروىٰ الترمذي آخره، وصححه[١].

وقال البيهقي: إسناده صحيح، وله شاهد من وجه آخر[٢].

ورواه أحمد عن أبي هريرة قال: «وكان الراعي يهوديًا فأسلم»، وقال فيه: «أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضىٰ، وما هو كائن بعدكم»[٣].

وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان بالمدينة فزعٌ فاستعار النبي ﷺ فرسًا لأبي طلحة، وكان يقطِف[٤]، فلما رجع قال: إن وجدنا فرسكم هذا بحرًا، وكان بعد ذلك لا يجارىٰ»[٥].

وفي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، «عن النبي ﷺ في غزوة خيبر[٦] أنه أرسل إلىٰ علي وهو أرمد العين، فقال: لأعطينَّ الراية رجلاً

---

(١) سنن الترمذي (٢١٨١) وقال: «وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيىٰ بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي».

(٢) دلائل النبوة (٦/ ٤٢)، والشاهد له من وجه آخر هو ما رواه البيهقي من طريق شهر بن حوشب عن أبي سعيد الخدري.
وقيل: إن مكلم الذئب هو أهبان بن الأكوع، أو أهبان بن أوس الأسلمي (الإصابة ١/ ٢٨٩).

(٣) رواه أحمد (٨٠٦٣) من طريق عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٨٠٨)، وهو من حديث شهر بن حوشب عن أبي هريرة، وشهر ضعيف الحديث. وهذا الحديث والطريق الثانية عن أبي سعيد واحد فيما يظهر، لأن مخرجه هو شهر، والله أعلم.

(٤) قال ابن الأثير: القطاف: تقارب الخطو في سرعة، من القطف: وهو القطع. وقد قطف يقطف قطفا وقطافا. والقطوف: فعول منه (النهاية ٤/ ٨٤).

(٥) صحيح البخاري (٢٦٢٧)، صحيح مسلم (٢٣٠٧).

(٦) ليست في (ب).

يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فبصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، وأعطاه الراية (ظ٩٨)، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفُذْ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[١].

وعن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه قتادة بن النعمان: «أنه أصيبت عينه في الغزو مع رسول الله ﷺ[٢] فسالت على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله ﷺ، فقال: لا، ودعا[٣]، وغمز حدقته براحته، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما»[٤].

---

(١) حديث سهل بن سعد في صحيح البخاري(٢٩٤٢)، وصحيح مسلم (٢٤٠٦)، وحديث سلمة بن الأكوع في صحيح البخاري (٢٩٧٦)، وصحيح مسلم (١٨٠٤).
وقد ورد كذلك في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص (٢٤٠٤)، وأبي هريرة (٢٤٠٥).

(٢) كذا في الأصل ظ، وكتب حاشية في ظ: بدر.
وقد وقع خلاف في الغزوة التي سالت بها عينه، فقيل يوم بدر، وقيل يوم أحد. (الإصابة٥/ ٣١٨).
وفي (ب): مع النبي ﷺ يوم بدر. وكتب فوقها خـ وكتب قبالتها في الهامش: أحد خـ.
وفي (ل): يوم بدر.
وفي (د): يوم أحد.

(٣) كذا في الأصول الخطية كلها (ظ، ب، ل، د)، والمعنى واضح، وفي المطبوعة، وط النيل: ودعاه. وهو تصحيف.

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (١٥٤٩)، وعنه ابن عدي في الكامل (٥/ ٤٦٤) ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٠٠)، وفيه يحيى بن عبدالحميد الحماني، كان يسرق الحديث، ولأجل ذلك اتهم بالكذب (ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٢)، وقال ابن عدي (في الكامل ٩/ ٩٨): «وليحيى الحماني مسند صالح...، ولم أر في مسنده وأحاديثه أحاديث مناكير فأذكرها وأرجو أنه لا بأس به». =

وفي رواية: «فرفع حدقته حتىٰ وضعها موضعها، ثم غمزها براحته، وقال: اللهم اكسه[1] جمالاً، فمات وما يدري من لقيه أي عينيه أصيبت»، رواه عنه أهل المغازي[2].

وأنشد ولده بحضرة عمر بن عبد العزيز -وهو خليفة- وأقره من حضر ولم ينكروه:

أنا ابن الذي سالت علىٰ الخد عينه ... وردت بكف المصطفىٰ أيما رد
(فعادت كما كانت لأحسن حالها ... فيا حسن من عين ويا حسن ما يد)[3]

فلولا أنَّه كان معروفًا عند التابعين لم يُقروه، وهم إنما تلقوا هذا عن الصحابة.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: «بعث رسول الله ﷺ إلىٰ أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ، ويُعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما

= وهو يرويه عن عبدالرحمن الغسيل وفيه ضعف.
وروىٰ البيهقي في الدلائل (٣/ ١٠٠) من طريق عبدالعزيز بن عمران -وهو أحد المتروكين- عن رفاعة بن رافع أنه وقعت له نحو هذه القصة، والله أعلم.

(١) في (ل): اكسبه. (ب): اكسيه.

(٢) انظر: المستدرك للحاكم ٣/ ٢٩٥، البداية والنهاية ٥/ ١٤٧، الروض الأنف ٦/ ٨.

(٣) في الأصل ظ كتب فوق يد: خ، وكتب في الهامش: رد صح.
والبيت الثاني ثبت في ظ، د، وليس هو في (ب، ل).
وولده الذي أنشد هو: عاصم بن عمر بن قتادة، فأجابه عمر بن عبدالعزيز:
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
(البداية والنهاية ٥/ ١٤٧، الإصابة ٥/ ٣١٨).

دنوا منه -وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم- قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أدخل، قال: فأقبل حتىٰ دنا من الباب (ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبدالله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم أعلق الأغاليق علىٰ وَدٍّ[1]، قال: فقمت إلىٰ الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره[2] صعدت إليه، فجعلت كلما دخلت بابا أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم لو نذروا[3] بي لم يخلصوا إلي حتىٰ أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم، وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت[4] شيئا، وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع، فقال: لأمك الويل، إنَّ رجلاً[5] ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضبة أثخنته ولم أقتله)[6] ثم وضعت ضبيب[7] السيف في بطنه حتىٰ أخذ في ظهره، فعلمت أني قد قتلته،

---

(١) في بعض نسخ الصحيح المطبوعة (٤٠٣٩): ثم علق الأغاليق علىٰ وتد. وفي فتح الباري (٧/ ٣٤٣) مثل الذي ثبت في الأصل. وهما بمعنىٰ.

(٢) د: أهل السمرة.

(٣) أي علموا، وهو بكسر الذال - وكان عبدالله بن عتيك يرطن باليهودية- (فتح الباري ٧/ ٣٤٤).

(٤) د: أغنت.

(٥) في (د) زيادة: في البيت.

(٦) ما بين القوسين من الأصل ظ و د، وليس هو في (ب، ل)، كتب مكانه: وذكر قصة قتله إلىٰ أن قال.

(٧) ليست في (ب، ل).

=

فجعلت أفتح الأبواب بابًا فبابًا، حتىٰ انتهيت إلىٰ درجة فوضعت رجلي وأنا أرىٰ أني قد انتهيت إلىٰ الأرض فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامتي ثم انطلقت، حتىٰ جلست عند الباب، فقلت: لا أبرح حتىٰ أعلم أقتلته أم لا، فلما صاح الديك قام الناعي علىٰ السور فقال: أنعَا[1] أبا رافع.

قال: فانطلقت إلىٰ أصحابي، فقلت: النجاء[2]، قد قتل الله أبا رافع قال: فانتهينا إلىٰ النبي ﷺ، وحدثناه فقال: ابسط رجلك، فبسطها فمسحها، فكأنما لم أشتكها قط»[3].

وفي البخاري عن يزيد بن أبي عُبيد قال: «رأيت في ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربة، فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة[4]؟ قال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة أصيب سلمة، قال: فأتيت رسول الله ﷺ

= وهكذا ثبتت اللفظة في (ظ) وعامة نسخ البخاري، وفي (د، ط النيل): صيب.
وفي هذه اللفظة بحث راجعه في فتح الباري (٧/ ٣٤٤).

(١) كذا في الأصل، وهو يوافق ما في صحيح البخاري، قال الحافظ: «كذا ثبت في الروايات بفتح العين، قال ابن التين: هي لغة، والمعروف انعو، والنعي خبر الموت والاسم الناعي» (فتح الباري ٧/ ٣٤٤).
وفي (ب، ل، د): أنعي.

(٢) كذا في الأصل، وكتب النجاء الثانية ثم ضرب عليها، وهو الصحيح الموافق لما في البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٤٥).
وكررها في (ب، د)، وفي (ل): النجاة النجاء.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٣٩). قال ابن كثير: تفرد به البخاري بهذه السياقات من بين أصحاب الكتب الستة (البداية والنهاية ٦/ ١٣٤).

(٤) أخر النداء والمنادىٰ في (ب).



فنفث فيه ثلاث (ظ٩٩) نفثات فما اشتكيت منها حتىٰ الساعة»[١].

وفي الترمذي وغيره: «عن عثمان بن حُنيف أنَّ رجلا ضريرًا أتىٰ رسول الله ﷺ، فقال: ادع الله تعالىٰ أن يعافيني، قال: إن شئت صبرت فهو خير لك، وإن شئت دعوت الله[٢]، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم[٣] إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلىٰ ربي في حاجتي هذه فتقضيها لي[٤]، اللهم فشفعه فيّ».

وفي رواية قال: يا رسول الله، ليس لي قائد، وقد شق علي. وذكر الحديث.

فقال عثمان: والله ما تفرقنا، ولا طال الحديث بنا حتىٰ دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط.

قال الترمذي: حديث صحيح[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٠٦)، وهو أحد ثلاثياته، حيث رواه البخاري عن المكي بن إبراهيم، عن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة.

(٢) لفظ الجلالة من (ظ، د).

(٣) بيض له في د، وكتب في الهامش: في الأصل اللهم إني أتوجه بك إلي.

(٤) في سنن الترمذي: إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هذه لتقضىٰ لي. وعند أحمد: فتقضي لي.

(٥) رواه أحمد (١٧٢٤٠)، والترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه(١٣٨٥) من حديث أبي جعفر عن عمارة عن عثمان، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي». قلت: ورجاله ثقات.

النوع الرابع[1]: آثاره في الأشجار والخشب.

ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: «كان المسجد مسقوفًا علىٰ جذوع النخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلىٰ جذع منها، فلما صنع المنبر وكان عليه سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار[2]، حتىٰ جاء إليه النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت.

وفي رواية: فصاحت النخلة صياح الصبي»[3].

وفي الصحيحين عن جابر: «أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإنَّ لي غلامًا نجارًا، قال: إن شئت.

فعملت له المنبر.

فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ علىٰ المنبر الذي صُنع له، فصاحت النخلة التي كان يخطب عليها حتىٰ كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكَّت حتىٰ استقرت»[4].

---

(١) هكذا ثبت في الأصل (ظ)، وفي باقي النسخ الخطية كلها: النوع الثالث.
وهو خطأ، الصواب ما ثبت في هذا الأصل المتقن، فقد سبقت الأنواع الثلاثة، فيكون هذا هو النوع الرابع، وهو آثاره في الأشجار والخشب.

(٢) في (ب): ذلك العشار.

(٣) صحيح البخاري (٣٥٨٥)، وقد تفرد به البخاري.

(٤) صحيح البخاري (٢٠٩٥). وتتمته: قال: «بكت علىٰ ما كانت تسمع من الذكر» ولم يخرجه مسلم.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ حتىٰ نزلنا واديًا أفيح[1]، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئا يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلىٰ إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها، فقال: انقادي عليَّ بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش[2] الذي يصانع قائده، حتىٰ أتىٰ الشجرة الأخرىٰ فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي علي بإذن الله، فانقادت معه كذلك، حتىٰ إذا كان بالمنصف فيما بينهما فلأم بينهما[3] حتىٰ جمع بينهما، فقال: التئما عليَّ بإذن الله، فالتأمتا عليه.

فخرجت أحضُر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيتباعد[4]، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة، فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما علىٰ ساق»، وذكر الحديث[5].

وعن ابن عباس قال: «جاء رجل من بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرني الخاتم الذي بين كتفيك، فإنني من أطب الناس، فقال: ألا أريك آية؟ قال: بلىٰ، فنظر إلىٰ نخلة، فقال: ادع لَكَ العذق[6]، فجاءه ينقز حتىٰ

---

(١) أي واسع (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٨٤).
(٢) هو الذي جعل في أنفه الخشاش. والخشاش مشتق من خش في الشيء إذا دخل فيه، لأنه يدخل في أنف البعير (النهاية ٢/ ٣٤).
(٣) «فلأم بينهما» ليس في ب.
(٤) في (ب): فتباعدت.
(٥) صحيح مسلم (٣٠١٢).
(٦) في (ب، ل، د): ادع ذلك العذق.

قام بين يديه، فقال له: ارجع، فرجع[1]».

فقال العامري: يا آلَ بني عامر ما رأيت رجلا أسحر منه[2].

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ورواه الدارمي أيضا قال فيه: فجاءت النخلة تنقز بين يديه ثم قال لها ارجعي، فعادت إلىٰ مكانها[3].

وفي رواية الترمذي: «جاء أعرابي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك نبي؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة تشهد أني رسول الله (ظ ١٠٠)، فدعاه رسول الله ﷺ، فجعل ينزل من النخلة حتىٰ سقط إلىٰ النبي ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد.

فأسلم الأعرابي»[4].

---

(١) ليست في (ب).

(٢) «فقال ...منه» ليس في (ب، ل).

(٣) رواه أحمد (١٩٥٤)، والدارمي (٢٤)، والبيهقي في الدلائل ٦/ ١٥، وإسناده علىٰ شرط الصحيحين، لأنه يرويه الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس.

(٤) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣)، والترمذي في السنن (٣٦٢٨)، والطبراني في الأوسط (٥٠٦٨)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن سماك إلا شريك، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٩)، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، والبيهقي في الدلائل (٦/ ١٥).
وهكذا رواه شريك عن سماك عن أبي ظبيان الجنبي، قال في آخره: فأسلم الأعرابي، وقد خالفه الأعمش في الرواية السابقة، وفيها أن الأعرابي لم يسلم، قال ابن كثير معقبا علىٰ رواية محمد بن أبي عبيدة عن أبيه عن الأعمش، وفيها: فرجع فقال العامري: يا آل عامر بن صعصعة، لا ألومك علىٰ شيء قلته أبدا» وهذا يقتضي أنه سلم الأمر، ولم يجب من كل وجه (البداية والنهاية ٨/ ٦٧٧).

وروىٰ الدارمي عن عبدالله بن عمر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي فلما دنا منه قال له النبي ﷺ: أين تريد؟ قال: إلىٰ أهلي، قال: هل لك في خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. فقال: ومن يشهد علىٰ ما تقول؟ قال: هذه السَّلَمَة، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدُّ[1] الأرض، حتىٰ قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا، فشهدت ثلاثا أنه كما قال، ثم رجعت إلىٰ منبتها، ورجع الأعرابي إليه، فقال: إن اتبعوني أتيتك بهم، وإلا رجعت فكنت معك»[2].

وفي الصحيحين، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبدالله بن مسعود - أنه قال: آذنته بهم شجرة[3].

وفي الترمذي عن علي قال: «كنت مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا هو[4] يقول: السلام عليك يا رسول الله»، رواه الحاكم في صحيحه[5].

---

(١) الوخد: ضرب من سير الإبل سريع. يقال: وخد يخد وخدا (النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٦٣).

(٢) رواه الدارمي (١٦) بإسناد حسن.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٥٩)، صحيح مسلم (٤٥٠).
وفي بعض الروايات أن هذه الشجرة هي: سمرة (فتح الباري ٧/ ١٧٢).

(٤) في (ب، ل): وهو.

(٥) رواه الترمذي (٣٦٢٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٩)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٥٤)، وأبو نعيم في الدلائل (٢٨٩)، وفي إسناده الوليد بن عبدالله بن أبي ثور ضعيف جدا (الكامل لابن عدي ٨/ ٣٥٥، ميزان الاعتدال ٤/ ٣٣٦). =

رویٰ الإمام أحمد في مسنده، عن[1] أنس بن مالك قال: «جاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ ذات يوم، وهو جالس حزين قد خُضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟ قال: فقال: فعل هؤلاء وفعلوا. فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ فقال: نعم. قال: فنظر إلىٰ شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة، فدعاها فجاءت تمشي حتىٰ قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع إلىٰ مكانها، فقال لها: ارجعي، فرجعت حتىٰ عادت إلىٰ مكانها، فقال النبي ﷺ: حسبي» ورواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده[2].

= وسلام الحجر عليه ثابت في غير هذا الحديث: كحديث جابر بن سلمة قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن«رواه مسلم (٢٢٧٧).

قال عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي -وكان واعية- عن بعض أهل العلم: «أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين أراد الله ﷻ كرامته وابتدأه لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه، فيلتفت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم خلفه وعن يمينه وعن شماله ولا يرىٰ إلا الشجر وما حوله من الحجارة وهي تحييه بتحية النبوة: السلام عليك يا رسول الله» (دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٤٦).

في (ب): رواه الحاكم وصححه.

(١) في (ب، ل): وروىٰ الإمام أحمد عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٢١١٢)، والدارمي (٢٣)، وابن ماجه (٤٠٢٨)، وأبو يعلىٰ (٣٦٨٥) والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٥٤) وإسناده حسن.

فصل:

والنوع الخامس[1]: الماء والطعام والثمار[2] الذي كان يكثر ببركته فوق العادة.

وهذا باب واسع نذكر منه ما تيسر.

أما الماء:

ففي الصحيحين عن أنس «أن النبي ﷺ دعا بماء فأتي بقدح رحراح فجعل القوم يتوضئون، فحزرت ما بين السبعين إلىٰ الثمانين»[3].

وفي رواية عنه: أنَّ النبي ﷺ «خرج في بعض مخارجه ومعه أناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ما يتوضئون به، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح فيه ماء يسير، فأخذه النبي ﷺ فتوضأ، ثم مدَّ أصابعه الأربع علىٰ القدح، ثم قال: قوموا فتوضئوا،[4] وكانوا سبعين أو نحوه»[5].

وفيهما عن أنس أيضًا أنَّ «النبي ﷺ وأصحابه بالزوراء - والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما[6] ثمَّه - دعا بقدح فيه ماء فوضع فيه كفه

---

(١) في الأصول سوىٰ ظ: الرابع، وقد سبق التنبيه علىٰ ذلك.

(٢) في ظ: الطعام والطعام، وما ثبت من بقية النسخ، وقد قسم المصنف هذا الفصل ثلاثة أقسام: الماء، الطعام، الثمار.

(٣) صحيح البخاري (٢٠٠)، صحيح مسلم (٢٢٧٩)، وفيه: قال: فجعلت «أنظر إلىٰ الماء ينبع من بين أصابعه».
والرحراح: القريب القعر مع سعة فيه (النهاية ٢/ ٢٠٨).

(٤) في الصحيح هنا: فتوضأ القوم حتىٰ بلغوا فيما يريدون من الوضوء..

(٥) صحيح البخاري (٣٥٧٤).

(٦) ليست في (ب، ل) وهي ثابتة في مسلم.

فجعل ينبع مح[1] بين أصابعه فتوضأ جميع أصحابه»[2].

(قال: قلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟ قال: كانوا زهاء الثلاثمائة.

وفي رواية: بماء لا يغمر أصابعه، أو قدر ما يواري أصابعه[3])[4].

وفي الصحيحين عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت[5] صلاة العصر، فالتمس الناسُ الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتىٰ توضئوا من عند آخرهم»[6].

وفي الصحيحين عن جابر قال: «قد رأيتني مع رسول الله ﷺ، وقد حضرت صلاة العصر، وليس معنا ماء غير فضلة(ظ١٠١)، فجُعل في إناء فأُتيَ النبي ﷺ به فأدخل يده فيه، وفرج أصابعه، ثم قال: حي علىٰ الوضوء[7]

---

(١) كذا في الأصل ظ، وكتب في (ب): من تحت السطر.

(٢) صحيح البخاري (٣٥٧٢)، صحيح مسلم (٢٢٧٩).
والزوراء سوق بالمدينة (فتح الباري ١/ ٢٧١).

(٣) ما بين القوسين ليس في (ل).

(٤) صحيح مسلم (٢٢٧٩).

(٥) في (ب): وجاءت.

(٦) صحيح البخاري (١٦٩)، صحيح مسلم (٢٢٧٩).
وقوله: «حتىٰ توضؤوا من عند آخرهم»: «قال الكرماني: حتىٰ للتدريج ومن للبيان، أي توضأ الناس حتىٰ توضأ الذين عند آخرهم، وهو كناية عن جميعهم، قال: وعند بمعنىٰ في، لأن عند وإن كانت للظرفية الخاصة لكن المبالغة تقتضي أن تكون لمطلق الظرفية، فكأنه قال: الذين هم في آخرهم.
وقال التيمي: المعنىٰ توضأ القوم حتىٰ وصلت النوبة إلىٰ الآخر.
وقال النووي: من هنا بمعنىٰ إلىٰ وهي لغة وتعقبه الكرماني بأنها شاذة» (فتح الباري ١/ ٢٧١).

(٧) كذا في الأصول، وهو يوافق رواية النسفي، وفي غيرها: «حي علىٰ أهل الوضوء» (فتح الباري ١٠/ ١٠٢).



والبركة من الله.

فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، قلت: لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفا وأربعمائة»[1].

وفي صحيح البخاري، عن جابر أيضًا قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه رِكْوَة، فتوضأ، فجهش الناس نحوه، قال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور[2] من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[3].

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس علىٰ شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا، وكنا ألفا وأربعمائة، أو[4] أكثر من ذلك»[5].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٩).
(٢) في هامش الأصل: يثور، وكتب فوقها: فيه. وهكذا هو في (ب، ل، د).
ورواية يفور هي رواية الكشميهني، ولغيره: يثور، وهما بمعنىٰ (فتح الباري ٦/ ٥٨٦).
(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٦).
(٤) في (ب): وأكثر.
(٥) صحيح البخاري (٤١٥٠).

وفي صحيح مسلم، عن سلمة بن الأكوع قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون أشاءةً لا يرونها[1]، فقعد رسول الله ﷺ حتىٰ[2] جبا الركية، فإما دعا وإما بصق فيها.

قال: فجاشت[3] فسقينا واستقينا»[4].

---

(١) كذا في الأصلين: (ظ، ب) وكتب فوقها في ظ صح، والمعنىٰ علىٰ هذا: حول البئر خمسون نخلة صغيرة، فإنَّ الأشاءة النخلة الصغيرة، ولأنها حول البئر فلا تكاد ترىٰ البئر.
وفي باقي النسخ وصحيح مسلم: خمسون شاة لا ترويها، أي أن الماء لا يروي خمسين شاة.
ثم نظرت في النسخة الخطية من صحيح مسلم التي بخط الحافظ ابن خير (ق:٢٧٥/ أ) وفرعها التي بخط محمد الفضيل الشبيهي (المجلد الخامس، ورقة: ١٩٩) وكذا في نسخة صحيحة نسخت سنة ٦٢٩ وعليها سماعات أئمة (ق١٥٨) وفيها كلها: «وعليها خمسون شاة لا ترويها». وكذا في المصادر التي نقلت عن صحيح مسلم، كالجمع بين الصحيحين وجامع الأصول.
والذي يظهر لي أن ما في الأصلين صحيح المعنىٰ، ذلك لأن البئر لا تروي الشياه إلا بعد أن يستقىٰ منها، ولا تشرب الشياه من البئر مباشرة حتىٰ يقال إنها لا ترويها، فكيف حكم أن ما في البئر لا يكفي خمسين شاة!. وإنما المعنىٰ أن النخلات الصغار التي هي خمسون قد غطت البئر فلا ترىٰ منها، والعادة جارية أن البئر يكون حولها أشاءات وأشجار، والله أعلم بالصواب.
ثم وجدت في «نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض» ٣/ ٥٠١ : «خمسين شاة، الشاة معروفة، ويروىٰ: إشاء بهمزة مكسورة في أوله مفتوحة في آخره: وهي النخلة الصغيرة».
والصواب: أن إشاء جمع أشاءة، فالمفرد بفتح الهمزة والجمع بكسرها، والله أعلم.

(٢) في (ب، ل، د) وصحيح مسلم: علىٰ جبا.
والجبا -بالفتح- ما حول البئر، والركية هي البئر (انظر: مشكل الصحيحين لابن الجوزي ٢/ ٣٠٦، شرح مسلم للنووي ١٢/ ١٧٥).

(٣) قال القاضي عياض: في قوله «فجاشت فسقينا واستقينا: أي فاضت، وهذا من آياته ﷺ وعظيم معجزاته، وهذا باب منقول منها بالتواتر من تكثير قليل الماء في مواطن عدة» (إكمال المعلم ٦/ ٩٨).

(٤) صحيح مسلم (١٨٠٧).

وعن ابن عباس قال: «ودعا النبي ﷺ بلالاً فطلب بلال الماء، ثم جاء، فقال: لا والله ما وجدت الماء، فقال: النبي ﷺ: فهل من شن؟ فأتاه بشن فبسط كفيه فيه فانبعثت يدُه عيناً[1].

قال: فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ»[2].

وعن جابر بن عبدالله قال: «غزونا أو سافرنا مع رسول الله ﷺ، ونحن يومئذ بضعة عشر ومائتين، فحضرت الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: هل في القوم من طهور؟ فجاء رجل يسعىٰ بإداوة فيها شيء من ماء، ليس في القوم ماء غيره، فصبه رسول الله ﷺ في قدح، ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح، فركب الناس ذلك القدح وقالوا: تمسحوا تمسحوا.

فقال رسول الله ﷺ: علىٰ رسلكم، حين[3] سمعهم يقولون ذلك، فوضع رسول الله ﷺ كفه في الماء والقدح، وقال: بسم الله، ثم قال: أسبغوا الطهور.

فوالذي ابتلاني ببصري بعدُ[4] لقد رأيت العيون - عيون الماء[5]- تخرج

---

(١) في (ب، ل، د): «عين». هكذا مجودة في الأصلين. فهي إما أن تكون علىٰ الاستئناف، أو علىٰ ما جرت عليه عادة أهل الحديث من ترك ألف التنوين خطا والاتيان بها لفظا، وله شواهد لا نطيل بذكرها.

(٢) رواه الدارمي (٢٥)، والفريابي (٤٠) وفي إسناده عطاء بن السائب وهو مختلط، والراوي عنه شعيب بن صفوان وأبو كدينة يحيىٰ بن المهلب، ولم يُذكرا فيمن روىٰ عنه قبل الاختلاط، إلا أنه قد يمكن أن يقال إن الإمام أحمد صحح له حديثا من روايته عن عطاء رواه ابن مهدي عنه (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٩، تهذيب الكمال ١٢/ ٥٣٠).
وسيعيده المصنف آخر الفصل.

(٣) في (ب، ل): حتىٰ.

(٤) ليست في (ب).

(٥) ليست في (ب).

من بين أصابعه، فلم يرفعهما حتىٰ توضئوا أجمعون».

رواهما الدارمي في مسنده[1].

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: «كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءونا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: حي علىٰ الطهور الطهر[2] المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل»[3].

وروىٰ مسلم في صحيحه عن معاذ بن جبل قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة، فصلىٰ[4] الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا، حتىٰ إذا كان يوم أخَّر الصلاة، ثم خرج فصلىٰ الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك، فصلىٰ المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: إنكم ستأتون (ظ١٠٢) غدًا - إن شاء الله - عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتىٰ يُضْحي النهارُ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتىٰ آتي.

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٦٠)، والدارمي (٢٦)، وإسناده صحيح.

(٢) كذا في (ظ)، وفي (ب، د): «علىٰ الطهر المبارك»، وفي (ل): «علىٰ الوضوء المبارك».
في الصحيح وغيره: حي علىٰ الطهور المبارك، قال الحافظ: «قوله: حي علىٰ الطهور المبارك؛ أي: هلموا إلىٰ الطهور وهو بفتح الطاء والمراد به الماء ويجوز ضمها، والمراد الفعل أي تطهروا، قوله: والبركة من الله؛ البركة مبتدأ والخبر من الله، وهو إشارة إلىٰ أن الإيجاد من الله» (فتح الباري ٦/ ٥٩٢).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٩).

(٤) في (ب، ل): فيصلي.

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبِضُّ بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئًا؟ قالا: نعم، فسبهما رسول الله ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول،[1] ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتىٰ اجتمع شيء.

قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، أو قال: غزير، استقىٰ الناس.

ثم قال: يوشك - يا معاذ إن طالت بك حياة - أن ترىٰ ما ها هنا قد ملئ جنانا»[2].

وفي صحيح مسلم حديث جابر الذي رواه عبادة بن الوليد، وقد تقدم أوله في قصة الشجرتين، وانقيادهما ثم افتراقهما[3]، ووضع الغصنين علىٰ القبرين[4].

وقال في آخره: «فأتينا العسكر، فقال رسول الله ﷺ: يا جابر ناد بوَضوء، فقلت: ألا وَضوء، ألا وَضوء، قال: قلت: يا رسول الله، ما وجدتُ في الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يُبرِّد لرسول الله ﷺ الماء في أشجاب له[5]،

---

(١) في (ب): قال.

(٢) صحيح مسلم (٧٠٦).
قال النووي: «هكذا ضبطناه هنا تبض ونقل القاضي اتفاق الرواة هنا علىٰ أنه بالضاد المعجمة ومعناه تسيل والشراك هو سير النعل ومعناه ماء قليل جدا».

(٣) في (ب): انفرادهما.

(٤) في (ب، ل): القبر.

(٥) في الصحيح: «في أشجاب له علىٰ حمارة من جريد»، قال النووي: «أما الأشجاب هنا فجمع شجب بإسكان الجيم وهو السقاء الذي قد أخلق وبلي وصار شنا، =

فقال لي: انطلق إلىٰ فلان الأنصاري فانظر هل في أشجابه من شيء؟

قال: فانطلقت إليه، فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عَزلاء شَجْبٍ لو أني أفرغه لشربه يابسه[1]، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني[2] لم أجد فيها إلا قطرة في عَزلاء شَجْب لو أني أفرغه لشربه يابسه، قال: اذهب فأتني به، فأتيته به فأخذه بيده، فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو، ويغمزه بيده، ثم أعطانيه، فقال: يا جابر، ناد بجفنة الركب، فقلت: يا جفنة الركب، فأتيت بها تُحمل، فوضعتُها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده في الجفنة هكذا فبسطها وفرق بين أصابعه، ثم وضعها في قعر الجفنة، فقال: خذ يا جابر، فصب علي وقل: باسم الله، فصببت عليه، وقلت: باسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ﷺ، ثم فارت الجفنة ودارت حتىٰ امتلأت، فقال: يا جابر، ناد من كانت له حاجة بماء، قال: فأتىٰ الناس، فاستقوا حتىٰ رووا، قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأىٰ»[3].

= يقال شاجب أي يابس وهو من الشجب الذي هو الهلاك،...، وأما قول المازري وغيره أن المراد بالأشجاب هنا الأعواد التي تعلق عليها القربة فغلط لقوله يبرد فيها علىٰ حمارة من جريد، وأما الحمارة فبكسر الحاء وتخفيف الميم والراء وهي أعواد تعلق عليها أسقية الماء، قال القاضي ووقع لبعض الرواة حمار بحذف الهاء ورواية الجمهور حمارة بالهاء وكلاهما صحيح ومعناهما ما ذكرنا» (شرح مسلم ١٨/ ١٤٥).

(١) العزلاء -بفتح العين المهملة وبإسكان الزاي وبالمد- فم القربة، وقوله شربه يابسه معناه أنه قليل جدا فلقلته مع شدة يبس باقي الشجب وهو السقاء لو أفرغته لأشنقه اليابس منه ولم ينزل منه شيء (شرح مسلم ١٨/ ١٤٥).

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) صحيح مسلم (٣٠١٣).



وفي الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: «كنت مع النبي ﷺ في مسير له فأدلجنا ليلتنا، حتىٰ إذا كان وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا، حتىٰ بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر الصديق، وكنا لا نوقظ رسول الله ﷺ من منامه، حتىٰ يكون هو الذي يستيقظ؛ لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه، ثم استيقظ عمر فجعل يكبر حتىٰ استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأىٰ الشمس قد بزغت، قال: ارتحلوا.

فسار بنا حتىٰ ابيضت الشمس، نزل فصلىٰ بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: أصابتني جنابة ولا ماء.

فقال له: عليك بالصعيد، فإنه يكفيك، فتيمم بالصعيد فصلىٰ.

ثم عجَّلني في ركب بين يديه نطلب الماء، وقد عطشنا عطشا شديدا، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقالت: إيهاه إيهاه لا ماء لكم، فقلت: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: مسيرة يوم وليلة، قلنا: انطلقي إلىٰ رسول الله ﷺ، قالت: وما رسول الله؟ فلم نملكها من أمرها شيئا حتىٰ انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ فسألها، فأخبرته (ظ١٠٣) مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها مؤتمة لها صبيان أيتام، فأمر براويتها فأنيخت، فمجَّ في العزلاوين العلياوين(١)، ثم بعث براويتها فشربنا

---

(١) قال النووي: «قوله فمج في العزلاوين العلياوين المج زرق الماء بالفم والعزلاء بالمد هو المشعب الأسفل للمزادة الذي يفرغ منه الماء ويطلق أيضا علىٰ فمها الأعلىٰ كما قال في هذه الرواية العزلاوين العلياوين وتثنيتها عزلاوان والجمع العزالي بكسر اللام»(شرح مسلم٥/ ١٩١).

ونحن أربعون رجلاً عطاشًا، حتىٰ روينا، وملأنا كل راوية، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وغسلنا صاحبنا غير أنا لم نسق بعيرا، وهي تكاد تتضرج من الماء - يعني المزادتين - ثم قال: هاتوا ما كان عندكم، فجمعنا لها من كسر[1]، وتمر، وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك شيئا.

فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر، أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت، فهدىٰ الله ﷺ ذلك الصرم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا»[2].

وفي الصحيحين عن أبي قتادة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: إنكم تسيرون عشيتكم هذه وليلتكم، وتأتون الماء غدا - إن شاء الله - فانطلق الناس لا يلوي أحد علىٰ أحد، وذكر حديث النوم في الوادي، فقال: ثم دعا بميضأة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وضوءا دون وضوء، وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال: لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ.

ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم، فقال أبو بكر وعمر: إن رسول الله ﷺ يعدكم لم يكن ليخلفكم.

وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم فإن تطيعوا أبا بكر وعمر ترشدوا. قال: فانتهينا إلىٰ الناس حين امتد النهار، وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله، هلكنا عطشا، فقال: لا هُلك عليكم[3]، ثم قال: أطلقوا

---

(١) في (ب): خبز.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٤)، صحيح مسلم (٦٨٢).

(٣) لا هلك عليكم: بضم الهاء وهو من الهلاك (شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ١٨٨).
وهذا من المعجزات قوله ﷺ أطلقوا لي غمري هو بضم الغين المعجمة وفتح الميم وبالراء هو القدح الصغير (شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ١٨٨).

غُمري[1]، قال: ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأىٰ الناس ما في الميضأة تكابُّوا عليها. فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا الملأ[2] كلكم سيروىٰ، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب، وأسقيهم حتىٰ ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صبَّ رسول الله ﷺ، فقال لي: اشرب. فقلت: لا أشرب حتىٰ يشرب رسول الله ﷺ، قال: إن ساقي القوم آخرهم شربًا[3]، فشربت وشرب رسول الله ﷺ، قال: فأتىٰ الناس الماء جامين رواء»[4].

قال: عبد الله بن رباح: إني لأحدث بهذا الحديث في مسجد الجامع[5] إذ قال عمران بن حصين: انظر كيف تحدث، فأنا أحد الركب تلك الليلة، فقلت: أنت[6] أعلم، فقال: ممن أنت؟ قلت: من الأنصار، قال: فأنتم أعلم بحديثكم، قال: عمران: لقد شهدت تلك الليلة وما شعرت أن أحدا حفظه كما حفظته[7].

---

(١) بضم الغين المعجمة وفتح الميم وبالراء هو القدح الصغير (شرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ١٨٨).

ووقع في (ب، ل): لي غمري.

(٢) ها هنا حاشية في هامش الأصل ظ منقولة من النهاية لابن الأثير، قال ابن الأثير: «الملأ، بفتح الميم واللام والهمزة كالأول: الخلق...وأكثر قراء الحديث يقرأونها «أحسنوا الملء» بكسر الميم وسكون اللام، من ملء الإناء. وليس بشيء. ومنه الحديث الآخر «أحسنوا أملاءكم» أي أخلاقكم» (كما في النهاية: ٤/ ٣٥١)، وانظر: (كشف المشكل ٢/ ١٥٤، وإكمال المعلم للقاضي ٢/ ٣٧٦، وشرح مسلم للنووي ٥/ ١٨٨).

(٣) ليست في (ب).

(٤) جامين رواء: أي نشاطا مستريحين (شرح مسلم للنووي ٥/ ١٨٩).

(٥) ليست في (ب).

(٦) في (ب): أنتم.

(٧) رواه مسلم في الصحيح (٦٨١).

وفي مسند الإمام أحمد -ورواه أبو يعلىٰ الموصلي- عن البراء بن عازب قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فأتينا علىٰ رَكِي ذَمَّة[1]، قال: فنزل ستة أنا سابعهم، أو سبعة أنا ثامنهم، قال: فأدليت إلي دلو، ورسول الله ﷺ علىٰ شفة الركي، فجعلنا فيها نصفها، أو قريب من[2] ثلثيها، فرفعت إلىٰ رسول الله ﷺ قال: فكددت[3] بإنائي أجد شيئا[4] أجعله في حلقي فما وجدت، قال: فغمس رسول الله ﷺ يديه فيها[5]، وقال ما شاء الله أن يقول فأعيدت إلينا[6] الدلو وما فيها، قال: فقد رأيت آخرنا أُخرج بثوب مخافة الغرق قال: وساحت»[7].

---

(١) فسره في رواية المسند: أي قليل الماء (انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٦١).
وفي شرح القاموس: «وبئر ذمة وذميم وذميمة، واقتصر الجوهري علىٰ الأولىٰ وقال: أي: قليلة الماء؛ لأنها تذم»(٣٢/ ٢٠٤).

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) في (ب، ل، د): فكدت. يوافق ما في مسند أحمد، وما ثبت صحيح، ينظر (تاج العروس ٩/ ٨٩).

(٤) في (ب): أجد فيه. وفي (د): أخذ، وفي (ب، ل، د): سقيا.

(٥) أي في الدلو، بينته رواية أحمد: فرفعت الدلو إلىٰ رسول الله ﷺ، فغمس يده فيها..

(٦) هامش ظ: إليها خ. أي هكذا في نسخة أخرىٰ.

(٧) رواه أحمد (١٨٥٨٤) وإسناده صحيح. ولم أجده في مسند أبي يعلىٰ.
وقد ضعف محقق المسند هذا الحديث لأنه من رواية يونس عن البراء، وقال: «إسناده ضعيف لجهالة حال يونس- وهو ابن عبيد مولىٰ محمد بن القاسم الثقفي- قال ابن القطان: مجهول، وفال الذهبي: لا يدري من هو» . قلت: يونس هذا ليس هو يونس بن عبيد، إنما هو يونس بن جبير، كذا ورد منسوبا في دلائل النبوة للفريابي (٢٧)، ودلائل النبوة لقوام السنة (٢٢٢)، ويونس بن جبير ثقة، من رجال الشيخين، وقد تُرجم بالرواية عن البراء وبرواية حميد بن هلال عنه، فلا يلتبس بيونس بن عبيد، لاختلاف الرواة عنهما، مع اتفاقهما بالرواية عن البراء، والله أعلم.
وقوله: ساحت أي جرت نهرا، كذا فسره في رواية أحمد.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه طرف منه عن زياد بن الحارث الصدائي قال في آخره: «ثم قلنا: يا نبي الله، إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها، واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قلَّ ماؤها، فتفرقنا علىٰ مياه حولنا، وقد أسلمنا، وكل من حولنا (ظ١٠٤) عدو، فادع الله في بئرنا أن يسعنا ماؤها، فنجتمع عليها ولا نتفرق، فدعا بسبع حصيات فعركهن في يده، ودعا فيهن، ثم قال: اذهبوا بهذه الحصيات فإذا أتيتَ البئر، فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله جلَّ وعزَّ.

قال الصدائي: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا بعد أن ننظر إلىٰ قعرها»(١).

وروىٰ الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: «أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس في العسكر ماء، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: فأتني به، قال: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال: فجعل رسول الله ﷺ أصابعه علىٰ فم الإناء وفتح أصابعه، قال: فانفجرت من بين أصابعه عيون، وأمر بلالاً فقال: ناد في الناس الوضوء

---

(١) حديث الصدائي طويل، واقتصر المصنف علىٰ طرفه الأخير، رواه البيهقي في الدلائل (٥/ ٣٥٧) والفريابي في الدلائل (٣٨)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٢١)، وقوام السنة (٧)، كلهم من طريق: عبدالرحمن بن زياد بن أنعم عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي، وابن أنعم ضعيف الحديث، قال الترمذي: رأيت البخاري يقوي أمره، ويقول: هو مقارب الحديث أهـ.قال يحي بن معين: ضعيف لا يسقط حديثه (تهذيب الكمال ١٧/ ١٠٦، سير أعلام النبلاء ٦/ ٤١٢).
وروىٰ أحمد (١٧٥٣٧) والترمذي (١٩٩) وابن ماجه (٧١٧) وأبو داود (٥١٤) من حديث زياد الصدائي جملة يسيرة ، وهي قوله: «أمرني رسول الله ﷺ أن أؤذن في صلاة الفجر»، فأذنت، فأراد بلال أن يقيم، فقال: رسول الله ﷺ: «إن أخا صداء قد أذن، ومن أذن فهو يقيم» وهذه الجملة هي التي عناها المؤلف، والله أعلم.



المبارك»(١).

فصل:

وأمَّا تكثير الطعام:

ففي الصحيحين «عن جابر قال: لما حُفر الخندق رأيت برسول(٢) الله ﷺ خَمَصًا، فانكفأت إلىٰ امرأتي، فقلت لها: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت لي جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بُهيْمة داجن، قال: فذبحتُها(٣) وطحنتْ، ففرغتْ إلىٰ فراغي، فقطعتُها في بُرمَتها، ثم وليتُ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، قال: فجئت فساررته، فقلت: يا رسول الله، إنا ذبحنا بُهيمة لنا، وطحنت صاعًا من شعير كان

---

(١) رواه أحمد (٢٢٦٨)، وهو من رواية أبي كدينة عن عطاء بن السائب، وقد سبق التنبيه عليه.

وفي صحيح مسلم (٢٧) قصة أخرىٰ حصلت في العسكر، وهو ما رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: «افعلوا»، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم»، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتىٰ ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه، قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة».

(٢) في (ب، ل): «رسول». في الموضعين.

(٣) في (ب، ل): فذبحت.



عندنا، فتعال أنت ونفر[١] معك، فصاح رسول الله ﷺ، وقال: يا أهل الخندق إنَّ جابرا قد صنع لكم سُؤْرًا، فحي هلاً بكم، وقال رسول الله ﷺ: لا تُنزِلُنَّ بُرمتكم، ولا تَخبُزنَّ عجينكم حتىٰ أجيء، فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس، حتىٰ جئت امرأتي فقالت: بك وبك، قلتُ[٢]: قد فعلت الذي قلت لي.

فأخرجتُ له عجيننا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلىٰ برمتنا فبصق فيها، وبارك ثم قال: ادعوا[٣] لي خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تُنزلوها[٤]، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتىٰ تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط[٥] كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو»[٦].

---

(١) غيرت في (ب) إلىٰ: وفقير.

(٢) في (ب، ل): قال.

(٣) كذا في الأصل ظ، وكتب فوقها صح، وكتب في الهامش: ادعي خ. أي هكذا في نسخة.
ولم يذكر الحافظ في الفتح خلافا في هذا الحرف في روايات الصحيح، وإنما ذكر: ادع خابزة، وهكذا ثبت في (ل)، ومثله في المختصر النصيح للمهلب بن أبي صفرة(٢٤٠٠)، وإرشاد الساري للقسطلاني (٦/ ٣٢٣).
وفي (ب): ادع لي جابر فليخبز.
ووقع في النسخ المطبوعة من الصحيح: ادع لي خابزة فلتخبز معي، وهكذا هو في (ب، ل)، فصار المعنىٰ: أن النبي ﷺ هو من يخبز، وهكذا هو في إرشاد الساري (٦/ ٣٢٣) عن فرع اليونينية، وفي بعضها: بدون لي، و في المختصر النصيح كالفرع (٢٤٠٠)، وهو في الأصل كما أثبته، ومثله في الفتح (٧/ ٣٩٨).

(٤) في (ب): تتركوها.

(٥) ضرب عليها في (ب) وكتب: لتنضغط.

(٦) صحيح البخاري (٤١٠٢)، صحيح مسلم (٢٠٣٩).
قوله: واقدحي، أي اغرفي، والمقدحة المغرفة (فتح الباري ٧/ ٣٩٨).

وفي رواية قال جابر: «إنَّا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدية شديدة[1] فجاءوا إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: هذه كُدية عرضت، فقال: أنا نازل، فقام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثًا لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلىٰ البيت، فقلت لامرأتي: إني رأيت من رسول الله ﷺ شيئًا ما في ذلك صبر، قالت: عندي شعير وعناق، فذبحتُ العناق[2]، وطحنتِ الشعير حتىٰ جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت إلىٰ رسول الله ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله، ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب، قال: قل لها: لا تنزع البُرمة، ولا الخبز من التنور حتىٰ آتي، قال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل علىٰ امرأته قال[3]: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، (قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلىٰ أصحابه، ثم ينزع)[4]، فلم يزل يكسر ويغرف حتىٰ شبعوا، وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة»[5].

وفي الصحيحين[6] عن (ظ١٠٥) أنس بن مالك، قال: «قال أبو طلحة لأم

---

(١) الكدية قطعة صلبة من الأرض لا يؤثر فيها المعول.

(٢) في هامش (ل): وأراد بالعناق السخلة.

(٣) عدلت في (ب) إلىٰ: «قالت».

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل)، وبدله: «إلىٰ أن قال».

(٥) صحيح البخاري (٤١٠١).

(٦) حاشية بهامش الأصل: عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أهـ أي عن أنس.

سليم: قد سمعتُ صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخذت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسَّته تحت ثوبي، وردَّتْني[1] ببعضه، ثم أرسلتني إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به فوجدته جالسًا في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: آرسلك أبو طلحة[2]، قلت: نعم، (فقال: الطعام؟[3] فقلت: نعم)[4]، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا.

قال: فانطلق وانطلقت معهم حتىٰ جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نُطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، قال: فانطلق أبو طلحة حتىٰ لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ معه حتىٰ دخل، فقال رسول الله ﷺ: هلمي يا أم سُليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز ففُتَّ، وعصرت عليه أم سُليم عكة لها فآدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتىٰ شبعوا، ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتىٰ شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم حتىٰ أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلا أو ثمانون»[5].

---

(١) في بعض طرق البخاري: ولا ثتني به، أي لفت بعضه علىٰ رأسه وبعضه علىٰ إبطه من الالتياث، وهو الالتفاف (فتح الباري٦/ ٥٨٩).

(٢) في الأصل: «ارسلك» من غير مد، والضبط من إرشاد الساري (١/ ٤٢٥).

(٣) كذا في الأصل، وفي (ل): بطعام، وفي بعض نسخ الصحيح: لطعام، وفي بعضها: للطعام، وفي بعضها: بطعام (فتح الباري ٦/ ٥٨٩، إرشاد الساري ٨/ ٢١٣).

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب).

(٥) صحيح البخاري (٣٥٧٨)، صحيح مسلم (٢٠٤٠) واللفظ له.

وفي طريق للبخاري: ثمانون[1].

وقال في رواية: ثم أكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة وأم سليم وأنس، وفضل فضلة فأهديناه لجيراننا[2].

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٨١). وفي (ب): ثمانون رجلا.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٤٠/ ٤-٥).

وفي هامش الأصل ظ حاشية صورتها:

[وقال مسلم في صحيحه (٢٠٤٠): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا عبد الله بن نمير، ح وثنا ابن نمير، واللفظ له، ثنا أبي، ثنا سعد بن سعيد، قال: حدثني أنس بن مالك، قال:

بعثني أبو طلحة إلىٰ رسول الله ﷺ أدعوه، وقد جعل طعاما، قال: فأقبلت ورسول الله ﷺ مع الناس، فنظر إلي فاستحييت، فقلت: أجب أبا طلحة، فقال للناس: «قوموا»، فقال أبو طلحة: يا رسول الله، إنما صنعنا لك شيئا، قال: فمسها رسول الله ﷺ ودعا فيها بالبركة، ثم قال: «أدخل نفرا من أصحابي عشرة»، وقال: «كلوا»، وأخرج لهم شيئا من بين أصابعه، فأكلوا حتىٰ شبعوا فخرجوا، فقال: «أدخل عشرة»، فأكلوا فخرجوا، فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتىٰ لم يبق منهم أحد إلا دخل، فأكل حتىٰ شبع، ثم هيأها فإذا هي مثلها حين أكلوا منها.

وفي رواية لمسلم في هذا الحديث: ثم أخذ ما بقي فجمعه، ثم دعا فيه بالبركة، فعاد كما كان، فقال: «دونكم هذا».

وحدثني عمرو الناقد، ثنا عبد الله بن جعفر الرقي، ثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، عن أنس بن مالك، قال:

أمر أبو طلحة أم سليم أن تصنع للنبي ﷺ طعاما لنفسه خاصة، ثم أرسلني -وساق الحديث- وقال فيه: فوضع النبي ﷺ يده وسمىٰ عليه، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فدخلوا، فقال: «كلوا وسموا الله»، فأكلوا حتىٰ فعل ذلك بثمانين رجلا، ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت، وتركوا سؤرا.

وحدثنا عبد بن حميد، قال: حدثني عبدالله بن مسلمة، ثنا عبدالعزيز بن محمد، عن عمرو بن يحيىٰ، عن أبيه، عن أنس بن مالك، بهذه القصة في طعام أبي طلحة، عن النبي ﷺ.

وقال فيه:

فقام أبو طلحة علىٰ الباب حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنما كان شيئا يسيرا، فقال له: «هلمه فإن الله سيجعل فيه البركة». =

= حدثنا عبد بن حميد، ثنا خالد بن مخلد البجلي، قال: حدثني محمد بن موسىٰ، قال: حدثني عبدالله بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ بهذا الحديث، وقال فيه:

ثم أكل رسول الله ﷺ، وأكل أهل البيت، وأفضلوا ما أبلغوا جيرانهم.

وحدثنا حسن بن علي الحلواني، ثنا وهب بن جرير، ثنا أبي،، قال: سمعت جريرا، يحدث عن عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك، قال:

رأىٰ أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعا في المسجد يتقلب ظهرا لبطن، فأتىٰ أم سليم، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ مضطجعا في المسجد يتقلب ظهرا لبطن وأظنه جائعا - وساق الحديث- وقال فيه: ثم أكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة، وأم سليم، وأنس، وفضلت فضلة فأهديناها لجيراننا.

وحدثني حرملة بن يحيىٰ التجيبي، ثنا عبد الله بن وهب، قال: أخبرني أسامة، أن يعقوب بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري، حدثه أنه سمع أنس بن مالك يقول:

جئت رسول الله ﷺ يوما فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم، وقد عصب بطنه بعصابة، قال أسامة: وأنا أشك علىٰ حجر، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلىٰ أبي طلحة وهو زوج أم سليم بنت ملحان، فقلت: يا أبتاه، قد رأيت رسول الله عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع، فدخل أبو طلحة علىٰ أمي، فقال: هل من شيء؟ فقالت: نعم، عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم، ثم ذكر سائر الحديث بقصته.

ورواه مسلم من حديث النضر بن أنس قال: نحو حديثهم].

انتهت الحاشية، وقد حشد فيها الناسخ طرق حديث أنس كما وردت في صحيح مسلم.

وفي هذه الأحاديث ونحوها بيان خطأ الإمام ابن حبان في رده ربط النبي ﷺ الحجر علىٰ بطنه من الجوع، فإنه روىٰ حديث: أنس بن مالك (٣٥٧٩)، أن النبي ﷺ قال: «لا تواصلوا»، قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كأحدكم، إني أطعم وأسقىٰ»، ثم أعقبه بقوله: «هذا الخبر دليل علىٰ أن الأخبار التي فيها ذكر وضع النبي ﷺ الحجر علىٰ بطنه هي كلها أباطيل، وإنما معناها الحجز لا الحجر، والحجز طرف الإزار، إذ الله جل وعلا كان يطعم رسول الله ﷺ ويسقيه إذا واصل فكيف يتركه جائعا مع عدم الوصال حتىٰ يحتاج إلىٰ شد حجر علىٰ بطنه، وما يغني الحجر عن الجوع». =

وفي صحيح مسلم عن سلمة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر فأمرنا أن نجمع ما في أزوادنا - يعني من التمر - فبسط نطعًا فنثرنا عليه أزوادنا، قال: فتمطيت فتطاولت فنظرت، فحزرته كربضة شاة، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا ثم، تطاولت فنظرته فحزرته كربضة الشاة»(١).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد وسلمة بن الأكوع -واللفظ لمسلم- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنَّا مع رسول الله ﷺ في مسير، قال: فنفدت أزواد القوم حتىٰ هموا بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوتَ الله عليها.

قال: ففعل، فجاء ذو البُر ببُره، وذو التمر بتمره، وذو النوىٰ بنواه.

-قيل: وما كانوا يصنعون بالنوىٰ؟ قال: يمصونه، ويشربون عليه الماء-.

قال: فدعا عليها حتىٰ ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة»(٢).

= قال الحافظ (في فتح الباري ٤/ ٢٠٨): «وقد أكثر الناس من الرد عليه في جميع ذلك، وأبلغ ما يرد عليه به أنه أخرج في صحيحه من حديث ابن عباس قال: خرج النبي ﷺ بالهاجرة فرأىٰ أبا بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما؟ قالا: ما أخرجنا إلا الجوع، فقال: وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني إلا الجوع، الحديث، فهذا الحديث يرد ما تمسك به، وأما قوله: وما يغني الحجر من الجوع؟ فجوابه أنه يقيم الصلب، لأن البطن إذا خلا ربما ضعف صاحبه عن القيام لانثناء بطنه عليه، فإذا ربط عليه الحجر اشتد وقوي صاحبه علىٰ القيام، حتىٰ قال بعض من وقع له ذلك: كنت أظن الرجلين يحملان البطن فإذا البطن يحمل الرجلين».

(١) صحيح مسلم (١٧٢٩).

(٢) هذا حديث أبي هريرة، رواه مسلم في الصحيح (٢٧)، وسيذكر المصنف بقية الروايات تباعا.

وفي لفظ آخر قال: «لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: افعلوا.

قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلَّ الظهر.

-وفي رواية: ما بقاؤهم بعد إبلهم- ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة،[1] وجعل الآخر يجيء بكف تمر، وجعل يجيء الآخر بكسرة حتىٰ اجتمع علىٰ النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم، قال: فأخذوا في أوعيتهم حتىٰ ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤه.

قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا، وفضلت فضلة» الحديث[2].

وروىٰ البخاري من حديث سلمة بن الأكوع بنحوه.

قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جهد حتىٰ هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ فجمعنا مزاودنا (ظ١٠٦) فبسطنا له نطعًا، فاجتمع زاد القوم علىٰ النطع، قال: فتطاولتُ لأحزره كم هو، فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا حتىٰ شبعنا جميعًا، ثم حشونا جُربنا.

---

(١) في (ب) زيادة: قال.

(٢) رواه مسلم (٢٧) من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد، شك الأعمش.

فقال نبي الله ﷺ: فهل من وضوء؟ قال: فجاء رجل بإدواة فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا نُدَغْفِقه دَغْفَقة[1] أربع عشرة مائة.

ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور؟ فقال رسول الله ﷺ: فرغ الوضوء»[2].

وفي صحيح مسلم عن جابر «أنَّ أم مالك[3] كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمنًا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم، وليس عندهم شيء فتعمد إلىٰ الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيها سمنًا، قال: فما زال يقيم لها أُدْم بيتها[4] حتىٰ عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال: عصرتيها؟ قالت: نعم، قال: لو تركتيها ما زال قائمًا»[5].

وروىٰ مسلم في صحيحه عن جابر أيضًا قال: «جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما، حتىٰ كاله، فأتىٰ النبي ﷺ فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم»[6].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «تزوج النبي ﷺ زينب، فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي[7] أم سليم حَيسًا، فجعلته في تَوْر من حجارة، فقالت:

---

(١) يقال: دغفق الماء إذا دفقه وصبه صبا كثيرا واسعا. وفلان في عيش دغفق: أي واسع (النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٢٣).

(٢) صحيح البخاري (٢٤٨٦)، صحيح مسلم (١٧٢٩) واللفظ له.

(٣) في (ب): أم مليك.

(٤) في (ب): بنيها.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٨٠).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٨١).

(٧) ليس في (ب).

يا أنس، اذهب بهذا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقل: بعثتْ بهذا أمي إليك، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، قال: فذهبتُ بها إلىٰ رسول الله ﷺ فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل[1]، فقال: ضعه، ثم قال: اذهب فادع لي فلانًا وفلانًا وفلانًا ومن لقيتَ، وسمَّىٰ رجالاً.

قال: فدعوت من سمىٰ ومن لقيت، قال الجعد - وهو الراوي عن أنس[2]- عدد كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله ﷺ: يا أنس، هات التَّوْر[3]، قال: فدخلوا حتىٰ امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه، قال: فأكلوا حتىٰ شبعوا.

قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتىٰ أكلوا كلهم، فقال: يا أنس، ارفع، فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون، وذكر نزول آية الحجاب»[4].

وروىٰ البخاري عن أنس أيضًا: «أن أم سليم عمدت إلىٰ مدٍّ من شعير جشَّته، وجعلت منه خَطيفة، وعصرت عُكَّة عندها، ثم بعثتني إلىٰ رسول الله ﷺ،[5] فأتيته وهو في أصحابه فدعوته، قال: ومن معي، فجئت، فقلت: إنه يقول: ومن معي،

---

(١) في (ب، ل) زيادة: يا رسول الله.

(٢) وهو الجعد أبو عثمان اليشكري البصري، من رجال البخاري ومسلم.

(٣) التور الإناء، وقد وصفه في الحديث أنه من حجارة (النهاية ١/ ١٩٩).

(٤) صحيح البخاري (٤٢١١)، صحيح مسلم (١٤٢٨) واللفظ له.

وقد ترجم عليه البخاري في بعض تراجمه: باب الحيس، وأصل الحيس ما يتخذ من التمر والأقط والسمن، وقد يجعل عوض الأقط الفتيت، أو الدقيق (فتح الباري ٩/ ٥٥٤).

(٥) في (ب) زيادة: قال.

فخرج إليه أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إنما هو شيء صنعته أم سليم، فدخل فجيء به، وقال: أدخل عشرة، حتىٰ عد أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، ثم قام فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟»[1].

وعن سمرة بن جندب قال: «كنا مع رسول الله ﷺ نتداول قصعة من غدوة إلىٰ الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، فقلنا: ما كانت تُمدُّ؟ قال: فمن أي شيء تعجب؟ ما كانت تمدُّ إلا من ههنا، وأشار بيده إلىٰ السماء».

رواه النسائي والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الدارمي والحاكم في صحيحه[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول: «والله الذي لا إله إلاَّ هو إن كنت لأعتمد علىٰ الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر علىٰ بطني من الجوع، ولقد (ظ١٠٧) قعدت يومًا علىٰ طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم عمر فسألته عن آية من كتاب الله (ما سألته)[3] إلا ليستتبعني فمر فلم يفعل.

ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق، ومضىٰ فاتبعته،

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٥٠).
قال ابن الأثير: الخطيفة لبن يطبخ بدقيق، ويختطف بالملاعق بسرعة (النهاية ٢/ ٤٩)، وقال الحافظ: الخطيفة هي العصيدة وزنًا ومعنىٰ (فتح الباري ٦/ ٥٨٩).
(٢) رواه أحمد (٢٠١٩٦)، والدارمي (٥٧)، والترمذي (٣٦٢٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٦٧٠٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ورواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٩٣)، وقال: هذا إسناد صحيح.
(٣) ليس في (ب).

فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخلت فوجد لبنًا في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان، أو فلانة، قال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق أهل الصفة فادعهم لي.

قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلىٰ أهل ولا إلىٰ مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شَربة أتقوىٰ بها، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسىٰ أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستاذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

فقال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، قال: فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتىٰ يروىٰ، ثم يرد علي القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتىٰ يروىٰ[1]، ثم يرد علي القدح حتىٰ انتهيت إلىٰ النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه علىٰ يده[2] فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب، فقعدت فشربت، فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتىٰ قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، قال: فأرني، فأعطيته القدح، فحمد الله، وسمىٰ وشرب الفضلة»[3].

---

(١) في (ب، ل) زيادة: «ثم يرد علي القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتىٰ يروي».
وليست هذه الزيادة في الأصل ولا في الصحيح.
(٢) غيرها في (ب) إلىٰ: ثغره.
(٣) صحيح البخاري (٦٤٥٢).

وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبي ﷺ: هل مع أحد منكم طعام؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعُجن، ثم جاء رجل مُشعان[1] طويل بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ: أبيعًا[2] أم عطية؟ أو قال: هبة؟ قال: بل بيع.

فاشترىٰ منه شاة فصُنعت، وأمر النبي ﷺ بسواد البطن[3] أن يشوىٰ، وأيم[4] الله ما في الثلاثين ومائة إلاَّ من قد حزَّ له النبي ﷺ حزَّة من سواد بطنها، إن كان شاهدًا أعطاه إياه، وإن كان غائبا خبَّأ له، فجعل منها قصعة، فأكلوا أجمعون، وشبعنا، ففضلت القصعتان فحملناه علىٰ البعير» أو كما قال[5].

---

(١) حاشية في هامش الأصل (ظ، ب): المشعان منتفش الشعر ثائر الراس أهـ (انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٨٢).

(٢) في (ب): أبيع.

(٣) سواد البطن أي الكبد (النهاية ٢/ ٤١٩). وهكذا ثبت في هامش (ب).

(٤) كذا في الأصل ظ بهمزة قطع، قال ابن الأثير: «أيم الله من ألفاظ القسم، كقولك لعمر الله وعهد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصل، وقد تقطع» (النهاية ١/ ٨٦).

(٥) صحيح البخاري (٢٦١٨)، صحيح مسلم (٢٠٥٦).
حاشية في هامش الأصل ظ:
[وقال الإمام أحمد: ثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح قال:
دخل أعرابي علىٰ النبي ﷺ، فلم يجد شيئا يطعمه، فدعا ربه، فأتي بلقمة، فذهب الأعرابي ليأخذها، فمنعه، ثم جزأها له أجزاء، قال: فأكل حتىٰ شبع، وفضلت فضلة.
وقال عبدالله بن الإمام أحمد: ثنا محمد بن عبدالله بن نمير ثنا حفص بن غياث، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: دخل أعرابي، فذكر نحو هذا الحديث].
قلت: حديث أحمد رواه ابنه صالح عنه في زوائد الزهد (حديث: ٢)، ولم أقف علىٰ حديث عبدالله بن أحمد.

وأما الثمار:

ففي صحيح البخاري «عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد، وترك دينًا، وترك ستَّ بنات، فلما حضر جَدَاد[1] النخل قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: قد علمت أن والدي قد استشهد يوم أحد وترك دينًا كثيرًا، وإني أحب أن يراك الغرماء.

قال: اذهب فبيدر كل تمر علىٰ ناحية.

ففعلت، ثم دعوته، فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي تلك الساعة، فلما رأىٰ ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدرًا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال: ادع لي أصحابك، فما زال يكيل لهم حتىٰ أدَّىٰ الله عن والدي أمانته، وأنا أرضىٰ أن يؤدي الله عن والدي أمانته، ولا أرجع إلىٰ أخواتي بتمرة، فسلم الله البيادر كلها، حتىٰ إني لأنظر إلىٰ البيدر الذي كان عليه النبي ﷺ كأنه[2] (ظ١٠٨) لم ينقص تمرة واحدة»[3].

وفي رواية: «أن أباه ترك عليه ثلاثين وسقًا لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبىٰ أن ينظره، فكلَّم جابر رسول الله ﷺ يشفع له إليه، فجاءه وكلم اليهودي ليأخذ تمر نخله بالذي له فأبىٰ، فدخل رسول الله ﷺ النخل فمشىٰ فيها، ثم قال لجابر: جُدَّ له فأوف له، فجدَّ له بعد ما راح رسول الله ﷺ ثلاثين وسقًا، وفضل له سبعة عشر وسقًا، فجاء جابر ليخبره بالذي كان، فوجده يصلي العصر، فلما انصرف أخبره بالفضل، فقال: أخبر بذلك ابن الخطاب،

---

(١) في (ب): «جذاذ»، والجداد والجذاذ بمعنىٰ واحد، وهو الصرام (فتح الباري٩/ ٥٦٧).

(٢) في (ب، ل): كأنها.

(٣) صحيح البخاري (٢٧٨١).

فذهب جابر إلىٰ عمر فأخبره، فقال عمر: لقد علمتُ حين مشىٰ فيها رسول الله ﷺ ليُباركنَّ فيها»[١].

وروىٰ الإمام أحمد والترمذي، وغيرهما **حديث مزود أبي هريرة**:

قال أحمد: حدثنا يونس، ثنا حماد بن زيد، عن المهاجر، عن أبي العالية، عن أبي هريرة قال: «أتيتُ النبي ﷺ بتمرات، وقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة، قال: فصفهن بين يديه، قال: ثم دعا، فقال لي: اجعلهنَّ في مزودك، وأدخل يدك ولا تنثره، قال: فحملتُ منه كذا وكذا وسقًا في سبيل الله، ونأكل ونطعم، وكان لا يفارق حقوي، فلما قتل عثمان انقطع من حقوي فسقط».

ورواه الترمذي، عن عمران بن موسىٰ القزاز، عن حماد بنحوه، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه[٢].

ورواه الحافظ عبد الغني[٣] وغيره من طريق أخرىٰ، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ في غزاة، فأصابهم عوز من الطعام فقال يا: أبا هريرة، عندك شيء؟ قال: قلت: شيء من التمر في مزود لي قال: جيءْ به، فجئت بالمزود، قال: هات نطعًا، فجئت بالنطع فبسطه، فأدخل يده فقبض علىٰ التمر، فإذا هو إحدىٰ وعشرين[٤] تمرة، قال: ثم قال: باسم الله، فجعل يضع كل تمرة، ويسمي حتىٰ أتىٰ علىٰ التمر، فقال به هكذا، فجمعه،

---

(١) صحيح البخاري (٢٣٩٦).

(٢) رواه أحمد (٨٦٢٨)، والترمذي (٣٨٣٩)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ١٠٩)، وإسناده حسن.

(٣) كذا في الأصل، وعبدالغني من مصادر المصنف، وكأن عبدالغني رواه من طريق البيهقي في الدلائل والله أعلم.

(٤) كذا في الأصول كلها، وفي المصادر: إحدىٰ وعشرون. وهو الوجه.

فقال: ادعوا فلانًا وأصحابه، فأكلوا وشبعوا وخرجوا، ثم قال: ادعوا فلانا وأصحابه، فأكلوا وشبعوا وخرجوا، قال: وفضل تمر، قال: فقال لي: اقعد، فقعدت فأكل وأكلت، قال: وفضل تمر فأخذه فأدخله في المزود، فقال: يا أبا هريرة، إذا أردت شيئًا فأدخل يدك[1] ولا تكفأ فيُكفأ عليك.

قال: فما كنت أريد تمرًا إلا أدخلت يدي فأخذت منه خمسين وسقًا في سبيل الله ﷻ، وكان معلقًا خلف ظهري، فوقع زمان عثمان فذهب»[2].

ورواه من طريق يزيد بن أبي منصور، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «أُصبت بثلاث: بموت النبي ﷺ، وكنت صويحبه، وخويدمه.

وبقتل عثمان.

والمزود، وأما المزود: كنا مع رسول الله ﷺ فأصاب الناس مخمصة، فقال لي رسول الله ﷺ: هل من شيء يا أبا هريرة؟ فقلت: نعم، شيء من تمر في مزود، قال: فائتني به، فأتيته به، فأدخل يده فأخرج قبضة[3] فبسطها، ثم قال: ادع لي عشرة، فأكلوا حتىٰ شبعوا، ثم أدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ثم قال: ادع لي عشرة، فأكلوا حتىٰ شبعوا، فما زال يصنع كذلك حتىٰ أطعم الجيش كلهم وشبعوا، ثم قال: خذ ما جئت به، وأدخل يدك واقبض، ولا تكفه.

قال أبو هريرة: فقبضت علىٰ أكثر مما جئت به.

ثم قال أبو هريرة: ألا أحدثكم عما أكلت منه، أكلت حياة رسول الله ﷺ وأطعمت، وحياة أبي بكر وأطعمت، وحياة عمر وأطعمت، وحياة عثمان

---

(١) في (ب، د) زيادة: فخذ.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١١٠)، وإسناده جيد.

(٣) في (ب): قبصة.

وأطعمت، فلما قتل عثمان انتُهب بيتي وذهب المزود»[1].

وروىٰ الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يعلىٰ بن عبيد، ثنا إسماعيل، عن قيس، عن دُكين بن سعيد المزني[2] قال: «أتينا رسول الله ﷺ أربعين وأربعمائة نسأله الطعام، فقال لعمر: اذهب فأعطهم[3]، فقال: يا رسول الله (ظ١٠٩)، ما بقي إلا آصع[4] من تمر ما أرىٰ تُقَيِّظني[5]، قال: اذهب فأعطهم[6]، قال: سمع وطاعة، قال: فأخرج عمر المفتاح من حُجْزته[7]، ففتح الباب، فإذا شبه الفصيل الرابض من تمر، فقال لنا: خذوا، فأخذ كل رجل منا ما أحب، ثم التفتُّ وكنتُ من آخر القوم، وكأنَّا لم نرزأ تمرة».

ورواه أبو داود، عن عبد الرحيم بن مطرف، عن عيسىٰ بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن دكين.

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: وإسناده علىٰ شرط الصحيح[8].

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١١٠)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٤٢)، ويزيد بن أبي منصور لا بأس به، لكن والده لم أقف له علىٰ ترجمة.

(٢) في الأصل ظ: المدني، تصحف، والتصحيح من باقي النسخ ومن مصادر ترجمة دكين، وهي كثيرة.

(٣) في المسند: أربعين راكبا وأربع مائة..

(٤) في (ب): أصيع.

(٥) تصحف هذا الحرف فيما سوىٰ الأصل، ففي (ب): ما أراه يقتضني، وفي (ل): يقيضني، وفي (د): تقبصني.

(٦) في (ل): قال: فأطعمهم.

(٧) الحجزة موضع مشد الإزار، والجمع: حجز (النهاية ١/ ٣٤٤).

(٨) رواه أحمد (١٧٥٧٧)، وأبو داود(٥٢٣٨)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٦٧).

في هامش الأصل ظ: بلغ مقابلة.

فصل:

وأما النوع الخامس[1]: تأثيره في الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له.

ففي صحيح البخاري عن أنس قال: «صَعِدَ النبي ﷺ أُحدًا، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال: اسكن - وضربه برجله - فليس عليك إلا نبي، وصديق، وشهيدان»[2].

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[3].

وفي الترمذي عن علي، قال: «كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله». ورواه الحاكم في صحيحه[4].

---

(١) كذا في كل الأصول الخطية، وحقه أن يكون السادس، كما سبق ونبهنا علىٰ النوع الماضي.
إلا أن كلمة الخامس في الأصل (د) مغيرة، كأنها كانت السادس فغيرها إلىٰ الخامس.

(٢) صحيح البخاري (٣٦٧٥).
وهاهنا حاشية في الأصل (د): «قوله في صحيح البخاري قلت: وكذا في صحيح مسلم فهو متفق عليه هـ سفاريني».
قلت: هو في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٢١٤٧)، ولفظه: عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، كان علىٰ حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيد».
ولم يخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، ولم يخرجه مسلم من حديث أنس.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٧٧). وليس هو في صحيح البخاري.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٢٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٩) وفي إسناده: الوليد بن أبي ثور ضعيف الحديث.

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينًا، فلما واجهنا العدو تقدمته، فأعلو ثنية، فاستقبلني رجلٌ من العدو فأرميه بسهم فتوارىٰ عني، فما دريت ما صنع، ونظرت إلىٰ القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرىٰ، فالتقوا هم وأصحاب النبي ﷺ، فولىٰ أصحاب النبي ﷺ، وأرجع منهزمًا، وعلي بردتان متزرٌ بإحداهما ومُرتَدٍ[1] بالأخرىٰ، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعا، ومررت علىٰ رسول الله ﷺ منهزمًا[2] وهو علىٰ بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: لقد رأىٰ ابن الأكوع فزعًا، فلما غشوا النبي ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، واستقبل به وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانًا إلاَّ ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله»[3].

وفي صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ علىٰ بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نُفاثة الجذامي، فلما التقىٰ المسلمون والكفار ولىٰ المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُركض بغلته قِبل الكفار.

قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها، إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أي عباس، ناد أصحاب السمرة، فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر علىٰ

---

(١) كذا في الأصل، وفي (ب، ل): متزر..مرتديا، وفي (د): متزرا.. مرتديا.
(٢) حال من سلمة، أي أنه كان منهزما لما مر بالنبي ﷺ.
(٣) صحيح مسلم (١٧٧٧).

أولادها: يا لبيك يا لبيك.

قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة علىٰ بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو علىٰ بغلته كالمتطاول عليها إلىٰ قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حَمِيَ الوَطِيس»(١).

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمىٰ وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال علىٰ (ظ١١٠) هيئته فيما أرىٰ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرىٰ حدَّهم كليلاً، وأمرهم مدبرًا حتىٰ هزمهم الله»(٢).

وقد قال الله تعالىٰ: عن يوم بدر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) قال النووي: «قال الأكثرون: هو شبه التنور يسجر فيه، ويضرب مثلا لشدة الحرب التي يشبه حرها حره ،وقد قال آخرون: الوطيس هو التنور نفسه، وقال الأصمعي: هي حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد يطأ عليها، فيقال: الآن حمي الوطيس، وقيل: هو الضرب في الحرب، وقيل: هو الحرب الذي يطيس الناس أي يدقهم، قالوا: وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من أحد قبل النبي ﷺ» (شرح مسلم ١٢/ ١١٦).

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٦).

قال النووي: «هذا فيه معجزتان ظاهرتان لرسول الله ﷺ إحداهما: فعلية، والأخرىٰ: خبرية، فإنه ﷺ أخبر بهزيمتهم ورماهم بالحصيات فولوا مدبرين، وذكر مسلم في الرواية الأخرىٰ في آخر هذا الباب أنه ﷺ قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل بها وجوههم فقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة، وهذا أيضا فيه معجزتان خبرية وفعلية، ويحتمل أنه أخذ قبضة من حصىٰ وقبضة من تراب فرمىٰ بذا مرة وبذا مرة، ويحتمل أنه أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصىٰ وتراب»(شرح مسلم١٢/ ١١٦).

وروىٰ ابن إسحاق عن جماعة، منهم: عروة والزهري وعاصم بن عمر وغيرهم، قالوا: «فكان رسول الله ﷺ في العريش هو وأبو بكر، ما معهما غيرهما، وقد تدانىٰ القوم بعضهم من بعض، فجعل رسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من نصره، ويقول: اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وأبو بكر يقول: بعضَ مناشدتك ربك يا رسول الله، فإن الله سينجز لك ما وعدك من نصره.

وخفق رسول الله ﷺ خفقة ثم هبَّ، فقال رسول الله ﷺ: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله ﷻ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، علىٰ ثناياه النقع - يقول: الغبار -.

ثم خرج رسول الله ﷺ فعبأ أصحابه وهيأهم، وقال: لا يعجلن رجل منكم بقتال حتىٰ نؤذنه، فإذا أكثبكم القوم - يقول: قربوا منكم - فانضحوهم عنكم بالنبل، ثم تزاحم الناس فلما تدانىٰ بعضهم من بعض خرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من حصباء ثم استقبل بها قريشًا، فنفخ بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، ثم قال رسول الله ﷺ: احملوا عليهم يا معشر المسلمين، فحمل المسلمون وهزم الله قريشًا، وقُتل مَن قُتل من أشرافهم، وأُسر من أُسر منهم»[1].

(١) رواه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق (٣/ ٨٠).
وانظر: السيرة لابن هشام ٣/ ١٧٤، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٠٠.
وإنما أورده المصنف لقوله: فأخذ حفنة من حصباء ثم استقبل بها قريشا، فنفخ بها وجوههم..الخ، وقد روىٰ مسلم في الصحيح (١٧٦٣) بعض هذا الحديث، لكن ليس فيه هذه الجملة.

وفي حديث ابن أبي طلحة الوالبي(١)، عن ابن عباس: «فقال له جبريل: خذ قبضة من تراب، فأخذ قبضة من تراب، ورمىٰ بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه ترابًا من تلك القبضة، فولوا مدبرين»(٢).

فصل:

النوع السادس من آياته: تأييد الله له بملائكته.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥].

وقال تعالىٰ (في الخندق)(٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٧٨) مطولا، وروىٰ ابن جرير الطبري في التفسير (١٣/ ٣٩٩) بعضه.

وعلي بن أبي طلحة صاحب نسخة مشهورة عن ابن عباس، وهي معدودة من النسخ الحسان (العجاب في بيان الأسباب ١/ ٢٠٣).

(٣) ما بين القوسين ليس في (ب).

وقال تعالىٰ في حنين[1]: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

وقال (في الهجرة)[2]: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال تعالىٰ (في بدر)[3]: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلىٰ المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما (ظ ١١١) زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبِل القبلة حتىٰ سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه علىٰ منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كذاك[4] مناشدتك ربك

---

(١) في الأصول الخطية كلها أخطأ في أول الآية، وكتب: (فأنزل..). وليس قوله: في حنين في النسخة (ب).

(٢) ليس في (ب).

(٣) ليس في (ب).

(٤) كذا في الأصل (ظ، د)، وكتب في هامشهما: كفاك خ. أي هكذا هي في نسخة. وهكذا ثبت في (ب، ل). =

فإنه سينجز لك ما وعدك.

فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة»[١].

قال أبو زُمَيل[٢]: فحدثني ابن عباس قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد[٣] في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلىٰ المشرك أمامه فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة[٤] بالسوط فاخضر ذلك أجمع.

فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين» وذكر الحديث[٥].

وذكر البخاري في هذا الحديث «فخرج يعني النبي ﷺ، وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]»[٦].

وقال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن بعض بني ساعدة قال: «سمعت أبا[٧] أُسيد مالك بن ربيعة[٨] بعدما أُصيب بصره يقول:

= وقد بين القسطلاني اختلاف النسخ من الصحيح في هذا الموضع، وأن الأكثر علىٰ: كذاك (إرشاد الساري ٦/ ٢٤٦).

(١) رواه مسلم في الصحيح (١٧٦٣).

(٢) هو سماك الحنفي راوي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ب): يمتد.

(٤) في (ب): كضربته.

(٥) صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٦) صحيح البخاري (٣٩٥٣).

(٧) في هامش (د): في الأصل: سمعت أن الخ.

(٨) هو أبو أسيد الساعدي، من كبراء الأنصار شهد بدرا والمشاهد، مات سنة ٤٠ (سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٣٨).

لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري لأخبرتكم بالشِّعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارىٰ، فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحىٰ الله إليهم ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، إن الملائكة تأتي الرجل في صورة الرجل تعرفه وتقول له: أبشروا فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كروا[١] عليهم.

فلما رأىٰ إبليس الملائكة نكص علىٰ عقبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم فإنه علىٰ موعد من محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزىٰ، لا نرجع حتىٰ نقرن محمدًا وأصحابه في الحبال فلا تقتلوهم، وخذوهم أخذا»[٢].

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهم ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله ﷺ أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام»[٣].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: «أصيب سعد[٤] يوم الخندق رماه رجل من قريش: ابن العَرِقَة، رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح فاغتسل فأتاه جبريل عليه السلام، وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: وضعت

---

(١) في (ب): كبروا.
(٢) رواه البيهقي في الدلائل ٣/ ٥٣، وانظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٤. وفي إسناده مجهول.
(٣) صحيح البخاري(٤٠٥٤)، صحيح مسلم (٢٣٠٦).
(٤) هو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

السلاح، والله ما وضعناه، اخرج إليهم، فقال رسول الله ﷺ: فأين؟ فأشار إلىٰ بني قريظة، فقاتلهم رسول الله ﷺ، فنزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ، فردَّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلىٰ سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبىٰ الذرية والنساء، وتقسم أموالهم»(١).

وفي بعض طرق البخاري: «فأتاه جبريل وقد عصب رأسَه الغبارُ»(٢).

وروىٰ البخاري عن أنس قال: «كأني أنظر إلىٰ الغبار ساطعًا في زُقاق بني غَنْمٍ، موكبَ جبريل صلوات الله عليه حين سار رسول الله ﷺ إلىٰ بني قريظة»(٣).

وروىٰ البخاري عن ابن عباس «أن النبي ﷺ (ظ١١٢) قال يوم بدر: هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»(٤).

وفي المغازي من طرق: أنَّ الصحابة رأوا جبريل في صورة دحية الكلبي، وأنه معتمٌّ بعمامة أرخىٰ طرفها بين كتفيه، وقال النبي ﷺ: «بعثه الله إلىٰ بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويلقي الرعب في قلوبهم»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (٤١٢٢)، صحيح مسلم (١٧٦٩).

(٢) صحيح البخاري (٢٨١٣)، والمراد أن الغبار صار علىٰ رأسه كأنه عصابة.

(٣) صحيح البخاري (٤١١٨). وقوله: ساطعا أي مرتفعا (فتح الباري ٧/ ٤٠٨).

(٤) صحيح البخاري (٣٩٩٥). وترجم عليه البخاري: باب غزوة أحد (٤٠٤١).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤٣٥)، والبيهقي فيه (٤/ ١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع صوت رجل فوثب وثبة شديدة وخرج إليه. قالت: فاتبعته أنظر فإذا هو متكئ علىٰ عرف برذونه وإذا هو دحية الكلبي فيما كنت أرىٰ، وإذا هو معتم مرخ عمامته بين كتفيه فلما دخل علي رسول الله ﷺ قلت: لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت أنظره فإذا هو دحية الكلبي. قال: أو رأيته؟ قلت: نعم. قال: «ذاك جبرئيل عليه السلام أمرني أن أخرج إلىٰ بني قريظة». =

وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله هل أتىٰ عليك يوم كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

قال: فناداني مَلك الجبال، وسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟.

فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا»(١).

= وفي إسناده عبدالله العمري ضعيف الحديث، ورواه الإمام أحمد (٢٥٠٩٧) مطولا من طريق أخرىٰ عن عائشة. فيها ضعف كذلك، ورواه أبو نعيم (٤٣٦) من حديث سعيد بن المسيب مرسلا. ورواه ابن إسحاق (في السيرة: ٢٩٧) من حديث عكرمة مرسلا.
وجعله البيهقي شاهدا لحديث عائشة.
قال ابن كثير: «ولهذا الحديث طرق جيدة، عن عائشة وغيرها» (البداية والنهاية ٦/ ٧٥).

(١) صحيح البخاري (٣٢٣١)، صحيح مسلم (١٧٩٥).

النوع السابع: في كفاية الله له أعداءه، وعصمته له من الناس.

وهذا فيه آية لنبوته من وجوه:

منها: أنَّ ذلك تصديقٌ لقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦]، فهذا إخبار الله بأنه يكفيه[1] المشركين المستهزئين[2].

وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

فأخبره الله تعالىٰ أنه يكفيه هؤلاء المشاقِّين له من أهل الكتاب[3].

---

(١) الكفاية: ما فيه سد الخلة وبلوغ المراد في الأمر(المفردات:٢/ ٧١٩) والمعنىٰ: أن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم (تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥١).
قال ابن جرير: «يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئا سوىٰ الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين، وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين.»(تفسير الطبري١٧/ ١٥٣). وهؤلاء المستهزءون خمسة، وهم: الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن الطلاطلة، وقد كفاه الله ﷻ شأنهم بأهون الأسباب وأيسرها، كما روىٰ ذلك أهل التفسير والسير، وسيذكره المصنف (جامع البيان ١٧/ ١٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٦٢).
(٢) ليست في (ب،ل).
(٣) قال ابن كثير: فسيكفيكهم الله أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم.

وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فهذا خبر عام، فإنَّ الله يعصمه من جميع الناس(١).

فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة قد وقع كما أخبر، وفي هذا عدة آيات:

منها: أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة.

ومنها: أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبتهم، وأنه كان وحده جاهرًا بمعاداتهم، وسب آبائهم، وشتم (١٣٠) آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، والطعن في دينهم، وهذا من الأمور الخارقة للعادة.

والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش، وعظماء العرب، وكان أهل مكة أهل الحرم أعزَّ الناس وأشرفهم، تعظمهم جميع الأمم:

أمَّا العرب فكانوا يدينون لهم، وأما غيرهم من الأمم فكانوا يعظمونهم به لا سيما مِن حين جرىٰ لأهل الفيل ما جرىٰ، كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر، وهؤلاء بنو إسماعيل ابن خليل الله، وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله، وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده من إنعام الله عليه النعمة التي لم ينعم الله بها(٢) علىٰ غيرهم.

---

(١) قال الراغب: وعصمة الأنبياء: حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية، ثم بالنصرة وبتثبت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق، قال تعالىٰ: والله يعصمك من الناس (المفردات: ٥٧٠).
ومعنىٰ الآية: «أي: بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك علىٰ أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك ولذا كان ﷺ يحرس قبل نزول هذه الآية» (تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٢).

(٢) في (ب): لم ينعمها علىٰ.

فكان أهل مكة مُعظَّمين لأنهم جيران البيت، ولأنهم أشرف (ظ١١٣) بني إسماعيل فـ«إنَّ الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشا من كنانة، واصطفىٰ بني[1] هاشم من قريش، واصطفىٰ محمدًا ﷺ من بني هاشم»[2].

وكان قد عاداه أشراف هؤلاء كما عادىٰ المسيح أشراف بني إسرائيل، وبدَّل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفرًا، وأحلوا قومهم دار البوار، وكفىٰ الله رسوله المسيح من عاداه منهم، ولم ينفعهم نسبهم، ولا فضل مدينتهم، وكذلك كفىٰ الله محمدًا من عاداه، وانتقم منهم، ولم تنفعهم أنسابهم[3]، ولا فضل مدينتهم، فإنَّ الله تعالىٰ إنَّما يثيب[4] بالإيمان والتقوىٰ لا بالبلد والنسب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

---

(١) ليست في (ب، ل).
(٢) رواه مسلم من حديث واثلة بن الأسقع (٢٢٧٦).
(٣) في (د): انتسابهم.
(٤) في (ب): يثبت، وهو مهمل في (ل).

وقد سمَّىٰ أهل العلم بعض من كفاه الله إياه من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة في الدنيا، فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذي أكرم الله به نبيه.

ففي صحيح مسلم[1] عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم، قال: واللات والعزىٰ لئن رأيته يفعل ذلك[2] لأطأنَّ علىٰ رقبته[3]، فما فجأهم منه إلاَّ وهو ينكص علىٰ عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له ما لك؟ قال: إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»، وأنزل الله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ٩-١٩][4].

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب -حديث هجرة النبي ﷺ وأبي بكر من مكة إلىٰ المدينة- قال فيه: «واتبعنا سراقة بن مالك بن جعشم، ونحن في جَدَد من الأرض، فقلت: يا رسول الله، أُتينا، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلىٰ بطنها فقال: إني قد علمتُ

(١) كذا في (ظ)، وهو الصحيح، وفي (د، ل): وفي الصحيحين، وفي (ب): ففي الصحيح.
(٢) في (ب): كذلك.
(٣) هاهنا نقص في كل النسخ الخطية، سببه -والله أعلم- انتقال نظر الشيخ، وتتمته كما في الصحيح: «أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتىٰ رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ علىٰ رقبته».
(٤) رواه مسلم (٢٧٩٧).

أنكما قد دعوتما علي فادعوا لي، والله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا الله فنجا، فرجع لا يلقىٰ أحدًا إلا قال: قد كُفيتم ما هاهنا، فلا يلقىٰ أحدًا إلا رده»[(١)].

وفي لفظ: «فساخ فرسه في الأرض إلىٰ بطنه، ووثب عنه فقال: (يا محمد)[(٢)] قد علمتُ أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك علي لأعمين علىٰ مَن ورائي»[(٣)].

وفي الصحيحين عن ابن شهاب من رواية سراقة نفسه[(٤)] قال: «جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتىٰ قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، ثم لبثت ساعة ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليَه حتىٰ أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتىٰ دنوت منهم، وعثرت بي (ظ١١٤) فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدي إلىٰ كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره فركبت وعصيت الأزلام،

---

(١) صحيح البخاري(٣٦١٥)، صحيح مسلم (٢٠٠٩).

(٢) النداء ليس في (ب).

(٣) وهو لفظ في صحيح مسلم (٢٠٠٩/ ٢).

(٤) قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول، فذكره.

فقربت بي حتىٰ إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ -وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات- ساخت يدا فرسي في الأرض حتىٰ بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار[1] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان[2] فوقفوا، فركبت فرسي حتىٰ جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ...» وذكر تمام الحديث[3].

وفي الصحيحين عن جابر قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزاة قِبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في القائلة، في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم علىٰ رأسي، والسيف صلتًا في يده، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فشام السيف، فها هو ذا جالس، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ، وكان ملك قومه فانصرف حين عفا عنه فقال: لا أكون في قوم هم حرب[4] لك»[5].

وفي صحيح الحاكم عن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق قال: «كان فلان يجلس إلىٰ النبي ﷺ فإذا تكلم النبي ﷺ اختلج بوجهه، فقال له النبي ﷺ: كن كذلك.

---

(١) في (ب): عنان.

(٢) كذا في الأصول كلها إلا ظ وصحيح البخاري (إرشاد الساري ٦/ ٢١٩)، وفي (ظ): الايمان، ولم يبين همزتها، ولم أجد في روايات الصحيح ما يؤيدها والله أعلم.

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٤) في (ب): حزيب.

(٥) صحيح البخاري (٢٩١٠)، صحيح مسلم (٨٤٣).

فلم يزل يختلج حتىٰ مات»[1].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «كان رجل نصراني[2] فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلاَّ ما كتبت[3] له، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعله آية».

فأماته الله فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا مثل الأول، فحفروا له وأعمقوا فلفظته الثالثة، فعلموا أنه ليس من فعل الناس، فتركوه منبوذا»[4].

وروىٰ الإمام أحمد من حديث محمد[5] بن إسحاق قال: وحدثني يحيىٰ بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «قلت له:

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٠)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢٣٩)، وقوام السنة في الدلائل (١١). قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قلت: في إسناده: ضرار بن صرد متروك الحديث (تهذيب الكمال ١٣/ ٣٠٥، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٢٨).
قال قوام السنة: «الاختلاج الارتعاد كان يحرك شفتيه وذقنه استهزاء بالنبي ﷺ يحكي ما فعل النبي ﷺ فدعا عليه النبي ﷺ فبقي كذلك يرتعد بوجهه إلىٰ أن مات» (دلائل النبوة ٣٨).

(٢) كذا في الأصول وبعض نسخ الصحيح، وذلك علىٰ أن كان تامة (عمدة القاري للعيني).

(٣) في (ب): كنت.

(٤) صحيح البخاري (٣٦١٧)، صحيح مسلم(٢٧٨١)، إلا أن قوله: «اللهم اجعله آية» ليس فيهما، ولم أجد هذه اللفظة في طرق الحديث، ولا ذكرها المهلب بن أبي صفرة ولا ابن بطال ولا ابن حجر ولا القسطلاني (٦/ ٦٤) في شروحهم.
وقد ذكرها معزوة للصحيحين ابن الأثير في جامع الأصول (١١/ ٣٦٧)، وتبعه السوسي في جمع الفوائد (٣/ ٤٦٨)، وذلك محل نظر، وفي مسند أحمد (١٢٢١٥): فقال النبي ﷺ: إن الأرض لم تقبله (انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ١٢٧)..

(٥) ليست في (ب، ل).

ما أكبر[1] ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعَتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، أو كما قالوا.

قال: فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتىٰ استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول.

قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضىٰ، فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: «تسمعون يا معشر قريش، أمَا والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»[2].

فأخذت القوم كلمته حتىٰ ما منهم رجل إلا كأنَّما علىٰ رأسه طائر واقع، حتىٰ إنَّ أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرْفَؤه[3] بأحسن ما يجد من القول، حتىٰ إنَّه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا (ظ١١٥)، فوالله ما كنت جهولاً.

فانصرف رسول الله ﷺ، حتىٰ إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتىٰ إذا باداكم[4] بما تكرهون تركتموه.

---

(١) في (ب، ل، د): أكثر.

(٢) في هامش (ب): كناية عن القتل.

(٣) أي يسكنه ويرفق به ويدعو له (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٤١).

(٤) في (ب): ناداكم.



فبينا هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك».

قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه يقول وهو يبكي: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] ثم انصرفوا عنه»[1].

وذكر البخاري بعد حديث عروة عن عبد الله بن عمرو، قال: وقال عبدة: عن هشام عن أبيه قيل: لعمرو بن العاص[2].

وروىٰ سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة من بني أسد بن عبد العزىٰ، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل.

فأومأ جبريل إلىٰ أكحل الوليد بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: ما صنعت؟ قال: كُفيته.

---

(١) رواه أحمد (٧٠٣٦)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧٥) من طريق ابن إسحاق، وإسناده حسن.

(٢) وذلك أن البخاري رواه مختصرا في الصحيح (٣٨٥٦) من طريق محمد بن إبراهيم التيمي، قال: حدثني عروة بن الزبير، قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: «بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا» فأقبل أبو بكر حتىٰ أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] الآية، ثم قال: تابعه ابن إسحاق، حدثني يحيىٰ بن عروة، عن عروة، قلت: لعبد الله بن عمرو، وقال: عبدة، عن هشام، عن أبيه، قيل لعمرو بن العاص، وقال: محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، حدثني عمرو بن العاص.

وأومأ إلىٰ الأسود بن المطلب إلىٰ عينيه فقال: ما صنعت؟ فقال: كفيته.

وأومأ إلىٰ رأس الأسود بن عبد[1] يغوث فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته.

وأومأ إلىٰ الحارث السهمي إلىٰ بطنه قال: ما صنعت؟ قال: كفيته.

وأومأ إلىٰ أخمص العاص بن وائل فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته.

فأمَّا الوليد فمر برجل من خزاعة، وهو يريش نبله[2] فأصاب أكحله فقطعها.

وأمَّا الأسود بن المطلب فعمي، فمنهم من يقول عمي هكذا، ومنهم من يقول: نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بني ألا تدفعون عني، ويقولون: ما نرىٰ شيئا، فجعل يقول: هلكت ها هو ذا أطعن في عيني بالشوك، فجعلوا يقولون: ما نرىٰ شيئا، فلم يزل كذلك حتىٰ عميت عيناه.

وأمَّا الأسود فخرج في رأسه قروح فمات منها.

وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتىٰ خرج خرؤه من فيه فمات[3].

وأما العاص بن وائل فركب إلىٰ الطائف علىٰ حمار فربض به علىٰ شبرقة -يعني شوكة- فدخلت في أخمص قدمه فمات، وقيل: دخلت في رأسه شبرقة

---

(١) سقطت من ظ، وقد ذكرها آنفا.

(٢) في (ب): وهو يريش نبلا فرمي فأصاب..

(٣) روىٰ ابن جرير في التفسير (١٧/ ١٥٦) عن أبي بكر الهذلي، قال: قلت للزهري: إن سعيد بن جبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال سعيد: هو الحارث بن عيطلة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس؟ فقال: صدقا، كانت أمه تسمىٰ عيطلة وأبوه قيس.

فمات[1].

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، ثنا أبو عوانة، ثنا أبو بشر، عن سعيد، عنه[2].

وروىٰ بإسناده عن الربيع بن أنس قال: «أراد صاحب اليمن أن يؤوي[3]

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٩٨٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣١٦) من طريق سفيان بن حسين عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال السيوطي: إسناده حسن (الدر المنثور٥/ ١٠١). لكن فيه نظر من حيث إن سفيان بن حسين قد خولف فيه، فقد رواه ابن جرير من طريق هشيم بن بشير عن أبي بشر جعفر بن إياس سعيد بن جبير مقطوعا عليه، لم يذكر ابن عباس (تفسير الطبري ١٧/ ١٥٥) وهذا أصح، ورواه ابن جرير من طريق أخرىٰ عن سعيد من قوله، (وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٤).

وروىٰ ابن جرير (١٧/ ١٥٩) من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانية، وإسناده جيد، ولم يسق ابن جرير لفظه بل أحال علىٰ حديث قتادة عن مقسم، ولفظه: قال: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، مروا رجلا رجلا علىٰ النبي ﷺ ومعه جبرئيل، فإذا مر به رجل منهم قال جبرئيل: كيف تجد هذا؟ فيقول: بئس عدو الله، فيقول جبرئيل: كفاكه، فأما الوليد بن المغيرة، فتردىٰ، فتعلق سهم بردائه، فذهب يجلس فقطع أكحله فنزف فمات، وأما الأسود بن عبد يغوث، فأتي بغصن فيه شوك، فضرب به وجهه، فسالت حدقتاه علىٰ وجهه، فكان يقول: دعوت علىٰ محمد دعوة، ودعا علي دعوة، فاستجيب لي، واستجيب له، دعا علي أن أعمىٰ فعميت، ودعوت عليه أن يكون وحيدا فريدا في أهل يثرب فكان كذلك، وأما العاص بن وائل، فوطئ علىٰ شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتىٰ هلك، وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس، فإن أحدهما قام من الليل وهو ظمآن، فشرب ماء من جرة، فلم يزل يشرب حتىٰ انفتق بطنه فمات، وأما الآخر فلدغته حية فمات..

(٢) وهذا من طريق الطيالسي، ولم أجده في مسنده، ولا ذكره السيوطي في الدر المنثور.

(٣) تصحفت في (ب) إلىٰ: يرقي.

النبي ﷺ فأتاه الوليد فزعم أنَّ محمدًا ساحر، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمدًا يعلم أساطير الأولين، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن، وآخر زعم أنه شاعر، وآخر قال: إنه مجنون، فأهلكهم الله، كل منهم أصابه عذاب سوىٰ عذاب صاحبه، وذكر تفصيل عذابهم»[١].

وروىٰ مثله عن عكرمة[٢].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة[٣] -وغيره من العلماء-: «أن جبريل أتىٰ رسول الله ﷺ، وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلىٰ جانبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمىٰ في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلىٰ بطنه فاستسقىٰ فمات منه، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلىٰ جرح بأسفل كعبه كان أصابه لما مر برجل يريش نبله فخدش رجله -وليس بشيء- فانتقض فمات، ومر به العاص بن وائل فأشار إلىٰ إخمص قدمه[٤]» (ظ١١٦). فذكر مثل ما تقدم من رواية ابن عباس[٥].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٣.

(٢) أثر عكرمة عند ابن جرير في التفسير (١٧/ ١٥٦) وهو مختصر فيه ذكر أسمائهم الخمسة، وقال: هلكوا قبل بدر .

(٣) كذا في (ب، ل)، وفي (ظ، د): عكرمة. والصحيح ما أثبتناه، كذا هو في السيرة، ومصادر التخريج. فضلا عن أن يزيد من موالي آل الزبير، وهو مشهور بالرواية عن عروة دون عكرمة، حيث لم يذكر له المزي رواية عن عكرمة، (تهذيب الكمال٣٢/ ١٢٢).

(٤) في (ب): قدميه.

(٥) رواه ابن إسحاق في السيرة (٢٧٣)، وابن جرير في التفسير (١٧/ ١٥٤) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠٢)، وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٦١).

ورواه أبو زرعة من طرق كثيرة عن جماعة من التابعين[١].

ومن المشهور عند أصحاب السير وغيرهم دعوته علىٰ عُتيبة بن أبي لهب.

«وكان أبو لهب لما عادىٰ النبي ﷺ أمر ابنيه أنْ يُطلقا ابنتي النبي ﷺ: رقية وأم كلثوم قبل الدخول، وقال عتيبة لرسول الله ﷺ: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك، ثم تسلط عليه بالأذىٰ، وشق قميصه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك».

فخرج في نفر من قريش حتىٰ نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخي، هو والله آكلي كما دعا محمد علي، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام، فعدا عليه الأسد من بين القوم، وأخذ برأسه فذبحه[٢].

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: لما أطاف بهم الأسد[٣] تلك الليلة، انصرف عنهم، فناموا وجعلوا عُتيبة في وسطهم، فأقبل الأسد يتخطاهم حتىٰ أخذ برأس عتيبة ففدغه[٤]»[٥].

---

(١) وفي هؤلاء المستهزئين أنزل قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣]، روي ذلك عن عكرمة (تفسير ابن جرير ١٢/ ٩٤).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨) عن قتادة مرسلا.

(٣) في (ب، ل): الأسد بهم.

(٤) الفدغ الشق والشدخ اليسير، كما ذكره ابن الأثير.

(٥) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣٩) عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلا. =

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلىٰ سلىٰ جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقىٰ القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل علىٰ بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتىٰ انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت -وهي جويرية- فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم.

= وروىٰ الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٩، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٣٨) من طريق أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه، قال: «كان لهب -ابن أبي لهب- يسب النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ويدعو عليه، قال: فقال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: اللهم سلط عليه كلبك، قال: وكان أبو لهب يحمل البز إلىٰ الشام، ويبعث بولده مع غلمانه ووكلائه ويقول: إن ابني أخاف عليه دعوة محمد فتعاهدوه، قال: وكانوا إذا نزل المنزل ألزقوه إلىٰ الحائط، وغطوا عليه الثياب والمتاع، قال: ففعلوا ذلك به زمانا، فجاء سبع فنشله فقتله، فبلغ ذلك أبا لهب فقال: ألم أقل لكم إني أخاف عليه دعوة محمد»..

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال البيهقي: كذا قال عباس بن الفضل -وليس بالقوي- لهب بن أبي لهب، وأهل المغازي يقولون: عتبة بن أبي لهب، وقال بعضهم: عتيبة.

وروىٰ أبو نعيم نحوه في دلائل النبوة (٣٨٠) (٣٨٣) عن رجال من أهل بيت عثمان بن عروة بن الزبير، وعن هبار بن الأسود، وعن طاوس.

وروىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٠٢) حديث هبار بن الأسود.

قلت: ووروده من هذه الطرق الكثيرة يصحح الخبر، ويقضي أن له أصلا، وأن زعم الطيبي بأنه حديث موضوع (كما في الفتح السماوي٢/ ٥٤٨) ليس بصحيح.

وانظر: تفسير الثعلبي الكشف والبيان ٩/ ١٣٥، وتخريج أحاديث الكشاف للزيلعي ٣/ ٣٧٧.

فلما قضىٰ النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثا، ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع لم أحفظه، فوالذي بعث محمدًا بالحق لقد رأيت الذي سمىٰ صرعىٰ يوم بدر ثم سحبوا إلىٰ القليب قليب بدر»[1].

[وعنه قال: استقبل رسول الله ﷺ القبلة، ودعا علىٰ ستة نفر فذكره، وفي رواية: غير أن أمية بن خلف كان رجلاً ضخمًا فقطعت أوصاله فلم يلق في البئر. وقال: غيرتهم الشمس، وكان يومًا حارًّا[2]][3].

ويدخل في هذا الباب:

ما لم يزل الناس يرونه ويسمعونه: من انتقام الله ممن يسبه[4] ويذمه ويذم دينه بأنواع من العقوبات، وفي ذلك من القصص الكثيرة ما يضيق هذا الموضع عن بسطه، وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة، التي تبين كلاءة الله لعرضه، وقيامه بنصره، وتعظيمه لقدره، ورفعه لذكره، وما من طائفة من الناس إلاَّ وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولي الألباب.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٠)، صحيح مسلم (١٧٩٤).
(٢) صحيح البخاري (٣٩٦٠)، صحيح مسلم (١٧٩٤).
(٣) هذه الزيادة التي علمت علىٰ أولها وآخرها سقطت من الأصل (ظ)، وهي ثابتة في (ب، ل، د، ونسخة الإفتاء، و ط النيل).
(٤) في (ب) زيادة: ويؤذيه. أي يؤذي النبي ﷺ.

ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن، ويطول الحصار إلىٰ أن يسب العدو الرسول ﷺ فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن، وانتقام الله من العدو، فإنه يكون ذلك قريبا كما قد جربه المسلمون غير مرة، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣][١].

ولما[٢] مزَّق كسرىٰ كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم[٣].

---

(١) الشانئ هو المبغض، أي: إن مبغضك -يا محمد- ومبغض ما جئت به من الهدىٰ والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره، وقد ذكر أهل العلم أن سبب نزولها قول بعضهم لبعض: إن محمدا أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، وذكروا في ذلك روايات كثيرة.
قال ابن كثير: «وهذا يرجع إلىٰ ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقىٰ الله ذكره علىٰ رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه علىٰ رقاب العباد، مستمرا علىٰ دوام الآباد، إلىٰ يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائما إلىٰ يوم التناد»(تفسير ابن كثير ٨/ ٥٠٥).

(٢) في (ب): وكما... فمزق.

(٣) يشير إلىٰ ما روىٰ البخاري في الصحيح (٦٤)، عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه رجلا وأمره أن يدفعه إلىٰ عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلىٰ كسرىٰ، فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ «أن يمزقوا كل ممزق» فتح الباري (٨/ ١٢٧).

النوع الثامن: في إجابة دعواته.

وإجابة الدعاء منه ما تكون إجابته معتادة لكثير من عباد الله: كالإغناء، (ظ١١٧) والعافية، ونحو ذلك.

ومنه ما يكون المدعو به من خوارق العادات: كتكثير الطعام والشراب كثرة خارجة عن العادة، وإطعام النخل في العام مرتين مع أن العادة في مثله مرة، ورد بصر الذي عمي، ونحو ذلك مما يأتي وما تقدم من أدعيته.

ومعلوم أنَّ من عوَّده الله إجابة دعائه لا يكون إلاَّ مع صلاحه ودينه، ومن ادَّعىٰ النبوة لا يكون إلا من أبرِّ الناس إن كان صادقًا أو من أفجرهم إن كان كاذبًا، وإذا عوده الله إجابة دعائه لم يكن فاجرًا بل برًّا، وإذا لم يكن مع دعوىٰ النبوة إلا برًّا تعيَّن أن يكون نبيًا صادقًا، فإن هذا يمتنع أن يتعمد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالاًّ يظنُّ أنه نبي وأنَّ الذي يأتيه ملك ويكون ضالاً في ذلك، والذي[1] يأتيه الشيطان، فإنَّ هذا حال من هو جاهل بحال نفسه وحال من يأتيه، ومثل هذا لا يكون أضل منه، ولا أجهل منه، لأن الله تعالىٰ جعل بين الملائكة والشياطين وبين الأنبياء الصادقين وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفروق ما لا يحصيه غيره، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار.

ولأن ما يأتي به الأنبياء من الأخبار والأوامر مضادة[2] من كل وجه لما يأتي به الشيطان[3]، ومن استقرأ أحوال الرسل وأتباعهم وحال الكهان والسحرة

---

(١) في (ب): وإن الذي.

(٢) سقطت من ب، وبدلها في (ل): يخالف.

(٣) في (ب): الشياطين.

تبين له ما يحقق[1] ذلك.

والشيطان الذي يقول لمن ليس بنبي: «إنك نبي صادق، والله أرسلني إليك» يكون من أعظم الناس كذبًا، والكذب يستلزم الفجور فلا بد أن يأمره بما ليس بِرًّا بل إثمًا، ويخبره بما ليس صدقًا بل كذبًا، كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جهلة العباد، وممن تُزيِّن له أنه نبي أو أنه المهدي أو خاتم الأولياء، فكل هؤلاء لا بد أن تأمره الشياطين بإثم، ولا بد أن تكذب في بعض ما تخبره به تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١- ٢٢٢].

وحينئذ فمثل هذا لا يكون مع دعوىٰ النبوة من الأبرار الذين عودهم الله إجابة دعائهم إجابةً خارجة عن العادات، بل لا يكون مع دعوىٰ النبوة إلا مِن الأفاكين الفجار، وإذا كان صادقًا في دعوىٰ النبوة عالمًا بأنه صادق ثبت أنه نبي.

والأنبياء معصومون من الإقرار علىٰ خطأٍ فيما يبلغونه عن الله باتفاق الناس، وحينئذ فكل ما يبلغه عن الله فهو حق، وهو المطلوب.

ومَن كان يأتيه صادق وكاذب مثل ابن صياد[2]، ومثل كثير من العُبَّاد

---

(١) في (ب): له تحقيق.

(٢) يشير إلىٰ ما روىٰ البخاري (١٣٥٤) ومسلم (٢٩٣٠) من حديث سالم بن عبد الله، أن ابن عمر رضي الله عنهما، أخبره أن عمر انطلق مع النبي ﷺ في رهط قبل ابن صياد، حتىٰ وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتىٰ ضرب النبي ﷺ بيده، ثم قال لابن صياد: «تشهد أني رسول الله؟»، فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه وقال: «آمنت بالله وبرسله» فقال له: «ماذا ترىٰ؟» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي ﷺ: «خلط عليك الأمر» ثم قال له النبي ﷺ: «إني قد خبأت لك خبيئا» =

الـذين لهـم إلهـام مـن الملـك، ووسـواس مـن الشـيطان، (فمثـل هـذا إذا أخـبره الشيطان)[1] بأنه نبي، ويقول: أنا أرسلني الله فلا بد أن يتبين كذبـه، ولـو بـبعض الوجوه، مثل أن يخبره بكذب، فإن مثل هذا الشيطان الـذي قـال لـه: «إنَّـه نبـي» لا بد أن يكذب فيما يخبره به.

ومثل إخبار الصادق له بأن هذا كاذب، فإذا أتاه الشيطان بالكذب لا بد أن يخبره الصادق الذي يأتيه بما يخـالف ذلـك بخـلاف الإخبـار بـأمور جزئيـة، إذ إخباره بأنه نبي صادق[2] مع أنه ليس كذلك يهلكه هلاكًا عظيمًـا، ويُفسـد علىٰ الصادق جميع ما يأتيه به لأن ذلـك يستلزم أن يصـدق ذلـك الكـاذب في كـل مـا يخبره به، إذ قـد اعتقـد أنـه نبي، وحينئـذ فـلا يكـون عنـده كاذبًا ولا يعـرف أنـه كاذب، فلا يكون مثل ابن صياد ونحوه، ممن يعرف أنه يأتيه صادق وكاذب، بل أضل من هؤلاء؛ يظن أن كل ما يأتيه فهو صادق(ظ١١٨).

ولهذا كل من كان يأتيه إخبار ملكي صادق وإخبار شيطاني كاذب فلا بد أن يعرف أنه يأتيه كاذب؛ لأنه يتبين له الكذب فيما يخبره به الشيطان الكاذب، كما هو الواقع، ولهذا يوجد الكهان يعرفون كذب من يخبرهـم كثيرًا، وكذلك العباد الذين لهم خطابات ومكاشفات بعضها شيطاني وبعضها ملكي، يتبين لهم الكذب فيما يأتيهم به الشيطان، كما هو الواقع، فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطاني إلا ولا بد أن يخبره بكذب يظهر له أنه كذب، وحينئذ فإذا صدق هذا

= فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال: «اخسأ، فلن تعدو قدرك» فقال عمر ﵁: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله».

(١) سقط من المطبوعة، وهو ثابت في الأصول.

(٢) في (ب): نبي صدق صادق.

الكاذب في إخباره النبوة كان مُصدقًا للكاذب، ولأن الصادق الذي يأتيه مخبراً له بالصدق ناصحًا له لا بد أن يبين له ذلك، فلا يُصر علىٰ اعتقاد أن من يأتيه صادق وهو في نفس الأمر كاذب، ولا يعلم أنه كاذب إلا من هو أفاك أثيم، والله تعالىٰ يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١- ٢٢٢]، فتنزلها علىٰ الأفاك الأثيم، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين فقد يكون علىٰ من ليس بأفاك أثيم، فإن من لم يكن مدَّعيًا للنبوة لم يكن من هذا الباب، وإن كان مدَّعيًا للنبوة فيمتنع أن يُقره الصادق الذي يأتيه علىٰ ذلك، بل لا بد أن يبين له هذا إن جوز ذلك.

فإنَّ الناس تنازعوا: هل يجوز أن يُلقي الشيطان علىٰ لسان النبي ما ينسخه الله ويمحاه، أم لا يجوز ذلك؟ وعلىٰ كل حال يمتنع أن يقر علىٰ خطأ[1].

والمقصود هنا: إنما هو ذكر بعض أدعية النبي ﷺ التي شُوهد إجابتها.

وقد تقدم ذكر بعض أدعيته مثل:

دعائه علىٰ الملأ من قريش فقتلوا يوم بدر، وألقوا في القليب، ومثل دعائه علىٰ عُتيبة بن أبي لهب، ومثل دعائه علىٰ الذي كذب عليه بأن يجعله آية، ومثل دُعائه لما قلَّ الزاد وجمعوه علىٰ نطع فكثره الله ببركة دعوته حتىٰ كفىٰ الجيش العظيم في غزوة تبوك، ومثل دعائه في غزوة الخندق فكفىٰ الطعام -وهو صاع من شعير- لألف نفر، وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر الحديبية فكثر ماؤها حتىٰ كفىٰ الركب -وهم ألف وخمسمائة- وركابهم[2]، ودعاؤه للذي ذهب بصره

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٥/ ٢٥٧، منهاج السنة النبوية ١/ ٤٧٠.
(٢) في (ب، ل): وقد تقدم.

فأبصر، ودعاؤه في الاستسقاء فما رد يديه إلاَّ والسماء قد أمطرت[1]، ودعاؤه في الاستصحاء، وإشارته إلىٰ السحاب فتقطع من ساعته، ودعوته علىٰ سراقة بن جعشم لما تبعهم في الهجرة فغاصت فرسه في الأرض، ودعاؤه يوم بدر، ويوم حنين.

وقال الله تعالىٰ له يوم بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وأمثال ذلك.

وفي الصحيحين عن جابر قال: «لما نزل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال النبي ﷺ: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2] قال: «هاتان أهون أو أيسر»[3].

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، فلن يزال الهرج إلىٰ يوم القيامة»[4].

---

(١) في (ب): مطرت.

(٢) سبق قلمه في ظ، فكتب: ويذيق بأسكم بأس بعض.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٢٨).

(٤) رواه مسلم في الصحيح (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، بلفظ: «سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها».
ويشبه أن المصنف أراد حديث جابر بن عتيك -الذي رواه أحمد في المسند(٢٣٧٤٩)- قال:: جاءنا عبد الله بن عمر، في بني معاوية قرية من قرىٰ الأنصار، فقال لي: =

وفي صحيح مسلم من «حديث سلمة بن الأكوع قال: جعل عمي يرتجز ويقول:

تالله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن مِن فضلك ما استغنينا ... فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قالوا: عامر قال: «غفر لك ربك»، قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد.

قال: فنادىٰ عمر[1] -وهو علىٰ جمل له-: يا نبي الله لولا متعتنا بعامر (ظ١١٩) قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: فبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسل سيفه فرجع سيفه علىٰ نفسه فقطع أكحله، وكانت فيها نفسه.

= هل تدري أين صلىٰ رسول الله ﷺ من مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم فأشرت له إلىٰ ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن فيه؟، فقلت: نعم. قال: فأخبرني بهن فقلت: «دعا بأن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم: فمنعنيها» قال: صدقت، فلا يزال الهرج إلىٰ يوم القيامة.
قال ابن كثير: «ليس هو في شيء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوي، ولله الحمد والمنة.»(تفسير ابن كثير٣/ ٢٧١).

(١) في (ب، ل): بن الخطاب.

قال (سلمة: فخرجت في نفر من أصحاب رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه، قال)[1]: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، بطل عمل عامر، (قتل نفسه)[2]؟ قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «من قال ذلك؟» قلت: ناس من أصحابك، قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»[3].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «قالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له، فقال: اللهم أكثر[4] ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته»[5].

وروىٰ البخاري قال: «دخل النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم علىٰ أم سليم فأتته بتمر وسمن فقال: «أعيدوا سمنكم في سقائه، وتمركم في وعائه» ثم قام إلىٰ ناحية البيت فصلىٰ غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خويصة، فقال: «ما هي؟» قالت: خادمك أنس قال: فما ترك خير[6] آخرة ولا دنيا إلا دعا به[7]: «اللهم ارزقه مالاً وولدًا، وبارك له فيه» فإني لمن[8] أكثر الأنصار مالاً، وحدثتني ابنتي أمينة أنه دفن لصلبي إلىٰ

---

(١) سقط من (ب).

(٢) ليس في (ب، ل).

(٣) رواه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٧) واللفظ له.

(٤) في (ب): أكرم. تصحيف.

(٥) صحيح البخاري (٦٣٣٤)، صحيح مسلم (٢٤٨٠).

(٦) ليس في (ل).

(٧) في (ب) زيادة: قال.

(٨) ليست في (ل).

مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة»[1].

وفي رواية لمسلم: «دعا لي بثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة»[2].

وفي الترمذي -وحسنه - عن أبي خلدة قال: قلت لأبي العالية: «سمع أنس من رسول الله ﷺ؟ قال: خدمه عشر سنين، ودعا له النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم، وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منه ريح المسك»[3].

وفي صحيح مسلم «عن أبي هريرة قال: كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام، وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ، وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام وتأبىٰ علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة».

فخرجتُ مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فصرت إلىٰ الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلتْ، ولبستْ درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، فقالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله، أبشر فقد استجاب الله دعوتك، وهدىٰ أم أبي هريرة، فحمد الله وقال خيرا.

---

(١) صحيح البخاري (١٩٨٢).
(٢) صحيح مسلم (٢٤٨١).
(٣) سنن الترمذي (٣٨٣٣)، وإسناده صحيح.

فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني وأمي إلىٰ عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب عبدك هذا -يعني أبا هريرة- وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين، وحبب إليهما المؤمنين».

فما خلق الله من مؤمنٍ يسمع بي ولا يراني إلا أحبني»[١].

وفي الصحيحين «عن أنس أن النبي ﷺ (ظ ١٢٠) رأىٰ علىٰ عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة، فقال: «ما هذا؟» قال: يا رسول الله إني تزوجت امرأة، قال: «كم سقت إليها؟» قال: وزن نواة من ذهب، قال: «فبارك الله لك، أولم ولو بشاة»[٢].

وفي الصحيحين «أنه لما قدم آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه سعد أن يناصفه أهله وماله، فقال له عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني علىٰ السوق، (فدلوه علىٰ السوق، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم بايع الغد» وذكر الحديث[٣])[٤].

فظهرت بركة دعوة النبي ﷺ، فبلغ من مال عبد الرحمن ما قاله الزهري: أنه تصدق بأربعمائة ألف دينار، وحمل علىٰ خمسمائة فرس في سبيل الله، وخمسمائة بعير في سبيل الله، قال: وكان عامة ماله من التجارة[٥].

---

(١) صحيح مسلم (٢٤٩١).

(٢) صحيح البخاري (٦٣٨٦)، صحيح مسلم (١٤٢٧).

هامش (ف):نواة الذهب تطلق علىٰ ما وزنه خمسة دراهم أو ثمنه خمسة دراهم، أو حجم نواة تمر.

(٣) ما بين القوسين ليس في (ب، ل، المطبوعة).

(٤) صحيح البخاري (٣٩٣٧)، ولم يخرج مسلم قصة المؤاخاة.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٦٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٩٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٢٦٣). =

وقال محمد بن سيرين: اقتسم نساء عبد الرحمن بن عوف ثمنهن فكان ثلاثمائة وعشرين ألفا[1].

وقال الزهري: أوصىٰ عبد الرحمن لمن شهد بدرًا -فوجدوا مائة- لكل رجل منهم أربعمائة دينار[2].

وقال عبد الله بن جعفر: حدثتني أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن باع أرضًا بأربعين ألف دينار، فقسمها في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين[3].

= وروىٰ الطبري (في التفسير ١٠/ ١٩٥) عن قتادة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾ [التوبة: ٧٩]، قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله، أربعة آلاف دينار، فقال أناس من المنافقين: إن عبد الرحمن لعظيم الرياء.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٠٤)، وروىٰ كذلك نحوه عن مجاهد، وروىٰ عن أنس بن مالك قال: رأيته قسم لكل امرأة من نسائه بعد موته مائة ألف، وروىٰ عن أبي صالح قال مات عبد الرحمن بن عوف وترك ثلاث نسوة فأصاب كل واحدة مما ترك ثمانون ألفا ثمانون ألفا، وعن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه: صولحت امرأة عبد الرحمن من نصيبها ربع الثمن علىٰ ثمانين ألفا.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٠٠).

(٣) تاريخ دمشق ٣٥/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء ١/ ٨٥.

وهو قصة من حديث رواه أحمد (٢٤٧٢٤) والحاكم (٣/ ٣١٠) من حديث أم بكر أن عبد الرحمن بن عوف، باع أرضا له من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين، قال المسور: فأتيت عائشة بنصيبها، فقالت: من أرسل بهذا؟ فقلت: عبد الرحمن، قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا يحنو عليكن بعدي، إلا الصابرون»، سقىٰ الله عبد الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة.

وأم بكر فيها جهالة، حيث لم يوثقها إلا ابن حبان ولم يرو عنها إلا راو واحد.

وقال محمد بن عمرو عن أبي سلمة[1]: إنَّ عبد الرحمن أوصىٰ لأمهات المؤمنين بحديقة قوِّمت بأربعمائة ألف.

وفي الترمذي -وصححه- ورواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك؛ بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام».

وكان عمر بن الخطاب أحبهما إلىٰ الله فأسلم عمر»[2].

---

(١) كذا في (ب،ل)، وفي (ظ، د): محمد بن عمرو بن أبي سلمة. والصحيح ما أثبت.
فإن الترمذي والحاكم وابن عساكر رووه من طريق قريش بن أنس عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: خياركم خياركم لنسائي.
قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: فأوصىٰ أبي لهن بحديقة قومت أو بيعت بأربعمائة ألف.
(سنن الترمذي ٣٧٥٠، المستدرك ٣/ ٣٥٢، تاريخ دمشق ٣٥/ ٢٨٢، سير أعلام النبلاء ١/ ٨٥ -لم يرو الترمذي حديث أبي هريرة-).
وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمن بن عوف، حدث عن أبيه بشيء يسير، لأن أباه توفي وهو صبي صغير (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٧).

(٢) رواه أحمد (٥٦٩٦)، والترمذي (٣٦٨١)، وقال: حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، وابن حبان في صحيحه (٦٨٨١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢١٦).
قلت: تفرد به خارجة بن عبدالله عن نافع عن ابن عمر، وخارجة مختلف فيه، قال أحمد والدارقطني: ضعيف الحديث، وقال ابن معين: ليس به بأس (ميزان الاعتدال١/ ٦٢٥) فمثله لا يقبل حديثه إذا تفرد عن إمام مكثر له أصحاب ثقات، كنافع.
تابعه: عبيدالله بن عمر من رواية المبارك بن فضالة عنه، رواه من طريقه الحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وهذا الإسناد منكر، تفرد به مبارك بن فضالة، وهو معروف بتدليس التسوية، وضعفه النسائي وغيره (ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣١).
وله شواهد: =

وروي أنَّ الدعوة كانت في يوم الأربعاء فأسلم يوم الخميس، وأعز الله به الإسلام[1].

= الأول رواه ابن ماجه (١٠٥) وابن حبان (٦٨٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة»وفي إسناده مسلم بن خالد الزنجي ضعيف الحديث (ميزان الاعتدال: ٤/ ١٠٢).

وله إسناد آخر أمثل، وهو ما رواه الحاكم (٣/ ٨٣) من طريق الماجشون بن أبي سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه ومدار هذا الحديث علىٰ حديث الشعبي عن مسروق عن عبد الله اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك وقد تفرد به مجالد بن سعيد عن الشعبي ولم أذكر لمجالد فيما قبل روايته.

قلت: وإسناد الحاكم صحيح.

الثاني: رواه الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عباس، وفيه: النضر أبو عمر، منكر الحديث، وقال الترمذي: وقد تكلم بعضهم في النضر أبي عمر، وهو يروي مناكير.

الثالث: ما أشار إليه الحاكم (٣/ ٨٣) من حديث المجالد عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام فجعل الله دعوة رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه فبني عليه ملك الإسلام وهدم به الأوثان.

لم يصححه الحاكم لأن في إسناده مجالد بن سعيد في حديثه لين، مع أنه مكثر عن الشعبي (ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٨).

(١) رویٰ الحاكم (٣/ ٥٠٢) عن عثمان بن الأرقم أنه كان يقول: أنا بن سبع الإسلام أسلم أبي سابع سبعة وكانت داره علىٰ الصفا وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها في الإسلام وفيها دعا الناس إلىٰ الإسلام فأسلم فيها قوم كثير وقال رسول الله ﷺ ليلة الإثنين فيها اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأسلم في دار الأرقم وخرجوا منها وكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين ودعيت دار الأرقم دار الإسلام....

وروىٰ نحوه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢١٦) من حديث أسامة بن زيد بن أسلم عن أبه عن جده عن عمر، وفيه: دعا يوم الاثنين، وروىٰ (٢/ ٢١٩) عن أنس أنه دعا ليلة الخميس. وكل هذه الروايات في أسانيدها نظر، ولذا عبر المصنف بقوله: روي.

قال عبد الله بن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» رواه البخاري[1].

وظهر من عز الإسلام في إمارته - شرقًا وغربا؛ وفتح الشام والعراق ومصر؛ وكسر عساكر كسرىٰ وقيصر- ما تحقق به إجابة الدعوة.

وفي الصحيحين أنَّ: «ابن عباس وضع للنبي ﷺ لما أتىٰ الخلاء وضوءًا فقال لما خرج: «من وضع هذا؟» فقيل: ابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[2].

وفي رواية قال: «ضمني رسول الله ﷺ إلىٰ صدره، وقال:» اللهم علمه الكتاب[3]».

وفي رواية: «الحكمة»[4].

وظهرت إجابة دعوته حتىٰ كان يسمىٰ: البحر[5].

وقال فيه ابن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا لما عشره منا أحد[6].

وكان عمر يقدمه ويدخله مع أكابر الصحابة، وعلم ابن عباس مشهور في

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٨٤).

(٢) صحيح البخاري (١٤٣)، صحيح مسلم (٢٤٧٧).

إلا أن لفظة: وعلمه التأويل ليست في الصحيحين، نص علىٰ ذلك الحميدي وابن حجر (فتح الباري ١/ ١٧٠).

وهي مروية بإسناد حسن من غير طريق الصحيحين، فقد رواها أحمد (٢٣٩٧)، وابن حبان في الصحيح (٧٠٥٥)، والحاكم (٣/ ٥٣٤)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ١٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧٥)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٦)، وبعده قوله: والحكمة: الإصابة في غير النبوة.

(٥) انظر طرفا من أقوالهم في ذلك في فتح الباري (٧/ ١٠٠).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ١٩٣)، فتح الباري (٧/ ١٠٠).

الأمة[1].

وفي الصحيحين عن جابر قال: «كنت أسير علىٰ جمل قد أعيا، وأردت أن أسيبه، قال: فلحقني رسول الله ﷺ فضربه ودعا له، فسار سيرا لم يسر مثله.

وفي رواية: قال لي: «ما لبعيرك؟» فقلت: عليل[2]، قال: فتخلف رسول الله ﷺ فزجره[3] فدعا له، فما زال يسير بين يدي الإبل قدامها، فقال: «كيف ترىٰ بعيرك؟» قلت: بخير، قد أصابته بركتك. قال: فتبيعنيه[4]» وذكر الحديث[5].

وفي الترمذي وغيره: قال النبي ﷺ: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»[6].

---

(١) فقد روىٰ البخاري (٤٢٩٤): عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتىٰ معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: «إنه ممن قد علمتم» قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رئيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا حتىٰ ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. قال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تعلم».

(٢) هذا لفظ مسلم، وعند البخاري: عيي.

(٣) في الأصل (ظ، ب، ل): في حره، وفي (د): في حيزه. والمثبت من الصحيح.

(٤) في (ل): فتبعنيه، وفي (د، ط النيل): فبعنيه.

(٥) صحيح البخاري (٢٧١٨)، صحيح مسلم (٧١٥).

(٦) رواه الترمذي (٣٧٥١) بإسناد حسن، من طريق جعفر بن عون عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن حازم عن سعد، ثم قال: وقد روي هذا الحديث عن إسماعيل، عن قيس أن النبي ﷺ قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» وهذا أصح. =

وفي لفظ: «اللهم أجب دعوته، وسدد رميته»، فكان سعد لا يرمي إلا يصيب، ولا يدعو إلا أجيب»[١].

وروىٰ الحاكم في صحيحه «عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرضتُ فعادني رسول الله ﷺ (ظ١٢١)، وأنا أقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخرا فارفعني، وإن كان بلاء فصبرني، فقال: «اللهم اشفه، اللهم عافه» ثم قال: «قم» فقمت، فما عاد إلي ذلك الوجع بعد»[٢].

وفي الصحيحين عن أم خالد قالت: «أتي رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: «من ترون نكسوه هذه الخميصة؟» فأسكت[٣] القوم، فقال: «ائتوني بأم خالد» فأتي بي رسول الله ﷺ فألبسنيها، فقال: «أبلي وأخلقي[٤]» مرتين.

= والإرسال هو رواية أصحاب إسماعيل كما أفاده الدارقطني في العلل (١/ ٢٥٩).
ولكن لم يتفرد جعفر بالوصل، فقد رواه كذلك موسىٰ بن عقبة، رواه عنه أبو نعيم علىٰ اللفظ التالي، وسيأتي في التعليقة التالية.

(١) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٥١٢) وإسناده جيد.

(٢) رواه أحمد (٦٣٧)، والترمذي (٣٥٦٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في الصحيح (٦٩٤٠)، والدارقطني في العلل (٣/ ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٠)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٧٤)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ١٧٩).
وفي إسناده عبدالله بن سلمة المرادي صاحب علي بن أبي طالب، في حديثه ضعف، وقد اختلط، وقال عمرو بن مرة: كان يحدثنا فتعرف وتنكر (العلل لأحمد بن حنبل ١٨٢٤، ميزان الاعتدال ٢/ ٤٣٠).

(٣) في (ل، د): فسكت.

(٤) في (ب): وأخلفي.
قال ابن الأثير: وفي حديث أم خالد «قال لها أبلي وأخلقي» يروىٰ بالقاف والفاء، فبالقاف من إخلاق الثوب تقطيعه، وقد خلق الثوب وأخلق. وأما الفاء فبمعنىٰ العوض والبدل، وهو الأشبه (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٧١). =

فجعل ينظر إلىٰ علم الخميصة ويشير بيده إلي، ويقول: «يا أم خالد هذا سنا» والسنا بلسان الحبشة الحسن، فبقيت حتىٰ دكن»[1].

وعن أبي زيد[2] عمرو بن أخطب الأنصاري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ادن مني» فمسح بيده علىٰ رأسي ولحيتي ثم قال: «اللهم جمله، وأدم جماله».

قال الراوي عنه[3]: فبلغ بضعًا وثمانين سنة، وما في لحيته بياض إلا نزر يسير، ولقد كان منبسط الوجه، ولم يتقبض وجهه حتىٰ مات.

رواه الإمام أحمد، وقال البيهقي: إسناده صحيح[4].

= وقد أشار الحافظ إلىٰ هذا الخلاف في الفتح (١٠/ ٢٨٠)، وأن الفاء رواية أبي زيد المروزي، وهكذا هو في المختصر النصيح (١١٠٦).

(١) صحيح البخاري (٣٠٧١)، وقوله: حتىٰ دكن، في صحيح البخاري: حتىٰ ذكر، أي ذكر الراوي من بقائها أمدا طويلا، وفي نسخة الصغاني وغيرها حتىٰ ذكرت، قال الحافظ: ولبعضهم حتىٰ دكن بمهملة وآخره نون أي اتسخ (فتح الباري ٦/ ١٨٤) وهي رواية أبي ذر عن الكشميهني (فتح الباري ١٠/ ٤٢٦)، ولم يذكرها المهلب بن ابي صفرة (المختصر النصيح:١١٠٦).

(٢) في المطبوعة وط النيل: أبي يزيد، وهو تصحيف، فالنسخ الخطية كلها علىٰ ما أثبت، وهو الصحيح، وهو صحابي جليل حديثه في الكتب الستة إلا البخاري (تهذيب الكمال٢١/ ٥٤٢).

(٣) وهو: علباء بن أحمر، وعلباء إنما قال: «فلقد بلغ بضعا، ومائة سنة وما في رأسه ولحيته بياض، إلا نبذ يسير، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتىٰ مات» كذا في المصادر.

(٤) رواه أحمد (٢٠٧٣٣)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢١٠)وقال: «هذا إسناد صحيح موصول». وقد توبع فيه علباء بن أحمر عن أبي زيد، فرواه أبو نهيك عن أبي زيد عمرو بن أخطب، رواه أحمد (٢٢٨٨١)، وابن حبان (٧١٧٢) والحاكم (٤/ ١٣٩)، والبيهقي (٦/ ٢١٢). =

ورواه الترمذي، وقال: «مسح رسول الله ﷺ يده علىٰ وجهي ودعا لي».

«قال عزرة[١]: إنه عاش مائة وعشرين سنة، وليس في رأسه إلا شعيرات بيض». قال الترمذي[٢]: حديث حسن[٣].

وذكر[٤] البخاري في تاريخه: يعقوب بن إسحاق بن حنظلة بن حنيفة بن حِذْيَم قال: قال حِذْيَم[٥]: يا رسول الله إني رجل ذو سن، وهذا أصغر بني، فسمت عليه، قال: «تعال يا غلام» فأخذ بيدي، ومسح برأسي، وقال: «بارك الله فيك» أو «بورك فيك» فرأيت حنظلة يؤتىٰ بالإنسان الوارم فيمسح بيده، ويقول: بسم الله، فيذهب الورم، وفي رواية: والشاة، والبعير»[٦].

ويذكر عن أبي سفيان -واسمه مدلوك- أنه ذهب إلىٰ النبي ﷺ فأسلم

= ولفظه: نهيك، حدثني أبو زيد عمرو بن أخطب الأنصاري قال: استسقىٰ رسول الله ﷺ ماء، فأتيته بقدح فيه ماء، فكانت فيه شعرة فأخذتها فقال: «اللهم جمله» قال: فرأيته وهو ابن أربع وتسعين ليس في لحيته شعرة بيضاء.

(١) في الأصول كلها: عروة، وهو تصحيف، صوابه ما أثبت.

(٢) في (ب، ل): وقال حديث حسن.

(٣) رواه الترمذي (٣٦٢٩) من طريق عزرة بن ثابت عن علباء بن أحمر، وهو الطريق الأول للحديث، قال الترمذي: حديث حسن غريب، وأبو زيد اسمه عمرو بن أخطب.

(٤) في (ب، ل، د): وقال.

(٥) في الأصل ظ: خذيم في الموضعين، وهو مخالف لما في كتب التراجم وباقي النسخ. وأما ضبطه فمن الأصل و د وتبصير المنتبه (١/ ٤٢١).

(٦) رواه أحمد (٢٠٦٦٥)، والبغوي في معجم الصحابة (٢/ ١٨٦) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٢١٤) وذكره البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٧)، وليس في المطبوع ولا في الدلائل للبيهقي حيث نقله عن البخاري: «ثنا»، ولا «عن» بل فيه: قال يعقوب بن إسحاق: حنظلة بن حنيفة بن حذيم قال: قال حذيم.

وفي الإسناد: الذيال بن حنظلة، قال يحي بن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: شيخ أعرابي (الجرح والتعديل ٣/ ٤٥٢) والحديث صحيح.

فدعا له النبي ﷺ، ومسح رأسه بيده، ودعا له بالبركة. فكان مقدم رأسه موضع يد النبي ﷺ أسود، وسائره أبيض» ذكره البخاري أيضًا[1] في تاريخه[2].

وروىٰ الإمام[3] أحمد في مسنده عن أبي العلا قال: «كنت عند قتادة بن ملحان في مرضه الذي مات فيه، فمر رجل في مؤخر الدار فرأيته في وجه قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ مسح[4] وجهه، وكنت قبل ما رأيته إلاَّ رأيته[5] كأن علىٰ وجهه الدهان»[6].

[7]وفي صحيح البخاري أن عبدالله بن هشام كان يخرج إلىٰ السوق فيلقاه[8] ابن الزبير وابن عمر، فيقولان له: أشركنا، فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلىٰ المنزل[9].

وفي مسند الإمام أحمد «عن عروة بن أبي الجعد قال: عرض للنبي ﷺ جلبٌ فأعطاني دينارًا، وقال: «أي عروة ائت الجلب فاشتر شاة» فأتيت الجلب

---

(١) قدمها في (ب، ل).

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٥٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢١٥)، وقوام السنة في دلائل النبوة نقلا من كتاب الطبراني «دلائل النبوة» (١٧٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٨/ ٣٤٧).
وفيه مطر بن العلاء، قال أبو حاتم: شيخ، ووثقه ابن حبان، يروي عن عمته آمنة بنت أبي الشعثاء لم أجد لها ذكرا في غير هذا الحديث (تاريخ ابن عساكر: ٦٩/ ٤٤).

(٣) في (ب، ل)/ وروىٰ أحمد بإسناده.

(٤) في (ب): يمسح.

(٥) في (ب، ل): قال: وكنت قبل ما رأيته إلا ورأيته..

(٦) رواه أحمد (٢٠٣١٧)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢١٧)، وإسناده صحيح.

(٧) الحديث التالي سقط من المطبوعة، وهو ثابت في كل الأصول الخطية وط النيل.

(٨) في (ب، ل، د): فيتلقاه.

(٩) رواه البخاري في الصحيح (٢٥٠١)، والمعنىٰ: أنه يربح الراحلة بأكملها.

فساومت صاحبه فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت بهما أسوقهما فلقيني رجل فساومني فأبيعه[1] شاة بدينار، فجئت بالدينار وجئت بالشاة، فقلت: يا رسول الله هذا ديناركم، وهذه شاتكم، قال: «وصنعت كيف؟» قال: فحدثته الحديث فقال: «اللهم بارك له في صفقة يمينه» فلقد[2] رأيتني أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفًا قبل أنْ أصل إلىٰ أهلي» (رواه الإمام أحمد)[3].

وفي لفظ (آخر قال الراوي عنه: «فكان)[4] لو اشترىٰ التراب لربح فيه» رواه البخاري عن أهل داره عنه[5].

وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع «أن رجلاً أكل عند النبي ﷺ بشماله فقال له: «كل بيمينك» (ظ١٢٢) قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلىٰ فيه»[6].

ورویٰ مالك في موطئه عن زيد بن أسلم «عن جابر بن عبد الله السلمي

---

(١) في (ب، د): فابتعته، وهكذا هي في أصل (ل) وصححها في الهامش.

(٢) في (ب): كذلك.

(٣) ما بين القوسين ليس في الأصل (ظ).
رواه الإمام أحمد (١٩٣٦٢)، من حديث أبي لبيد عن عروة، وإسناد حسن.

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٥) صحيح البخاري (٣٦٤٢)، من حديث شبيب بن غرقدة، قال: سمعت الحي يحدثون، عن عروة، ثم ذكر حديثا بعده، هو مراده من الرواية، قال الحافظ: «ومما يدل علىٰ أن البخاري لم يقصد تخريج الحديث الأول أنه أخرج هذا في أثناء أحاديث عدة في فضل الخيل وقد بالغ أبو الحسن بن القطان في كتاب بيان الوهم في الإنكار علىٰ من زعم أن البخاري أخرج حديث شراء الشاة قال وإنما أخرج حديث الخيل فانجر به سياق القصة إلىٰ تخريج حديث الشاة وهذا كما قلناه وهو لائح لا خفاء به» (هدي الساري: ٣٩٧).
لكن قوله: الحي يقتضي أنه سمعه من جماعة أقلهم ثلاث (فتح الباري ٦/ ٦٣٤).
ورواه أبو داود (٣٣٨٤).

(٦) صحيح مسلم (٢٠٢١).

قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني أنمار، قال جابر: فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ، فقلت: هلم يا رسول الله إلىٰ الظل، قال: فنزل رسول الله ﷺ، قال جابر: فقمت إلىٰ غرارة لنا فالتمست فيها فوجدت فيها جرو قِثَّاء، فكسرته ثم قربته إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «من أين لكم هذا؟» قلنا: خرجنا به[1] من المدينة، قال: وعندنا صاحب لنا نجهزه[2] يذهب يرعىٰ ظهرنا،[3] فجهزته ثم أدبر يذهب إلىٰ الظهر، وعليه ثوبان له قد خلقا، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «أما له ثوبان غير هذين؟» فقلت: بلىٰ يا رسول الله، ثوبان في العَيبة كسوته إياهما، قال: «ادعه فليلبسهما» فدعوته فلبسهما، ثم ولىٰ يذهب، فقال رسول الله ﷺ: «ما له ضرب الله عنقه، أليس هذا خيرا له» فسمعه الرجل فقال: يا رسول الله، في سبيل الله؟ (فقال: «في سبيل الله»)[4] فقتل الرجل في سبيل الله»[5].

ورواه أبو زُرعة عن سعيد بن سليمان، عن الليث عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن جابر[6].

---

(١) أثبتها في هامش الأصل، وكتب فوقها: لعله. وهي ثابتة في الأصول الأخرىٰ.

(٢) في هامش (ب) مقابل هذه الكلمة: عريانا.

(٣) في (ب، ل) زيادة: قال.

(٤) سقط من الأصل ظ -لانتقال النظر- وهي ثابتة في الأصول.

(٥) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩١٠) من حديثه عن زيد بن أسلم عن جابر، ورواه ابن حبان (٥٤١٨) من طريق مالك، ثم قال: «هكذا كانت نية المصطفىٰ ﷺ في البداية، وزيد بن أسلم سمع جابر بن عبد الله؛ لأن جابرا مات سنة تسع وسبعين، ومات أسلم مولىٰ عمر في إمارة معاوية سنة بضع وخمسين، وصلىٰ عليه مروان بن الحكم، وكان علىٰ المدينة إذ ذاك، فهذا يدلك علىٰ أنه سمع جابرا، وهو كبير، ومات زيد بن أسلم سنة ست وثلاثين ومائة، وقد عمر»، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٤٤).

(٦) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩١٠).

فصل:

في الطرق التي تبين بها أن هذه الأخبار تفيد العلم

وهذه الأخبار: منها ما هو في القرآن.

ومنها: ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة.

كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ونحو ذلك.

فإنَّ كلاً من ذلك تواترت به الأخبار واستفاضت، ونقلته الأمة جيلاً بعد جيل، وخلفًا عن سلف، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيرًا من القرآن، وقد سمعها ونقلها[1] من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن، وأكثر ممن (سمع ونقل)[2] أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممن سمع ونقل نُصب الزكوات وفرائضها.

بل مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل[3] الدائم بها، وأمَّا هذه الآيات فنقلها أكثر ممن نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة.

وذلك: أنَّ آيات الرسول كان كثيرًا منها يكون بمشهد من الخلق العظيم؛ فيشاهدون تلك الآيات كما شاهد أهل الحديبية -وهم ألف وخمسمائة- نبعَ الماء من بين أصابعه، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها، ولم يتركوا فيها قطرة فكثر حتىٰ روىٰ العسكر، وكما شاهد العسكر في غزوة ذات الرقاع الماء

---

(١) قدم وأخر في (ل، ب).

(٢) ليست في (ل) سقطت عليه لأن الجملة فاتته فكتبها لحقا في الهامش.

(٣) في (ب): العملي.

اليسير لما صبه جابر في الجفنة وامتلأت، وملأ[1] منها جميع العسكر.

وكما شاهد الجيش في رجوعهم من غزوة خيبر المزادتين مع المرأة، وقد ملأوا كل وعاء معهم وشربوا، وهي ملأىٰ كما هي.

وكما شاهد أهل خيبر -وهم ألف وخمسمائة- الطعام الذي كان كربضة الشاة[2] فأشبع الجيش كلهم.

وكما شاهد الجيش العظيم -وهم نحو ثلاثين ألفًا- في غزوة تبوك العين لما كانت قليلة الماء فكثر ماؤها[3] حتىٰ كفاهم، وشاهدوا الطعام الذي جمعوه علىٰ نطع فأخذوا منه حتىٰ كفاهم.

وكما شاهد أهل الخندق -وهم أكثر من ألف- كثرة الطعام في بيت جابر بعد أنْ كان صاعًا من شعير وعناقًا، فأكلوا كلهم بعد الجوع حتىٰ شبعوا، وفضلت فضلة.

وكما (ظ١٢٣) شاهد الثمانون نفسًا كثرة الطعام لما أكلوا في بيت أبي طلحة.

وكما شاهد الثلاثمائة كثرة الماء لمَّا توضؤوا من قدح، والماء ينبع من بين أصابعه، حتىٰ كفاهم للوضوء، وكذلك وليمة زينب كانوا ثلاثمائة فأكلوا من طعام من تور من حجارة -وهو باق- فظنَّ أنس أنه أزيد مما كان.

وكانوا يتداولون قصعة من غدوة إلىٰ الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة -كما في حديث سمرة بن جندب-.

---

(١) في (ب، ل): ملؤا منها.

(٢) في (ب): شاة.

(٣) ليست في (ب، ل).

وأهل الصفة لما شربوا كلهم من اللبن القليل وكفاهم وفضل.

وكانوا ينقلون ذلك بينهم وهو مشهور، ينقله بعض من شاهده إلىٰ من غاب عنه[1].

فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمة أعظم من تواتر سجود السهو في الصلاة، فإن هذا إنما كان مرات قليلة، ولم يحضره إلاَّ المصلون خلفه لتلك الصلاة.

وكذلك نقلهم لنُصب الزكاة وفرائضها، فإن هذا إنَّما سمعه منه طائفة قليلة ونقلوه.

وكذلك حكمه بالشُّفعة فيما لم يقسم[2].

وقضاؤه بأنَّ دية الخطأ علىٰ العاقلة[3].

وقضاؤه بأنَّ الولد للفراش وللعاهر الحجر[4].

ونهيه عن نكاح الشَّغَار[5].

وتحريمه لطلاق الحائض وطلاق الموطوءة قبل أن يتبين حملها[6].

وأن المعتقة تحت عبد يثبت لها الخيار[7].

---

(١) وكل هذه الأحاديث سبق أن ذكرها المصنف، وخرجناها فيما مضىٰ من هذا المجلد.

(٢) روىٰ البخاري (٢٢١٣)، ومسلم (١٦٠٨) عن جابر ﵁: «جعل رسول الله ﷺ الشفعة في كل مال لم يقسم، فإذا وقعت الحدود، وصرفت الطرق، فلا شفعة».

(٣) روي هذا من عدة أحاديث، منها حديث أبي هريرة عند مسلم (١٦٨١)، وقد رواه البخاري (٥٧٥٨) مختصرا، ولم يذكر: قضىٰ بالدية علىٰ العاقلة

(٤) رواه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

(٥) رواه البخاري (٥١١٢)، ومسلم (١٤١٥).

(٦) رواه البخاري (٥٢٥٢)، ومسلم (١٤٧١) من حديث ابن عمر في قصة طلاقه امرأته وهي حائض.

(٧) كما في قصة بريرة ومغيث، في صحيح البخاري (٥٢٨٠)، وترجم عليه: باب خيار الأمة تحت العبد.

وتوريث الجدة السدس[1].

ونهيه أن تنكح المرأة علىٰ عمتها وخالتها[2].

وقوله: «فيما سقت السماء العشر، وفيما سقي بالدوالي والنواضح نصف العشر»[3].

وأمثال ذلك إنما سمعها طائفة من الأمة هم أقل بكثير ممن شاهد آياته.

ثم إن الأمة متفقة علىٰ نقل ذلك، وهذه الأحكام متواترة عنه معلومة بالاضطرار من دينه.

فإذا كان مثل هذه الأمور تواتر في الأمة، واتفقت علىٰ نقله، فكيف بما كان أشهر وأظهر عند من عاينه، وكان علم الذين رأوه به أظهر من علمهم بهذه الأحكام، وقد نقلوا ذلك إلىٰ من غاب عنهم، فإنه قطعا يجب أن يكون تواتر هذه الآيات في الأمة أعظم وأظهر، ولهذا لا يكاد يوجد مسلم إلا وقد عرف كثيرًا من هذه الآيات وسمعها ونقلها إلىٰ غيره، بخلاف كثير من الأحكام المتواترة عنه المتفق علىٰ نقلها عند العلماء، فإن كثيرا من الناس لا يعرفها، ولا سمعها.

وإذا قال القائل: هذه مما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقلها، فلو كانت موجودة لتوفرت الهمم والدواعي علىٰ نقلها، ولو كان كذلك لتواترت.

قلنا: وكذلك هو ولله الحمد، توفرت الهمم والدواعي علىٰ نقلها[4] (أكثر

---

(١) رواه أحمد (١٧٩٧٨).

(٢) رواه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

(٣) رواه البخاري من حديث ابن عمر (١٤٨٣).

(٤) في (ب): علىٰ نقلها بين المسلمين، ثم من بداية هذا القوس إلىٰ القوس الآخر محله في (ب) بعد الحديث عن مغازي حمزة الآتي.

وهذا الموضع في النسخ مضطرب، وقد اعتمدت علىٰ ما في الأصل (ظ) لجودته وضبطه.

مما توفرت الهمم والدواعي علىٰ نقل[1] أكثر آيات الأنبياء قبله، وأكثر مما توفرت علىٰ نقل الأخبار العجيبة من سير الملوك والخلفاء.

فإنه من تدبر نقل هذه الآيات وجد شهرتها في كل زمان، وظهور الأخبار بها أعظم من شهرة ما ينقل من آيات[2] الأنبياء وأخبار الملوك والدول التي جرت العادة بتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقلها، فإن مثل هذا لا يجب في كونه متواترًا أن يتواتر عند كل أحد من الناس.

فإنَّ أكثر ما تواتر عند كل أمة من أحوال متقدميها قد لا يسمعه كثير من الأمم من غيرهم فضلاً عن تواتره عندهم؛ حتىٰ إنَّ كثيرًا من الأمم الذين لا يعرفون الأنبياء قد لا يكونون[3] سمعوا بأسماء الأنبياء ولا بأخبارهم فضلاً عن تواترها عندهم، وأكثر أتباع الأنبياء لم يتواتر عندهم من أخبار الملوك وسيرهم ما تواتر عند غيرهم؛ حتىٰ إن أكثر المسلمين لم يسمعوا بأسماء خلفاء بني أمية، وبني العباس، وأسماء وزرائهم ونوابهم وقوادهم، وبالحروب التي (ظ١٢٤) جرت بينهم، ولا يعرفون الوقائع العظيمة من الحروب التي كانت بين المسلمين وأعدائهم، مثل: يوم أَجْنَادين[4]، ويوم مَرج الصُّفَّر[5]، ويوم

---

(١) في (ب): «علىٰ نقل الأخبار العجيبة من سير الملوك».

(٢) في (ل، ب): «نقل من أخبار الأنبياء وسير الملوك».

(٣) كذا في الأصلين (ظ، د)، وفي (ل، ب): يكونوا، وفي (ل): قد سمعوا.

(٤) من الوقعات المشهورة في فتوح الشام، بين الرملة وبيت جبرين، في الثالث من جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣، قيل إن عمرو بن العاص كان علىٰ الألوية كلها، وقيل بل كل أمير كان علىٰ جنده (تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٧، تاريخ الإسلام ٢/ ٥١).

(٥) وهي وقعة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد والروم بقيادة قلقط، في فتوح الشام، سنة ١٣ في جمادىٰ الآخرة، وقيل أول سنة ١٤، واستشهد فيها طائفة من الصحابة، انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٣٣٣)، تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥٢).

فِحْل[1]،ويوم اليرموك[2]، [[3]ويوم[4] جسر أبي عبيد، ويوم القادسية.

«بل وحربهم مع أهل الردة مع أتباع طليحة الأسدي، ووفد بزاخة، ومثل يوم حديقة الموت مع أتباع مسيلمة الكذاب»[5].

ولا يعرفون أن المسلمين فتحوا قبرص، ولا حاصروا[6] القسطنطينية مرتين، مرة في زمن معاوية، ومرة في زمن بني مروان[7].

وكذلك الفتن التي كانت بين المسلمين]، مثل يوم الحرة[8]، ويوم مَرج راهط[9]، وفتنة ابن المهلب بسجستان[10]، وفتنة ابن الأشعث والقراء مع الحجاج، وحرب مصعب بن الزبير مع المختار بن أبي عبيد، وفتنة المنصور مع محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن[11] بالمدينة، ومع أخيه إبراهيم[12] بالبصرة.

---

(١) وقعة حصلت بعد أجنادين، في ذي القعدة سنة ١٣ (تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/ ٥٣).
(٢) تأخر في (ل) بعد جسر أبي عبيد.
(٣) ما بين [] محله في (ل، د) بعد قوله: بالبصرة.
(٤) في (ل، د): ومثل.
(٥) ما بين «» ليس في (ل).
(٦) في (ل، ب): غزوا.
(٧) في (ب): مرة مع معاوية ومرة من بني مروان.
(٨) وقعة الحرة في المدينة سنة ثلاث وستين، حيث استباحها مسلم بن عقبة المري، واستشهد فيها جماعة من الصحابة (تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/ ٥٣).
(٩) مراده الوقعة التي كانت بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم، في مرج راهط، سنة ٦٤، قتل فيها الضحاك وطائفة معه، وتوطد الأمر لمروان بن الحكم في الشام ومصر (انظر: تاريخ الطبري ٣/ ٣٨١).
(١٠) ليست في (ل، د).
(١١) في (د): حسين، وهو تصحيف.
(١٢) في (د، ب): «محمد بن إبراهيم»، وهو تصحيف.

بل أكثر العامة لم يسمعوا بأبي مسلم صاحب الدعوة، وبعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، وما جرىٰ لهما من الحروب مع عساكر مروان بن محمد[1] آخر خلفاء بني أمية، ولم يسمعوا أيضًا بدخول عبد الرحمن بن هشام إلىٰ الأندلس، وما جرىٰ له فيها، ولا بالفتنة التي بين ابني الرشيد: الأمين والمأمون، مع أن هذه الأمور هي متواترة عند أهل العلم بالسير وأخبار الناس والتواريخ.

وظهور هذه الآيات[2] مشهورة بين الأمة عامتها وخاصتها في كل زمان أعظم من ظهور هذه الأخبار المتواترة، فهي أحق أن تجعل متواترة من هذه.

ونَقَلَةُ[3] هذه الآيات من الخاصة أهل العلم، وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسير وكتب الأصول والفقه التي توجد فيها هذه الأخبار أصح نقلاً باتفاق أهل العقل والعلم من كتب التواريخ المرسلة، فإنَّ تلك كثير من أخبارها منقطع الإسناد، وفيها من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله، وإن كان أصل القصة قد يكون متواترًا، وهذه الآيات المشهورة في الأمة، كثير من أجناسها متواتر عند العامة[4]، وكثير من آحادها متواتر عند الخاصة أهل العلم).

بل كثير من الفقهاء والمتكلمين[5] -أو أكثرهم- لا يعرفون عدد مغازي رسول الله ﷺ التي قاتل فيها أعداءه، وهي وقائع مشهورة كل منها متواتر تواترًا ظاهرًا عند أهل العلم[6]، مثل: يوم بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق، وغزوة بني

---

(١) ليست النسبة في (ل، ب).

(٢) في (ل، د، ب) زيادة: «التي هي دلائل النبوة وأعلامها».

(٣) في (ل): ونقل. وفي (ب): «ونقلت».

(٤) في (ل، ب): «أهل العلم».. وليس قوله الآتي: «أهل العلم» عنده.

(٥) في (ب): «والمسلمين».

(٦) في (ب) زيادة: بها.



المصطلق، وغزوة خيبر، وفتح مكة، ويوم حنين، وحصار الطائف.

فكثير من أهل العلم فضلا عن العامة -وإن كانوا سمعوا بهذه الأسماء أو بعضها- فلا يعرفون أيها كان قبل الآخر، ولا يعرفون بأي بُقعة كانت تلك الغزاة، بل ولا يعرفون من كان العدو فيها، ولا كيف كانت، بل أكثر العامة لا يميزون بين بدر وحنين، بل يقول قائلهم: يوم بدر وحنين، ويظنون أن ذلك يوم واحد، وأنها غزاة واحدة، ولا يعرفون أنهما غزاتان بينهما نحو ست سنين، كانت بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكانت حنين في السنة الثامنة بعد فتح مكة، وأن بدرًا مكان بين مكة والمدينة، شامي مكة ويماني المدينة، وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة، وإنما قرن بينهما في الاسم لأنَّ الله تعالىٰ أنزل فيهما الملائكة، وأيد بها نبيه والمؤمنين حتىٰ غلبوا عدوهم مع قوة العدو في بدر، ومع هزيمة أكثر المسلمين أولاً بحنين، وامتن الله بذلك في كتابه في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] (ظ١٢٥) (١)، وفي قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦](٢).

حتىٰ إنَّ بعض أكابر أئمة الفتيا المشهورين قال له صاحبه لما أنكر عليه طلب علم السير: تسكت وإلا سألتُك قدام الناس: أيهما كانت قبل بدر أو أحد، فإني أعلم أنك لا تعلم ذلك(٣)!

---

(١) هامش ب: بلغ مقابلة من عبدالله..

(٢) في (ب) كتب الآية التي تليها.

(٣) في (ب): لا تعلمه.

مع أنه من المتواتر الذي لا يستريب فيه من له أدنىٰ[1] معرفة بالأخبار أن «أُحدًا» كانت بعد «بَدر»، وفي «بدر» انتصر المسلمون علىٰ الكفار، ويوم «أحد» استظهر الكفار.

بل وكثير من علماء المسلمين الأكابر لا يعلمون ما هو متواتر عند أهل الكتاب، بل وعند غيرهم من علماء المسلمين، مثل: خراب بيت المقدس مرتين، ومجيء بخت نصر إلىٰ بيت المقدس أوَّلاً[2].

والله سبحانه قد ذكر في القرآن المرتين فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤-٧].

وكانت الأولىٰ بعد سليمان، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيىٰ والمسيح لما قتلوا يحيىٰ بن زكريا، الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمداني.

وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن «بخت نصر» هو الذي قدم الشام[3] لما قُتل يحيىٰ بن زكريا، وهذا عند أهل العلم -من أهل الكتاب وعند من له خبرة من علماء المسلمين- باطل، والمتواتر أن «بخت نصر» هو الذي قدم في

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) ليست في (ل، ب).

(٣) سقطت هذه الكلمة من الأصل (ظ) وهي ثابتة في باقي الأصول.

المرة الأولىٰ[1].

وكذلك كون شعيب النبي كان حَمو موسىٰ عليه السلام، كما يقوله طائفة من الجهال، والمتواتر عند أهل الكتاب وعلماء المسلمين والصحابة والتابعين وغيرهم خلاف ذلك[2].

---

(١) وهو قول ابن إسحاق رواه عنه ابن جرير في جامع البيان (١٧/ ٣٦٥)، لكن أشار ابن جرير إلىٰ الخلاف في ذلك.
وأورد ابن كثير (في تفسيره: ٥/ ٤٧) قول سعيد بن المسيب: ظهر بختنصر علىٰ الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتىٰ دمشق فوجد بها دما يغلي علىٰ كبا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا أدركنا آباءنا علىٰ هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. ثم قال: فقتل علىٰ ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم، فسكن، ثم قال: وهذا صحيح إلىٰ سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتىٰ إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقا منهم أسرىٰ من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

(٢) للمصنف رسالة في هذه المسألة في جامع الرسائل ١/ ٦١-٦٩، قرر فيها ما ذكره هنا.
وفي المسألة خلاف حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٧٠)، ثم قال: «وأكثر الناس علىٰ أنهما ابنتا شعيب عليه السلام وهو ظاهر القرآن».
وقال ابن كثير -تلميذ المصنف-: وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل: من هو؟ علىٰ أقوال: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلىٰ أهل مدين. وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد. فذكره عن مالك بن أنس، ثم قال: وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب.
وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسىٰ، عليه السلام، بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسىٰ والخليل عليهما السلام مدة طويلة تزيد علىٰ أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد.
وما قيل: إن شعيبا عاش مدة طويلة، إنما هو -والله أعلم- احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص علىٰ اسمه في القرآن هاهنا.
وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسىٰ لم يصح إسناده، =

وعند النصارىٰ من أخبارهم وأخبار علمائهم وملوكهم المتواترة ما لا يعرفه (المسلمون واليهود، وعند المسلمين من أخبار علمائهم وملوكهم المتواترة ما لا يعرفه)[1] أكثر الأمم.

بل عند كل طائفة من المسلمين من أخبار شيوخهم وأمرائهم وبلادهم المتواترة ما لم يسمع به من[2] غيرهم، وليس هذا بمنزلة من ادَّعىٰ خبرًا لم يكن يعرف في الذين شاهدوا تلك القصة[3]، كما لو ادَّعىٰ مدعٍ أن النبي ﷺ حجَّ بعد الهجرة أكثر من حجة، أو أنه كان يصوم شهر رمضان بمكة، أو أنه كان بمكة أذان، أو أنه كان في عساكره وعساكر خلفائه دبادب وبوقات، أو أنه كان يؤذن للعيدين، أو كان يخطب للعيدين قبل الصلاة، أو أنه كان يصلي بالمدينة أكثر من عيد، أو أنه كان يصلي في السفر أربعًا، أو أنه بمكة صلىٰ[4] صلاة العيد يوم النحر، أو أنه نصَّ علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو غيره بالخلافة نصًّا ظاهرًا مشهورًا، أو أنه عزل أبا بكر عن الإمارة في الحجة وولىٰ عليًّا، أو أنه صلىٰ في مرض موته غير أبي بكر، ونحو ذلك من الأخبار التي يعرف أنها كذب وباطل لتواتر نقيضها، ولأنها لو كانت صحيحة لكانت مما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله واشتهاره، مع أنه لم يكن له ذكر في الزمن المتقدم.

= كما سنذكره قريبا إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه: «ثبرون»، والله أعلم، وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: أثرون وهو ابن أخي شعيب عليه السلام، وعن أبي حمزة عن ابن عباس: الذي استأجر موسىٰ يثرىٰ صاحب مدين. رواه ابن جرير، ثم قال: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك (جامع البيان ١٩/ ٥٦١، تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٩).

(١) سقط ما بين القوسين في (ب، ل) لانتقال النظر.

(٢) ليست في (ب).

(٣) في (ل، د): «القضية».

(٤) في (ب، ل، د): «صلىٰ بمنىٰ».

وكذلك ما ينقله كثير من أهل الجهل ما[1] يجعلونه من معجزات الرسول أو غيره، ولا يوجد منقولاً عند أهل العلم بأحواله(ظ١٢٦)، بل يكذبون ناقله.

مثل قول[2] كثير من العامة: «إن الغمام كان يظله دائما».

فهذا لا يوجد في شيء من كتب المسلمين المعروفة عند علمائهم، ولا نقله عالم من علمائهم، بل هو عندهم كذب، وإن كان كثير من الناس ينقله، وإنما نقل أنَّ الغمامة أظلته لما كان صغيرًا وقدم مع عمه إلىٰ الشام تاجرًا، ورآه بَحيرا الراهب، ومع هذا فهذا لا يجزم بصحته[3].

---

(١) في (ب، ل): مثل ما.

(٢) في (ب، ل): نقل.

(٣) نقله عن المصنف مرعي الكرمي في الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة (ص:٧٢).

ومن أشهر أسانيد قصة بحيرا الراهب ما رواه الترمذي (٣٦٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٥) وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٨) من حديث قراد عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسىٰ الأشعري عن أبيه، وهذا إسناد حسن غريب، وفيه: «فأقبل وعليه غمامة تظله، فقال: انظروا إليه، عليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلىٰ فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلىٰ فيء الشجرة مال عليه». (وانظر: سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٣).

قال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

وقال الحاكم: «حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه».

ونقل البيهقي عن العباس الدوري أنه قال: «ليس في الدنيا مخلوق يحدث به غير قراد، وسمع هذا أحمد ويحيىٰ بن معين من قراد» ثم قال البيهقي: «وإنما أراد به بإسناده هذا موصولا، فأما القصة فهي عند أهل المغازي مشهورة».

قلت: قراد أبو نوح عبدالرحمن بن غزوان الخزاعي ثقة صاحب أفراد وغرائب، وهذا من غرائبه، وقد قال الذهبي معقبا علىٰ تصحيح الحاكم له: «أظنه موضوعا فبعضه باطل» يريد والله أعلم ما ورد فيه من ذكر بلال. =

وكذلك ما ينقله بعضهم من: أنه «كان إذا وطئ أثر قدماه[1] في الحجر وفي الرمل لم يكن يؤثر».

فهذا لم ينقله أهل العلم بأحواله، ولا واحد منهم بل هو كذب عليه[2].

وكذلك ما ينقله طائفة من الناس من كثرة القتل بحروبه، أو المغازي الكثيرة الذي يذكر مثلها صاحب الكتاب الذي سماه «تنقلات[3] الأنوار» ويقال له البكري[4]، فهذه لما كان أكثرها لا يوجد في كتب المسلمين المعروفة، ولا نقلها علماؤهم -بل قد تواتر ما يخالفها- كانت كذبًا ظاهرًا عند أهل العلم بأحواله، وإن كان كثير من الناس الجهال بأحواله قد يصدق بها.

ومثل ما ينقله طائفة: أنه كان في غزاة[5] نصب علي بن أبي طالب يده ليمر

= وقال ابن كثير: «وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له: الضبي، ويعرف بقراد سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري، ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ، ولم أر أحدا جرحه، ومع هذا في حديثه هذا غرابة...، فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسىٰ الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، ولا يلتفت إلىٰ قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلىٰ أرض الحبشة من مكة، وعلىٰ كل تقدير فهو مرسل، فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسىٰ تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذه من طريق الاستفاضة».

(١) في (ب): قدميه. وفي (ل): قدمه.

(٢) انظر: الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة لمرعي الكرمي (ص:٧٢) نقلا عن المصنف.

(٣) في (ب، د): بنقلات.

(٤) حذر المصنف من هذا الكتاب في غير موضع، وبين ما فيه من أباطيل، فمن أراد الاستزادة فلينظر في مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٣٥١-٣٥٨).

(٥) في (ب، د): غزاة خيبر (ل): غزوة خيبر.

الجيش عليها، وأن البغلة مرت عليها فقال لها علي[1]: «قطع الله نسلك، فانقطع نسلها».

فهذا ليس في شيء من كتب أهل العلم بأحواله، ولا نقل ذلك واحد منهم، وإنما ينقل ذلك من هو معروف بالكذب أو جاهل، ولهذا كان هذا من الكذب الذي يقطع بكذبه علماء المسلمين، ويعلمون أنه تواتر نقيضه، وأنه لم يكن في غزوة خيبر بغلة، ولم يكن بالمدينة ولا بمكة بغلة، إلا بغلته التي أهداها له المقوقس النصراني ملك مصر والإسكندرية، وإنما أهداها له بعد فتح خيبر لما كتب النبي ﷺ إلىٰ ملوك الطوائف ودعاهم[2] إلىٰ الإسلام، ويعلمون أن البغلة لم تزل مقطوعة النسل لم يكن لها نسل قط[3].

وكذلك ما ينقله بعض الكذابين: من «أن طائفة من أهل البيت سُبوا وأركبوا جمالاً فنبت لها سنامان، وأنها البخاتي».

فهذا مما اتفق[4] أهل المعرفة بالأخبار علىٰ أنه كذب، لم يسب المسلمون قط في وقت من الأوقات أحدًا من أهل بيت النبي ﷺ لا في خلافة بني أمية، ولا بني العباس، والجمال البخاتي ما زالت هكذا لم يتجدد لها السنام في الإسلام[5].

(كما قال النبي ﷺ لما ذكر ما يُحدث النساء بعده، قال: «علىٰ رءوسهن

---

(١) ليس الاسم في (ل، ب).
(٢) في (ب، ل، د): يدعوهم.
(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٥٠٣)، والفوائد المجموعة (ص٨٤).
(٤) في (ب) زيادة: عليه.
(٥) انظر: الفوائد المجموعة (ص٨٤).

كأسنمة البخت»)[1].

(وكذلك «مغازي حمزة» الشائعة بين كثير من جهال الترك وغيرهم، لا توجد في شيء من كتب العلم، بل قد تواتر عند أهل العلم أنَّ حمزة لم يشهد غزوة إلاَّ غزوة بدر ثم غزوة أحد، وقتل يوم أحد شهيدًا، قتله وحشي بن حرب، وهذا متواتر عند أهل العلم)[2].

وكذلك ما نقله[3] طائفة من أهل العلم: من «أنَّ الشمس رُدت لما فاتت عليًّا صلاة العصر لكون النبي ﷺ نام في حجره»، وجعل بعضهم هذا من المعجزات.

فليس هذا[4] في شيء من كتب المسلمين التي يعتمدون علىٰ ما فيها من المنقولات، لا الصحاح ولا المسانِد ولا التفسير ولا المغازي والسير، ولا غير ذلك، بل بين أهل العلم بالحديث أنَّ هذا كذب، وليس له إسناد واحد صحيح متصل، بل غايته أن يروىٰ عمن لا يعرف صدقه، ولم يروه إلاَّ هو مع توفر الهمم والدواعي علىٰ نقله، فعلموا أنه كذب[5].

---

(١) ما بين القوسين ليس في الأصل ظ، وهو ثابت في باقي الأصول.
والحديث رواه مسلم في الصحيح (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ما بين القوسين من الأصل (ظ) فقط، وتأخر في باقي النسخ إلىٰ ما بعد قول عبدالرحمن بن مهدي الآتي.

(٣) في (ب، ل): نقل.

(٤) في (ب، ل، د): هذا الحديث.

(٥) بين ذلك المصنف في «منهاج السنة النبوية» ٨/ ١٦٤ بالتفصيل.
والحديث رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٩٢)، وابن المغازلي في فضائل علي (ص١٥٥)، والجوزجاني في الأباطيل (١٥٤) وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٥٥)، من طريق عبيد الله بن موسىٰ، حدثنا فضيل بن مرزوق عن إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أسماء بنت عميس قالت: كان رسول الله ﷺ يوحىٰ إليه ورأسه في حجر علي، =

وهذا باب واسعٌ يبين أن علماء المسلمين يميزون بين[1] المنقولات الصدق والكذب، فيردون الكذب وإن كان فيه من فضائل نبيهم وأعلامه وفضائل أصحابه وأمته ما هو عظيم، ويقبلون الصدق وإن كان فيه شبهة وإشكال، وقد يحتج به المنازعون لهم.

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول: «أهل العلم يكتبون ما لهم (ظ١٢٧) وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»[2].

وما كان من آيات النبي ﷺ[3] في الصحاح بل وكثير مما لم يخرجه

= فلم يصل العصر حتىٰ غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «صليت يا علي؟» قال: لا، قال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عليا كان علىٰ طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس»، فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت.

وعبيدالله بن موسىٰ من الغلاة، وفضيل بن مرزوق متكلم فيه، وهو شيعي كذلك، وقد اضطربوا في الحديث.

قال الجوزجاني: حديث منكر مضطرب، ثم روىٰ في خلافه حديث: «لم تحبس الشمس إلا ليوشع..»، الحديث.

قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، ثم أطال في بيان علته، وأقره الذهبي في تلخيص الموضوعات (ص١١٧)، ثم قال: «وقد أملىٰ أبو القاسم الحسكاني مجلسا في رد الشمس فقال: روي ذلك عن أسماء بنت عميس، وعلي، وأبي هريرة، وأبي سعيد بأسانيد متصلة. قلت: لكنها ساقطة ليست بصحيحة».

انظر في هذا الحديث: اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٠٨)، الفوائد المجموعة للشوكاني (٣٥٠)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/ ٣٩٩).

(١) ليست في (ب،ل).

(٢) لم أقف عليه من قول عبدالرحمن بن مهدي، ولكن رواه الدارقطني في السنن (١/ ٢٧) ومن طريقه الهروي في ذم الكلام (٣٤٦) عن وكيع بن الجراح من قوله.

(٣) في (ب): وما كان في هذه الآيات في الصحاح.

البخاري ومسلم، فهذه عامتها مما يقطع أهل العلم بالحديث[1] بصحتها، ويتيقنون ذلك، وهذا عندهم مستفيض متواتر، وإن كان بعض ذلك قد لا يتواتر ويستفيض عند غيرهم، فإنَّ الأخبار قد تستفيض وتتواتر عند قوم دون قوم بحسب عنايتهم بها وطلبهم لها، وعلمهم بمن أخبر بها، وصفاتهم، ومقاديرهم، وما دلَّ من الدلائل علىٰ صدقهم، وأهل العلم بحديث رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وسيرته وأسباب نزول القرآن ومعانيه وغير ذلك لهم بهذا من العلم وعندهم به من اليقين ما لا يوجد مثله لغيرهم.

كما أنَّ أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة وداود وغيرهم عند كل طائفة من أقوال متبوعهم[2] ونصوصه وأخباره ما يقطعون به، وإن كان غيرهم لا يعرف ذلك.

والأطباء عندهم من كلام أبقراط وجالينوس ومحمد بن زكريا وأمثالهم ما يقطعون به، وغيرهم لا يعلم ذلك.

وأهل الهيئة عندهم من كلام بطليموس، والرصد الممتحن المأموني، وثابت بن قرة، وأبي الحسين الصوفي ونحوهم[3] ما يعلمونه هم، وغيرهم لا يعلم ذلك بحيث يجزم هؤلاء وهؤلاء بكثير من مذاهب أهل الطب والحساب وتجارب الأطباء وأرصاد أهل الحساب، وغيرهم لا يعلم ذلك.

وعند أهل الكتاب كاليهود من أخبار هلال وسمابي -وغيرهما- من شيوخهم ما لا يعلمه غيرهم.

---

(١) في (ب): أهل الحديث.
(٢) في (ب): متبوعه.
(٣) في (ب): وغيرهم. وسقطت من (ل).



وعند النصارىٰ من أخبار الحواريين، ومن أخبار قسطنطين، والمجمع الأول بنيقية، والمجمع الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، وغير ذلك من مجامعهم، وأخبارهم ما يقطع به علماؤهم، وإن كان غيرهم لا يعلمون ذلك.

وأهل العلم بأيام الإسلام يعلمون من سيرة أبي بكر وعمر وعثمان ومغازيهم كوقعة أجنادين، ومرج الصُّفر، وغيرهما في خلافة أبي بكر، وكوقعة اليرموك، وجسر أبي عبيد، وهزيمة الفرس، وفتح مصر، وغير ذلك مما كان في زمن عمر بن الخطاب ما يقطعون به، وإن كان غيرهم لا يعرفون ذلك.

وكذلك ما كان بعد هؤلاء من سير الملوك وحوادث الوجود، بل أهل العلم بالرجال يعلمون من حال آحاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم -كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وعلقمة، والأسود، وغير هؤلاء- ما لا يعلمه غيرهم.

وأهل العلم بالنحو يعلمون من حال سيبويه، والأخفش، والمبرد، والزجاج، والفراء، والكسائي، ما لا يعلمه غيرهم.

والقراء يعلمون من قراءة أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، ويعقوب بن إسحاق، والأعمش، وخلف بن هشام، وأبي جعفر، ما لا يعلمه غيرهم.

فإذا كان آحاد أهل العلم من أهل الفقه أو الطب أو الحساب أو النحو أو القراءات، بل وآحاد الملوك تعلم الخاصة من أمورهم ما لا يعلمه غيرهم ويقطعون بذلك، فكيف بمن هو عند أتباعه أعلىٰ قدرا من كل عالم، وأرفع منزلة من كل ملك، وهم أرغب الخلق في معرفة أحواله، وأعظم تحريًا للصدق

فيها، ولرد الكذب منها حتىٰ قد صنفوا الكتب الكثيرة في أخبار جميع من روىٰ شيئًا من أخباره، وذكروا فيها أحوال نقلة حديثه، وما يتصل بذلك من جرح وتعديل، ودققوا في ذلك(ظ١٢٨)، وبالغوا مبالغة لا يوجد مثلها لأحد من الأمم، ولا لأحد من هذه الأمة إلا لأهل الحديث[١]، فهذا يُعطي أنهم أعلم بحال نبيهم من كل أحد بحال متبوعه، وأنهم أعلم بصدق الناقل وكذبه من كل أحد بصدق من نقل عن متبوعهم وكذبه، فإذا كان أولئك فيما ينقلونه عن متبوعهم متفقين عليه جازمين بتصديقه لا يكون إلا صدقًا، فهؤلاء مع جزمهم بالصدق، واتفاقهم علىٰ التصديق أولىٰ أن لا يكون ما جزموا بصدقه إلا صدقًا.

وعامة أخبار الصحيحين مما اتفق علماء الحديث علىٰ التصديق بها، وجزموا بذلك، وإنما تنازعوا في أحاديث قليلة منها[٢].

وعامة ما ذكرناه من آيات النبي ﷺ التي في الصحاح هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم، التي يجزمون بصدقها، ليست من موارد نزاعهم، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء، ويعلم[٣] خبرة أهله من كان خبيرًا بهم.

فهذه طريقان في تصديق هذه الآيات: التواتر العام، والتواتر الخاص[٤].

الطريق الثالث: التواتر المعنوي.

وهذا مما اتفق علىٰ معرفته عامة الطوائف، فإن الناس قد يسمعون أخبارًا

---

(١) وكل من اطلع علىٰ جهود المحدثين في هذا الباب -وأنصف- علم فضلهم في ذلك، حتىٰ إن كثيرا من المستشرقين اعترف للمسلمين بهذا الفضل الذي خصهم الله به.

(٢) وهذه مسألة مدونة في علوم الحديث، انظر: مقدمة ابن الصلاح (ص٢٨)، النكت علىٰ ابن الصلاح للزركشي (١/ ٢٧٦).

(٣) في (ب): ويعرف.

(٤) أي التواتر العام عند عامة المسلمين، والتواتر الخاص عند أهل العلم، ولا سيما أهل الحديث.

متفرقة بحكايات يشترك مجموعها في أمر واحد، كما سمعوا أخبارا متفرقة تتضمن شجاعة عنترة وخالد بن الوليد وأمثالهما، وتتضمن سخاء حاتم ومعن بن زائدة وأمثالهما، وتتضمن حلم الأحنف بن قيس ومعاوية بن أبي سفيان وأمثالهما، وتتضمن شعر امرئ القيس والنابغة ولبيد وأمثالهم من المتقدمين، وشعر الفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة، وأمثالهم من المولدين، وشعر أبي نواس والمتنبي وأبي تمام، وأمثالهم من المُحْدثين.

بل وسمعوا أقوالاً وفتاوي متفرقة تتضمن فقه مالك، والثوري، والليث بن سعد، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من العلماء، وأخبارًا متفرقة تتضمن العدل وحسن السيرة من عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما من ولاة الأمر.

وسمعوا أخبارًا متفرقة تتضمن الزهد عن مثل الحسن البصري، وعامر بن عبدالله القيسي، ومالك بن دينار، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهم من الزهاد.

وسمعوا أخبارًا متفرقة تتضمن معرفة أبقراط وجالينوس ونحوهما بالطب.

فيحصل بمجموع الأخبار علم ضروري بأنَّ الشخص موصوف بذلك النعت، وإن كان كل من الأخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم، وإن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولة بالتواتر.

ومن هذا الباب العلم القطعي بالإيمان والموت[1]، ونحو ذلك مما

(١) في (ب): والدين. وفي هامش (ل) كتب: أظنه الأنساب والموت.

يحصل به استفاضة[1] توجب[2] العلم القطعي، كعلم الناس بأنَّ خديجة وعائشة ونحوهما من أمهات المؤمنين، وأن فاطمة وزينب من بنات النبي ﷺ، وأن عائشة بنت أبي بكر، وأن أبا بكر وعمر وعثمان تولوا الخلافة بعده، وأن أبا بكر وعمر دفنا في حجرته.

وإذا عرف هذا؛ فهذه الأحاديث -وأضعاف أضعافها- هي أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة أخبار هؤلاء، وهي كلها تتضمن أن محمد بن عبدالله كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يُعرف نظيره عن أحد من الناس.

وعِلْمُ المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه من آيات موسى وعيسى وغيرهما، فإن نقلة آيات محمد ﷺ غير القرآن أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل، فضلاً عن غيرهما من أخبار الأنبياء، فإن التوراة لم تكن جميعها محفوظةً لعموم بني إسرائيل (ظ١٢٩) كما يحفظ القرآن عامة المسلمين، وعند خراب بيت المقدس قلَّ من يحفظها جدًا حتى تنازع الناس في تواتر نقلها، وكذلك الإنجيل نقلتُه أقلُّ بكثير من نقلة آيات محمد ﷺ.

وإذا قال النصارى: «هؤلاء كانوا صالحين، وكان لهم آيات أيضًا[3]»، كما يذكرونه من آيات الحواريين؛ فأصحاب محمد ﷺ وتابعوهم[4] لهم من الآيات أعظم مما للحواريين وغيرهم من الأمم، وفيهم من كان يحمل العسكر

---

(١) في المطبوعة: «استقامة» وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى.

(٢) في (ب، ل): موجب.

(٣) كلمة أيضا ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب، ل، د): وتابعوهم صالحون ولهم..

علىٰ الماء، ومن كان يشرب السموم القاتلة، ومن يحيي الله الموتىٰ بدعوته، ومن يكثر الطعام والشراب، وكتب كرامات الأولياء فيها من ذلك أعظم مما عند أهل الكتاب[1].

وهم ينقلون أخبار الأنبياء والصالحين من كتب عندهم، مثل كتاب «أخبار الحواريين»، وكتاب «سفر الملوك»، ونحو ذلك، وما يذكرون من حجة في صحة نقلها إلاَّ وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه والتابعين أظهر وأقوىٰ.

الطريق الرابع:

أنْ يُقال: هذه الآيات التي ذكرنا بعضها كانت تكون بمحضر من الخلق الكثير، كتكثير الطعام يوم الخندق، فإنه كان أهل الخندق رجالهم ونساؤهم ألوفًا، وكذلك نبع الماء من بين أصابعه، وفيضان البئر بالماء يوم الحديبية، وكانوا يومئذ ألفًا وخمسمائة، وكلهم صالحون من أهل الجنة، لا يعرف فيهم من تعمد كذبة واحدة علىٰ النبي ﷺ.

وكذلك تكثير الماء والطعام في غزوة خيبر كانوا عددًا كثيرًا[2]، وفي تبوك كانوا ألوفًا مؤلفة، وكان بعض من حضر هذه المشاهد ينقل[3] هذه الآيات قدام آخرين ممن حضرها، وينقلها لأقوام، فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك،

---

(١) من مظان الكرامات: كتاب كرامات الأولياء للحسن بن محمد الخلال، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، حث أفرد فصلا طويلا في كراماتهم، ودلائل النبوة للحافظ أبي العباس المستغفري، حيث إنه ذكر الدلائل في عشرة أبواب، والباب العاشر من دلائل النبوة عنده هي كرامات الأولياء، وجه ذكر كرامات الأولياء في دلائل النبوة أنها حصلت لهم بتصديقهم للنبي الذي يتبعون.

(٢) كذا في الأصل، وفي (ب، ل، د): كانوا ألفا وخمسمائة.

(٣) في (ل): نقل.

ويصدق بعضهم بعضًا، ويحكي هذا مثل ما حكىٰ هذا من غير تواطئ وتشاعر، وأدنىٰ أحواله أن يقره ولا ينكر عليه روايتها.

ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التي جبل الله تعالىٰ عليها عباده، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة -من اعتياد[1] الصدق وتحريه، واعتقادهم أن ذلك واجب، ومن شدة توقيهم الكذب علىٰ نبيهم، وتعظيمهم ذلك، إذ قد تواتر عنه عندهم أنه قال: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[2] - فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يُقِرُّون من يعلمون أنه يكذب عليه، ومَن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له وَكذب عليه فقد علموا أنَّه كذب عليه، فلما اتفقوا علىٰ الإقرار علىٰ ذلك، وعلىٰ تناقله بينهم -من غير إنكار أحد منهم لذلك- عُلم قطعًا أنَّ القوم كانوا متفقين علىٰ نقل ذلك كما هم متفقون علىٰ نقل القرآن والشريعة المتواترة، وإن كان جمهورهم ليس منتصبًا لتلقين القرآن، بل هذا يلقنه وهذا يسمعه من هذا المتلقن، لا ينكر بعضهم علىٰ بعض القراءة، وهذا يعلم هذا الصلاة: أنَّ الظهر في الحضر أربع ركعات، والمغرب ثلاثًا، والفجر ركعتين، وهذا يقر هذا، فلما كان بعضهم يقر بعضًا علىٰ نقل ذلك علم اتفاقهم علىٰ نقل ذلك، وهذا غاية التواتر.

فكذلك ما نقلوه من شرائعه ومن آياته وبراهينه، يبين ذلك أن ما أنكره بعضهم ردَّه علىٰ الآخر ولم يوافقه عليه، وإن كانوا متأخرين عن زمن الصحابة فكيف بالمتقدمين، كتنازعهم هل كان يجهر بالبسملة أم لا يجهر بها؟ وهل كان يداوم علىٰ القنوت في الفجر أم كان يقنت أحيانا للنوازل، أم قنت مرة ثم تركه؟

---

(١) في (ب): اعتماد. وفي (ل): اعتقاد.

(٢) سبق تخريجه.

فهذا من أهون الأمور وأيسرها، إذ كلهم متفقون علىٰ صحة صلاة من قنت، وعلىٰ صحة صلاة من لم يقنت، ومن جهر ومن خافت، ولكن (ظ١٣٠) لما[١] تنازعوا فيما فعله الرسول تنازعوا في الحكم.

فعلم بذلك أنَّ ما كان مشهورًا في الأمة عن النبي ﷺ -ولم ينكره أحد من علمائها- كانت الأمة متفقة علىٰ نقله كنقلهم للقرآن، وللشرائع الظاهرة المشهورة، وأن نقل ذلك أعظم من نقل سائر أخبار الأنبياء والعلماء والملوك والزهاد، وكذلك حجُّه، فإنهم كلهم متفقون علىٰ ما تواتر عنه من أنه لم يحج بعد الهجرة إلاَّ حجة واحدة، وهي التي تسمىٰ حجة الوداع، وإنما عاش بعدها نحوًا من ثلاثة أشهر، وأنه لما حج أمر أصحابه كلهم -إلا من ساق الهدي منهم- إذا طاف بالبيت وبين الصفا والمروة أن يحل من عمرته.

وأنه لم يعتمر هو ولا أحد من أصحابه الذين حجوا معه بعد الحج إلا عائشة وحدها، وأنه هو نفسه لم يحل في حجته، ولا أحد ممن ساق الهدي معه، وإنما اشتبه علىٰ بعضهم بعض ألفاظه أو بعض الأمور التي تخفىٰ علىٰ أكثر الناس.

وكان الصحابة ينقلون[٢] تمتع رسول الله ﷺ، ومرادهم بالتمتع أنه قرن بين العمرة والحج، فظن بعض الناس أنهم أرادوا أنه أخر الإحرام بالحج إلىٰ أن قضىٰ العمرة.

وقال[٣] بعض الصحابة: إنه أفرد بالحج، فظن بعض الناس أنه حج

(١) سقطت من الأصل (ظ) وهي ثابتة في كل النسخ.
(٢) في (ب): يقولون.
(٣) في (ب): بين.

واعتمر بعد الحج، وهذا لم ينقله أحد من العلماء، بل اتفقوا على أنه لم يعتمر بعد الحج.

وروى بعض الصحابة أنه قرن، فظن بعض الناس أنه طاف طوافين، وسعى سعيين، وهذا لم ينقله أحد عنه، وكان من أسباب غلط كثير من الناس أنهم كانوا يستعملون تلك الألفاظ في معانٍ غير ما استعملته فيها الصحابة، فغلط بعض الناس على بعض الصحابة.

وأما ما فعله[1] في الحج مشهورا فهو متواتر لم يختلف فيه النقل، ولا علماء النقل[2].

ومن تدبر هذه الطريق أفادته علمًا يقينيًّا قطعيًّا بصحة هذه الآيات عن محمد ﷺ، وكذلك الطرق المتقدمة، فإنَّا قد ذكرنا أن ما كان الناس أحوج إلى معرفته يسر الله دلائله للناس أعظم من تيسير غيره، وحاجة الخلق إلى تصديق الرسول أشد من حاجتهم إلى جميع الأشياء، إذ بذلك تحصل سعادتهم في الآخرة، ونجاتهم من العذاب، وبه يحصل صلاح العباد في المعاد والمعاش.

الطريق الخامس:

أن نقول: ما من صنف من أصناف العلماء إلاَّ وقد تواتر عندهم من الآيات ما فيه كفاية، فكتب التفسير مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب الحديث مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب السير والمغازي

---

(١) في (ب): عمله... مشهور.

(٢) ومن أحسن بجمع الأحاديث المروية في صفة حجه ﷺ وبيان وجهها المهلب بن أبي صفرة في اختصار صحيح البخاري، المسمى: المختصر النصيح ٢/ ١١٢.

والتواريخ مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وكتب الفقه مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها، وإن لم يكن هذا مقصودًا منها، وإنما المقصود الأحكام لكنهم في ضمن ما يروونه من الأحكام يروون فيها من الآيات ما هو متواتر عندهم، وكتب الأصول والكلام مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها.

ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقيني، فكيف بما ينقله كل طائفة من هذه الطوائف، وهذه الطريق وغيرها مثل طريق الإقرار والتصديق، وطريق التواتر المعنوي، وطريق تصديق أهل الحديث والعلم بها، وغير ذلك، يستدل بها:

تارة علىٰ تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة، وهذا أقل ما يكون.

ويستدل بها علىٰ تواتر جنس جنس منها، كتواتر تكثير الطعام، وتواتر تكثير الطهور (ظ١٣١) والشراب.

وعلىٰ تواتر نوع نوع منها، كتواتر نبع الماء من بين أصابعه، وتواتر إشباع الخَلق العظيم من الطعام القليل.

وتواتر شخص شخص منها، كتواتر حَنين الجذع إليه، وأمثال ذلك.

وكلما أمعن الإنسان في ذلك النظر -واعتبر ذلك بأمثاله؛ وأعطاه حقه من النظر والاستدلال- ازداد بذلك علمًا ويقينًا، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع ما يُطلب من العلم بالأخبار المتواترة، فليس في الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك.

وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد أظهر من العلم به (وأبين،

ونقله أكمل وأتم)[1].

وما من علم يُعلم بالتواتر مما هو موجود الآن كالعلم بالبلاد البعيدة - كعلم أهل الشام بالعراق وخُراسان والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق وخراسان والهند، وعلم أهل خراسان بالشام والعراق ومصر، وعلم أهل الهند بالعراق والشام، وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض- إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها - ما[2] هم عليه من الدين، وما ينقلونه عن نبيهم من آياته وشرائعه- أظهر من علمه بهذا كله.

وهذا مما يُبين أنه ليس في الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلاَّ وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وظهوره علىٰ الدين كله -بالعلم والحجة والبيان- إنَّما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما يُنقل عن محمد ﷺ من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول المقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علمًا وحجةً وبيانًا علىٰ كل دين، كما أظهره قوة ونصرًا وتأييدًا علىٰ كل دين[3]، كما أنه ما من دليل عقلي[4] يُستدل به علىٰ مدلول إلاَّ والأدلة علىٰ آيات الرب

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب، ل). وهو ثابت في الأصل (ظ، د).
(٢) في (ب، ل): وما هم.
(٣) في (ب، ل): والحمد لله رب العالمين. ومحلها في الأصل (ظ، د) آخر الفقرة، كما أثبته.
(٤) ليست في (ب، ل).

أكبر وأكثر، والحمد لله رب العالمين[1].

الطريق السادس:

أنَّ العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة في ذكر آياته وبراهينه المنقولة في الأخبار، وجردوا لذلك كتبًا، مثل: كتاب «دلائل النبوة» للفقيه الحافظ أبي بكر البيهقي[2]، وقبله دلائل النبوة للشيخ الحافظ أبي نعيم الأصبهاني[3]، وقبله دلائل النبوة لأبي الشيخ الأصبهاني[4]، ولأبي القاسم الطبراني[5]، وقبلهما

---

(١) وفي ذلك يقول القرطبي: «ليظهره علىٰ الدين كله» أي يعليه علىٰ كل الأديان. فالدين اسم بمعنىٰ المصدر ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي ليظهر رسوله علىٰ الدين كله، أي علىٰ الدين الذي هو شرعه بالحجة ثم باليد والسيف، ونسخ ما عداه، «وكفىٰ بالله شهيدا» شهيدا: نصب علىٰ التفسير، والباء زائدة، أي كفىٰ الله شهيدا لنبيه ﷺ، وشهادته له تبين صحة نبوته بالمعجزات. (الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٩٢).
والآية فيها معنىٰ التبشير للمؤمنين، قال ابن كثير: «قال تعالىٰ مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه علىٰ عدوه وعلىٰ سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل علىٰ شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: علىٰ أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره».(تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦٠).

(٢) هو أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، (ت:٤٥٨)، وكتابه مطبوع، وهو من أحسن الكتب المصنفة في دلائل النبوة علىٰ طريقة المحدثين، وأكثرها استيعابا، وقد أكثر المصنف الصدور عنه في هذا المجلد.

(٣) هو أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت:٤٣٠)، وكتابه مطبوع في مجلدين، وهو دون كتاب البيهقي في الاستيعاب والرواية.

(٤) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر، يعرف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت:٣٦٩)، وكتابه مفقود.

(٥) هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، (ت:٣٦٠)، صاحب المعاجم المشهورة، وكتابه دلائل النبوة مفقود، يكثر النقل منه قوام السنة في كتاب: دلائل النبوة.

دلائل النبوة للإمام الحافظ أبي زرعة الرازي[1]، وللشيخ المصنف أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا[2]، وللإمام أبي إسحاق إبراهيم الحربي[3]، و(للمصنف الحافظ)[4] جعفر الفريابي[5]، وما صنفه الشيخ العالم أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه المسمىٰ «بالوفا في فضائل المصطفىٰ»[6]، وما صنفه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في[7] «دلائل النبوة»[8]، وهؤلاء -كلهم وغيرهم- يذكرون ما يذكرون بالأسانيد المعروفة، والطرق المتعددة الكثيرة المتواترة.

وهؤلاء منهم من يميز فيما يذكره من الأحاديث بين ما في صحيحي البخاري ومسلم، وما في غيرهما وإن كان صحيحًا أيضًا: كالبيهقي، وابن الجوزي، والمقدسي.

ومنهم من يذكر ذلك جميعه بأسانيده، وقد يتكلم علىٰ الأسانيد والطرق، ويذكر تعددها من غير احتياج منه إلىٰ أن يذكر ما رواه البخاري (ظ١٣٢)

---

(١) هو عبيدالله بن عبدالكريم الرازي (ت: ٢٦٤)، وهو مفقود، لكن المصنف وتلميذه ابن كثير أكثرا النقل عنه، وقد ذكره السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ص١٩٦ في جملة ما صنف من دلائل النبوة.

(٢) هو أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١)، وقد ذكر كتابه السخاوي وغيره.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت:٢٨٥)، وكتابه في جملة الكتب المفقودة.

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٥) هو أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي (ت:٣٠١)، وكتابه جزء لطيف مطبوع.
وفي (ل، د): أبي جعفر، وهو تصحيف.

(٦) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي (ت:٥٩٧)، وكتابه مطبوع.

(٧) في (ب، ل): من.

(٨) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي، المعروف بالضياء المقدسي (ت:٥٩٧)، صاحب الأحاديث المختارة وغيرها.

ومسلم، كأبي زرعة شيخ مسلم، وأبي الشيخ، وأبي نعيم، وغيرهم.

وآخرون يذكرون ما يذكرونه معزوًا مسندًا إلىٰ من رواه، وإنْ لم يذكروا إسناده، كما يفعله القاضي عياض السبتي في كتابه المسمىٰ بـ«الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ»[١].

ومنهم من يقرر ذلك بشهرة ذلك وطرق أخرىٰ تبين صحته[٢]، كما يفعله كثير من النُّظَّار:

كالقاضي عبد الجبار[٣] والقاضي الماوردي[٤] والجاحظ[٥]، والفقيه سليم الرازي[٦]، و(أضعاف هؤلاء)[٧] غيرهم[٨].

وهذه الكتب فيها من الأحاديث المتضمنة لآيات نبوته وبراهين رسالته أضعاف أضعاف الأحاديث المأثورة فيما هو متواتر عنه؛ مثل حجة الوداع، وعمرة الحديبية، وصد المشركين له، ومصالحته إياهم، وحله هو وأصحابه

---

(١) هو القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي السبتي (ت:٥٤٤)، وكتابه من أشهر الكتب، وقد طبع مرارا.

(٢) في (ل): أخرىٰ من صحته، (ب): حجته.

(٣) القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني (ت:٤١٥) له كتاب: تثبيت دلائل النبوة، وهو مطبوع.

(٤) القاضي الماوردي هو أبو الحسن علي بن محمد البغدادي (ت:٤٥٠)، وكتابه مطبوع باسم: أعلام النبوة.

(٥) الجاحظ هو عمرو بن بحر الكناني (ت:٢٥٥) له رسالة: حجج النبوة، وهي مطبوعة ضمن رسائله.
وفي (ل، ب): كالقاضي عبدالجبار والجاحظ والماوردي القاضي وسليم الرازي الفقيه.

(٦) هو سليم بن أيوب الرازي (ت:٤٤٧)، ولم أقف علىٰ ذكر لكتابه هذا.

(٧) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٨) ليست في (د).

بالحديبية، ورجوعهم ذلك العام، وفتح خيبر (عقب ذلك)[1]، وعمرة القضية، وعمرة الجعرانة.

ومثل: حصاره لأهل الطائف (قبل ذلك)[2]، وفتح مكة قبل ذلك، ومثل غزوه النصارىٰ عام تبوك، وإرساله جيشًا لغزوهم بمؤتة من مشارف الشام قريبًا من الحصن المسمىٰ بالكرك، ومثل غزوه لليهود بخيبر، وغزوهم[3] قبل ذلك لمن كان عند المدينة مثل بني قينقاع، والنضير، وقريظة.

ومثل إرساله أبا بكر أميرا علىٰ الحج سنة تسع، ونبذه العهود، ومناداته أن «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»[4].

ومثل هجرته مع أبي بكر وغلامه عامر بن فهيرة ورجل ثالث كان دليلا لهم[5].

ومثل: ما تواتر عنه أنه كان يصلي بالمسلمين يومي[6] العيدين الفطر والنحر بالمصلىٰ خارج المدينة لم يكن يصلي العيد في مسجده إلاَّ مرة نُقل أنه صلىٰ في المسجد لأجل المطر[7]، ولم يكن علىٰ عهده يصلي أحد بالمدينة

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).

(٣) في (ب، ل): وغزوه لليهود، وفي (د): وغزوهم لليهود.

(٤) رواه البخاري (١٦٦٢)، ومسلم (١٣٤٧).

(٥) وهو عبدالله بن أريقط، وقصتهم في صحيح البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) من رواية البراء بن عازب عن ابي بكر، ويسمىٰ حديثهم هذا حديث الرحل.

(٦) في (ب، ل): في العيدين.

(٧) وذلك في حديث أبي هريرة ﵁ قال: «أنه أصابهم مطر في يوم عيد، فصلىٰ بهم النبي ﷺ صلاة العيد في المسجد» رواه أبو داود (١١٦٠) وابن ماجه(١٣١٣)، وفي إسناده عيسىٰ بن عبدالأعلىٰ بن أبي فروة مجهول.

صلاة العيد إلا خلفه، لم يكن يُصلَّىٰ صلاتيْ عيد علىٰ عهده وعهد أبي بكر وعمر وعثمان، وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب لما كثر الناس وضعف أقوام عن الخروج إلىٰ الصحراء استخلف من يصلي بهم في المسجد.

وكما تواتر عنه أنَّه كان يصلي الجمعة بأذان وإقامة لا يؤذن لها إلا إذا قعد علىٰ المنبر، وكذلك كان الأمر علىٰ عهد أبي بكر وعمر، فلما كان في أثناء خلافة عثمان كثر الناس فأمر بالنداء الثالث علىٰ دار قريبة من المسجد من جهة المشرق يقال لها: الزوراء.

وكما تواتر أنَّ مسجده بناه[1] باللَّبن، وسقفه بجذوع[2] النخل، وكانت حجر أزواجه قبلي المسجد وشرقيه، فلما كثر الناس زاد فيه عمر ثم زاد فيه عثمان، وبناه بالقصة والحجارة، ثم في إمارة الوليد أمر نائبه عمر بن عبد العزيز أن يشتري الحُجر ويزيدها في المسجد، فدخلت حجرة عائشة التي دفن فيها هو وأبو بكر وعمر في المسجد من حينئذ، وإنما كانت في حياته خارجة عن مسجده (إلىٰ سنة إحدىٰ وتسعين)[3].

وقال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا. قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجدًا»[4].

وكما تواتر عنه: أنه نهىٰ عن الصلاة وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها،

---

(١) في (ب، ل): كان باللبن.
(٢) في (ب، ل): من جذوع.
(٣) سقط من (ب): واستدرك في (ل) في الهامش، وعندهما: المسجد.
(٤) رواه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

وكما تواتر عنه أنه كان يضحي في عيد الأضحىٰ.

بل تواتر عند أهل العلم بأحواله تروكه المشهورة كما تواترت أفعاله المشهورة، فتواتر عنه أنه لم يكن يؤذن للعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء[١]، وأنه صلىٰ في كسوف الشمس صلاة طويلة ركعتين في كل ركعة ركوعان[٢]، وأنه[٣] كان (ظ١٣٣) يطوف بالبيت سبعًا، ويصلي ركعتين عقب[٤] الطواف، (وكان يسعىٰ بين الصفا والمروة سبعا ولا يصلي ركعتين عقب السعي)[٥].

وتواتر أنه كان يواصل، وينهىٰ أصحابه عن الوصال، ويقول: «إني لست كأحدكم[٦]، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[٧].

وأنه لم يفرض صومًا إلاَّ شهر[٨] رمضان، ولم يفرض الحج علىٰ المستطيع إلا مرة في العمر[٩]، وأنه فرض الصلوات الخمس علىٰ كل بالغ عاقل إلا الحائض والنفساء، وأنه منع الحائض والنفساء من الصوم والصلاة،

---

(١) في (ب، ل، د): «ولا الكسوف ولا الاستسقاء».

(٢) في (ب، ل): «صلىٰ الكسوف بركوعين في كل ركعة صلاة طويلة». في (د) مثله لكن قال: «ركعتين».

(٣) في (ب، ل، د): «وتواتر أنه».

(٤) في (ب، ل): «بعد».

(٥) بدله في (ب، ل): «ولم يكن يصلي بعد السعي بالصفا والمروة ركعتين».

(٦) في (ب، ل،د): «كهيئتكم».

(٧) رواه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥).

(٨) في (ب، ل، د): «صوم شهر».

(٩) الجار والمجرور من (ظ، د).

وكانت الحائض تؤمر[1] بقضاء الصوم، ولا تؤمر بقضاء الصلاة.

وأنه أمر بالاغتسال من الجنابة للصلاة، وأمر بالوضوء[2] لمن بال أو تغوط أو خرج منه ريح أو مذي، وأنه رخص في الاستجمار بثلاثة أحجار، ونهىٰ عن الاستجمار[3] باليمين، ونهىٰ عن الاستجمار بالعظم والبعر، وقال: «إنها زاد إخوانكم من الجن»[4].

وأنه لم يجمع[5] المسلمين لا[6] علىٰ سماع كفٍّ ولا دفٍّ ولا رقص ولا صعق، لا هو ولا أصحابه عند سماع القرآن، بل كانوا توجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم، وتدمع أعينهم[7]، وأنه لم يكن علىٰ عهده وعهد خلفائه أبي بكر وعمر وعثمان وعلي امرأة مطلقة تعاد إلىٰ زوجها[8] بنكاح يقصد به التحليل ظاهرًا، بل لعن المُحَلِّل[9] والمُحلَّل له لأنَّ ذلك ربما فُعل سرا.

وأنه أمر بعيادة المريض، وتشييع الميت، وإفشاء السلام، وإجابة الدعوة.

وأنه كان يصلي علىٰ الميت وكان يكبر عليه أربع تكبيرات، وقد كان

---

(١) في (ب، ل، د): وكان الحيض يؤمرن....ولا يؤمرن.

(٢) في (ب، ل، د) زيادة: «عند الصلاة».

(٣) في (ب، ل): «الاستنجاء».

(٤) رواه مسلم (٤٥٠)، مطولا، وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فقد رواه أحمد (٤١٤٩)، والترمذي (١٨)، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستنجوا بالروث، ولا بالعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن».

(٥) في (ب، ل، د): لم يكن يجمع..

(٦) ليست في (ب، ل).

(٧) في (ب، ل): «عيونهم».

(٨) في (ب، ل): «عهده وعهد خلفائه تعاد امرأة مطلقة».

(٩) في (ظ): «المُحِل».

أحيانًا يكبر خمسًا وسبعًا، وأنه أمر بتغسيل الميت وتكفينه، والصلاة عليه ودفنه.

وأنه حرم كل مسكر، وحرم بيع الدرهم بالدرهمين، والدينار بالدينارين، والصاع بالصاعين من الحنطة والشعير والتمر والزبيب.

وأنَّه أمر بصدقة الفطر صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير لما كان أهل المدينة يقتاتون التمر والشعير.

وأنه أباح الدواء وقال: «تداووا عباد الله فإنه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا السام» والسام الموت[1]، وأنه كان يتداوىٰ بالحجامة وغيرها.

وكذلك ما تواتر عنه من أحاديث سوىٰ ما في القرآن من صفة الجنة والنار، وذكر العرش والملائكة، والجن، وإرساله إلىٰ الثقلين، وما ذكره من أسماء الله وصفاته، وما أخبر به من فتنة الإنسان في قبره، ومن عذاب القبر ونعيمه، ومن دخول من يدخل النار من أهل الكبائر من أمته، وخروجهم من النار بشفاعته، وشفاعة غيره، ومِنْ ذِكر حوضه، وما أخبر به من رؤية الله تعالىٰ يوم القيامة، ومحاسبة الله للعباد، وغير ذلك.

وما تواتر عنه من أنه كان يرسل رُسلاً إلىٰ الملوك يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله وبما جاء به، كما أرسل إلىٰ ملوك اليمن، وملوك[2] الشام ومصر والعراق، وإلىٰ ملوك المشركين واليهود والنصارىٰ والمجوس بعد ما حارب اليهود مرة بعد مرة.

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٥٤)، وأبو داود (٣٨٥٥) والترمذي(٢٠٣٨)، وابن ماجه(٣٤٣٦) من حديث أسامة بن شريك، وإسناده صحيح.

(٢) في (ب): وملك.

[1]وما تواتر عنه من أنه كان يركب الخيل والإبل والبغال والحمير.

وأنه رجم الزاني المحصن مرة بعد مرة، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر.

وأنه كان يصلي في السفر الرباعية ركعتين ركعتين، وأنه بعرفة ومزدلفة جمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء[2]، وأنه كان بمنىٰ يصلي[3] ركعتين ركعتين، وأنه في حجة الوداع أمر المسلمين[4] كلهم أن يحلوا من إحرامهم، ويجعلوها عمرة إلا من ساق الهدي (ظ١٣٤) فإنه أمره أن يبقىٰ علىٰ إحرامه، وأنه هو لم يحل من إحرامه، ولا اعتمر بعد الحج لا هو ولا أحد ممن حج معه إلا عائشة لكونها كانت حائضًا.

وأن شهر[5] رمضان فُرض في السنة الثانية من الهجرة فصام تسع رمضانات.

وأنه كان له أربع بنات وثلاثة بنين، وكان يُكنىٰ بأكبر أولاده القاسم فيدعىٰ أبا القاسم، وأنه تزوج بنتي أبي بكر وعمر، وزوج عثمان بابنتيه، وزوج عليًّا بنتًا، وأنه آمن به من أعمامه حمزة والعباس، ولم يؤمن به لا أبو لهب ولا أبو طالب مع أن أبا طالب كان يحوطه، ويذب عنه.

---

(١) هنا زيادة في (د): «وما تواتر عنه من أنه كان إذا سافر من المدينة استخلف خليفة، وأنه كان يستكتب كتابا يكتبون له».

(٢) في (ب، ل):«وأنه جمع بين الصلاتين الظهر والعصر بعرفة، وفي مزدلفة جمع بين المغرب والعشاء».

(٣) قدم وأخر في (ب، ل)

(٤) في (ب، ل): «وأمر المسلمين في حجة الوداع أن يحلوا».

(٥) تغير الخط في الأصل (ل) من هنا إلىٰ ما بعد ورقة في الفصل الآتي.

وأنه استخلف أبا بكر أن يُصلي[1] بالناس لما مرض وثقل عن الصلاة، لم يصل أحد بإذنه مع حضوره غير أبي بكر في مرض موته[2]، ولما ذهب ليُصلح بين بني عمرو بن عوف.

وأنه كان من خواص أصحابه العشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، (وعبد الرحمن بن عوف)[3]، وغير هؤلاء كعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأبي طلحة، وأبي أيوب، وأسيد بن حضير، وأضعاف هؤلاء.

وأنه بايعه تحت الشجرة ألف وأربعمائة -أو وخمسمائة[4]- وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

وأنه لما قدم المدينة بنىٰ مسجده، وكان في شماليه صُفَّةً يأوي إليها العزباء[5]، وأن المهاجرين والأنصار كلهم أسلموا طوعًا بلا رغبة ولا رهبة، وأن المهاجرين آذاهم الكفار أذىً عظيمًا حتىٰ هاجر منهم طائفة إلىٰ الحبشة إلىٰ عند النجاشي، وأن النجاشي آمن به، وأن النبي ﷺ أخبر المسلمين بموته يوم مات، وأخرجهم إلىٰ الصحراء فصلىٰ بهم عليه كما يصلي علىٰ الميت[6].

---

(١) في (ب، ل): ليصلي.
(٢) في (ب، ل): في مرضه.
(٣) سقط من (ب) واستدركه في هامش (ل).
(٤) ما بين الحاصرتين ليس في (ل)، وفي (ب): «أو خمسمائة».
(٥) في (ب، ل): «صفة ينزلها الغرباء».
(٦) في (ب، ل، د): وأنه لما مات أخبر النبي ﷺ بموته يوم مات، وأنه صلىٰ عليه بأصحابه في المصلىٰ كما يصلي علىٰ الميت الحاضر.

وأنه كان يخطب يوم الجمعة قبل الصلاة، ويخطب في العيد بعد الصلاة، وكان يؤذن للجمعة والصلوات الخمس، ولا يؤذن للعيدين، ولا غير الصلوات الخمس، وأن بلالاً كان يؤذن له بالمدينة هو وابن أم مكتوم الأعمىٰ، وكان سعد القرظ[١] يؤذن لأهل قباء، وأقام أبا محذورة مؤذنًا[٢] لأهل مكة.

وكما تواتر عنه وعن خلفائه أنهم لم يكونوا بمنىٰ يُصلون صلاة عيد، بل يرمون جمرة العقبة وينحرون، كما أمر أهل الأمصار أن يصلون ثم ينحرون[٣].

إلىٰ أمثال هذه الأمور مما هي متواترة عند كل من كان عالما بأحواله، ومنها ما هو متواتر عند جميع الأمة، ومنها ما هو متواتر عند جمهورها.

وليس منها شيء إلا وتواتر آياته وبراهينه التي لم تذكر في القرآن أعظم من تواتر هذه الأمور، والكتب المصنفة في آياته وبراهينه الخارجة عن القرآن فيها من الأحاديث أضعاف أضعاف ما يُوجد من الأحاديث في مثل هذه الأمور، بل في كل صنف من أصناف آياته من الأحاديث أضعاف ما يوجد في مثل ذلك:

كتواتر إخباره بالغيوب المستقبلة، وتواتر تكثيره للطعام والشراب[٤] مرات متعددة، وتواتر تكثيره للطهور والشراب مرات متعددة:

-إمَّا بنبع الماء بين أصابعه.

-وإمَّا بفيضان الينبوع الذي يضع فيه بعض آثاره.

---

(١) في (ب، ل): وسعد القرض يؤذن..وهكذا ثبت اسمه في (د) بالضاد، وكتب: لعله سعد القرظ كما ذكره الذهبي. قلت: هكذا هو في الأصل ظ.

(٢) في (ب، ل): وأبو محذورة يؤذن لأهل مكة.

(٣) كذا في الأصل (ظ، ب، ل) مجودا، كأنه هكذا في أصله، وفي (د): أن يصلوا ثم ينحرون.

(٤) ليست في (ب).

-وإمَّا بفيض[1] الماء من الوعاء الذي يبرك فيه، والماء باق بحاله لم ينقص.

فالأحاديث المتواترة[2] في مثل هذه الأنواع أكثر من الأحاديث المتواترة في مثل تلك الأمور التي هي متواترة(ظ١٣٥)، ولهذا كان شهرة هذه الأمور في الأمة -وفي أهل العلم بأحواله- أعظم من شهرة كثير من تلك الأمور.

والمقصود هنا: أن تواتر أنواع[3] آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من تواتر أمور كثيرة هي متواترة عند الأمة أو عند علمائها أو علماء أهل الحديث، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة بالقرآن، فإنَّ تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع، حتىٰ بينوا أن ما في القرآن من الآيات تزيد علىٰ عشرات ألوف[4] من الآيات.

وهذان[5] غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به، وهذه الأجناس الثلاثة[6] غير ما في شريعته التي بعث بها، وغير صفات أمته، وغير ما يدل من المعرفة بسيرته وأخلاقه وصفاته وأحواله، وهذا كله غير نصر الله وإكرامه لمن آمن به، وعقوبته وانتقامه ممن كفر به، كما فعل بالأنبياء المتقدمين، فإنَّ تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن بشرًا الإحاطةُ به إذ كان الإيمان به واجبًا علىٰ كل أحد.

---

(١) في (ب، ل): بفيضان.

(٢) في (ب): المشهورة.

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب): الألوف.

(٥) الإشارة بالمثنىٰ لما سبق من آيات القرآن وآيات غير القرآن، وهكذا هو في كل الأصول الخطية، وفي المطبوعة: هذا، وهو تصحيف وخلل في السياق.

(٦) وهي ما سبق ذكره: مما روته الأمة، وما في القرآن، وما في كتب أهل الكتاب.

فيبين الله لكل قوم -بل لكل شخص- من الآيات والبراهين ما لا[1] يبين لقوم، كما أنَّ دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول، ولكل قوم -بل لكل إنسان- من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، والضمير في ذلك[2] عائد إلى القرآن عند المفسرين السلف وعامة العلماء، كما يدل على ذلك القرآن بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٢-٥٣].

وقد قيل: إن الضمير عائد إلى الله.

والصواب الأول كما قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ وهذا هو القرآن، ثم قال بعد ذلك: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فأخبر أنه سيُري الناس في أنفسهم وفي الآفاق من الآيات العيانية المشهودة المعقولة ما يبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق فيتطابق العقل والسمع، ويتفق العيان والقرآن، وتُصَدّق المعاينة للخبر[3].

---

(١) سقطت (لا) من (ب، ل)، وفيهما: «ما يبين لقوم آخرين»، وهي ثابتة في (ظ، د) ولا بد منها لتصحيح الكلام

(٢) يريد الضمير في قوله: «أنه».

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢١/ ٤٩٤، زاد المسير ٤/ ٥٧.

وإذا كان القرآن حقًّا لزم كون الرسول الذي جاء به صادقًا، وأن الله أنزله، وأنه يجب التصديق لما به أخبر، والطاعة لما أوجبه وأمر، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيده وأسماءه[1] وصفاته، وإثبات النبوات، وإثبات المعاد، وهذه هي أصول العلم والإيمان التي علقت بها السعادة والنجاة.

فصل:

وآيات النبوة وبراهينها تكون في حياة الرسول وقبل مولده، وبعد مماته لا تختص بحياته فضلاً عن أن تختص بحال دعوىٰ النبوة أو حال التحدي، كما ظنه بعض أهل الكلام، بل لا بدَّ من آيات في حياته تدل علىٰ صدقه تقوم بها الحجة، وتظهر بها المحجة.

كما قال النبي ﷺ -في الحديث الصحيح[2]-: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[3].

وقد قال تعالىٰ في سورة إبراهيم: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ

---

(١) كذا في ظ: أي أنها معطوفة علىٰ يتضمن، وفيما سواها: وأسمائه، أي أنها معطوفة إما علىٰ إثبات أو توحيد..

(٢) ما بين الحاصرتين ليس في (ب).

(٣) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١-١٠](١).

فأخبر أنَّ قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات، فعلم أنهم جاءوا بالآيات البينات.

وقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤](٢).

---

(١) في (ب، ل): لم يكتب الآيات كلها، بل كتب أول آية ثم قال: إلىٰ قوله..

(٢) عاد الخط في (ل) إلىٰ ما كان عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧-٣٩].

فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسل إليهم وأهلكهم فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحى[1] إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

فأخبر أنه لم يرسل إلاَّ رجالا يوحي إليهم، لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء، وأنه أرسلهم بالبينات والزبر، والزُّبر جمع زبور وهي الكتب، فإن منهم من أنزل عليه كتاب، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذي قبله[2].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٤-٢٦].

أخبر أنَّه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وهي قراءة من سوىٰ حفص عن عاصم (النشر ٢/ ٢٩٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٢١١.

ثم أخبر أنَّ الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير، وهذا من عطف الخاص على العام لاختصاصه بوصف يختص به كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فإن الزبر من البينات، والكتاب المنير من الزبر، وهو كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]، فإن الهدى من العلم، والكتاب المنير من الهدى.

وبيَّن أنه أخذ الذين كفروا بهم، وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين، ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [فاطر: ٢٥] وهذه السورة مكية.

ثم أنزل في آل عمران -وهي مدنية- في سياق الآيات التي فيها تسلية[1] الرسول والمؤمنين به وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم أحد (١٣٧) وغيره فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٥]، أي: يخوفكم أولياءه -كما قاله جمهور العلماء-[2].

---

(١) أثبتها في متن (ب) كما هي هنا، وفي الهامش كتب: تأييد.

(٢) أي أن الشيطان يخوف المسلمين بأوليائه (جامع البيان للطبري ٧/ ٤١٦)، والقول الثاني الوارد في الآية: يخوف أولياءه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين، قاله الحسن والسدي، وذكره الزجاج (زاد المسير ١/ ٣٥٠).

ثم قال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وسياق الكلام في بيان أنَّ الكفار لا يضرون الله ولا عباده المؤمنين، بل ضررهم علىٰ أنفسهم، وأنَّ ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء.

إلىٰ أن قال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٣].

بيَّن سبحانه أن هذا القول منهم -مع أنه كذبٌ- فلم يقولوه إلا دفعًا للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك، إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات، والقربان الذي تأكله النار، ومع هذا قتلوهم، والكلام في مثل هذا للجنس الذي يوالي بعضهم بعضًا، ويتبع بعضهم بعضًا، كاليهود الذين هم علىٰ دين سلفهم الذين فعلوا ذلك، ولهذا يذمهم بصيغة الخطاب كقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فالخطاب لجنس بني إسرائيل، وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا.

ثم قال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فحذف هنا الفاعل، وبنىٰ الفعل للمفعول إذ

المقصود هنا تعزية الرسول وتسليته[1]، لا ذكر عقوبة المكذبين، فلهذا كانت هذه أخص من تلك[2].

فصل:

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم، ونصره للمؤمنين بهم، فهذا من أعلام نبوتهم، ودلائل صدقهم، كإغراق الله تعالىٰ قوم نوح لما كذبوه، وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وإهلاك قوم شعيب بالظلة، وإهلاك قوم لوط بقلب مدائنهم، ورجمهم بالحجارة، وكإهلاك قوم فرعون بالغرق.

وقد ذكر الله هذه القصص[3] في القرآن في غير موضع، وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة علىٰ صدقهم، كما ذكره[4] في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسىٰ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

ثم ذكر قصة إبراهيم، وقال في آخرها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٣]، وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم، ومن لسان الصدق بالثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم، كما قال تعالىٰ في قصة نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي

---

(١) في (ب، ل): تسلية الرسول وتعزيته.

(٢) في هامش الأصل ظ: بلغ مقابلة.

وفي كل النسخ الخطية إلا (ل) أخطأ في كتاب الآية فبدأها: وإن يكذبوبك فقد..

(٣) في (ب): «هذا في القصص».

(٤) في (ب، ل): «يذكره».

ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩]، وكذلك في قصة إبراهيم: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩]، أي: تركنا هذا القول الذي يقوله المتأخرون[1].

وكذلك في قصة موسىٰ وهارون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٠]، و﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وكذلك في قصة إبراهيم قال: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال في قصة فرعون(ظ١٣٨): ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٩-٤٢].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]، فأخبر أن العاقبة للمتقين.

---

(١) قال ابن كثير: «وقوله تعالىٰ: «سلام علىٰ نوح في العالمين» مفسر لما أبقىٰ عليه الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم» (تفسير ابن كثير ٧/ ٢٠).

ثم إنه ما وقع لهؤلاء ولهؤلاء تارة[1] يُعلم بالسمع والنقل، ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة، كما قال عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

كما ذكر الله الطريقين في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، ثم قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكتها[2] وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٢-٤٥][3].

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦-٣٧].

---

(١) في (ب، ل): أخر تارة.

(٢) كذا في الأصول وهي قراءة البصريين: أبي عمرو ويعقوب، والمصنف وأهل بلده كانوا يقرؤون بقراءة أبي عمرو في تلك الحقبة (انظر: النشر ٢/ ٣٢٧).

(٣) فهذه مما يعلم بالسمع والنقل.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ٩-١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١-٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢-٨٥].

وقال -لما قص قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسىٰ في سورة هود-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

ولما ذكر قصة لوط في سورة الصافات قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وفي سورة الحجر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

﴿لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ثم قال[1]: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ٧٩][2].

والإمام المبين: هو الطريق المستبين الواضح[3].

بيَّن سبحانه أنَّ هذه وهذه كلاهما بسبيل للناس يرونها بأبصارهم، فيعلمون بذلك ما فعل الله بمن كذب رسله وعصاهم.

ودلالة نصر الله المؤمنين وانتقامه(ظ١٣٩) من الكافرين علىٰ صدق الأنبياء من جنس دلالة الآيات والمعجزات علىٰ صدقهم، فكون هذا فُعل لأجل هذا؛ وكون ذاك سبب هذا؛ هو مما يعلم بالاضطرار عند تصور الأمر علىٰ ما هو عليه، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية، وانشقاق القمر عند سؤال مشركي مكة آية، وأمثال ذلك.

والسؤال المشهور الذي يُورد في هذا الموضع -علىٰ قول من ينفي التعليل في أفعال الله أو يجوِّز[4] علىٰ الله كل فعل- حيث قيل لهم:

علىٰ أصلكم: لا يفعل الله شيئًا لأجل شيء، وحينئذ فلمْ يأت بالآيات الخارقة للعادة لأجل تصديق الرسول، ولا عاقب هؤلاء لتكذيبهم له، ولا أنجىٰ هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به، إذا كان لا يفعل شيئًا لشيء عندكم.

---

(١) لم يفصل في (ب، ل) بين الآيات.

(٢) وهذه مما يعلم بالعقل والاعتبار، لأن آثارهم باقية.

(٣) أي أن المدينتين -مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط- بطريق يأتمون به في سفرهم ويهتدون به (تفسير الطبري ١٧/ ١٢٥).

(٤) في (ب، ل): ويجوز.

وقالوا لهم أيضًا: إذا جوَّزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب!

ويُقال لهم أيضًا: أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة أو خبر الأنبياء، فقبل[1] العلم بصدق النبي لا يعلم شيء بخبره، والعادة إنما تكون فيما تكرر: كطلوع الشمس، ونزول المطر، ونحو ذلك، والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتادًا.

فيقال في جوابه[2]: هذا السؤال -إن كان متوجهًا- فإنما يقدح في قول هؤلاء الذين يقولون: يفعل شيئًا لأجل شيء، ويُجوزون عليه فعل كل شيء ممكن، لا ينزهونه عن فعل من الأفعال، وليس عندهم قبيح وظلم[3] إلا ما كان ممتنعًا مثل جعل الشيء موجودًا معدومًا، وجعل الجسم في مكانين، ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة في إبطال مذهبهم، وقالوا: قولكم يقدح في العلوم الضرورية، ويسدُّ باب العلم بصدق الرسل[4].

---

(١) في (ب، ل): فقيل.

(٢) الجار والمجرور ليس في (ب، ل).

(٣) في (ل): وليس قبيحا وظلما..

(٤) العلم الضروري: هو ما علم الإنسان من غير نظر ولا استدلال. وهو عند بعضهم: العقل، وللمصنف رسالة في اسم العقل عند المسلمين ضمن مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٧).
قال المصنف: «فكل من آمن بالرسول عن بصيرة، فلا بد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق؛ إما علم ضروري، أو علم نظري بدليل من الأدلة والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية، وقد تكون في نفس الأمر علوم ضرورية، ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها؛ كالذي يجده الإنسان في نفسه ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية وغير ذلك؛ فإن كثيرا من الناس لا يمكنهم بيان الأدلة لغيرهم على وجود ذلك عندهم» (النبوات ٢/ ٩٨٤، وانظر: تعليق المحقق ٢/ ٩٨٢).

قالوا: إذا جوزتم أن يفعل كل شيء فجوِّزوا أن يكون الجبال انقلبت ياقوتًا، والبحار لبنًا، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه.

وجوِّزوا أن يخلق المعجزات علىٰ يدي الكذابين.

وليس المقصود هنا الجواب عن هؤلاء، ولا بيان فساد قولهم، ولكن المقصود أنَّ هذا السؤال -إنْ كان متوجهًا- فإنما يقدح في قول هؤلاء لا يقدح فيما عُلم بالاضطرار من دلالات الآيات المذكورة علىٰ حال هؤلاء وهؤلاء، وأنَّ الله ﷻ نجىٰ موسىٰ ونصره لصدقه ونبوته وإيمانه، وأهلك فرعون لتكذيبه، وكذلك نصر محمدًا ومن اتبعه علىٰ من كذبه من قومه، ونصر نوحًا علىٰ من كذبه[1]، ونصر المسيح علىٰ من كذبه، ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

كما لا يقدح فيما علم بالاضطرار من أنَّ الله ينزل المطر في إبانه لسقي المزارع، وأنه يسوق النيل لسقي أرض مصر، وأنه جعل أعضاء الإنسان لما فيها من المنافع كالبطش باليدين، والمشي بالرجلين، والنظر بالعينين، والسمع بالأذنين، والنطق باللسان، وجعل ماء العين ملحًا لكونها شحمة، والملوحة تمنعها أن تذوب، وماء الأذن مُرًّا ليمنع الذباب من الولوج في الدماغ، وماء الفم عذبا ليطيب الطعام والشراب، وجعل ماء البحر مالحًا (لبقاء الأنام، فإنه لو كان عذبًا لأنتن ما يموت فيه من الحيوان العظيم فيفسد الريح فيموت الآدميون

(١) في (ب، ل، د): كفر به.

والبهائم بهذه الريح)[١]، إلىٰ ما لا يحصىٰ من حكمة الله المشهودة في خلقه.

ونفاة التعليل يقولون: نحن نعلم أنَّ هذا مُقارن لهذا بحكم العادة التي أجراها الله، وإن لم يخلق شيئًا لشيء، وكذلك من نفىٰ الأسباب مع نفي التعليل أيضا يقولون(ظ ١٤٠): نحن نعلم أنه يخلق هذا عند هذا لا به[٢].

فاقتران المعجز بالتصديق من هذا الباب عندهم، لكن يبقىٰ عليهم أنَّ هذا لا يُعلم إلا بالعادة ولا عادة.

فلا جرم رجعوا إلىٰ فطرتهم من أن هذا أمر معلوم بالاضطرار، وإن كان مناقضًا لأصلهم الفاسد، وضربوا لذلك مثلاً بالملك الذي أظهر ما يُناقض عادته لتصديق رسوله[٣].

لكن يقال لهم: الملك يفعل فعلاً لمقصود، فأمكن أن يقال: إنه قام ليصدق رسوله، وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئًا لشيء، فلم يبق المثل مطابقًا، ولهذا صاروا مضطربين في هذا الموضع.

-تارة يقولون: المعجز دل[٤] علىٰ الصدق، لئلا يفضي إلىٰ تعجيز الرب فإنه لا دليل علىٰ الصدق إلا خلق المعجز، فلو لم يكن دليلاً لزم أن يكون الرب غير قادر علىٰ تصديق الرسول الصادق.

وهذه طريقة الأشعري في أكثر كتبه، وأحد قوليه، وسلكها القاضي أبو بكر

---

(١) سقط من (ب، ل).

(٢) أطال المصنف الرد علىٰ هذا المذهب في غيرما موضع من كتبه، انظر: الرد علىٰ المنطقيين ٢٧٠، مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٥٢٢، ٩/ ٢٨٨، منهاج السنة ٥/ ٣٦١.

(٣) انظر: النبوات ١/ ٥٨١-٥٨٣، ٥٣٦.

(٤) في (ب، ل): المعجزات دليلا.



أحيانا، وأبو إسحاق الإسفرائيني، وأبو بكر بن فورك، وأبو محمد اللبان، وأبو علي بن شاذان، والقاضي أبو يعلىٰ، وغيرهم[1].

-والثاني قالوا: نحن نعلم بالاضطرار (أنَّه فعل هذا لأجل التصديق كالمثل المضروب[2]، وهذا هو القول الآخر، وهي طريقة أبي الحسن الأشعري في أماليه، وهي طريقة أبي المعالي وأتباعه كالرازي، وغيره.

وتنازعوا: هل يمكن خلق ذلك علىٰ يد كذاب؟

فقيل: لا يمكن لأنه لو أمكن لجاز وقوعه.

وقيل: بل هو مقدور لكن نعلم أنه لا يفعله)[3] كما نعلم أنه لا يفعل كثيرا من الخوارق المقدورات كقلب الجبل ياقوتا، والبحر زئبقا[4].

قالوا: فنحن (نجوز أشياء)[5] ونعلم بالضرورة أنه لا يفعلها فلا يلزم من كونها مقدورة ممكنة أن لا نعلم انتفاء وقوعها، بل قد نعلم عدم وقوعها بالاضطرار، وإن كنا نقول إنها ممكنة مقدورة، وظهور المعجزات علىٰ يد الكذاب في دعوىٰ النبوة من هذا الباب عندنا.

وقالوا: المعجز علم علىٰ صدق الأنبياء فيمتنع أن يكون الدليل غير مستلزم للمدلول عليه، وهذا القول حق لكن منازعوهم يقولون: هو يستلزم نقيض ما نفوه من كون الله يخلق شيئًا لشيء، ويخلق شيئًا بشيء، وما قالوا من

---

(١) انظر النبوات ١/ ١٣٥، ٥٣٤.
(٢) في (ب، ل): المعروف.
(٣) ما بين القوسين سقط من (ل).
(٤) في (ل): زيتا.
(٥) سقط من (ل).

كونه يجوز عليه فعل كل شيء، وكان ما ذكروه من الحق دليلاً على أن الخلق يعلمون ما يعلمونه من حكمة الرب ومراده بما يخلقه لأمر آخر، وأنه سبحانه منزه عن أن يفعل أشياء لا يجوز منه فعل كل شيء، وهم يقولون هنا: قد يكون الشيء ممكنًا جائزًا مع العلم بأنه غير واقع، كانقلاب الجبال ياقوتًا، والبحر زئبقًا، وموت أهل البلد كلهم في لحظة، ومصير الأطفال علماء حكماء في لحظة واحدة.

وعلى هذا الجواب يعتمدون كثيرًا، كما يذكره القاضي أبو بكر، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي، والرازي، وغيرهم.

ثم إنهم يقولون في العقل: إنه علوم ضرورية كالعلم بوجوب الواجبات، وامتناع الممتنعات، وجواز الجائزات، فالممتنعات كانقلاب دجلة دمًا، وأمثال ذلك من الأمور العادية، فيجعلون العادات واجبة تارة وممتنعة أخرى، مع أنه لا سبب يوجب لا هذا ولا هذا.

ويقولون: نعلم أن هذا جائز ممكن لا يتوقف على سبب، ولا له مانع كالآخر، ثم نعلم أن هذا واقع، وهذا غير واقع لمجرد العادة.

مع أن خرق[1] العادة ليس له عندهم ضابط، بل كل ما يجري من العادات معجزات للأنبياء، فيجوز أن يكون عندهم للولي وللساحر، والفرق بينهما عندهم التحدي أو عدم المعارضة.

وكذلك المتفلسفة الملاحدة الذين يقولون: أسباب الآيات القوى الفلكية، والقوى النفسانية والطبيعية، وهذه (ظ١٤١) كلها مشتركة عندهم بين الأنبياء والسحرة لكن النبي يقصد الخير والعدل، والساحر يقصد الشر والظلم.

---

(١) في (ب): ضد العادة.

وكذلك أولئك الذين وافقوا جهمًا علىٰ أصله في القدر، لا فرق عندهم بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة، لكن الولي مطيع لله، والساحر غير مطيع لله، هذا عمدة هؤلاء النفاة للحكمة والأسباب في أفعال الله تعالىٰ.

وجمهور الناس يخالفونهم، ويقولون: هذا القول فاسد بل نفس تصوره كاف في العلم بفساده، فإنه إذا تماثل هذا وهذا من كل وجه فمن أين يعلم وجود هذا أو وجوبه، وعدم هذا أو امتناعه!

وإذا قيل: معي[1] مُستندي العادة.

قيل له: منازعوك يقولون: هذا باطل من وجهين:

أحدهما: أنك أنت تجوز انتقاض العادة، وليس لانتقاضها عندك سبب تختص به، ولا حكمة انتقضت لأجلها، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء والأولياء والسحرة وغير ذلك، ولهذا قلتم: ليس بين معجزات الأنبياء وبين الكرامات والسحر فرق إلا مجرد اقتران دعوىٰ النبوة والتحدي بالمعارضة مع عدم المعارضة، مع أنَّ التحدي بالمعارضة قد يقع من المشرك بل ومن الساحر، فلم يثبتوا فرقًا يعود إلىٰ جنس الخوارق المفعولة، ولا إلىٰ قصد الفاعل والخالق، ولا قدرته ولا حكمته.

والثاني: أن العادة لا بد لها من أسباب وموانع يُعلم بها اطرادها تارة، وانتفاضها أخرىٰ.

وبهذا يظهر الجواب عما قالوه من أنَّ انقلاب الجبل ذهبا، والبحر زئبقا، والأناسي قرودا، ونحو ذلك ممكن معلوم الجواز مع العلم بأنه لم يقع، فإنهم

---

(١) من (ظ) فقط.

يقال لهم: جمهور الناس لا يسلِّمون لكم أن هذا ممكن إلا مع لوازمه، وانتفاء أضداده، وحينئذ يقال: لم قلتم أن هذا لا يستلزم أسبابًا تكون قبله؟ وموانع ترتفع كسائر ما يُحدثه الله من الأمور الخارقة للعادة، فإنه لا يحدث شيئًا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع.

مثال ذلك: غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب، بل أنزل الله ماء السماء، وأنبع ماء الأرض كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ٩-١٣].

وكذلك عاد لما أهلكهم أرسل الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦- ٨].

وكذلك ثمود، قال لهم صالح: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٤-٦٨].

وكل ما وُجد في العالم من خوارق العادات - آيات الأنبياء وغيرها-

لم يأت منها شيء إلاَّ بأسباب تقدمته، كآيات موسىٰ -مثل مصير العصا حية- كانت بعد أن ألقاها؛ إمَّا عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأىٰ النار الخارقة للعادة، وإمَّا عند مطالبة فرعون له بالآية، وإمَّا عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم، وكذلك سائر آياته (ظ١٤٢)، حتىٰ[1] إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا، وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه، واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم.

وكذلك آيات نبينا ﷺ، مثل: تكثير الماء، كان بوضع يده فيه حتىٰ نبع الماء من بين الأصابع -أي تفجر الماء من بين الأصابع[2]- لم يخرج من نفس الأصابع، وكذلك البئر كان ماؤها يكثر: إمَّا بإلقائه سهمًا من كنانته فيها، وإمَّا بصبه الماء الذي بصق فيه فيها.

وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، إلىٰ أمثال ذلك.

فأمَّا جبل ينقلب ياقوتًا بلا أسباب تقدمت ذلك فهذا لا كان ولا يكون، وكذلك نهر مُطَّرد[3] يصبح لبنًا بلا أسباب تقتضي ذلك يخلقها الله فهذا لا كان ولا يكون.

ومن قال: إن الشيء ممكن فهذا يعنىٰ به شيئان: يعنىٰ به الإمكان الذهني،

---

(١) هامش الأصل ظ: إلىٰ خ، أي في نسخة.
(٢) ما بين الحاصرتين ليس في (ب).
(٣) في (ب، ل): يطرد.

والإمكان الخارجي[1].

فالإمكان الذهني: هو عدم العلم بالامتناع، وهذا ليس فيه إلا عدم العلم بالامتناع، وعدم العلم بالامتناع غير العلم بالإمكان، فكل من لم يعلم امتناع الشيء كان عنده ممكنًا بهذا الاعتبار، لكن هذا ليس بعلم بإمكانه، ومن استدل علىٰ إمكان الشيء بأنه لو قدر لم يلزم منه محال من غير بيان انتفاء لزوم كل محال -كما يفعله طائفة من أهل الكلام، كالآمدي ونحوه- لم يكن فيما ذكره إلا مجرد الدعوىٰ.

وأما الثاني[2]: وهو العلم بإمكان الشيء في الخارج، فهذا يعلم بأن يعلم وجوده، أو وجود نظيره، أو وجود ما هو أقرب إلىٰ الامتناع منه، فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكنًا كان حمله لتسعين رطلاً أولىٰ بالإمكان.

وبهذه الطريقة يبين الله في القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه، كإحياء الموتىٰ والمعاد، فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه، كما أخبر أن قوم موسىٰ قالوا: لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون.

---

(١) قال المصنف: «الإمكان يستعمل علىٰ وجهين: إمكان ذهني وامكان خارجي، فالإمكان الذهني: أن يعرض الشيء علىٰ الذهن فلا يعلم امتناعه، بل يقول: يمكن هذا لا لعلمه بامكانه بل لعدم علمه بامتناعه، مع أن ذاك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج.
وإما الإمكان الخارجي: فأن يعلم إمكان الشيء في الخارج، وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج أو وجود نظيره أو وجود ما هو أبعد عن الوجود منه، فإذا كان الابعد عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب إلىٰ الوجود منه أولىٰ» (الرد علىٰ المنطقيين ٣١٨، وانظر: النبوات ٢/ ٩١١).

(٢) أي الإمكان الخارجي.

وكما أخبر عن المقتول الذي ضربوه بالبقرة فأحياه الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

وكما أخبر عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وكما أخبر عن الذي: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ ننشر ها[1] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وأخبر سبحانه بنظير ذلك في قصة إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك وهو النشأة الأولىٰ، وخلق السماوات والأرض، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ

(١) هكذا في الأصول الخطية، وهي قراءة من سوىٰ ابن عامر والكوفيين (النشر ٢/ ٢٣١).

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] (ظ١٤٣)[١].

فاستدل علىٰ إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان، وبخلق النبات، وذكر ذلك في القرآن في غير موضع، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود أن قول القائل: «هذا ممكن لا[٢] يحتاج إلىٰ دليل» لا يكفي في العلم بإمكانه عدم العلم بامتناعه، والله سبحانه علىٰ كل شيء قدير، والممتنع ليس بشيء باتفاق العقلاء، وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه، ويمنع[٣] أضداده، وإلا فيمتنع وجود الملزوم بدون[٤] اللازم، ويمتنع اجتماع الضدين، وليس للعباد اطلاع علىٰ لوازم كل مخلوق ولا أضداده[٥] المنافية لوجوده[٦].

فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضداده[٧] وانتفائها جهلٌ، والله سبحانه قادر علىٰ تغيير ما شاءه من العالم، وهو يشق السماوات، ويسير الجبال، ويبسها بسًّا فيجعلها هباءً منبثًّا، إلىٰ أمثال ذلك مما أخبر الله به

---

(١) لم يكتب الآيات كاملة في (ب، ل).
(٢) سقط من (ب) فأحال المعنىٰ.
(٣) في (ل): ويمتنع.
(٤) في (ب، ل): دون.
(٥) في (ب): علىٰ أضداده. وضرب في (ل) علىٰ: علىٰ.
(٦) هامش ظ: بلغ مقابلة.
(٧) في (ل): أضدادها.

كما يخلق سائر ما يخلقه بما يُيسره من الأسباب، وهذا مبسوط في موضع آخر.

والمقصود هنا: أنَّ آيات الأنبياء، ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث وحين المبعث، وفي حياتهم، وبعد موتهم:

فقبل المبعث: مثل إخبار من تقدم من الأنبياء به، ومثل الإرهاصات الدالة عليه.

وأمَّا حين المبعث: فظاهر، وأما في حياته: فمثل نصره، وإنجائه، وإهلاك أعدائه.

وأما بعد موته:

فمثل نصر أتباعه، وإهلاك أعدائه كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال للمسيح: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ومحمد ﷺ جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه، وحين مبعثه، وفي حياته، وبعد موته إلىٰ الساعة، وإلىٰ قيام الساعة، فإن ذكره (إلىٰ الساعة)[١]، وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود في الكتب المتقدمة، كما قد بُسط في موضعه،

---

(١) ضرب عليها في (ب). وليست في (ل).

وقد تقدم بعض ذلك[1].

والخليل عليه الصلاة والسلام دعا به، فقال في دعائه ولذريته: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولما وُلد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف، وجرىٰ ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة، وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة، قد ذُكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها، مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها، ومثل ما شوهد من أحواله في صغره.

وأمَّا انتصار الله له ولأتباعه، وإعلاء ذكره، ونشر لسان الصدق له، وإهلاك أعدائه، وإذلال من يحاده ويشاقه، وإظهار دينه علىٰ كل دين باليد واللسان والدليل والبرهان، فهذا مما يطول وصف تفصيله.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

(ظ ١٤٤) وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) في (ب): بعضه. وليست الجملة كلها في (ل).

والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون -وإن كانوا يبتلون في أول الأمر- فالعاقبة لهم، كما قال تعالىٰ لما قص قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وفي الحديث المتفق علىٰ صحته لما أرسل النبي ﷺ رسولاً إلىٰ ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته، وكان المشركون[(١)] حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به، فقال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قالوا: الحرب بيننا وبينه سجال يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرىٰ، فقال: كذلك الرسل تبتلىٰ وتكون لها العاقبة[(٢)].

فإنه كان يوم بدر نصر الله المؤمنين، ثم يوم أحد ابتلىٰ المؤمنين ثم لم ينصر الكفار بعدها حتىٰ أظهر الله الإسلام.

فإن قيل: ففي الأنبياء من قد قُتل؛ كما أخبر الله[(٣)] أن بني إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق، وفي أهل الفجور من يُؤتيه الله مُلكا وسلطانًا، ويسلطه علىٰ مذنبين كما سلط «بخت نصر» علىٰ بني إسرائيل، وكما يسلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانًا علىٰ المسلمين.

قيل: أمَّا من قُتل[(٤)] من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد

---

(١) في (ل): المسؤولون.
(٢) رواه البخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣).
(٣) لفظ الجلالة ليس في (ب).
(٤) في (ب، ل): يقتل.

شهيدًا، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قتل[1] مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

ومعلوم أن من قُتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه[2]، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ ﴾ [التوبة: ٥٢] أي: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة[3].

ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر، فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة، من قتل منهم كان شهيدًا، ومن عاش منهم كان منصورًا سعيدًا، وهذا غاية ما يكون من النصر، إذ كان الموت لا بد منه فالموت علىٰ الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل، بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم، وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم اختاروا هذا الموت إما أنهم قصدوا الشهادة، وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة في

---

(١) هكذا في الأصول: قتل، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب(النشر ٢/ ٢٤٢).

(٢) هامش (ف): «معنىٰ قولهم مات حتف أنفه أن الميت علىٰ فراشه يتنفس حتىٰ ينقضي رمقه، انتهىٰ ابن الجوزي».

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٢، زاد المسير ٢/ ٢٦٦، تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٢.

الآخرة، وفي الدنيا[1] بانتصار طائفتهم، وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء بخلاف من هلك من الكفار؛ فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكًا لا يرجون معه سعادة الآخرة، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا، بل أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين، وقيل فيهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أي ألوف كثيرة، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا(ظ١٤٥)، وحسن ثواب الآخرة، فإذا كان هذا قتل المؤمنين فما الظن بقتل الأنبياء، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح.

وظهور الكفار علىٰ المؤمنين أحيانًا هو:

بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا علىٰ الكفار، وكانت العاقبة لهم كما قد جرىٰ مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله، وأظهرهم علىٰ المخالفين له، وإذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودًا وعدمًا من غير سبب يزاحم ذلك، ودوران[2] الحكم مع الوصف وجودًا وعدمًا من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأنَّ المدار عِلةٌ للدائر.

---

(١) في (ب) في الدنيا والآخرة.

(٢) في (ب): وأن الحكم، وهكذا كانت في (ل) فأصلحها في الهامش..

وقولنا: «من غير مزاحمة وصف آخر» يزيل النقوض الواردة.

فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي، وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه علىٰ من خالفه، وأن يجعل لهم السعادة، ولمن خالفهم الشقاء، وهذا يوجب العلم بنبوته، وأن من اتبعه كان سعيدًا، ومن خالفه كان شقيًّا.

ومن هذا ظهور «بخت نصر» علىٰ بني إسرائيل، فإنه من دلائل نبوة موسىٰ إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسىٰ، وتركوا اتباعه، فعوقبوا بذلك، وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسىٰ منصورين مؤيَّدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

فكان ظهور بني إسرائيل علىٰ عدوهم تارة، وظهور عدوهم تارة من دلائل نبوة موسىٰ ﷺ وآياته، وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ علىٰ عدوهم تارة، وظهور عدوهم عليهم تارة هو من دلائل رسالة محمد ﷺ وأعلام نبوته.

وكان نصر الله لموسىٰ وقومه علىٰ عدوهم في حياته وبعد موته -كما جرىٰ لهم مع يُوشع وغيره- من دلائل نبوة موسىٰ، وكذلك انتصار المؤمنين



مع محمد في حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها[1].

وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون علىٰ أهل الكتاب أحيانًا، فإن أولئك لا يقول مُطَاعهم: إني نبي، ولا يقاتلون أتباع الأنبياء علىٰ دين، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم علىٰ دينهم، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم، وأن[2] لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم.

وأيضًا فلا عاقبة لهم، بل الله يهلك الظالم بالظالم ثم يهلك الظالمين جميعًا، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم، وبين ظهور بعض الكفار علىٰ المؤمنين أو ظهور بعضهم علىٰ بعض.

ويبيِّن أن ظهور محمد وأمته علىٰ أهل الكتاب (ظ١٤٦) اليهود والنصارىٰ هو من جنس ظهورهم علىٰ المشركين عباد الأوثان، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته، ليس هو كظهور «بخت نصر» علىٰ بني إسرائيل، وظهور الكفار علىٰ المسلمين، وهذه الآية مما أخبر بها موسىٰ، وبيّنٌ أنَّ الكذاب المدعي للنبوة لا يتم أمره، وأنه إنما يتم أمر الصادق.

فإن من أهل الكتاب من يقول: «محمد وأمته سلطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذي نحن عليه؛ كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك»، وهذا قياس فاسد، فإن «بخت نصر» لم يدَّع نبوة، ولا قاتل علىٰ دين، ولا طلب من بني إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسىٰ إلىٰ شريعته، فلم يكن في ظهوره إتمامًا

(١) ب: «ودلائل رسالته».
(٢) في (ب): وأنكم.

لما ادعاه من النبوة ودعا إليه من الدين، بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق إذا ظهروا علىٰ القوافل، بخلاف من ادَّعىٰ نبوةً ودينًا دعا إليه، ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة، وتوعد مخالفيه بشقاوة الدنيا والآخرة، ثم نصره الله وأظهره، وأتم دينه، وأعلىٰ كلمته، وجعل له العاقبة، وأذل مخالفيه، فإن هذا من جنس خرق العادات (المقترن بدعوىٰ النبوة فإنه دليل عليها، وذلك من جنس العادات)[1] التي لم تقترن بدعوىٰ النبوة، فإنه ليس دليلا عليها.

وقد يغرق في البحر أمم كثيرة فلا يكون ذلك دليلاً علىٰ نبوة نبي بخلاف غرق فرعون وقومه، فإنه كان آية بينة لموسىٰ، وهذا موافق لما أخبر به موسىٰ عليه الصلاة والسلام من أنَّ الكذاب لا يتم أمره، وذلك أن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب علىٰ كذبه من غير أن يتبين كذبه.

ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق كان معها ما يدل علىٰ كذبه من وجوه:

منها: دعواه الإلهية وهو أعور، والله ليس بأعور[2]، ومكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ[3]، والله تعالىٰ لا يراه أحد حتىٰ يموت[4]، وقد ذكر النبي ﷺ هذه العلامات الثلاث في الأحاديث الصحيحة

---

(١) سقط ما بين القوسين من (ب).
(٢) رواه البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦) من حديث أبي هريرة وابن عمر.
(٣) رواه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس.
(٤) رواه مسلم (٢٢٤٥) من حديث ابن عمر، وقد جمع مسلم في صحيحه العلامات الثلاث في حديث واحد، وذلك في قصة ابن صياد.
وبقيت علامة رابعة اتفقا علىٰ تخريجها، وهي أن معه جنة ونار، فناره ماء بارد، وماؤه نار، رواه البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٢٩٣٤).

فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائمًا فهذا لم يقع قط، فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة فهذا هو الواقع، ومن يستدل على ذلك بالحكمة[1] فحكمته تناقض أن يفعل ذلك إذ الحكيم لا يفعل هذا.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

فأخبر أن سنته التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين.

والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله فإذا نقص الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣].

فأخبر أنَّ الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين، ولا يوجد لسنة الله تبديل تستبدل بغيرها ولا تتحول فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم.

وكذلك قال في المنافقين - وهم الكفار في الباطن دون الظاهر - ومن فيه شعبة نفاق: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى

---

(١) زيادو في (ب): أيضا.

﴿ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

والسنة هي العادة(١).

فهذه عادة الله المعلومة، فإذا نصر من ادَّعىٰ النبوة وأتباعه علىٰ من خالفه -إما ظاهرًا وباطنًا، وإما باطنًا - نصرًا مستقرًا كان ذلك دليلاً علىٰ أنه نبي صادق، إذ كانت سنة الله وعادته (ظ١٤٧) نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين علىٰ الكافرين والمنافقين، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات، وهذه منها، ومن ادعىٰ النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار، وأظلم الظالمين قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢](٢)، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومن كان كذلك كان الله يمقته ويبغضه ويعاقبه، ولا يدوم أمره، بل هو كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: «إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤٧.
(٢) وقع في هذه الآية تصحيف فيما سوىٰ الأصل.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري في الصحيح (٤٦٨٦)، ومسلم في الصحيح (٢٥٨٣).

وقال أيضا في الحديث الصحيح عن أبي موسىٰ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرىٰ، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز، لا تزال ثابتة علىٰ أصلها حتىٰ يكون انجعافها مرة واحدة»(١).

فالكاذب الفاجر وإن أُعطي دولة فلا بد من زوالها بالكلية، وبقاء ذمه، ولسان السوء له في العالم، وهو يظهر سريعا ويزول سريعا كدولة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقي(٢)، وبابا الرومي(٣)، ونحوهم.

وأمَّا الأنبياء فإنهم يُبتلون كثيرًا ليمحصوا بالبلاء، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه، ويظهر أمرهم شيئًا فشيئًا كالزرع، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ

---

(١) متفق عليه من حديث كعب بن مالك، رواه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠)، واتفقا كذلك علىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة، صماء معتدلة، حتىٰ يقصمها الله إذا شاء» انظر: صحيح البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩).

(٢) هو الحارث بن سعيد الكذاب، ظهر في دولة بني أمية وادعىٰ النبوة، أطال الحافظ ابن عساكر ترجمته في تاريخ دمشق (١١/ ٤٢٧) ظفر به عبدالملك ثم قتله وصلبه، في حدود سنة ثمانين (وفيات الأعيان ١١/ ١٩٦)، وقد ذكره المصنف في الفتاوىٰ ١١/ ٢٨٥، والنبوات ١/ ١٦٨.

(٣) سبقت ترجمة بابا الرومي ١/ ٢٦٧. وقد ذكرهم المصنف في النبوات ١/ ١٦٨ثم قال: «وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم، لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبياء، وكان من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة» (النبوات ١/ ١٦٩).

﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ (أي فراخه) ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ (أي قواه) ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (أي قوائمه)[1] ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس، فاعتبار هذه الأمور، وسنة الله في أوليائه وأنبيائه الصادقين، وفي أعداء الله[2] والمتنبئين الكذابين، مما يوجب الفرق بين النوعين، وبين دلائل النبي الصادق، ودلائل المتنبئ الكذاب.

وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين، ثم كون العاقبة لهم في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

---

(١) التفسير ليس في (ل، ب).

(٢) في (ل، ب): أعدائه.

فصل:

ومما ينبغي أن يعرف أن الأدلة نوعان:

نوعٌ يدل علىٰ مجرد العلم بالمدلول عليه، ونوع يحض مع ذلك علىٰ الرغبة فيه، أو الرهبة منه.

فالأول: من جنس الخير المجرد، والثاني: من جنس الحث والطلب والإرادة والأمر بالشيء (ظ١٤٨) والنهي عنه.

وذلك كمن علم أن في المكان الفلاني جمادات أو حيوانات أو نباتا ليس له فيها غرض، لا حب ولا بغض، فليس هو بمنزلة من علم أن في المكان الفلاني صديقه وولده ومحبوبه وماله وأهله وأهل دينه، وفي المكان الفلاني عدوه ومبغضه، ومن يقطع عليه الطريق ويقتله ويأخذ ماله، فكذلك دلائل النبوة هي كلها تدل علىٰ صدق النبي، ثم يعلم ما يخبر به النبي من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، لأنه أخبر عن الله بذلك، وهو صادق فيما يخبر به، فهذا طريق صحيح عام.

وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة والسعادة والنصرة وحسن العاقبة، وما جعله لهم من لسان الصدق، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك والعذاب وسوء العاقبة، واتباعهم اللعنة في الدنيا مع عذاب الآخرة؛ فهذا يدل مع صدق الأنبياء علىٰ الترغيب[1] في اتباعهم، والترهيب من مخالفتهم، ففيه العلم بصدقهم، والموعظة للخلق[2].

---

(١) في (ب): الرغبة..والرهبة.

(٢) ليست في (ل،ب).

والوعظ: هو أمر ونهي بترغيب وترهيب، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]، أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به[١].

وقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧] أي: ينهاكم الله أن تعودوا لمثله.

وهذه الطريق أكمل وأبلغ في حصول المقصود، فإنها تفيد العلم بصدقهم، والرغبة في اتباعهم، والرهبة من خلافهم، وتفيد ثبوت[٢] صحة الدين الذي دعوا إليه، وسعادة أهله، وفساد الدين المخالف لدينهم، وشقاوة أهله.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في المجامع الكبار كالعيد[٣] بـ (ق) و (اقتربت الساعة) لما فيهما من بيان ذلك[٤]، وسورة (ق) كان يقرأ بها في الجمعة، فإنها جامعة لإثبات النبوات والمعاد، مع ما فيها من التوحيد وأصول الشرائع، وبيان حال متبعي الأنبياء ومخالفيهم في الدنيا، كما قال تعالىٰ فيها ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

---

(١) وذلك أن ما يوعظون به هو ما يذكرون به من طاعة الله والانتهاء إلىٰ أمره (جامع البيان ٨/ ٥٢٨). واقتصر في (ب، ل) علىٰ جزء الشاهد من الآولىٰ.

(٢) ليست في (ل، ب).

(٣) في (ل، ب): يقرأ في صلاة العيد.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي واقد الليثي (٨٩١).

فصل:

ومما ينبغي أنْ يُعلم أنَّ الله تعالىٰ إذا أرسل نبيًا وأتىٰ بآية دالة علىٰ صدقه قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلىٰ ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة، وطلب المتعنتين لا أمد له، ومعلوم أنه من قامت عليه حجة في مسألة علم أو حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها، لو قال: أنا لا أقبل[1] حتىٰ يقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالمًا متعديًا، ولم تجب إجابته إلىٰ ذلك، ولا يمكِّن الحكامُ الخصومَ من ذلك، بل إذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك، ولو قال المطلوبُ: أريد بينة ثانية، وثالثة، ورابعة، لم يجب إلىٰ ذلك، فحق الله الذي أوجبه علىٰ عباده من توحيده، والإيمان به، وبرسله أولىٰ إذا أقام بينة أوجبت علىٰ الخلق الإيمان برسله أن لا تجب إجابة الطالب إلىٰ ثانية وثالثة.

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة، فيتابع تعالىٰ بين الآيات، كما أرسل محمدًا ﷺ بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها، فإن الأدلة كلما كثرت، وتواردت علىٰ مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق؛ فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر، وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا، وقد يرسل (ظ١٤٩) الأنبياء بآيات متتابعة، ويقسِّي قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية لينتشر ذلك، ويظهر ويبلغ ذلك قومًا آخرين فيكون ذلك سببًا لإيمانهم، كما فعل بآيات موسىٰ، وآيات محمد.

---

(١) في (ب): لا أقبل حجة حتىٰ يقوم عليه ثانية..



كما ذكر في التوراة: «أنه يقسي قلب فرعون لتظهر عجائبه وآياته» وكما صدَّ المكذبين عن الإيمان بمحمد حتىٰ يعارضوه[1] ويمانعوه، ويسعوا في معارضته والقدح في آياته، فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن، وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه، بخلاف ما لو اتُّبع ابتداءً بدون ذلك، فإنه قد كان يظن أنهم قادرون علىٰ معارضته، وكذلك أيضًا يكون في ذلك علىٰ يقينه وصبره وجهاده، ويقين من آمن به[2] وصبرهم وجهادهم؛ ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة[3].

---

(١) ليست في (ل، ب).

(٢) في (ل، ب): من أمره وصبرهم.

(٣) ومن هذا القبيل ما ذكره المفسرون من أن القوم المشركين الذي جاؤوا بالأسئلة الثلاثة من اليهود ليختبروا بها النبي ﷺ، فكانت تلك الحادثة سببا في نزول سورة الكهف، وفي القصة قول ابن عباس: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلىٰ أحبار يهود بالمدينة، إلىٰ أن قال: قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله، عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غدا بما سألتم عنه، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتىٰ أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتىٰ أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام، من الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف الحديث (تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٣).

فإن من حكمة الله عز وجل أن تلبث الوحي حتىٰ أرجف المشركون، وسعوا بنشر ذلك بين الناس، لأنهم ظنوا أنهم قد أعجزوا النبي ﷺ بذلك، حتىٰ سمعه القاصي والداني، وصار الجواب علىٰ هذه السؤالات دليل صدق نبوته، وصار الناس يترقبون ويتربصون، فلما نزلت السورة بهذه الأجوبة علم الناس صدقه ﷺ، ولو أن السورة الكريمة نزلت أول ما سألوه لربما كانت قريش أنكرت القضية من أصلها، وجحدت القصة، فظهر من الحكمة في تأخير الجواب الشيء الكثير، وكان ما أصاب النبي ﷺ من حزن في ذلك أعظم لأجره.

وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال؛ كما ذكره الله في كتابه من أنَّ الكفار كانوا يقترحون علىٰ الأنبياء آيات غير الآيات التي جاءوا، بها فتارة يجيبهم الله إلىٰ ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة، وتارة لا يجيبهم لما فيه في ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم الذين يقولون: إنه يفعل للحكمة.

ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلىٰ محض المشيئة، ويقول: اقترن بالمراد المصلحة والمفسدة عادة وسنة من الله، وإن لم يفعل هذا لهذا.

وقد كان الرسول ﷺ ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها، فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدىٰ، بل تستلزم إقامة الحجة، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها، والله تعالىٰ قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه علىٰ قلب الكافر، كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما، لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دل علىٰ ذلك القرآن والتوراة وغيرهما.

وقد بين أنه لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها أو لوجود المفسدة.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

بيَّن سبحانه أنَّه إنما منعه أن يرسل بالآيات[1] تكذيب الأولين بها الذي استحقوا به[2] الهلاك، فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال.

وهذا المعنىٰ مذكور في عامة كتب التفسير والحديث[3]، وغيرها من كتب المسلمين، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال حتىٰ يزرعوا، قال: فقيل له: إن شئت نستأني بهم (لعلنا نجتني[4] منهم)[5]، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلك[6] من قبلهم؟

قال: لا بل أستأني بهم» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

([7]رواه أحمد والنسائي من حديث جرير عن الأعمش به[8].

---

(١) كذا في الأصل ظ، في باقي لانسخ: أن ما منعه أن يرسل بالآيات إلا.. وفي (د): أنه إنما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب.

(٢) في (ل، ب): بها.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٦)، معالم التنزيل للبغوي (٥/ ١٠٢)، الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٨١)، تفسير ابن كثير (٥/ ٨٩).

(٤) في (ب): نجتبي، وهو مهمل في (ظ، د) فيحتمل النون والباء. وبالنون ضبط في تفسير ابن جرير، وفي السنن الكبرىٰ للنسائي: ننتج منهم

(٥) سقط من (ل).

(٦) في (ب، ل): أهلكت.

(٧) ما بين القوسين ليس في (ب، ل): المقترن.

(٨) رواه أحمد (٢٣٣٣)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٢٦)، وابن جرير الطبري =

وروىٰ الإمام الأحمد: حدثنا (ظ ١٥٠) حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا[1] سفيان، عن سلمة بن كهيل، عن عمران بن حكم[2]، عن ابن عباس، قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن لك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: «إن ربك يَقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة»، قال: «بل باب التوبة والرحمة»[3].

= في التفسير (١٧/ ٤٧٦)، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧١)، وإسناده صحيح.
وهكذا ثبت في الأصل وفي تفسير الطبري: لعلنا نجتني منهم، وهو يناسب ما ورد في الحديث الآخر: لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، الحديث، وفي دلائل النبوة: نستحيي منهم، وأظنه تصحيفا.

(١) في (د): أنبأنا.

(٢) كذا ثبت في الأصل، ومثله في المستدرك من طريق عبدالرحمن بن مهدي.
وفي الإكمال للحسيني (٣٢٣)، وتعجيل المنفعة للحافظ (٢/ ٨١) أن ما ثبت في أصل المسند تصحيف، وأن الصواب: عمران بن الحارث أبو الحكم كما وقع في مسلم، وعمران من رجال التهذيب. وهو غير منسوب إلىٰ أبيه في مصادر التخريج.
وفي (د): عثمان بن حكيم. تصحيف.

(٣) رواه أحمد (٢١٦٦)، وعبد بن حميد (٧٠٠) والطبراني (١٢٧٣٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧٢).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح محفوظ من حديث الثوري عن سلمة بن كهيل وعمران بن الحكم السلمي تابعي كبير محتج به وإنما أهملا هذا الحديث -والله أعلم- لخلاف وقع من يحيىٰ بن سلمة بن كهيل في إسناده ويحيىٰ كثير الوهم علىٰ أبيه».
ثم ذكره من رواية الأحوص بن جواب، ثنا يحيىٰ بن سلمة بن كهيل، عن أبيه، عن عمران بن الجعد عن بن عباس، فذكره نحوه، وفيه: فقال رسول الله ﷺ باب التوبة والرحمة أحب إلي. =

وروىٰ ابن أبي حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال: سمعت الحسن - يعني[1] البصري - في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]، قال: رحمة لكم أيتها الأمة، أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم[2].

= قال الحاكم: هذا الوهم لا يوهن حديث الثوري فإني لا أعرف عمران بن الجعد في التابعين وإنما روىٰ إسماعيل بن أبي خالد عن عمران بن أبي الجعد، فأما عمران بن أبي الجعد فإنه من أتباع التابعين.

قلت: وله شاهد مرسل عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشا، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسىٰ كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسىٰ كان يحيي الموتىٰ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بشيء من الآيات حتىٰ نصدقك! فقال النبي ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبا. فقال لهم: فإن فعلت تصدقوني؟ قالوا: نعم والله، لئن فعلت لنتبعنك أجمعين! فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: لك ما شئت، إن شئت أصبح ذهبا، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتىٰ يتوب تائبهم. فقال: بل يتوب تائبهم. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩]. رواه ابن جرير في التفسير (١٢/ ٣٩).

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (١٧/ ٤٧٧)، ولم يعزه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٠٧) إلا إليه.

وروىٰ ابن جرير (٢/ ٤٩٠) عن مجاهد في قوله الله: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ ، أن يريهم الله جهرة. فسألت قريش محمدا ﷺ أن يجعل الله لهم الصفا ذهبا، قال: نعم! وهو لكم كمائدة بني إسرائيل إن كفرتم! فأبوا ورجعوا.

وروىٰ كذلك (٣/ ٢٧٠) -من طريق تفسير القمي- عن سعيد قال: سألت قريش اليهود فقالوا: حدثونا عما جاءكم به موسىٰ من الآيات! فحدثوهم بالعصا وبيده البيضاء للناظرين. وسألوا النصارىٰ عما جاءهم به عيسىٰ من الآيات، فأخبروهم أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن الله. فقالت قريش عند ذلك للنبي ﷺ: =

وفي الإنجيل: «أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء فقال لهم المسيح: الأمة الفاجرة تطلب آية، ولا تعطىٰ إلا مثل آية نونان» -يعني ذا النون-(١).

وقد كانت الآيات يُؤْتىٰ بها محمدٌ ﷺ آية بعد آية فلا يؤمنون بها.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي

= ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبا، فنزداد يقينا، ونتقوىٰ به علىٰ عدونا. فسأل النبي ﷺ ربه، فأوحىٰ إليه: إني معطيهم، فأجعل لهم الصفا ذهبا، ولكن إن كذبوا عذبتهم عذابا لم أعذبه أحدا من العالمين.

فقال النبي ﷺ: ذرني وقومي فأدعوهم يوما بيوم. فأنزل الله عليه: «إن في خلق السموات والأرض»، الآية: إن في ذلك لآية لهم، إن كانوا إنما يريدون أن أجعل لهم الصفا ذهبا، فخلق الله السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، أعظم من أن أجعل لهم الصفا ذهبا ليزدادوا يقينا.

(١) في الأصل (ظ): ثوبان.

وفي إنجيل متىٰ -بحسب الترجمة الحالية- (١٢: ٣٨-٤٠): «حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: «يا معلم، نريد أن نرىٰ منك آية». أجاب وقال لهم: «جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطىٰ له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال».

ونحوه في إنجيل لوقا (١١: ٢٩).

﴿ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٤-١١].

أخبر سبحانه بأنَّ الآيات تأتيهم، وما تأتيهم من آية إلا أعرضوا عنها، وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التي هي تكذيب الرسول، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وأخبر عن قوَّة[1] كفرهم بأنه لو نزَّل عليهم كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين، وبيَّن سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكًا لجعله علىٰ صورة الرجل، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة في صورهم، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أنَّ الرسول بشر لا ملك.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٥].

وهذه الآيات التي اقترحوها لو أُجيبوا بها ولم يؤمنوا أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم، وأيضًا فهي مما لا يصلح الإتيان بها، فإن قولهم: ﴿حَتَّىٰ

---

(١) في (ب، ل): بشدة كفرهم.

﴿تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ يقتضي تفجير الينبوع بأرض مكة، لتصير[1] واديًا ذا زرع، والله تعالىٰ من حكمته جعل بيته (ظ١٥١) بواد غير ذي زرع لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه في الدنيا فيكون حجهم للدنيا لا لله، وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب ففجر الأنهار خلالها تفجيرًا كان في هذا من التوسيع في الدنيا ما يقتضي نقص درجته، وانخفاض منزلته، وكذلك إذا كان له بيت من زخرف -والزخرف الذهب-.

وأما إسقاط السماء كسفا فهذا لا يكون إلىٰ يوم القيامة، وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة، فقولهم «كما زعمت» كذب عليه، إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسدا[2].

وأما الإتيان بالله وملائكته قبيلاً فهذا لما سأل قوم موسىٰ ما هو دونه أخذتهم الصاعقة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

وأما إنزال الكتاب فقد قال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ

---

(١) في (ب، ل): فيصير.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٠).

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣-١٦١].

بيَّن سبحانه أنَّ المشركين سألوه إنزال كتاب، وأن أهل الكتاب سألوه ذلك، وبيَّن سبحانه أن الطائفتين لا تؤمن إذا جاءهم ذلك، وإنما سألوه تعنتًا.

فقال عن المشركين: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسىٰ أكبر من ذلك، وهو رؤية الله جهرة، فقال: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (وأنهم عبدوا العجل، كما قال)[1] ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ (وأن الله آتىٰ موسىٰ سلطانًا مبينًا ورفع الطور فوقهم، وقال لهم: لا تعدوا في السبت وأخذ منهم ميثاقا غليظا، كما قال)[2]: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي

(١) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).



﴿ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٤] وأنهم[١] مع هذا نقضوا الميثاق، وكفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين بغير حق إلىٰ أمثال ذلك، وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرَّم عليهم طيبات أحلت لهم، فكان في هذا من الاعتبار لأمة محمد ﷺ: أنَّ هذه الأمة المكذبة بك -الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التي اقترحوها- لم يك في مجيئها منفعة لهم، بل فيها ما يوجب استحقاقهم (ظ١٥٢) عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها، وتغليظ الأمر عليهم، فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة.

وقد عرض الله علىٰ محمد ﷺ أن يهلك قومه لما كذبوه، فقال: «بل أستأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا»، كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتىٰ عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلىٰ ما أردت فانطلقت علىٰ وجهي وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، وقال: إن الله قد سمع قول قومك لك[٢] وما ردوا عليك، وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا» أخرجاه[٣].

---

(١) في (ب، ل): فهم.

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) صحيح البخاري (٣٢٣١)، صحيح مسلم (١٧٩٥) .

ولهذا[1] لما طلب من المسيح المائدة كانت من الآيات الموجبة لمن كفر بها عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذابًا عاجلاً يهلك الله به جميع المكذبين، كما أهلك قوم نوح، وكما أهلك عادا وثمود، وأهل مدين وقوم لوط، وكما أهلك قوم فرعون، وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسىٰ ليبقىٰ ذكرها وخيرها[2] في الأرض، إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال[3]، بل قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]، بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي يعذب بعضهم ويبقىٰ بعضهم، إذ كانوا لم يتفقوا علىٰ الكفر، ولهذا لم يزل في الأرض أمة من بني إسرائيل باقية.

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) كذا مجودة في الأصل ظ، وهو أنسب للسياق، فإن خيرها أنه أزال بعدها عذاب الاستئصال، وفي (ب،ل، د): خبرها، وهو تكرار لا فائدة فيه، لأن الذكر هو الخبر.

(٣) النبوات ص٢٩.

قال تعالىٰ -لما ذكر بني إسرائيل-: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقد[١] قال تعالىٰ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤].

فكان من حكمته ورحمته ﷻ لما أرسل محمدا أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم، بل عذب بعضهم (بدون ذلك من أنواع العذاب كما عذب طوائف ممن كذبه)[٢] بأنواع من العذاب، كالمستهزئين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٦].

فعذَّب الله كل واحد بعذاب معروف، وكالذي دعا عليه النبي ﷺ فقال فيه: «اللهم سلط[٣] عليه كلبًا من كلابك»، فكان يحترس بقومه فجاء الأسد فتخطا الحلقة حتىٰ أخذه من وسطها، وأمثال ذلك، مما هو موجود في كل وقت إلىٰ زماننا (ظ١٥٢) هذا[٤].

---

(١) ليست في (ب، ل).
(٢) ليست في (ب، ل).
(٣) في (ب، ل): «دعا عليه النبي ﷺ أن يسلط الله».
(٤) في (ب، ل): «فجاء الأسد وأخذه من بينهم فقتله، وأمثال ذلك وقد تقدم ذلك».

قال تعالىٰ للكفار[1]: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

فأخبر أنَّه يعذب الكفار (به تارة بعذاب من عنده و)[2] تارة بأيدي عباده المؤمنين بالجهاد وإقامة الحدود[3]، فكان تعذيبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم كما جرىٰ لقريش وغيرهم، فإنهم لما كذبوه لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادوا[4] وانقطعت المنفعة به[5] عنهم، ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب، ولو بالهزيمة والأسر وقتل بعضهم، كما عُذبوا يوم بدر، فإنَّ في هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم، والنفوس إذا كانت قادرة علىٰ كمال أغراضها فلا تكاد تنصرف عنها، بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها فإنَّ ذلك مما يدعوها إلىٰ التوبة، كما يقال: من العصمة أن لا تقدر.

فكان ما وقع بهم تعجيزًا وزاجرًا وداعيًا إلىٰ التوبة، ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك، ولم يقتل منهم إلا قليل، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم في هذه الأمة كفرعون في تلك الأمة، كما روي أن النبي ﷺ قال «عن أبي جهل: هذا فرعون هذه الأمة»[6].

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) ما بين القوسين ليس من (ب، ل). ومحله بعد قوله: وإقامة الحدود، وتارة بعذاب غير ذلك.

(٣) ليست في (ب، ل).

(٤) في (ب): لتأذوا.

(٥) في (الأصل ظ): بهم. وما ثبت هو الأليق لأن الضمير يعود إلىٰ النبي ﷺ.

(٦) رواه أحمد (٣٨٢٤) والطبراني في المعجم الكبير (٨٤٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٨٨) =

وقد ذكر الله تعالىٰ في التوراة لموسىٰ[1]: «إني أقسي قلب فرعون فلا يؤمن بك لتظهر آياتي وعجائبي»[2] بين أنَّ في ذلك من الحكمة انتشار آياته الدالة علىٰ صدق أنبيائه في الأرض، إذ كان موسىٰ قد أخبر بتكليم الله له، وبكتابة التوراة له، فأظهر الله له من الآيات ما يبقي ذكرها في الأرض، وكان في ضمن ذلك من تقسية[3] قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه الله وقومه أجمعين.

وفرعون كان جاحدًا للصانع منكرًا لربوبيته لا يقرُّ به، فلذلك أتىٰ من الآيات بما يناسب حاله.

وأما بنو إسرائيل مع المسيح فكانوا مقرين بالكتاب الأول فلم يحتاجوا إلىٰ مثل ما احتاج إليه موسىٰ.

ومحمد ﷺ لم يكن محتاجًا إلىٰ تقرير جنس النبوة إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثبَّت[4] ذلك، وقومه كانوا مقرين بالصانع، وإنما كانت الحاجة

= من حديث ابن مسعود، وهو منقطع لأنه من رواية أبي إسحاق عن أبي عبيدة عنه، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، ورواه النسائي في الكبرىٰ (٥٩٦١) من طريق زيد بن أبي أنيس عن أبي إسحاق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، ثم قال: خالفه سفيان الثوري، فرواه عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، ورواية سفيان هي الصواب.

(١) في (ب، ل): أخر وقدم.

(٢) هذا النقل من الإصحاح الثالث السفر الثاني، كذا نقله البقاعي (ت:٨٥٥) في تفسيره: نظم الدرر (٨/ ٥٠)، بلفظ:«وأنا أقسي قلب فرعون فأكثر آياتي وعجائبي بأرض مصر، فلا يطيعكما فرعون ولا يسمع منكما فأمد يدي علىٰ مصر وأخرج جميع جنودي وشعبي بني إسرائيل من أرض مصر بالأحكام العظام، فيعرف أهل مصر أني أنا الرب».

(٣) في (ل): تقسيته.

(٤) في (ب، ل): يثبت.

داعية إلىٰ ما يثبت[1] نبوته، ومع هذا فأظهر الله علىٰ يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم.

ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التي يستحق مكذبها العذاب العام العاجل كما استحقه قوم فرعون وهود وصالح وشعيب وغيرهم، فلهذا يبين[2] الله تعالىٰ في القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم إذ كانوا لا يؤمنون بها، ولكن تضرهم إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ، ومع وجود المانع وعدم المقتضي لا يصلح الفعل علىٰ قول الجمهور القائلين بالحكمة، ومن لم يعلل فلا يطلب سببًا ولا حكمة، (أو يطلب سببًا بلا حكمة)[3]، بل يرد الأمر إلىٰ محض المشيئة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] وهو يعلم أنَّ قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك؛ كقوم فرعون[4] ونوح وهود وصالح وشعيب ولوط، وغيرهم.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥].

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ

---

(١) في (ب): إلىٰ سبب. (ل، د): تثبيت.

(٢) في (ب): بين.

(٣) ما بين القوسين ليس في (ب، ل). وهي ثابتة في الأصلين ظ د.

(٤) ليست في (ب، ل).

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقد قال تعالىٰ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٣-٤٦](ظ ١٥٤).

ذكر هذا في سورة «اقتربت» التي ذكر فيها انشقاق القمر، وإعراضهم عن الآيات، وقولهم: هذا سحر[(١)]، وتكذيبهم، واتباع أهوائهم، فقال تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١-٣]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]، أي: من أنباء الغيب وما أخبر به ما فيه مزدجر أي: ما يزجرهم عن الكفر[(٢)]، إذ كان في تلك الإنباءات[(٣)] بيان صدق الرسول، والإنذار لمن كذبه بالعذاب كما عُذِّب المتقدمون، ولهذا يقول عقب القصة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦]، أي: كيف كان عذابي لمن كذب رسلي؟ وكيف كان إنذاري بذلك قبل مجيئهم[(٤)]؟ يُبين صدق قوله الذي أخبرت به الرسل، وعقوبته لمن كذبهم.

ثم ذكر قصة المكذبين لنوح وهود وصالح ولوط إلىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١-٤٢]، فإنَّ قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسىٰ، وجميع آيات الأنبياء قبله، وكذبوا بالآيات

---

(١) في (ب، ل، د): سحر مستمر.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٥٧٢.
(٣) في (ب، ل): الآيات.
(٤) في (ب، ل): مجيئه.

الدالة علىٰ وجود الرب وقدرته ومشيئته، إذ كانوا جاحدين للخالق منكرين له فكذبوا بآياته كلها.

ثم قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أيتها الأمة التي أرسل فيها محمد[1] ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الذين كذبوا نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وموسىٰ ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٣-٤٤][2].

وذلك أنَّ كونكم لا تعذبون مثل ما عُذبوا إذا كذبتم: إمَّا أن يكون لكونكم خيرًا منهم فلا تستحقون مثل ما استحقوا، أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم فتكون لكم براءة في الزبر، فتعلمون ذلك بخبره، فإن ما يفعله الله تارة يُعلم بخبره، وتارة يُعلم بسنته وحكمته وعدله، فإمَّا أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه أو من هذا الوجه، هذا إن نظر إلىٰ فعل الله الذي لا طاقة للبشر به.

وإن نظر إلىٰ قوة الرسول وأتباعه فيقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، -فإنهم أكثر وأقوىٰ (من محمد وأتباعه)[3]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٣-٧٤] أي: أموالا ومنظرا[4]-، فقال تعالىٰ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

---

(١) (ب، ل): التي أرسل محمد إليها.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠١-٦٠٢.

(٣) مابين القوسين ليس في (ب، ل).

(٤) قال ابن جرير في تفسير قوله ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: «أكثر متاع منازل من هؤلاء، وأحسن منهم منظرا وأجمل صورا» (تفسير الطبري ١٨/ ٢٤٠).

أخبر بهزيمتهم -وهو بمكة في قلة من الأتباع وضعف منهم- ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أنَّ أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلىٰ المدينة، وقبل أن يقاتلهم، وكان كما أخبر فإنهم يوم بدر وغيره هُزم جمعهم، وولوا الأدبار، وتلك سنة الله في المؤمنين والكافرين.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

وحيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا فكمل[1] إيمانهم نصرهم الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لا يهلكهم[2] هلاك استئصال - كما (أهلك المكذبين، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبة لعذاب الاستئصال كما)[3] أهلكت الأمم قبلهم كما قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]- كان أنْ لا يأتي بموجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحجة(ظ١٥٥) ويوضح المحجة أكمل في الحكمة والرحمة، إذ كان ما أتىٰ به من الآيات حصل به كمال الخير والمنفعة والهدىٰ والبيان، والحجة علىٰ من

---

(١) في (ب، ل): بتكميل.
(٢) في (ب، ل): يهلك.
(٣) سقط من (ل).

كفر، وما امتنع منه دفع به من عذاب الاستئصال والهلاك والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتىٰ يتوبوا ويؤمنوا ويهتدوا، فكان في إرسال محمد ﷺ -لما كان خاتم النبيين[1]- من الحكمة البالغة والمنن السابغة ما لم يكن في رسالة رسول قبله، (والحمد لله رب العالمين، كما قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾)[2].

فصل:

جماع الكلام في النبوة متصل بالكلام في جنس الخبر، فإنَّ قول القائل: «إني رسول الله إليكم» خبر من الأخبار، وكذلك وصول كلامه وأفعاله وآياته إلينا هو بالأخبار.

-والخبر تارةً يكون مطابقًا لمخبره كالصدق المعلوم أنه صدق.

-وتارة لا يكون مطابقًا لمخبره كالكذب المعلوم أنه كذب، وغير المطابق مع التعمد كذب، ومع اعتقاد أنه صدق إن لم يكن معذورًا -كالمفتي بلا اجتهاد يسوغ، والمحدث بلا علم - يسمىٰ كاذبًا أيضا، كقوله ﷺ: «كذب أبو السنابل بن بعكك»[3].

---

(١) في (ب، ل): الرسل.

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل)، وفي ل: رسول غيره، وفي (ل، ب): صلوات الله عليهم أجمعين. وجمع في (د) بين الزيادتين.

(٣) قصة أبي السنابل بن بعكك في الصحيحين، رواها البخاري (٣٩٩١)، (٥٣١٨) ومسلم (١٤٨٤)، وملخصها: أن امرأة من أسلم يقال لها سبيعة، كانت تحت زوجها، توفي عنها وهي حبلىٰ، فخطبها أبو السنابل بن بعكك، فأبت أن تنكحه، فقال: «والله ما يصلح أن تنكحيه حتىٰ تعتدي آخر الأجلين»، فمكثت قريبا من عشر ليال، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: «انكحي».
=

وقوله لمن قال: بطل عمل عامر بن الأكوع لما قتل نفسه خطأً: «كذب من قال ذلك، إنه لجاهد مجاهد»[1].

-وقد تكون المطابقة في عناية المتكلم، وقد تكون في إفهام المخاطب.

فإذا كان اللفظ مطابقًا لما عناه المتكلم ولم يطابق إفهام المخاطَب فهذا أيضًا قد يُسمَّىٰ كذبًا، وقد لا يسمَّىٰ، ومنه المعاريض، لكن يباح للحاجة.

وإن (كان الخبر)[2] لم يحصل به المقصود، بل يكون مأمورًا بالسكوت عنه إلا مع البينة، فقد يسمىٰ كاذبًا، كقوله[3] تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

والمقصود هنا: أنَّ الخبر قد يعلم أنه صدق، وقد يعلم أنه كذب، وقد لا يعلم واحد منهما، والعلم بأنه صدق له معنيان:

أحدهما: أن يعلم أنه مطابق لمخبره من غير جهة المخبر، كمن أخبرنا بأمور نَعلم أنها حق بدون خبره.

والثاني: أن نعلم[4] أن المخبَر به صادق فيه.

وقد يجتمع الأمران: بأن يعلم ثبوت ما أخبر به، ويُعلم أنه صادق فيه، وقول محمد: «إني رسول الله» هو من هذا الباب كما سنبينه إن شاء الله.

= أما لفظة: «كذب أبو السنابل» فقد رواها عبد الرزاق (١١٧٢٣)، وأحمد (٤٢٧٣)، وسعيد بن منصور (١٥٠٦)، والبيهقي في السنن الكبير (٧/ ٤٠٧)، من عدة طرق.

(١) رواه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٧).

(٢) ليست في (ب، ل).

(٣) في (ل): لقوله.

(٤) في (د): «يعلم» وهكذا اختلفت الأفعال في (د) في هذا الفصل فكلها على الغيبة ولم نشر إلىٰ ذلك لعدم التأثير على المعنىٰ.

وكذلك كونه كذبًا قد يُراد به أنه علىٰ خلاف مخبَره، وإن كان صاحبه لم يتعمد الكذب، وقد يعنىٰ به أن قائله يتعمد الكذب.

ولهذا كانت الأحاديث المعلوم بطلانها[1]:

تارة يعلم أن صاحبها تعمد الكذب، وتارة يكون قد غلط.

والصحابة ﷺ لم يُعرف فيهم من يتعمد الكذب علىٰ النبي ﷺ، وكذلك جمهور التابعين لم يُعرف فيهم من كان يتعمد الكذب، ولكن طائفة قليلة من الشيعة عرف أنه كان فيها من يتعمد الكذب بخلاف غيرهم من أهل الأهواء كالخوارج، فإنه لم يكن فيهم من يعرف بالكذب، بل يقال: هم من أصدق الناس حديثًا.

والرجل الفاسق المعروف أنه يكذب لا بد أن يصدق في بعض أخباره[2]، فلا يكون في الناس من لا يخبر إلا بكذب.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿فتثبتوا﴾[3]، فأمر بالتبين والتثبت إذا[4] أخبر الفاسق بخبر،

---

(١) في (د): بطلانها علىٰ نوعين.

(٢) في (ب، ل): الأخبار.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿فتثبتوا﴾ من التثبت، وقرأ الباقون ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ من التبين (النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٥١).
والتبين بمعنىٰ التأني والنظر والكشف عنه حتىٰ يتضح.
بينما التثبت هو خلاف العجلة، أي: اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تتهوكوا فيه من غير روية.
وكلا الأمرين مرادان، وهذا من حكم تعدد القراءات (انظر: تفسير الطبري ٩/ ٨١، الكشاف ١/ ٥٥٢، الدر المصون ٤/ ٧٣).

(٤) كذا في (ب، ل، د): إذا أخبر.. وفي الأصل ظ: فإذا..

ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره لأنه قد يصدق أحيانًا، ولما أمر الله سبحانه بالتبين والتثبت[1] في خبر الفاسق دلَّ ذلك علىٰ أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره، إذ كان (ظ١٥٦) فاسقًا قد يكذب، ولا يجوز أيضًا تكذيبه قبل أن يُعرف أنه قد كذب، وإنْ كان فاسقًا، لأن الفاسق قد يصدق.

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، وفي القراءة الأخرىٰ ﴿فتثبّتوا﴾، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٩٤]، فأمرهم بالتبين[2] والتثبت[3] في الجهاد، وأن لا يقولوا للمجهول حاله: لست مؤمنا[4]، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمنًا خبرًا بلا دليل بل لهوىٰ أنفسهم ليأخذوا ماله، وإن كان ذلك في دار الحرب إذا ألقىٰ السلم، وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿السَّلام﴾[5] فقد يكون مؤمنًا يكتم إيمانه كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم، فإذا ألقىٰ إليكم[6] السلم فذكر أنه مسالم لكم لا محارب فتبينوا وتثبتوا، لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتىٰ تكشفوا أمره، هل هو صادق أم كاذب، وهذا خبر يتضمن دعوىٰ له، فإن

---

(١) في (ب، د): أمر سبحانه بالتبيين والتثبيت. ومثله في (ل): لكن قال: التثبت.

(٢) في (د): التبيين.

(٣) في (ب، د): التثبيت.

(٤) قرأ أبو جعفر بخُلف عنه ﴿مُؤمَنًا﴾ وقرأ الباقون ﴿مُؤْمِنًا﴾ (النشر ٢/ ٢٥١).

(٥) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة وخلف ﴿السَّلَم﴾ بحذف الألف، وقرأ الباقون ﴿ٱلسَّلَـٰمَ﴾ بالألف (النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٥١).

(٦) في (ب، ل): المسلم. وهو تصحيف فيما يظهر من سياق كلام المصنف.

المدعي مخبر، والمنكر(١) مخبر، والشاهد مخبر، والمقر مخبر.

وكما نهاهم عن تكذيب المدعي بلا علم نهاهم عن تصديق المُنْكِرِ المتَّهَم الذي يرمي البريء(٢) بلا حجة، وتبرئته وتزكيته بلا علم، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

[النساء: ١٠٥-١١٣].

وكذلك نهاهم عن تصديق القاذف الرامي لمن عرف منه الخير، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾

---

(١) صحف هذا الحرف في ظ: لشكر.

(٢) في (ب، ل): المتهم ورمي البريء.

إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٢-١٦].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وهذا نهي عن التكلم بلا علم[١]، وهو عام في جميع أنواع الأخبار، وهو[٢] يتناول ما أخبر به الإنسان، وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات، ليس له أن يتكلم بلا علم، فلا ينفي شيئًا إلاَّ بعلم، ولا يثبته إلا بعلم، ولهذا كان عامة العلماء علىٰ أن النافي للشيء عليه الدليل علىٰ نفيه[٣]، كما أنَّ المثبت للشيء عليه الدليل علىٰ ثبوته.

وحكي عن بعض الناس أنه قال: النافي ليس عليه دليل، وفرَّق بعضهم بين الشرعيات والعقليات[٤]، فأوجبه في العقليات (ظ١٥٧) دون الشرعيات.

وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب، فإنَّ من أثبت شيئًا فقال له آخر: أنا لا أعلم هذا، ولا أوافقك عليه، ولا أسلمه لك حتىٰ تأتي بالدليل، كان هذا مصيبًا، ولم يكن علىٰ هذا المانع المطالب بالدليل دليل، وإنما الدليل علىٰ المثبت، بخلاف من نفىٰ ما أثبته غيره فقال له: قولك خطأ، والصواب في نقيض قولك، ولم يكن هذا كذا، فإنَّ هذا عليه الدليل علىٰ نفيه كما علىٰ ذلك المثبت

---

(١) وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع، فإن الله ﷻ سائلك عن ذلك كله (تفسير الطبري ١٧/ ٤٤٦).
(٢) في (ب، ل): وقد.
(٣) في (ب، ل، د): ما ينفيه.
(٤) في (ب، ل، د) قدم وأخر.

الدليل علىٰ إثباته، وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما متكلم[1] بلا حجة.

ولهذا كان من أثبت شيئًا أو نفاه وطُلبت منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعًا في المناظرة، وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه، وثبت قول الأول، وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

ولو أقام دليلاً قطعيًا فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول له[2]: ما ذكرته يفيد العلم، والعلم لا يعارضه الظن، والبينات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية، فهو سبحانه نهىٰ عن الكلام بلا علم مطلقًا خصَّ[3] الكلام علىٰ الله بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ونهىٰ عن اتباع خطوات الشيطان، وأخبر أنه يأمر بالقول علىٰ الله بلا علم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠].

---

(١) في (ب، ل): تكلما. وفي (د): متكلما.

(٢) ليست في (ب، ل، د).

(٣) في (د): وخص.

وكذلك ذمَّ من يجادل ويحاج بلا علم، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج:٣- ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦] يتناول خبر كل فاسق، وإن كان كافرًا لا يجوز تكذيبه إلا ببينة كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة، وفي صحيح البخاري (عن أبي سلمة)(١) أن أبا هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية (لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ(٢) أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ [(٣) وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ]﴾ [العنكبوت:٤٦]»(٤).

وفي رواية:) «فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه»)(٥).

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب، ل، د). وفيها: عن أبي هريرة.
(٢) في (د): آمنا بالله وما أنزل.
(٣) ما بين [] ليس في د.
(٤) صحيح البخاري (٤٤٨٥).
(٥) ما بين القوسين من الأصل (ظ، د)، وفي (ب، ل) مكانه: «فقال النبي ﷺ: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون». =

وهذا الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة -من إمساك الإنسان عما لا يعلم انتفاؤه وثبوته- هو مأثور عن غيره من الأنبياء، كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال: «الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلىٰ عالمه»[1].

= فصار الحديثان حديثا واحد، وما ثبت في الأصل ظ هو الصواب، فليست الرواية التي ذكرها من رواية الصحيح، ولا ذكرها المهلب بن أبي صفرة في النصيح (٢٤٩٥)، ولا الحافظ في فتح الباري (٨/ ١٧٠) وإنما هي من تعليلات الشراح للحديث وليس رواية للحديث.

كقول ابن جرير: «إذا حدثكم أهل الكتاب أيها القوم عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أن يكونوا فيه صادقين، وأن يكونوا فيه كاذبين، ولم تعلموا أمرهم وحالهم في ذلك» (تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨).

وقال الحافظ ابن حجر: «قوله لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملا لئلا يكون في نفس الأمر صدقا فتكذبوه أو كذبا فتصدقوه فتقعوا في الحرج ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه نبه علىٰ ذلك الشافعي رحمه الله».

وقد ورد نحوها في حديث الزهري عن ابن أبي نملة، أن أبا نملة الأنصاري، أخبره: أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «الله أعلم». قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تكذبوهم، وإن كان باطلا لم تصدقوهم».

رواه أحمد (١٧٢٢٥)، وأبو داود (٣٦٤٤)، ونملة بن أبي نملة روىٰ عنه جماعة (كما في تهذيب الكمال ٣٠/ ٢١، وعنه ابن كثير في التكميل ١/ ٤٠٢)، ووثقه ابن حبان(الثقات ٥/ ٤٨٥)، وروىٰ عنه في الصحيح، ولم يجرح، فقول ابن القطان: «مجهول الحال ولا يعرف روىٰ عنه غير ابن شهاب» فيه نظر، (ذيل ميزان الاعتدال ٢٠٢).

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسىٰ بن مريم قام في بني إسرائيل قال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين لكم غيه فاجتنبوه وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلىٰ الله».
قال ابن كثير (البداية والنهاية ٢/ ٥٠٤): إسناده غريب.

وعامة عقلاء بني آدم علىٰ هذا، ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل علىٰ صدقه، ولا يجوز أن يكذبه (ظ١٥٨) إلا بدلالة تدل علىٰ كذبه، وعلىٰ هذا أهل[1] العلم والدين.

وقد تكلم العلماء وصنفوا كتبًا كثيرة في الجرح والتعديل في الرجال والأحاديث، فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط، فهذا هو العدل المقبول خبره، ومنهم من يكون صدوقًا لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط فيقولون في مثل هذا: هو صدوق تكلم فيه من قبل حفظه، ومنهم من عُرف بالكذب، وإذا روىٰ الحديث من هو سيئ الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث، ولم يثبتوه.

ثم تارة يقوم الدليل علىٰ كذبه، وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق هو أم كذب، ومثل هذا لا يعتقد ولا يثبت، ولا يحتج به، كالشاهد الذي شهد[2] للمدعي، وليس بعدل مرضي، أو هو خصم، أو متهم ظنين، فهذا إذا ردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنىٰ ذلك الحكم بكذبه أو خطئه، بل معنىٰ ذلك أنه لا تقوم به حجة، ولا يحكم به لعدم العلم بصدقه، لا للعلم بكذبه.

والمدَّعىٰ عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة فهو حجة ترجح جانبه، وقد ضم إليها الشارع اليمين، كما في صحيح البخاري (عن ابن عباس)[3] عن النبي ﷺ أنه قال: «لو يُعطىٰ الناس بدعواهم لادعىٰ قوم[4] دماء قوم وأموالهم، ولكن اليمين علىٰ المدعىٰ عليه»[5].

---

(١) ليست في (ل، د، المطبوعة).

(٢) (ب): يشهد.

(٣) ليست في (ظ).

(٤) في (ب، ل، د): رجال.

(٥) رواه البخاري في الصحيح (٤٥٥٢)، ومسلم (١٧١١) من حديث ابن عباس.

فإذا لم يكن مع المدعي إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوىٰ من جانبه لأن معه: أن الأصل في الأيدي أنها محقة، والأصل براءة الذمة، ولكن قد يكون المدعي صادقًا، ولا يكون له حجة، وهذا كثير جدا، فلا يدفع بمجرد الأصل، بل يحلف المنكر فيكون يمينه مع الأصل حجة، فيكون إنكار هذا مقابلا لدعوىٰ هذا، كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضا، وترجح المنكِر بالأصل، فبقىٰ[1] علىٰ ما كان لا يسلم للمدعي[2] ما ادعاه بمجرد دعواه، ولا تنقطع مطالبته للمدعىٰ عليه لأنه لم يأت بحجة تدفعه، فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة، وقطعت الدعوىٰ.

وإذا لم يأت المنكر باليمين بل نكل عنها، ولا أتىٰ المدعي بحجة، وقف الأمر عند أكثر العلماء، وعند بعضهم: يقضي علىٰ المنكِر بالنكول، فيجعل نكوله إما بدلا لما طلب، وإما إقرارا به، والأكثرون يقولون: بل تُردُّ اليمين علىٰ المدعي الطالب الذي يقول: إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه، وإنه عالم بما ادعاه، فيقال له: احلف وخذ، فإن حلف أخذ، وإلا دفعا.

ثم من العلماء من يرد اليمين في عامة الدعاوي، ومنهم من يحكم بالنكول[3]، وإن كان المنكِر يقول: لا أعلم ما ادعىٰ به، وكل من الطائفتين يذكر آثارا عن الصحابة[4].

---

(١) في (ب، ل، د): فيبقىٰ.

(٢) (ل): المدعي.

(٣) النكول مصدر من نكل، بمعنىٰ نكص ورجع (تاج العروس ٣١/ ٣٣)، وفي الاصطلاح: امتناع من وجبت عليه أو له يمين منها، انظر: النهاية لابن الأثير ٥/ ١١٧، المجموع للنووي ٢٠/ ١٥٨، شرح حدود ابن عرفة ٤٧٢.

(٤) انظر: شرح مسلم للنووي ١١/ ١٤٨، فتح الباري ٥/ ٢٨٢.

والمنقول عن الصحابة يدل علىٰ التفصيل، وهو أظهر الأقاويل، وهو أنه:

إن كان المنكِر هو العالم دون المدعي، كما إذا ظهر في المبيع عيب، وقد بيع بالبراءة[1]، فقال المشتري: أنا أعلم به[2]، فإنه هُنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضي الله عنهم: «احلف أنك بعته وما به داء تعلمه» فإن حلف وإلا قُضي عليه بالنكول، كما قضىٰ عثمان علىٰ ابن عمر بالنكول[3].

وإن كان المدعي يقول: إنه يعلم ما ادعىٰ به، كمن ادَّعىٰ علىٰ آخر دينًا أو عينًا، فقال[4]: أنا لا أعلم ما ادعيته، احلف وخذ، فإنه يقال له كما قال عمر بن الخطاب: أنصفك خصمك، احلف وخذ[5]، فإن لم يحلف لم يعط شيئًا.

---

(١) في (ب): بإكراه بالبراءة. وهو إقحام لا معنىٰ له.

(٢) كذا ثبتت العبارة في الأصل ظ، وفي (ب، ل، د، ف، ط النيل، المطبوعة): أنا لم أعلم به.
والعبارة فيها خلل، فقد اتفقت النسخ علىٰ أن القائل هو المشتري، والمشتري هو الذي يعلم العيب ويدعيه، ولذا جاءت العبارة في ظ موافقة بين القائل والمقول.
وأما علىٰ النفي يجب أن يكون القائل: «أنا لم أعلم به» هو البائع لا المشتري، لأن الضمير في قوله: يقال له.. أي للبائع. ويتبين ذلك من سياق الخبر الذي استدل به المصنف، وسيأتي في التعليقة التالية.

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢٢٧١) وابن أبي شيبة في المصنف (٢١٢٠١) والبيهقي في السنن الكبير (٥/ ٣٢٨) من طريق سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر، باع غلاما له بثمانمائة درهم، وباعه بالبراءة، فقال الذي ابتاعه لعبد الله بن عمر: بالغلام داء لم تسمه لي. فاختصما إلىٰ عثمان بن عفان، فقال الرجل: باعني عبدًا وبه داء لم يسمه لي. وقال عبدالله: بعته بالبراءة، فقضىٰ عثمان علىٰ عبد الله بن عمر أن يحلف له: لقد باعه العبد، وما به داء يعلمه، فأبىٰ عبد الله أن يحلف، وارتجع العبد فصح عنده، فباعه عبد الله بعد ذلك بألف وخمسمائة درهم.

(٤) أي المدعىٰ عليه.

(٥) رواه البيهقي في السنن ١٠/ ٣١٠، من طريق داود عن الشعبي: «أن المقداد استقرض من عثمان بن عفان رضي الله عنه سبعة آلاف درهم، فلما تقاضاه قال: إنما هي أربعة آلاف، فخاصمه إلىٰ عمر رضي الله عنه، فقال: إني قد أقرضت المقداد سبعة آلاف درهم، فقال المقداد: إنما هي أربعة آلاف فقال المقداد: أحلفه أنها سبعة آلاف، فقال عمر رضي الله عنه: أنصفك، فأبىٰ أن يحلف، فقال عمر: خذ ما أعطاك».
=

والبينة في الدعاوي -عند أكثر العلماء-: هي ما يبين الحق، ويظهره، ويوضحه، كالدليل والآية والعلامة، فمتىٰ ترجح جانب أحدهما حلف، مثل أن يقيم المدعي شاهدًا فإنه يحلف مع شاهده، ويقضي به بشاهد ويمين كما مضت به سنة رسول الله ﷺ، وهو قول أكثر العلماء[1].

ومنهم من يقول: اليمين دائما في (ظ١٥٩) جانب المدَّعىٰ عليه، وكذلك لو كان في دعوىٰ القتل لَوث ولطخ وشبهة، وهو علامات ترجح جانب المدَّعي، فإنَّ أولياء المقتول يحلفون خمسين يمينًا، ويقضىٰ لهم بذلك عند أكثر العلماء كما مضت بذلك السنة[2].

وكذلك في اللعان، إذا حلف الزوج وشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ووكدها بالخامسة فقد أقام بينة علىٰ دعواه، فإن التَعنت المرأة وشهدت أربع شهادات مؤكدة بالخامسة أنه كاذب تعارضت البينتان والشهادتان، فلم يحكم بقول واحد منهما، لا يحكم بأنه قاذف، ولا يحكم بأنها زانية، وإن نكلت فلم تحلف فأكثر العلماء يقولون: يحكم بأنها زانية، وتعذب علىٰ ذلك كما دل عليه القرآن، لأنه اجتمع بينة[3] الزوج، ونكولها عن المعارضة[4]، كما اجتمع في القسامة العلامة والأيمان، وكما اجتمع الشاهد

= قال البيهقي: «هذا إسناد صحيح إلا أنه منقطع، وهو مع ما روينا عن عمر رضي الله عنه في القسامة يؤكد أحدهما صاحبه فيما اجتمعا فيه من مذهب عمر رضي الله عنه في رد اليمين علىٰ المدعي، وفي هذا المرسل زيادة مذهب عثمان والمقداد رضي الله عنهما».

(١) لما روىٰ مسلم في الصحيح (١٧١٢) من حديث ابن عباس، «أن رسول الله ﷺ قضىٰ بيمين وشاهد».

(٢) يريد باللوث واللطخ والشبهة القرائن الظاهرة الدالة علىٰ القتل (شرح حدود ابن عرفة ٤٨٧).

(٣) في (د): شهادة الزوج.

(٤) انظر: شرح ابن بطال علىٰ صحيح البخاري ٨/ ٤٥٠، والمغني لابن قدامة ٨/ ٩٣.

واليمين، وكما اجتمع في جانب المنكِرِ الأصل واليمين.

فهذا ونحوه مما جاءت به الشريعة، وبسطه له موضع آخر.

والمقصود هنا: أنَّ الخبر إن قام دليل علىٰ صدقه أو كذبه، وإلا بقي مما لم نصدقه ولم نكذبه(١).

وأهل العلم بالحديث إذا قالوا: هذا الحديث رواه فلان، وهو مجروح، أو ضعيف، أو سيئ الحفظ، أو ممن لم تقبل روايته، ونحو ذلك، فهو كقول القائل: هذا الشاهد مجروح أو سيئ الحفظ أو ممن لا تقبل شهادته، وهذا يفيد أنه لا يحكم به، لا يفيد الحكم بأنه كاذب، بل قد يمكن أنه صادق، فلا يقال إنه كاذب إلا بحجة.

وإذا قالوا عن الحديث: «إنه ضعيف» فهذا مرادهم؛ أي أنه لم يثبت، ولا يحتج به، ولا يجوز الحكم بصدقه، ليس مرادهم أنه بمجرد ذلك يحكم بكذب الناقل، وينفي ما نقله، ويقول: إن هذا لم يكن من غير علم منا بهذا النفي، بل إن قام دليل علىٰ انتفاء ما أخبر به حكمنا بذلك، وإلا سكتنا لم ننفه ولم نثبته.

فهذا أصل يجب معرفته، فإنَّ كثيرًا من الناس لا يميز بين ما ينفيه لقيام الدليل علىٰ نفيه، وبين ما لم يثبته لعدم دليل إثباته، بل تراهم ينفون(٢) ما لم يعلموا إثباته فيكونون قد قفوا ما ليس لهم به علم، وقالوا بأفواههم ما ليس لهم به علم، وهذا كثير في(٣) أهل الاستدلال والنظر وأهل الإسناد والخبر:

---

(١) في (ب): والمقصود هنا: أن المخبر إن أقام دليلا علىٰ صدقه وإلا بقي مما لم يصدقه ولم يكذبه.

(٢) سقطت من المطبوعة وهي ثابتة في كل الأصول، وبها يستقيم الكلام.

(٣) في (ب،ل): من.

فمن الأولين: طوائف يطلبون الدليل علىٰ ثبوت الشيء، فإذا لم يجدوه نفوه، ومعلوم أن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك، إما بعلم أو ظن غالب.

فمن هؤلاء من يقول في صفات الله ما لم يقم دليل قطعي علىٰ إثباته ولا[1] وجب القطع بنفيه، لأنَّ صفات الله لا تثبت إلا بالقطع، وخالفهم في ذلك جمهور الناس، وقالوا: كما لا يجوز القطع في الإثبات إلا بدليل قطعي، فلا يجوز القطع في النفي إلا بدليل قطعي علىٰ النفي، فكما لم يجز أن يثبت إلا بعلم (فلا ينفي إلا بعلم)[2]، والنافي عليه الدليل كما علىٰ المثبت الدليل.

قال هؤلاء: هذه المسائل مبناها علىٰ القطع، فإنه لا يجوز لنا التكلم فيها بالظن، فإذا لم يقم القاطع قطعنا بالنفي.

فقيل لهم: هذا حجة عليكم، فإنكم إذا نفيتم ما لم تعلموا نفيه تكلمتم بالظن، وإذا قطعتم من غير قاطع كنتم قد تكلمتم في القطعيات بلا قاطع، نفيًا كان الكلام أو إثباتًا، وليس معكم[3] في الأدلة الشرعية أو العقلية أن كل ما لم يقم دليل سمعي أو عقلي علىٰ إثباته فإنه يجب عليكم نفيه، والقطع بنفيه، بل تكلمكم بهذا تكلم بلا علم.

---

(١) في (ب، ل، د، المطبوعة): «وإلا». والمعنىٰ: كل ما لم يقم دليل قطعي علىٰ إثباته وجب نفيه. وما ثبت في الأصل جيد، وهو أنسب لحكاية قولهم بالصيغة التي أوردها المصنف، لأنه لم يرد بقوله: «يقولون» حكاية نص قولهم. بل حكاية مذهبهم وحالهم فمعنىٰ يقولون - أي يثبتون - ما لم يدل عليه القطع بإثباته ولا نفيه. والمعنىٰ واحد.
لأن الحكاية النصية لمذهبهم هكذا: ما لم يقم دليل قطعي علىٰ إثباته وجب القطع بنفيه..الخ.

(٢) سقطت من (ب).

(٣) في (ب، ل، د): يعلم.

ومن هنا أخطأ كثير من النظار في نفي كثير من (ظ ١٦٠) صفات الرب، وأحكامه، وأفعاله، حيث لم يعلموا دليلاً قطعيًا يثبتها فنفوها، وكانت ثابتة في نفس الأمر، وقد يكون عند غيرهم دليل قطعي يثبتها، ولو قُدر عدم علم الناس كلهم بها فلله علم لم يعلمه العباد، ولله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده لم يعلمها الناس، وليس إذا لم يعلم ثبوت الصفة يجب أن يعلم انتفاؤها، بل قد يظن ثبوتها أو انتفاؤها، وقد يشك في ذلك فلا يعلم ولا يظن واحد منهما، والواجب علىٰ الإنسان أن يقول لما يعلمه: أعلمه، ولما يظنه: أظنه، ولما يشك فيه: أشك فيه.

والله تعالىٰ لم يوجب علىٰ الإنسان أن يقطع بانتفاء شيء إن لم يعلم أنه منتف، فمن قال: «إنه أوجب[1] علينا القطع بانتفاء مالم نقطع بثبوته ولا انتفائه» فقد غلط، وهذا بخلاف ما يناقض صفات الإثبات، فإن هذا يجب نفيه عن الله، فقد علم بالأدلة القطعية أن الله موصوف بصفات الكمال المناقضة للنقص، مثل: إنه حي قيوم بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وأنه غني عن كل ما سواه بكل وجه، فكل من قال قولا يناقض هذا عُلم أنه باطل، كالذين قالوا: إنَّ له شريكًا أو ولدًا، أو إنَّه يشفع عنده الشفعاء بلا[2] إذنه، ونحو ذلك مما يناقض الكمال المعلوم له.

وما كان من الأمور مستلزمًا لوازم لو كان موجودا؛ فإنه يستدل بانتفاء اللازم علىٰ انتفاء الملزوم، كالأمور التي لو كانت موجودة لوجب أن تنقل نقلاً متواترًا شائعًا، فإنه يستدل بانتفاء اللازم علىٰ انتفاء الملزوم، كما لو قال قائل: إنه بني بين العراق والشام أو بين الحجاز والشام مدينة أعظم من بغداد

---

(١) في (ل): قال وجب علينا.

(٢) في (ل، د): بغير.

والموصل وأصبهان ومصر دَوْرها ثلاثة أيام، ونحو ذلك، فإنه يعلم كذبه، فإن هذا مما تتوفر همم الناس علىٰ نقله لو كان موجودًا، فإذا لم يستفض هذا وينتشر علم أن المخبر به كاذب.

وكذلك لو ادعىٰ مدع أنه يوم الجمعة أو العيد قتل الخطيب، ولم يصل الناس يوم الجمعة، ولم يستفض هذا وينتشر، أو ادعىٰ أنه قتل بعض الملوك علانية بين الناس[1] ولم يستفض هذا ولم ينتشر، أو ادعىٰ أنه بعث نبي بين المسيح ومحمد، أو بعد محمد، جاء بكتاب مثل القرآن أو الإنجيل، واتبعه خلق كثير، وكذبه خلق كثير؛ فإنه يعلم كذب هذا، إذ مثل هذا لا بد أن يستفيض وينتشر.

وكذلك لو ادَّعىٰ أنَّ قريشًا أو غيرهم عارضوا القرآن، وجاءوا بكتاب يماثل القرآن، وأنهم أظهروا ذلك، وأبطلوا به حجة محمد ﷺ، فهذا مما يقطع بكذبه، لأنَّ مثل ذلك لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقله.

وكذلك لو ادَّعىٰ أنَّ محمدًا أمر بحج بيت غير البيت العتيق أو أوجب صوم شهر غير شهر رمضان أو أوجب صلاة سادسة وقت الضحىٰ، أو أمر بالأذان والإقامة لغير الصلوات الخمس، أو أنه قال علانية بين الناس لأبي بكر أو للعباس أو علي أو غيرهم: هذا هو الخليفة من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، أو أن عليا دعا إلىٰ نفسه في خلافة الثلاثة، وأمثال هذه الأمور التي لو وقعت لكان لها لوازم، فيستدل بانتفاء اللازم علىٰ انتفاء الملزوم.

ثم هذه اللوازم منها جلي، ومنها خفي يعرفه الخاصة، فلهذا كان أهل العلم بأحوال الرسول يقطعون بكذب أحاديث لا يقطع غيرهم بكذبها، لعلمهم

---

(١) في (ب، ل): «بعض ملوك الناس».

بلوازم تلك الأحاديث وانتفاء لوازمها، كما يقطع من يعلم بمغازي[1] النبي ﷺ أنه لم يقاتل في غزوة تبوك، وأن غزوات القتال إنما كانت تسع مغازي، وأنه لم يذهب[2] بنفسه إلىٰ اليمن، ولا إلىٰ العراق، ولا جاوز تبوك بعد النبوة، وأنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع (ظ١٦١)، ولم يصم إلا تسع رمضانات.

وهكذا يعلمون أنَّ فلانًا أخطأ في هذا الحديث علىٰ فلان، لأنهم قد علموا من وجوه ثابتة أنَّ ذلك الحديث إنما رواه علىٰ صورة معينة، فإذا روىٰ غير الثقة ما يناقض ذلك علموا بطلان ذلك، وأنه أخطأ أو تعمد الكذب، مثل ما يعلمون كذب من زاد في قول النبي ﷺ: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل»[3] فزاد بعض الناس فيه: «أو جناح» لما رأىٰ بعض الأمراء عنده حمام، فعلموا أنه كذب تقربًا إلىٰ ذلك الأمير[4].

وكما يعلمون كذب من روىٰ أنَّ مسيلمة وقومه كانوا مؤمنين بالله ورسوله، وإنما قاتلهم الصديق لكونهم لم يعطوا الزكاة، فإنهم قد علموا بالتواتر

---

(١) في (ب، ل): مغازي.

(٢) في (ب، ل): لم يغز.

(٣) رواه أحمد (٧٤٨٢)، وأبو داود (٢٥٧٤) والترمذي (١٧٠٠) وابن ماجه (٢٨٧٨) من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين.

(٤) القصة رواها الحاكم في المدخل إلىٰ كتاب الإكليل (ص١٦) من طريق داود بن رشيد يقول: دخل إبراهيم بن غياث بن إبراهيم علىٰ المهدي وكان يعجبه الحمام الطيارة التي تجيء من الأماكن البعيدة فروىٰ حديثا أن النبي ﷺ قال: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل أو جناح» قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم فلما قام وخرج قال: أشهد أن قفا هذا قفا كذاب علىٰ النبي ﷺ والله ما قال ﷺ جناح ولكن أراد هذا أن يتقرب إلينا يا غلام اذبح الحمام فذبح الحمام في الحال.
وانظر: فتح المغيث للسخاوي ١/ ٣١٨، تدريب الراوي للسيوطي ١/ ٣٣٧.

أن مسيلمة ادعىٰ النبوة، واتبعه قومه علىٰ ذلك، وأنه كتب إلىٰ النبي ﷺ في حياته يقول: «من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله» فكتب إليه النبي ﷺ: «من محمد رسول الله إلىٰ مسيلمة الكذاب»(١).

ويعلمون أنه كان له مخاريق، وأنه ظهر كذبه من وجوه متعددة، وأن الصديق(٢) والصحابة قاتلوه علىٰ كذبه في دعوىٰ النبوة، وقاتلوا قومه علىٰ ردتهم عن الإسلام، واتباعهم متنبئًا(٣) كاذبًا لم يقاتلوهم علىٰ كونهم لم يؤدوا الزكاة إلىٰ أبي بكر.

وكذلك الأسود العنسي الذي ادعىٰ النبوة في حياة النبي ﷺ، وقتل في حياته.

وكلٌّ منهما عرف كذبه بتكذيب النبي الصادق المصدوق لهما، وبما ظهر

---

(١) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٥٧٢، من طريق ابن أبي هلال، أنه بلغه أن مسيلمة الكذاب، كتب إلىٰ رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ذلك بأنهم قوم يعدلون. فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلىٰ مسيلمة الكذاب، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»
وله شاهد من حديث محمد بن إسحاق، حدثني شيخ من أشجع، عن سلمة بن نعيم بن مسعود، عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» قال: فكتب معهما: «من محمد رسول الله ﷺ إلىٰ مسيلمة الكذاب سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ أما بعد، فإن الأرض لله تعالىٰ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٣١).
(٢) في (ل): وأن أبي (كذا) بكر الصديق.
(٣) في (ب، ل): نبيا.



من دلائل كذبهما، مثل: الأخبار الكاذبة التي تناقض النبوة، ومثل الإتيان بقرآن مختلق يعلم[1] من سمعه أنه لم يتكلم الله به، وإنما هو تصنيف الآدميين كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لهم لما تابوا من الردة، وعادوا إلىٰ الإسلام: «أسمعوني قرآن مسيلمة فلما أسمعوه إياه قال: ويحكم أين يذهب بعقولكم، إن هذا كلام لم يخرج من إل» أي لم يخرج من رب[2].

ومثل ما كان يفعله ويأمر به من الفجور والكذب، ومثل اطلاع أخص الناس به علىٰ أنه كان يكذب، ويستعين بمن يختلق له الكذب، ومثل أنه كان يعدهم بأن جبريل أخبره أنه سينصر، فلما حقت الحقائق قال لهم: «إنه لا جبريل لكم[3] فقاتلوا عن أحسابكم»[4].

إلىٰ أمثال هذه الأمور التي تدل علىٰ كذب الكاذب.

فالصدق له دلائل مستلزمة له تدل علىٰ الصدق، والكذب له دلائل مستلزمة تدل علىٰ الكذب، ولا يجوز الحكم بصدق مخبر ولا بكذب مخبر إلا بدليل، وما لم يعلم صدقه ولا كذبه ولا ثبوته ولا انتفاؤه فإنه يجب الإمساك

---

(١) في (ب): فإنه يعلم.

(٢) أعلام النبوة للماوردي ٨٨، خير البشر ص١٣٢، الروض الأنف ٢/ ٢٦٥، قال ابن الأثير (في النهاية في غريب الحديث ١/ ٦١): لم يخرج من إل أي لم يخرج من ربوبية، والإل بالكسر هو الله تعالىٰ، وقيل: الإل الأصل الجيد، أي لم يجئ من الأصل الذي جاء به القرآن، وقيل: الإل النسب والقرابة، فيكون المعنىٰ: إن هذا كلام غير صادر عن مناسبة الحق والإدلاء بسبب بينه وبين الصدق.

(٣) ليست في الأصل ظ، وهي ثابتة في بقية الأصول.

(٤) انظر: تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٨، الكامل لابن الأثير ٢/ ٢١٦، تاريخ الإسلام ٣/ ٣٨، البداية والنهاية ٩/ ٤٦٧.

عنه والكف[1]، ويقول القائل: هذا لم أعلمه، ولم يثبت عندي، ولا أجزم به، ولا أحكم به، ولا أستدل به، ولا أحتج به، ولا أبني عليه مذهبي واعتقادي وعملي، ونحو ذلك.

لا يقول: هذا أقطع بكذبه وانتفائه، وإن كنت أقطع أن من أثبته تكلم بلا علم، فالقطع بجهل مثبته المعتقد له غير القطع بانتفائه، فمن قطع بشيء[2] بلا دليل يوجب القطع قطعنا بجهله وضلاله وخطأه، وإن لم يقطع بانتفاء ما أثبته في نفس الأمر، كمن حكم بشهادة مجروح فاسق أمر الله بالتثبت في خبره، فمن حكم وقطع بخبره من غير دليل يدل علىٰ صدقه حكمنا بأن هذا متكلم حاكم بلا علم، وإن لم يحكم بكذب الشاهد المخبر، لكن لا يجوز للإنسان أن ينفي علم غيره، وقطع غيره، من غير علم منه بالأسباب التي بها يعلم ويخبر، فإنَّه كثيرًا ما يكون للإنسان دلائل كثيرة تدل علىٰ صدق شخص معين، وثبوت أمر معين، وإن كان غيره لا يعرف شيئًا من تلك الدلائل.

وهذا أيضًا (ظ١٦٢) مما يغلط فيه كثير من الناس ينظرون في أنفسهم، ومبلغ علمهم، فإذا لم يجدوا عندهم ما يوجب العلم بذلك الأمر جعلوا غيرهم كذلك، من غير علم منهم بانتفاء أسباب العلم عند ذلك الغير، وقد يقيمون حججًا ضعيفة علىٰ أنَّ غيرهم لا يعلم ذلك، مثل ما يعلمه[3] كثير من الناس بالنظر والاستدلال والاعتبار، ومن لم يساوهم في نظرهم وأدلتهم وقوة أذهانهم لا يعلم ما علموه، وكثير من الناس يعلم بالأخبار والنقل والاستدلال بذلك أمورًا كثيرة، ومن لم يشاركهم فيما سمعوه وفيما عرفوه من أحوال المخبرين

---

(١) من الأصل (ظ) فقط وليست في بقية الأصول.
(٢) في (ب، ل): فيه.
(٣) هامش الأصل ظ: يفعله وكتب فوفها حـ.

والمخبر به وكمال معرفتهم بذلك لا يعلم ما علموه.

فلهذا كان لأهل النظر العقلي طرق لا يعرفها أهل الأخبار، ولأهل الأخبار السمعية طرق لا تعرف بمجرد العقول، ولهذا كان لهؤلاء من الطرق الدالة علىٰ صدق الرسول ونبوته، والاستدلال علىٰ ذلك، أمور كثيرة[(١)] لا يعرفها أهل الحديث والآثار[(٢)]، وعند هؤلاء من الأحاديث المتواترة[(٣)] عندهم، والآيات المستفيضة عندهم ما يعلمون بها صدق الرسول، وإن كان أولئك لا يعرفونها.

بل طرق معرفة الصانع وتصديق رسوله قد يكون لكل قوم فيها[(٤)] طريق أو طرق لا يعلمها آخرون، وهم مشتركون في الإقرار بالله وبرسوله، ولكل قوم طرق وأدلة غير طرق الآخرين وأدلتهم.

بل ما تواتر عندهم من أحوال الرسول قد يكون المخبرون لهؤلاء الذين تواتر عندهم ما أخبروهم به من آياته وشرائعه غير المخبرين لأولئك، كما كان الصحابة المخبرون لأهل الشام بآيات الرسول، وبالقرآن، وشرائع الإسلام، غير الصحابة المخبرين لأهل العراق، ولكن خبر هؤلاء يصدق خبر هؤلاء، وإن كان كل من الطائفتين لا يعلم أعيان أولئك الذين أخبروا أولئك.

وهكذا سائر العلوم، قد يكون الذي علم هؤلاء الفقه أو النظر أو النحو أو الطب غير الذي علم هؤلاء، وإن اشترك الجميع في جنس الفقه، والنظر،

---

(١) هامش (ب): بلغ مقابلة.
(٢) في (ب، ل): والأخبار.
(٣) في (ب): الحديث المتواتر.
(٤) في (ب، ل): منها.

والنحو، والطب، وعلم هؤلاء ما علمه هؤلاء من الأعيان والأنواع، مع أن طريق هؤلاء ليس طريق أولئك، وإن اشتركوا في النوع.

وعامة ما يعلمه الناس بالحس هو من هذا الباب، فإن الإنسان يحس بأحوال نفسه من جوعه، وعطشه، وشبعه، وريه، وحبه، وبغضه، وشهوته، ونفرته، وألمه، ولذته، بل يحس بأعضائه كبطنه، وفرجه، ولا يحس بأحوال غيره، ولكن يشتركان في الجنس العام، فيشتركون في جنس الإحساس بجوعهم، وشبعهم، وقد يشتركون في غير[1] ما يحسونه، كاشتراكهم في رؤية الشمس، والقمر، والهلال، والكواكب.

وقد غلط في مثل هذا طائفة من المتكلمين في المنطق اليوناني، فزعموا أنَّ العلوم التجريبية والتواترية والحدسية -إن جعلوها قسمًا غير التجريبية فإن فيهم من يجعل الحدسية نوعًا من التجريبية، وفيهم من يجعلها جنسًا آخر- فزعم هؤلاء أن هذه العلوم مختصة لا تقوم بها الحجة علىٰ من لم يعلمها، دون الحسيات والوجديات والعقليات، وليس كذلك، بل كما أن هذه تكون مشتركة تارة، ومختصة أخرىٰ، فكذلك الحسيات، فإن كل أهل زمان ومكان يعلمون بالحس من أحوال ذلك المكان والزمان وأحوال أهله ما لا يشركهم فيه غيرهم، وكذلك الوجديات، فإن من ابتلي بالغرائب في الأمور النفسانية[2] والبدنية يعلم منها ما لم يشاركه فيه غيره[3].

---

(١) في (ب): عين، ومثلها في (ل) لكن كتب نقطة فوق العين.

(٢) في (ب، ل، د، المطبوعة، ط النيل): السياسية، وهو تصحيف لا معنىٰ له، فالنفساني يقابل البدني.

(٣) انظر الرد علىٰ المنطقيين ص٩٢.

وكذلك العقليات، فإن من الناس من يكون له أصل يقيس به الفرع فيعلم القدر المشترك الذي هو: الحد الأوسط[١]، ويعلم من تعلق (ظ١٦٣) الحكم به ما لم يعلمه غيره.

فأجناس العلوم وطرقها منها مختص، ومنها مشترك[٢]، والمشترك منه ما يشترك فيه جنس بني آدم، ومنه ما يشترك فيه نوع منهم وطائفة، فهذا أصل جامع ينبغي معرفته لمن تكلم في هذا الباب[٣].

فصل:

وإذا كان جنس مَن يخبر الخبر قد يكون صادقًا وقد يكون كاذبًا، فقد عُلم أنه ليس كل واحد[٤] أخبر بخبر يصدق مطلقًا، ولا يكذب مطلقًا، فلم يقل أحدٌ من العقلاء أنَّ كل خبر واحد أو خبر كل واحد يكون صدقًا أو يفيد العلم، ولا أنه يكون كذبًا، بل الناس يعلمون أنَّ خبر الواحد قد يقوم دليل على[٥] صدقه فيعلم أنه صدق وإن كان خبر واحد، وقد يقوم الدليل على كذبه فيعلم أنه كذب، وإن أخبر به ألوف إذا كان خبرهم على غير علم منهم بما أخبروا به، أو عن تواطئ منهم على الكذب، مثل إخبار أهل الاعتقادات الباطلة بالباطل الذي يعتقدونه.

---

(١) الحدود ثلاثة: أصغر وأوسط وأكبر (انظر: الرد على المنطقيين ١١٦) وقد عرفه المصنف هنا بالقدر المشترك، (وكذا في الرد على المنطقيين ٣٥٤). وفصل بين هذه الحدود في (الرد على المنطقيين ص١١٦-١١٧، ٢١٣). وانظر للمصنف: النبوات ٢/ ٧٤٨- ٧٥٢، درء تعارض العقل والنقل ٣/ ١٢٦، مجموع الفتاوى ٩/ ١١٦.

(٢) في (ب، ل، د): منها ما هو مختص ومنها ما هو مشترك.

(٣) في هامش ظ: بلغ مقابلة.

(٤) في (ب): أحد.

(٥) ليست في (ظ).

وأما إذا أخبروا به[1] عن علم منهم بما أخبروا به فهؤلاء صادقون في نفس الأمر، ويعلم صدقهم تارة بتوافق أخبارهم من غير مواطأة، ولو كانا اثنين، فإن الاثنين إذا أخبرا بخبر طويل أسنداه إلىٰ علم -وقد علم أنهما لم يتواطآ عليه، ولا هو مما قد يتفق في العادة تماثلهما فيه في الكذب أو الغلط- علم أنه صدق.

وقد يعلم صدق المخبر[2] الواحد بأنواع من الدلائل تدل علىٰ صدقه، ويعلم صدق خبر الواحد بقرائن تقترن بخبره يعلم بها صدقه، وتلك القرائن والدلائل[3] قد تكون صفات في المخبر من علمه ودينه وتحريه الصدق، بحيث يعلم قطعًا أنه لا يتعمد الكذب، كما يعلم أهل[4] الحديث علمًا يقينًا أنَّ ابن عمر، وعائشة، وأبا سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وأمثالهم، لم يكونوا يتعمدون الكذب علىٰ رسول الله ﷺ، فضلاً عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأمثالهم.

بل يعلمون علمًا يقينًّا أن الثوري، ومالكا، وشعبة، ويحيىٰ بن سعيد، وعبدالرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وأبا زرعة، وأبا داود، وأمثالهم، لا يتعمدون الكذب في الحديث.

وقد تكون الدلائل صفات في المخبَر به مختصة بذلك الخبر أو بنوعه يعلم بها أن ذلك المخبِر لا يكذب مثل ذلك الخبر، كحاجب الأمير إذا قال بحضرته لعسكره: إن الأمير قد أذن لكم في الانصراف، أو أمركم أن تركبوا

---

(١) ليست في (ب، ل).
(٢) في (ب، ل، د): الخبر.
(٣) في (ب): قدم وأخر.
(٤) في (ب، ل): كما يعلم علماء أهل الحديث قطعا أن..

غدا، أو قال: قد أَمَّر عليكم فلانا، ونحو ذلك، فإنهم يعلمون أنه لم[1] يتعمد الكذب في مثل هذا وإن لم يكن بحضرته، فكيف إذا كان بحضرته، وإن كانوا قد يكذبونه في غير هذا الموضع.[2]

---

(١) في (ب، ل): لا.

(٢) بعده في (ظ) هذا الموضع نص في عدة أسطر كتب فوقه: لا - إلىٰ، وكتب في الهامش: كذا عليه بخط الشيخ لا - إلىٰ.

وفي (د) أثبتها كذلك، وكتب في الهامش: كذا بخط الشيخ هنا لا هـ. وهذا إشارة من المؤلف بحذفه لأنه مكرر المعنىٰ في كلام الشيخ، ولذلك كتب الشيخ عليه العلامة.

وقد خفيت هذه العلامة الدقيقة علىٰ ناسخ (ب، ل). والنص هو:

لا (وقد تكون الدلائل سماع من شاركه في العلم بذلك الخبر، وإقراره عليه، فإن العادة كما قد تمنع التواطؤ علىٰ الكذب؛ فإنها قد تمنع التواطؤ علىٰ الكتمان وإقرار الكذب والسكوت عن إنكاره [ب، ل: إنكاره عنه]، فما توافرت الهمم والدواعي علىٰ ذكره والخبر به يمتنع أن يتواطأ أهل التواتر علىٰ كتمانه، كما يمتنع في العادة أن تحدث حادثة عظيمة تتوفر الهمم والدواعي علىٰ نقلها في الحج أو الجامع أو العسكر، وحيث توجب العادة نقل الحاضرين لما عاينوه ثم لا ينقل ذلك أحد.

وإقرار الكذب والسكوت علىٰ رده أعظم امتناعًا في العادة من الكتمان، فإنَّ الإنسان في العادة قد تدعوه نفسه إلىٰ أن يسكت عما رآه وسمعه فلا يخبر به، ولا تدعوه نفسه إلىٰ أن يكذب عليه، ويخبر عنه بما يعلم أنه كذب عليه فيقره ولا ينكره إذ كانت عادة الناس إلىٰ تكذيب مثل هذا أبلغ من عادتهم في الإخبار بما رأوه [ب، ل: الإخبار به]). إلىٰ

وكذلك إذا كذب في قصة، وبلغ ذلك من شاهدها(ظ ١٦٤)، فتوفر الهمم علىٰ تكذيب هذا أعظم من توفرها علىٰ إخبارهم بما وقع ابتداء بما وقع، فإذا كانت من القضايا التي يمتنع السكوت عن إظهارها؛ فالسكوت عن تكذيب الكاذب فيها أشد امتناعًا.

وقد تكون الدلائل صفات فيه تقترن بخبره، فإن الإنسان قد ترىٰ حمرة وجهه فيميز بين حمرته من الخجل والحياء وبين حمرته من الحمىٰ وزيادة الدم، وبين حمرته من الحمام، وبين حمرته من الغضب، وكذلك يميز بين صفرته من الفزع والوجل، وبين صفرته من الحزن والخوف، وبين صفرته من المرض، فكما أن سحنته، ووجهه يعرف بها أحوال بدنه الطبيعية من أمراضه المختلفة، حتىٰ إن الأطباء الحذاق يعلمون حال المريض من سحنته فلا يحتاجون مع ذلك إلىٰ نبض وقارورة؛ فكذلك تعرف أحواله النفسانية هل هو فرح مسرور أو مكروب محزون؟ ويعلم هل هو محب صديق مريد للخير أو هو مبغض عدو مريد للشر؟[1].

كما قيل:

والعين تشهد من عيني محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها[2]

وكما قيل[3]:

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠١.

(٢) البيت في غرر الخصائص الواضحة للوطواط ٥٨، ونفحة الريحانة ٦١، دون نسبة.

(٣) هكذا في الأصل ظ، وهو الصواب في إنشاد البيتين، ووقع في (ب، ل، د) خلل في إنشادهما، حيث فيها: كما قيل: تحدثني العينان ما القلب كاتم، والعين تشهد من عيني محدثها، إن كان من حزبها أو من أعاديها، وكما قيل: ولا خير في الشحناء والنظر الشزر.

تحـدثني العينـان مـا القلـب كـاتم ... ولا خيـر في الشـحناء والنظـر الشـزر[1]

ثم إذا تكلم مع ذلك دلَّ كلامه علىٰ أبلغ مما يدل عليه سيما وجهه، كما قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فأخبر أنه لا بد أن يعرف المنافقين في لحن القول[2]، وأن معرفتهم بالسيما معلقة علىٰ المشيئة، والمنافق كاذب[3] يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فبين أنه في لحن قوله يعلم أنه كاذب.

وقال في حق المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال في حق الكافر: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، أي: له زنمة من الشر،

---

(١) أنشده بعضهم: تخبرني العينان.. ولاجن بالبغضاء
والبيت من قصيدة منسوبة لسويد بن الصامت، كما في الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ص٩٧، وربيع الأبرار للزمخشري ١/ ٤٠٠، ولعلي بن الخليل كما في الوساطة بين المتنبي وخصومه ٢٩٨، ولأبي جندل الهذلي كما في مجمع الأمثال ٢/ ٢٤٠، ولابن الرومي كما في شرح ديوان المتنبي للعكبري ١/ ٢٥٣، وغير منسوب كما في: شرح نهج البلاغة ١٨/ ١٣٧.
وأنشده المصنف في درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٢٠١.
قال الميداني: «ولا جن بالبغضاء والنظر الشزر: أي: لا يخفىٰ نظر المبغض، ولا جن معناه لا خفاء، والبغضاء: البغض، والنظر الشزر: نظر الغضبان بمؤخر العينين» (مجمع الأمثال ٢/ ٢٤٠).

(٢) قال ابن الجوزي: ولتعرفنهم في لحن القول أي: في فحوىٰ القول، فدل بهذا علىٰ أن قول القائل وفعله يدل علىٰ نيته. وقول الناس: قد لحن فلان، تأويله: قد أخذ في ناحية عن الصواب، وعدل عن الصواب إليها (زاد المسير ٤/ ١٢١) وانظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٨٤، الكشاف ٤/ ٣٢٧.

(٣) في (ب، ل): الكاذب.

أي: علامة يعرف بها[١].

وقد روي عن عثمان بن عفان قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله علىٰ صفحات وجهه، وفلتات لسانه»[٢].

وقد بسطنا الكلام علىٰ هذه في مسألة الإيمان، وبينا أن ما يقوم بالقلب من تصديق، وحب الله ورسوله وتعظيم لا بد أن يظهر علىٰ الجوارح، وكذلك بالعكس[٣].

ولهذا يستدل بانتفاء اللازم الظاهر علىٰ انتفاء الملزوم الباطن، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[٤].

وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن رآه يعبث في الصلاة: «لو خشع

---

(١) وهذا علىٰ قول في الآية، والقول الآخر أن الزنيم الملحق في القوم وليس منهم (تفسير الطبري ٢٣/ ٥٣٧) وقال: سعيد بن جبير: الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها الملصق.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ ٢/ ٤٤١، وتفسير ابن كثير: ٧/ ٣٢١.
وقد رواه ابن جرير الطبري في التفسير (١٢/ ٣٦٧) عن عثمان بن عفان قال: «يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:«والذي نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سرا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا، ثم تلا هذه الآية:«ورياشا» ولم يقرأها: ﴿وَرِيشًا﴾ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، قال: السمت الحسن».
وفي إسناده سليمان بن أرقم متروك، وذكر ابن كثير في التفسير (٧/ ٣٦١) الأحاديث والآثار علىٰ هذا المعنىٰ عند قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾.

(٣) انظر مثلا مجموع الفتاوىٰ ٧/ ٦٤٤، ١٠/ ٤٥٦، ١٤/ ١٢٠.

(٤) رواه البخاري في الصحيح (٥٢)، ومسلم في الصحيح (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

قلب هذا لخشعت جوارحه»[1].

ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، فإنَّ الإرادة التي في القلب مع القدرة توجب فعل المراد، والسفر في غزوة بعيدة لا يكون إلا بعِدَّة.

ومن هذا الباب أن عثمان قال لعمر لما شاوره في المرأة التي أقرت بالزنا: «إني أراها تستهل به استهلال من لا يعرف أنه حرام» فإنه لما رآها تجهر بما فعلته، وتحكيه من غير اكتراث، تبين له أنها لم تعتقد تحريمه، وأنه يُذم، ويُعاقب عليه، ووافقه عمر وعلي وغيرهما علىٰ ذلك[2].

---

(١) لم أجده من قول عمر رضي الله عنه.
لكن رواه الحكيم الترمذي في نواد الأصول (١٤١٤) من حديث سليمان بن عمرو عن محمد بن عجلان، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأىٰ رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته في صلاته قال: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».
قال الزيلعي (في تخريج أحاديث الكشاف ٢/ ٤٠٠): «وسليمان بن عمرو هذا يشبه أن يكون هو أبو داود النخعي فإني لم أجد أحدا في هذه الطبقة غيره وقد اتفقوا علىٰ ضعفه قال ابن عدي أجمعوا علىٰ أنه يضع الحديث».
وروي من حديث علي بن أبي طالب، بسند فيه زياد بن المنذر متروك (كما في كنز العمال: ٢٢٥٣٠)
ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٥٠) عن حذيف بن اليمان.
ورواه عبدالرزاق (٣٣٠٨) وابن أبي شيبة (٦٨٥٤) عن رجل، قال: رأىٰ سعيد بن المسيب رجلا وهو يعبث بلحيته في الصلاة، فذكره.
قال العراقي: المعروف أنه من قول سعيد بن المسيب (تخريج أحاديث الإحياء ١/ ١٥٠).
(٢) رواه الشافعي في مسنده (ص١٦٨)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٣٦٤٤)، =

والرجل الصادق البار يظهر علىٰ وجهه من نور صدقه، وبهجة وجهه سيما يعرف بها، وكذلك الكاذب الفاجر، وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه، حتىٰ إن الرجل يكون في صغره جميل الوجه، فإذا كان من أهل الفجور مصرًّا علىٰ ذلك يظهر عليه في آخر عمره من قبح الوجه ما أثره باطنه، وبالعكس.

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال(ظ١٦٥): «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، وبغضة في قلوب الخلق»[1].

= والبيهقي في السنن الكبير (٨/ ٤١٥) عن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه قال: توفي عبد الرحمن بن حاطب، وأعتق من صلىٰ من رقيقه وصام، وكانت له نوبية قد صلت وصامت وهي أعجمية لم تفقه، فلم يرع إلا حبلها، وكانت ثيبا، فذهب إلىٰ عمر فزعا فحدثه فقال له عمر: «لأنت الرجل لا يأتي بخير، فأفزعه ذلك»، فأرسل إليها فسألها فقال: «حبلت؟» قالت: نعم من مرغوش بدرهمين، وإذا هي تستهل بذلك لا تكتمه، فصادف عنده عليا وعثمان وعبد الرحمن بن عوف فقال: أشيروا علي، وكان عثمان جالسا، فاضطجع فقال علي، وعبد الرحمن: «قد وقع عليها الحد»، فقال: أشر علي، يا عثمان. فقال: قد أشار عليك أخواك. قال: أشر علي أنت. قال عثمان: «أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا علىٰ من علمه»، فأمر بها فجلدت مائة، ثم غربها، ثم قال: «صدقت والذي نفسي بيده ما الحد إلا علىٰ من علم».

قال البيهقي: «كان حدها الرجم، فكأنه ﵁ درأ عنها حدها للشبهة بالجهالة، وجلدها وغربها تعزيرا».

(١) عزاه لابن ابن عباس المصنف في الفتاوىٰ ٣/ ٤٤١، وابن القيم في روضة المحبين ص٤٤١، ولم أجده مسندا عنه.

وقد روىٰ عن أنس قال رسول الله ﷺ: «وجدت الحسنة نورا في القلب وزينا في الوجه وقوة في العمل ووجدت الخطيئة سوادا في القلب وشينا في الوجه ووهنا في العمل». =

وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب لكن يعتقد اعتقادات باطلة كاذبة في الله أو في رسله أو في دينه أو عباده الصالحين، وتكون له زهادة، وعبادة، واجتهاد في ذلك فيؤثر ذلك الكذب الذي ظنه صدقًا وتوابعه في باطنه، ثم يظهر ذلك علىٰ وجهه فيعلوه من القترة والسواد ما يناسب حاله، كما قال بعض السلف: «لو ادَّهن صاحب البدعة كل يوم بدهان، إنَّ سواد البدعة لفي وجهه»(١).

وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهورًا تامًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦٠-٦١](٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

= رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٦١، وقال: «غريب من حديث الحسن عن أنس لم نكتبه إلا من هذا الوجه، تفرد به عمرو بن قيس» أي عن أبي سفيان، عن عمر بن نبهان، عن الحسن.

وهذان مجهولان، وقال أبو حاتم: هذا حديث منكر (ميزان الاعتدال ٤/ ٥٣٢).

وروىٰ البيهقي في الشعب (٦٨٢٧) نحوه عن إبراهيم بن أدهم.

(١) لم أجده فيما بين يدي من مصادر، ونقله عبد العزيز آل معمر في منحة القريب المجيب في الرد علىٰ عباد الصليب ٢/ ٥٥٤، وقد صدر في مبحثه هذا عن المصنف.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٤.

وفي هامش ظ حاشية فيها: وقال (وعلىٰ الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم).

قال ابن عباس وغيره[1]: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة»[2].

والمقصود أنَّ ما في القلوب[3] من قصد الصدق والمحبة والبر ونحو ذلك قد يظهر علىٰ الوجه حتىٰ يعلم ذلك علمًا ضروريًا من أبلغ العلوم الضرورية، وكذلك ما فيها من قصد الكذب والبغض والفجور وغير ذلك.

والإنسان يرافق في سفره من لم يره قط إلا تلك الساعة فلا يلبث مدة إذا رآه وسمع كلامه أن يعرف هل هو مأمون يطمئن إليه؟ أو ليس كذلك؟ وقد يشتبه عليه ذلك في أول الأمر، وربما غلط، لكن العادة الغالبة أنه يتبين ذلك بعد لعامة الناس، وكذلك الجار يعرف جاره، والمعامل يعرف معامله.

ولهذا لما شهد عند عمر بن الخطاب رجل فزكَّاه آخر قال: هل أنت جاره الأدنىٰ تعرف مساءه وصباحه؟ قال: لا، قال: هل عاملته في الدينار والدرهم اللذَين تمتحن بهما أمانات الناس؟ قال: لا، قال: هل رافقته في السفر الذي ينكشف فيه أخلاق الناس؟ قال: لا، قال: فلست تعرفه.

وروي أنه قال: لعلك رأيته يركع ركعات في المسجد[4].

---

(١) في (ب): وغيره من السلف.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣/ ٧٢٩، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٧٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ٣٩٠، وفيه مجاشع بن عمرو متروك الحديث، عن ميسرة بن عبد ربه – وهو متهم، عن عبدالكريم الجزري – وهو ضعيف الحديث– وقد سقط ميسرة من تفسير ابن أبي حاتم، وسقط عبدالكريم من تاريخ الخطيب.

وقد روي مرفوعا من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر، رواه عنه مالك بن سليمان الهروي، وهو موضوع علىٰ مالك (انظر: تفسير القرطبي ٤/ ١٦٧).

(٣) في (ب): القلب.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبير (١٠/ ١٢٥)، والخطيب في الكفاية (ص٨٣) =

وذلك أن المنافق قد يظهر الصلاة فمن لم يخبره لا يعرف باطن أمره كما قيل:

ذئب تراه مصليا فإذا مررت به ركع

يدعو وجل دعائه ما للفريسة لا تقع

وإذا الفريسة[1] خيلت ذهب التنسك والورع[2]

فإذا كان كذلك فمن نبأه الله واصطفاه لرسالته كان قلبه من أفضل القلوب صدقًا وبرًّا، ومن افترىٰ علىٰ الله الكذب كان قلبه من شر القلوب كذبًا وفجورًا، كما قال عبد الله بن مسعود: «إنَّ الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد

= والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٥٤)، عن خرشة بن الحر قال: شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضىٰ الله عنه بشهادة فقال له: لست أعرفك ولا يضرك أن لا أعرفك ائت بمن يعرفك. فقال رجل من القوم: أنا أعرفه قال: بأىٰ شىٰء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل. فقال: فهو جارك الأدنىٰ الذىٰ تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال: لا.
قال: فمعاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل علىٰ الورع؟ قال: لا. قال: فرفيقك فىٰ السفر الذىٰ يستدل به علىٰ مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: لست تعرفه ثم قال للرجل: ائت بمن يعرفك.
وفي الإسناد الفضل بن زياد عن شيبان، قال الذهبي في المغني: لا يعرف، وقال في الميزان (٣/ ٣٥١): «وهو البغدادي بياع الطساس، قد وثقه أبو زرعة، وحدث عنه، يروىٰ أيضا عن عباد بن عباد، وخلف ابن خليفة، وقال العقيلي: فيه نظر، يروىٰ عن شيبان». قلت: فالإسناد حسن، وانظر: كشف الخفاء ١/ ٤٥٣، إرواء الغليل ٨/ ٢٦٠، والله أعلم.

(١) في (ب): الفرصة.

(٢) أنشدها أبو بكر الطرطوشي في سراج الملوك (ص٥١) والبيت الثالث عنده:

عجل بها يا ذا العلا إن الفؤاد قد انقطع.

قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم الله[1] لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون سيئًا فهو عند الله سيئ»[2].

وقال عبد الله بن مسعود: «من كان منكم مستنًا فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه(ظ١٦٦)، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم»[3].

وإذا كان من أعظم بل أعظم أهل زمانه صدقًا وبرًّا فإنه لا بد أن يظهر علىٰ فلتات لسانه وصفحات وجهه ما يناسب ذلك، كما أن الكاذب الكافر لا بد أن يظهر علىٰ وجهه وفلتات لسانه ما يناسب ذلك، وهذا يكون تارة حين إخباره[4] بما يخبر به، وتارة موجودًا في غير تلك الحال، فإنَّ الرجل إذا جاء وقال: إن السلطان أو الأمير أو الحاكم أو الشيخ أو فلانا أرسلني إليكم بكذا، فإنه قد يقترن بنفس إخباره من كيفيته وحاله ما يعلم به أنه صادق أو كاذب، وإن كان معروفًا قبل ذلك بالصدق أو الكذب كان ذلك دلالة أخرىٰ، وقد يكون ممن يكذب، ولكن يعرف أنه صادق في ذلك الخبر، دع من يستمر علىٰ خبر واحد بضعًا وعشرين سنة مع أصناف الناس، واختلاف أحوالهم.

---

(١) لفظ الجلالة من الأصل (ظ).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٦٠٠) بإسناد حسن.

(٣) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٩٧)، والهروي في ذم الكلام (ص١٨٨) وإسناده منقطع لأنه من رواية قتادة عن ابن مسعود. ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥) من قول ابن عمر.

(٤) في (ب): أخبر بما.

ومما ينبغي أن يُعلم أنَّ الناس تختلف أحوالهم في المعرفة، والخبرة، والنظر، والاستدلال في جميع المعارف[(١)]، فقد يتفطن الإنسان لدلالة لا يتفطن لها غيره، وقد يتبين له ما يخفىٰ علىٰ غيره، حتىٰ الأنبياء يتفاضلون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩][(٢)].

والمقصود أن العلم بصدق الصادق، وكذب الكاذب كغيرهما من المعلومات قد يكون ضروريا[(٣)]، وقد يكون كسبيًا[(٤)] نظريًا، وهو ليس من الضروريات الكلية الأولية، كالعلم بأنَّ الواحد نصف الاثنين، بل من العلم بالأمور المعينة كالعلم بحمرة الخجل، وصفرة الوجل، وعدل العادل، وظلم الظالم، ونحو ذلك مما يعرفه الخبير بذلك علما ضروريًا، وإذا كان استدلاليا فالعلم[(٥)] لا يحصل بمجرد وجود الدليل في نفسه، بل لا بد من معرفة القلب

---

(١) بدلها في هامش (ب): أحوال الأمور. وكتب فوقها: كذا.

(٢) الشاهد أنه خفي القضاء علىٰ داود وعلمه سليمان، قال الزهري: «وكان قضاء داود وسليمان في ذلك أن رجلا دخلت ماشيته زرعا لرجل فأفسدته، ولا يكون النفوش إلا بالليل، فارتفعا إلىٰ داود، فقضىٰ بغنم صاحب الغنم لصاحب الزرع، فانصرفا فمرا بسليمان، فقال: بماذا قضىٰ بينكما نبي الله؟ فقالا قضىٰ بالغنم لصاحب الزرع، فقال: إن الحكم لعلىٰ غير هذا، انصرفا معي! فأتىٰ أباه داود، فقال: يا نبي الله، قضيت علىٰ هذا بغنمه لصاحب الزرع؟ قال نعم. قال: يا نبي الله، إن الحكم لعلىٰ غير هذا، قال: وكيف يا بني؟ قال: تدفع الغنم إلىٰ صاحب الزرع، فيصيب من ألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الزرع إلىٰ صاحب الغنم يقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلىٰ حاله التي أصابته الغنم عليها، ردت الغنم علىٰ صاحب الغنم، ورد الزرع إلىٰ صاحب الزرع، فقال داود: لا يقطع الله فمك، فقضىٰ بما قضىٰ سليمان» (تفسير الطبري ١٨/ ٤٧٩).

(٣) في (ب): من المعلومات علما ضروريا.

(٤) ليست في (ل، ب).

(٥) في (ب، د): فالمعرفة بالعلم. في (ل): كالمعرفة بالعلم.

به، والناس متفاوتون في ذلك، والدليل أبدا هو ما استلزم المدلول، فكل ما كان مستلزما للشيء كان دليلا عليه، لكن لا بد من معرفته، ومعرفة أنه مستلزم ثم إذا حصل العلم صار ضروريًا، وقد يكون ضروريًا بلا واسطة دليل معين، وليس العلم بالمعينات كالعلم بصدق هذا وكذب هذا مما يحتاج فيه إلىٰ القياس الشمولي[1]، فإن ذلك إنما يفيد بتوسط قضية كُلية، والمعينات قد لا يحتاج فيها إلىٰ ذلك، وإن كان لا بد فيها من خبرة بحال ذلك المعين.

وإذا كان القائل: إني رسول الله، إما أن يكون من خيار الناس، وأصدقهم، وأبرهم، وأفضلهم، وإمَّا أن يكون من شرار الناس، وأكذبهم، وأفجرهم، والفرق بين هذين يكون من وجوه كثيرة لا يكاد ينضبط كل منها يعرف به صدق هذا وكذب هذا، وكانت المعرفة بذلك قد تحصل عند سماع خبر هذا وخبر هذا، ورؤية وجهه، وسماع كلامه، وما يلزم ذلك ويقترن به من بهجة الصدق ونوره، ومن ظلمة الكذب وسواده وقبحه، يبين[2] بذلك أنَّ كثيرًا من الناس يحصل لهم علم ضروري بأنَّ هذا النبي صادق، وهذا المتنبي كذاب بمثل ذلك، من قبل أن يروا خارقا للعادة[3].

وقول بعض المتكلمين: ما لم يكن خارقًا للعادة فلا اختصاص للنبي به فلا يدل، يقال له[4]: لفظ خرق العادة لفظ مجمل، فإنَّ نفس دعوىٰ

---

(١) أطال المصنف الحديث عن القياس الشمولي في الرد علىٰ المنطقيين ص١١٩، والنبوات ٢/ ٧٢٥-٧٢٦.

(٢) في (ب، ل): تبين.

(٣) هنا في هامش ظ: منفصلا عنه، وفوقها خ.

(٤) انظر النبوات للمصنف ١/ ١٧٠. ثم انظر مناقشة المصنف للأشاعرة والباقلاني خاصة في تعريف المعجزة ١/ ٤٨٤، ٥٤٤.

النبوة صدقًا وكذبًا ليس هو أمرًا معتادًا، ولم يقع هذا إلا في أفراد من العالمين[١]، وهو أقل بكثير من الإخبار بالمعينات[٢]، فإن هذا أكثر في الوجود من دعوىٰ النبوة، إذ كل نبي يخبر بالمغيبات، وليس كل من أخبر بها كان نبيًا، وهؤلاء (١٦٦) الذين يقولون هذا يقول أكثرهم أو كثير منهم: إنَّ دعوىٰ النبوة والتحدي والمعجز مجموعها هو المختص بالنبي، وإلا فهم يقولون: إن ما كان معجزة لنبي جاز أن يظهر علىٰ يدي ولي أو ساحر، وإنما يفرق بينهما[٣]التحدي وعدم المعارضة.

ومنهم من ينكر خرق العادات أن يظهر علىٰ يد غير نبي، ومنهم من لا يفرق بين الولي والساحر إلا ببر هذا وفجور هذا، ومنهم من يطرد ذلك في النبي لا سيما متفلسفة اليونان منهم[٤]، فإنهم من أجهل الناس بأمر النبوة، إذ كانوا لم يأخذوها من العلم بصدق الأنبياء، وما جاءوا به من الآيات والبراهين والعلم بصفاتهم، وإنما أخذوها من القياس علىٰ المنامات، فجوزوا فيها مثل ما يجوز علىٰ النائم من الأحلام والتخييل، وما يصيب أهل المرة السوداء مما يشبه ذلك.

وهذا هو الموجود في عامة أتباع أرسطو، ولكن متأخروهم كابن سينا ضم إلىٰ ذلك تصرفه في هيولي[٥] العالم، لما بلغه من خوارقهم الفعلية التي لم يكن

---

(١) في (ب، ل): العالم.

(٢) كذا في الأصل ظ، وتحت العين علامة الإهمال. وفي (ب، ل، د): المغيبات. وكلاهما صحيح في المعنىٰ. إلا أنه سيأتي بعد قليل بالغين.

(٣) هامش الأصل ظ: «نسخة: دعوىٰ النبوة مع».

(٤) ليست في (ب، ل).

(٥) الهيولىٰ: مقصورا، وقد تشدد الياء، هو القطن، شبه الحكماء طينة العالم به، لأن الهيولىٰ أصل لجميع الصور كما أن القطن أصل لأنواع الثياب. =

يعرفها أولئك، إذ كان علم أرسطو هو بما كان يعلمه قومه من اليونان[1]، وهم أمة من أولاد يافث[2] لم يكن فيهم ما في أولاد سام كهود، وصالح، وغيرهما، ثم أولاد إبراهيم الخليل الذي وعده أن يجعل في ذريته النبوة والكتاب حتىٰ يكون علم النبوة مشهورًا فيهم، والله تعالىٰ من زمن الخليل جعل[3] في ذريته النبوة والكتاب، كما أخبر بذلك في القرآن، وهم[4] ليسوا من ذريته[5]، ولا كانوا خبيرين بأحوال ذريته.

وقد ذكر طائفة منهم -كمحمد بن يوسف العامري، وصاعد بن صاعد الأندلسي- أنَّ أساطينهم الأربعة[6]: ابندقليس، ثم فيثاغورس، ثم سقراط، ثم أفلاطن، قدموا الشام، واستفادوا من بني إسرائيل، ولهذا لم يكن في هؤلاء مَن قال بقدم العالم بخلاف أرسطو[7]، قالوا: فإنَّه لم يقدم الشام[8].

= وأطال الزبيدي الحديث عنه، ونقل عن بعضهم أن المصطلح اصله يوناني (تاج العروس ٣١/ ١٧٤).

وقال: قال الحكماء: الجوهر إن كان حالا في آخر فصورة، وإن كان محلا لها فهيولىٰ، وإن كان مركبا منهما فجسم، وإلا فإن كان متعلقا بالجسم تعلُّقَ التدبير والتصرف فنفس، وإلا فعقل (تاج العروس٣١/ ١٧٤، وانظر: التعريفات للجرجاني ٢٥٧).

وقد سبق للمصنف ذكره في هذا الكتاب في أكثر من موضع، منها: عند حديثه عن المثل الأفلاطونية، فلتراجع.

(١) في (ب، ل): اليونانيين.

(٢) تصحفت في الأصل ظ: ثافت

(٣) في (ب، ل، د): وقد جعل الله تعالىٰ من زمن الخليل في ذريته..

(٤) في هامش ظ حاشية: «يعني الفلاسفة». وقد ثبتت هذه الحاشية في متن النسخة (د).

(٥) في (ب، ل، د): لم يكونوا من ذريته.

(٦) في (ب، ل): خمسة، ثم أربعة منهم.

(٧) وهو خامس الأساطين منهم.

(٨) انظر: الرد علىٰ المنطقيين ص٣٣٧، الصفدية ١/ ٢٣٦.

وذكر هؤلاء -كمحمد بن يوسف العامري[1] وغيره-: أنَّ أول من لقب بالحكمة لقمان[2]، وأن ابندقليس استفاد منه، ومن أتباع داود عليه السلام - فإنه كان في زمن داود- وإذا كان هذا قول هؤلاء النظار من أهل الكلام والفلسفة[3]، فمجرد خارق العادة عندهم ليس وحده مستلزمًا للنبوة حتىٰ يكون وحده دليلاً، بل لا بد أن ينضم إلىٰ ذلك التحدي وعدم المعارضة.

ولهذا لما اختلف قول طائفة منهم -كأبي الحسن وأتباعه-: هل يجوز ظهور الخارق علىٰ يد الكاذب؟ فقيل: لا يجوز لأنه علم النبوة، فيمتنع أن يتخلف عنه مدلوله كسائر الأدلة، وقيل: بل يجوز، ولكن الله لا يفعله.

ثم قيل: لأنه يستلزم عجزه عن تصديق الرسول إذ لا طريق لنا إليه إلا المعجز عندهم.

وقيل: بل هو مقدور ممكن، ولكن نحن نعلم اضطرارا أنه لا يفعله مثل كثير مما يُمكن في العادة، ونعلم أن الله لا يفعله.

وجمع من جمع بين القولين وقال: مجموع ما يدل علىٰ النبوة -وهو الخارق السالم عن المعارض (مع التحدي)[4]- يمتنع أن يكون لغير نبي بخلاف جنس الخارق.

فقيل له: هذا الامتناع إمَّا أنْ يكون عاديًّا، وإما أن يكون لاستلزامه العجز

---

(١) عده الشهرستاني في الملل والنحل (٣/ ٣) من فلاسفة الإسلام المتأخرين ممن سلك طريقة أرسطوطاليس.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٨٠.

(٣) ليست في (ب). وفي (ل): وأهل الكلام والفلسفة.

(٤) ليس في (ل، ب)، ولا بد منه لتصحيح الجمع بين القولين.

عن تصديق النبي، وذلك ممتنع فإنما ممتنعا لاستلزامه أمرا ممتنعا[1]، وإذا كان انقلاب العادة[2] ليس عندك ممتنعا فلا بد لك من ذلك الجواب، وهو: القول بأنا نعلم ضرورة أن ذلك لم يكن، ثم إذا قلت: إن هذا علم ضروري، وإن العلم بدلالتها على الصدق أمر ضروري كالمثل الذي ضربته في إرسال الملك رسولا، وقول رسوله: إن كنت صادقا فغير عادتك بقيامك ثم قعودك، ففعل ذلك عقب سؤال الرسول، فإن ذلك يوجب (ظ١٦٨) العلم الضروري بصدق الرسول.

وقيل لك: الملك يعلم عادته، ويعلم أنه فعل ذلك للتصديق، والرب عندك لم يخلق شيئا لشيء؟ فقلت: بل يخلقه شيئا مقارنا لشيء كالعاديَّات[3]، وهذا منها.

فقيل لك: العاديَّات قد تكررت؟ فقلت: قد نعلم ذلك بلا تكرر، وجعلت ذلك من باب الدلالة الوضعية كدلالة اللفظ على قصد المتكلم.

وقلت: قد نعلم قصده اضطرارا من غير سبق مواضعة، وهذه العلوم الضرورية التي ذكرت أنه يعلم بها صدق الرسول -وإن كانت حقًّا- فجمهور الناس يقولون: إنك لم تقر بلوازمها من كونه يفعل لأجل كذا، ويقولون: القول بأنه خلق المعجزة لقصد[4] التصديق مع القول بأنه لا يخلق شيئا لأجل شيء تناقضًا.

فقلت: لا يشترط في العلم الضروري العلم بأنه يفعل كذا لأجل كذا.

---

(١) كذا في الأصل (ظ)، وفي (ب، ل): فإذا كان ممتنعا لاستلزامه أمرا ممتنعا. وفي (د): وذلك ممتنع فإنما كان ممتنعا لاستلزامه أمرا ممتنعا.

(٢) في الأصل ظ: السعادة، وهو تصحيف.

(٣) حك الياء في (ب) فصارت: العادات، وكذا في الموضع الآتي حيث اتفقت معه (ل).

(٤) في (ب): بقصد.

فقيل لك: هب أنه كذلك لكن لا يحصل العلم الضروري مع العلم بما يناقضه.

والمقصود أن ما يذكره هؤلاء وأمثالهم من النظار -بل وعامة الناس- هم فيما يثبتونه من العلم والحقائق المعلومة أسد منهم وأصوب فيما ينفونه، فإن الإنسان بما[1] يثبته أعلم منه بما ينفيه، وشهادته علىٰ الإثبات أقوىٰ من شهادته علىٰ النفي، وإن كان النفي قد يكون معلومًا لكن غلط الناس فيما ينفونه ويكذبون به أكثر من غلطهم فيما يثبتونه ويصدقون به، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

ولهذا تجد من سلك طريقًا من الطرق إمَّا في إثبات العلم بالصانع، وإما في العلم بالنبوة، أو العلم بالمعاد أو غير ذلك، واحد يقول: لا طريق إلا هذا الطريق، يخطئ في النفي أكثر من خطئه في الإثبات، ومنهم هؤلاء، فإنهم قد ينفون من العلم والطرق ما يعلمه غيرهم بالاضطرار، ويثبتون ما يقولون إنه معلوم بالاضطرار، وقد يكون غيرهم أصوب[2] فيما يثبته منهم فيما ينفونه، بل وفيما يثبتونه.

ولهذا[3] الذين اتفقوا علىٰ[4] أنه لا طريق إلا المعجزات تنوعوا في وجه دلالتها، فيثبت هؤلاء وجها يستدلون به، وينفون طريق غيرهم، وبالعكس، فإذا قالوا: ما سوىٰ الخارق للعادة ليس بمختصٍ بالنبي فلا يدل علىٰ نبوته.

قيل لهم: الدليل هو الذي يكون مستلزمًا للمدلول يلزم من تحققه تحقق

---

(١) في (ب، ل): لما.

(٢) ليست في (ب).

(٣) حاشية ظ: «كان». زادها الناسخ للبيان لا أنها من صلب الكتاب.

(٤) ليست في (ب، ل).

المدلول، ولفظ «الخارق للعادة» فيه إجمال كما تقدم، وحينئذ فنفس إنباء الله للنبي، واصطفائه لرسالته، وإقداره علىٰ التلقي من الملك، هو من خوارق العادات، وذلك من المعجزات التي أعجز الله جميع[1] الخلق أن يفعلوه، وهو مختص بالأنبياء، وهذا الوصف أجل وأعظم قدرًا من غيره من الخوارق، والمستلزم لهذا الخارق لا يكون إلا خارقًا، وهو الدليل، إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم، ومن انتفاء اللازم انتفاء الملزوم، والمعتاد الذي يوجد بدون النبوة لا يكون دليلاً، وأمَّا ما لا يوجد إلاَّ إذا وجدت النبوة فهو دليل.

فقد تبين أنَّ كل ما يدل علىٰ صدق الرسول -وهو خارق للعادة- يكون آية ونبوة علىٰ صدقه، وأمَّا ما كان خرقًا للعادة ولا يستلزم النبوة فليس دليلاً، وقد يكون الشيء معتادًا بدون النبوة، ومع النبوة يكون خرقًا للعادة؛ بحيث يكون وجوده مع النبوة خرقا للعادة (بخلاف وجوده)[2] مجردًا عنها؛ لأن النبوة خرق للعادة، فلا يكون مستلزمًا لها إلا خارق للعادة.

فقول القائل: «لا نعلم صدقه إلا بالمعجزة، وهو الخارق للعادة» إن أراد به المعنىٰ العام -وهو ما يستلزم صدقه- بطل تخصيصه ذلك بما يخلق منفصلا عنه من الآيات، وإن أراد بذلك نوعًا مخصوصًا مع اشتراك الجميع في الدلالة ظهر بطلان (ظ١٦٩) قوله[3].

وأما ما يوجد بدونها كما يوجد معها -كالأمور التي تكون للصادق في دعوىٰ النبوة والكاذب في دعوىٰ النبوة- فهذه لا تدل، وما يظهره الله تعالىٰ علىٰ يد النبي من الأنواع التي بها يُعرف صدقه، ليس فيها شيء يكون للكاذب.

---

(١) ليست في (ب، ل).

(٢) سقط من (ب)، واستدركه لحقا في (ل).

(٣) في (ب): نفسه. وفي (ل): نفيه.

بل الكاذب لا يكون له من الأدلة إلا ما يستلزم كذبه، فكل ما يدل علىٰ كذب الكاذب لا يدل علىٰ صدق الصادق، وبالعكس، فإن دليل الكذب مستلزم له، ودليل الصدق مستلزم له، وهما ضدان يمتنع أن يكون مدعي النبوة نبيًا صادقًا ومتنبئًا كاذبًا، والضدان لا يجتمعان، فيمتنع أن يكون شيء[1] واحد يدل علىٰ الضدين.

(فتبين أن دليل الصدق يمتنع أن يدل علىٰ الكذب، ودليل الكذب يمتنع أن يدل علىٰ الصدق)[2]، وهذه القاعدة ينتفع بها في مواضع:

منها: أنَّ كثيرًا من الناس إذا رأوا الكاذب وسمعوا كلامه تبين لهم كذبه، تارة بعلم ضروري، وتارة بعلم استدلالي، وتارة بظن قوي، وكذلك النبي الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه فقد يتبين لهم صدقه بعلم ضروري أو نظري، وقد يكون أولاً بظن قوي، ثم يقوىٰ الظن حتىٰ يصير يقينًا، كما في المعلوم بالأخبار المتواترة والتجارب، فإنَّ خبر الأول يفيد نوعًا من الظن، ثم يقوىٰ بخبر الثاني والثالث حتىٰ يصير يقينًا.

وهذا الطريق سلكها طوائف من الناس، وممن نبه علىٰ ذلك القاضي عياض.

قال[3]: «إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمنا من جميل أثره، وحميد سيره[4]، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله، لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته»[5].

---

(١) ليست في (ب).
(٢) ما بين القوسين ليس في (ب، ل).
(٣) في (ب، ل): قال القاضي عياض.
(٤) غيرها في (ب) إلىٰ: سيرته.
(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (١/ ٢٤٧).

قال: «وقد كفىٰ هذا غير واحد في إسلامه، والإيمان به.

فروينا عن الترمذي وابن قانع وغيرهما، بأسانيدهم، أنَّ عبد الله بن سلام قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب».

رواه غير واحد كعبد الوهاب الثقفي، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، ويحيىٰ بن سعيد، عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن زرارة بن أوفىٰ، عن عبد الله بن سلام[1].

وعن أبي رمثة البلوي قال: أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي فأُريته فلما رأيته قلت: هذا نبي الله[2].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، والدارمي (١٥٠١)، والترمذي(٢٤٨٥)، وابن ماجه(١٣٣٤)، وإسناده صحيح.
وتتمته: فكان أول شيء سمعته تكلم به، أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

(٢) رواه أحمد (٧١٠٩)، وإسناده صحيح، ولفظه: عن أبي رمثة، قال: انطلقت مع أبي نحو رسول الله ﷺ، فلما رأيته قال لي أبي: هل تدري من هذا؟ قلت: لا، فقال لي أبي: هذا رسول الله ﷺ، فاقشعررت حين قال ذاك، وكنت أظن رسول الله ﷺ شيئا لا يشبه الناس فإذا بشر له وفرة، عليه ثوبان أخضران، فسلم عليه أبي، ثم جلسنا، فتحدثنا ساعة، ثم إن رسول الله ﷺ قال لأبي: «ابنك هذا؟» قال: إي ورب الكعبة، قال: «حقا؟» قال: أشهد به، فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكا من ثبت شبهي في أبي، ومن حلف أبي علي، ثم قال: «أما إنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه»، قال: وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال: ثم نظر إلىٰ مثل السلعة بين كتفيه، فقال: يا رسول الله، إني كأطب الرجال، ألا أعالجها لك؟ قال: «لا، طبيبها الذي خلقها».

وروىٰ مسلم[1] وغيره عن ابن عباس أنَّ ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقىٰ من هذا الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علىٰ يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي علىٰ يدي من شاء الله، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن[2] محمدًا عبده ورسوله، أما بعد.

فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء. فأعادهن رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك علىٰ الإسلام، فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: وعلىٰ قومك. قال: وعلىٰ قومي» الحديث[3].

وقال جامع بن شداد: كان منا رجل يقال له طارق فأخبر أنه «رأىٰ النبي ﷺ بالمدينة فقال: هل معكم شيء تبيعونه؟ قلنا: هذا البعير، قال: بكم؟ (ظ ١٧٠) قلنا: بكذا وكذا وسقًا من تمر، فأخذ بخطامه وسار إلىٰ المدينة فقلنا: بعنا من رجل لا ندري من هو، ومعنا ظعينة[4]، فقالت: أنا ضامنة لثمن البعير، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر، لا يخيس بكم.

---

(١) في (ب، ل): مسلم في صحيحه.
(٢) في (ب): وأن.
(٣) رواه مسلم في الصحيح (٨٦٨).
(٤) هامش (ب): أي امرأة.

فأصبحنا فجاء رجل بتمر فقال: أنا رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر وتكتالوا حتىٰ تستوفوا، ففعلنا»[1].

وفي خبر الجُلَنْدَىٰ -ملك غسان-[2] لما بلغه رسول رسول الله ﷺ يدعوه إلىٰ الإسلام فقال الجُلَنْدي: والله لقد دلني علىٰ هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهىٰ عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي[3].

وقال نفطويه في قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]: هو مثل ضربه الله لنبيه، يقول: يكاد منظره يدل علىٰ نبوته، وإن لم يتل قرآنا، كما قال ابن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك[4] بالخبر»[5]

قلت: وإيمان خديجة وأبي بكر وغيرهما من السابقين الأولين كان قبل انشقاق القمر، وقبل إخباره بالغيوب، وقبل تحديه بالقرآن، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه، ونفس كلامه وإخباره بأني رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه، إلىٰ غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه، بل خديجة قالت له: «كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتَقري الضيف، وتكسب

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٤١٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨١) وابن حجر في تغليق التعليق (٣/ ٢٣٨) وإسناده حسن (انظر: جامع المسانيد ٤/ ٣٩٣).

(٢) ما بين الحاصرتين ليس في (ب).

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة (١/ ٦٣٧).

(٤) في (ل): تنبيك.

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ١/ ٢٤٩.

المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[1]، فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب[2] الشيطان به.

وأبو بكر كان من أعقل الناس وأخبرهم، وكان معظمًا في قريش لعلمه وإحسانه وعقله، فلما تبين له حاله علم علما ضروريًّا أنه نبي صادق، وكان أكمل أهل الأرض يقينًا علما وحالا.

وكذلك هرقل ملك النصارى لما أرسل إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، سأل عن عشر خصال[3]، كما في الصحيحين عن ابن عباس قال: حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى فيِّ، قال: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل.

قال: وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بُصرى فدفعه عظيم بُصرى إلى هرقل.

فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدُعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي (فدعا بترجمانه)[4] فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٣)، ومسلم في الصحيح (١٦٠).
(٢) في (ب، ل): تلعب.
(٣) في (ب، ل): عشرة خصال.
(٤) ليست في ب.

قال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت عليه.

ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب،

قال: فهل كان من آبائه من[1] ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: ومن اتبعه؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه، سخطة له؟ قال: قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت: تكون الحرب بيننا (ظ١٧١) وبينه سجالا، يصيب منا، ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه.

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال: قلت: لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه.

---

(١) ليست في (ب، ل).



وسألتك عن أتباعه: أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب علىٰ الناس ثم يذهب ويكذب علىٰ الله.

وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتىٰ يتم.

وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلىٰ ثم تكون لها العاقبة.

وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، قال: إن يكن ما تقول فيه حقًّا إنه لنبي[1]، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغنَّ ملكه ما تحت قدمي».

---

(١) في (ب، ل): نبي.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلىٰ هرقل عظيم الروم، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية[1] الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[2].

وفي رواية: «فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وقال: فهذه صفة نبي»[3].

وما استدل به[4] هرقل من العلم بصفاته هو استدلال علىٰ عينه فإن الناس في النبوة علىٰ[5] درجات:

١ -منهم من يحتاج إلىٰ أن يعلم جنس النبوة، فيصدق بجنس الرسل من البشر، ولا يكذب بالجنس كما كذب بذلك من كذب به من قوم نوح وعاد وثمود، وغيرهم.

---

(١) هامش (ف): الدعاية علىٰ وزن الشكاية مصدر دعا يدعو فهو بمعنىٰ الدعوة، والأريس بوزن الجليس الأكار أي الزارع..، والأريسيين جمع أريس أي الأتباع وفيها لغات.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨١).

(٤) في (ب): ملك النصارىٰ هرقل.

(٥) كتب في ظ ثلاث ثم ضرب عليها.

ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، لأنَّ تكذيبهم لم يكن لشخص واحد بل كانوا مكذبين لجنس الرسل.

وهؤلاء يخاطبهم الله تعالىٰ في السور المكية، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فاحتج بإنزال كتاب موسىٰ لما تواتر في خبره من الآيات الباهرات الدالة علىٰ صدقه، والإنجيل تبع للتوراة، ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، لما قام من الآيات الدالة علىٰ نزوله.

ولهذا يذكر سبحانه في السور المكية من تثبيت أمر الرسل (ظ١٧٢) وآياتهم، وبراهينهم ونصرهم وحسن عاقبتهم، ومن ضلال مخالفيهم، وجهلهم، وغيهم، وخذلانهم، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة.

٢-ومن الناس من يقر بالرسل في الجملة، لكن لا يؤمن بما يجب من حقيقة إرسالهم، كالملاحدة وأهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم في الباطن ما يناقض بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت في قلوبهم ظنوها علومًا عقلية، وهي مناقضة لما أخبرت به الرسل، فيحتاجون إلىٰ أن يوفقوا بينهما.

وهؤلاء يشبهون الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا

﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

وقد أخبر الله أنه جعل للأنبياء من يعاديهم من الإنس والجن، فقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كلمات[1] رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١].

وهؤلاء الذين عندهم ما يناقض بعض ما أخبرت به الرسل هم ثلاثة أصناف:

-أهل التخييل من الملاحدة المتفلسفة والباطنية، الذين يقولون: إن الرسل أخبروا من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر بما يخالف الحق في نفس الأمر ليخيلوا إلىٰ الجمهور ما ينتفعون به، ويعدون هذا من فضائل الرسل، وقد بسط الرد علىٰ هؤلاء في غير موضع.

---

(١) كذا بالجمع، وهي قراءة من سوىٰ الكوفيين ويعقوب (النشر ٢/ ٢٦٢).

-وأهل التحريف والتأويل: الذين يؤولون كلامهم علىٰ ما يخالف مرادهم، ويزعمون أنهم أرادوا ذلك المعنىٰ مع أنه ليس في كلامهم ما يدل علىٰ إرادة ذلك المعنىٰ، بل كلامهم يدل علىٰ إرادة خلافه.

-وأهل التجهيل: الذين يقولون ذلك الكلام ليس له معنىٰ يعلمه الرسول، ولا غيره، وإنما يعلمه الله وحده.

وهذان القولان يقول بكل منها طوائف معظمون للرسل، وقد بُيِّن فسادهما في غير هذا الموضع[1].

وأما من قال: إن الرسل وغيرهم يعلمون المعنىٰ الذي بينه الله لهم بكلامه، ولكن استأثر الله بعلم أمر آخر لا يعلمونه كما استأثر بعلم غيب الساعة، فهذا قول السلف والأئمة، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أنّ الكلام في النبوات تارة في جنسها، وتارة في شخص النبي المعين، وهرقل ملك الروم لم يكن محتاجا إلىٰ الإيمان بجنس النبوات فإنه كان من أهل الكتاب، وأهل الكتاب يقرون بجنس النبوة، فإنهم يقرون بنبوة نوح والخليل وموسىٰ وأنبياء بني إسرائيل، والنصارىٰ تقر مع ذلك بالمسيح والإنجيل.

والذين يحتاجون إلىٰ معرفة النبي المعين نوعان:

-نوعٌ عرفوا أنه يبعث نبي، وقد يعرفون بعض نعوته فيحتاجون أن يعرفوا عينه، وهرقل وأمثاله من أهل الكتاب كانوا من هذا (ظ١٧٣) النوع، فكانوا

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ ٥/ ٣١.

يعلمون أن نبيًا سيبعث، وإنما كان حاجتهم إلىٰ أن يعرفوا هل هو هذا النبي المذكور أم غيره، فيكون ما يحتاجون إليه من دلائل صدقه أيسر ما يحتاج إليه مَن لا يؤمن بالرسل أو لا يعرف أنَّ نبيًا سيبعث.

ومن كان يعلم جنس الرسل ولا يدري هل يبعث نبي أم لا يحتاج أن يعلم أن هذا المعين هل هو من جنس الأنبياء الصادقين أو من جنس المتنبئين الكاذبين، وهذا يعرف بما يخصه من آيات صدقه، وباعتبار ما جاء به الأنبياء قبله، فإن أصول ذلك مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه، وهي الأمور التي لا تقبل النسخ: كالإخبار عن الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فهذا مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه، إذ كان كل ما يخبر به النبي فهو صدق، والأخبار الصادقة لا تتناقض ولا تقبل النسخ، ولكن قد يكون بعض الأنبياء أعلم ببعض ذلك من بعض، وفي كلام بعضهم من الأخبار ببعض ذلك ما ليس في كلام بعض.

وما أخبر به محمد ﷺ هو أكمل وأكثر مما أخبر به موسىٰ، والمسيح صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد يظن بعض الغالطين تناقض بعض أخبار الأنبياء، كما يظن بعض الغالطين معارضة العقل لما أخبروا به، وهذا ممتنع، بل لا بد أن يكون المعارض العقلي خطأً[(١)]، أو السمعي لم يثبت عنهم لفظه أو دلالته، وكذلك في الأخبار لا بد أن يكون أحد الخبرين كذبًا أو غير دال علىٰ مناقضة الخبر الآخر.

---

(١) في (ب، ل) زيادة: ليس بمعقول صحيح.

وأما الأصول الجامعة: كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبر الوالدين، والصدق، والعدل، وتحريم الأصناف[1] الأربعة، وهي:

- الفواحش ما ظهر منها وما بطن.
- والإثم والبغي بغير الحق.
- والإشراك بالله.
- وأن يقال عليه غير الحق.

وذلك مثل ما ذكره في سورة الأنعام والأعراف وبني إسرائيل.

وقد تنازع الناس في مثل هذا: هل يمكن نسخه وتنوع الشرائع به؟

علىٰ قولين[2]، فمن جوز أن يأمر الله بكل شيء وينهىٰ عن كل شيء رد ذلك إلىٰ محض المشيئة لا إلىٰ صفات تقتضي الأمر بهذا دون هذا، فإنهم جوزوا دخول النسخ في هذا، وتنوع الشرائع فيه، كما يقوله جهم بن صفوان، والأشعري، ومن وافقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، وإن كانوا قد يقولون إنه لم يقع فيه نسخ.

وأما جمهور الناس من السلف والخلف فإنهم لا يجوزون دخول النسخ في هذا، ولا تنوع الشرائع فيه، ولهذا كان دين الأنبياء واحدًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢].

---

(١) في (ب، ل): الأجناس.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٩/١٠٦.



وقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»[1].

وهذا مبسوط في موضع آخر.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥)، ولفظه: «والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد».

آخر النسخ كلها والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا[1].

[بلغ مقابلة بنسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، التي قوبلت علىٰ الأصل خط المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد أن نقلها منه، ولله الحمد والمنة، علىٰ الإسلام والسنة][2].

---

(١) ثبت هذا في آخر النسة ظ.

(٢) كتب هذا آخر النسخة ظ في هامشها.

خواتم النسخ

في الأصل (ب):

تمت النبوات تصنف الشيخ الإمام العالم العلامة أوحد العصر، فريد الدهر شيخ الإسلام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني[1] رضي الله عنه وأرضاه، آمين، أعاد الله تعالىٰ من بركاته.

وفي يمين الورقة:

هذا آخر الكتاب وهو الرد علىٰ النصارىٰ مما ألف سيدنا شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن تيمية تغمده الله بالرحمة والرضوان.... بمنه وكرمه.

وفي يسارها:

كتبها العبد الفقير إلىٰ الله محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الحنبلي المقدسي...

وفي الأصل (ل):

الحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ سائر النبيين.

نجز الكتاب المسمىٰ بالجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح عليه وعلىٰ سائر النبيي الصلاة والسلام تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه في سنة ثلاث وسبعمائة وقوبل علىٰ أصل صحيح نقل من خط مؤلفه.

---

(١) كذا في النسخة.

وفي الأصل (د):

والحمد لله رب العالمين تم الكتاب.

آخر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح والحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، بقلم أحقرر الورىٰ وأذل الفقير الراجي رحمة اللطيف المبدي الحاج علي اللبدي الحنبلي اللهم اغفر له ذنوبه واستر عيوبه واجمعه بحبيبه سيد المرسلين واغفر لمن دعا له بالمغفرة والرضوان، آمين آمين آمين.

وذلك ليلة الأربعاء غرة ربيع الأول المبارك من شهور سنة ألف ومائتين وواحد وثمانين من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية.

اللهم صل وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

زيادات نسخة الظاهرية (ظ)

قال الناسخ ابن المحب المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ووجدت في نسخة عمي أبي إسحاق إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي بخطه، المنقولة من الأصل المقابل عليه، قال:

وجدت فصولاً في كراس منفرد، فظننت أنها إما أن تكون بعد هذا الكلام، وإما أن تكون سقطت من وسطه، وإما أن تكون مستقلة، وهي علىٰ كل حال مناسبة لهذا الكلام، فأحببت أن أكتبها ها هنا لتتم (ظ١٧٤) الفائدة، وهي[1]:

---

(١) هذه الفصول -وإن تفردت بها النسخة الظاهرية- إلا أنها من تأليف ابن تيمية ولا ريب، وإن التبس حالها علىٰ الناسخ -وعلىٰ عمه من قبل- هل هي من هذا الكتاب أو من غيره فلا يضر ذلك في نسبتها إليه، والدليل علىٰ صحة نسبتها لابن تيمية أمور:
منها: أن ابن المحب نسخها من أصل منسوخ من خط المؤلف، والواسطة بين الناسخ وبين خط المؤلف ثقة، وهو عمه.
ومنها: أن أسلوب ابن تيمية ومنهجه واضح جلي، لا يخطؤه من عرفه.
ومنها: أنها مؤتلفة مع كلامه في كتبه الأخرىٰ وفتاويه، وفيما نقله عنه أصحابه، وكل ذلك جلي، والله الموفق.

فصل:

وآيات الأنبياء وأعلامهم تدل علىٰ نبوتهم من وجوه[1]، كما أن الآية الواحدة -كالقرآن مثلا- تشتمل علىٰ أنواع كثيرة من الآيات العجيبة الخارقة للعادة، وكل من تلك تدل من وجوه، ولكن قد يتفطن بعض الناس لبعض الوجوه التي لم يتفطن لها غيرهم، فيعلم هؤلاء من وجه الدلالة ما لا يعلمه هؤلاء.

ولما كانت آيات الأنبياء تتضمن دلالة كدلالة الأدلة العقلية، ودلالة كدلالة الأدلة السمعية الوضعية، ودلالة كدلالة الأدلة العادية التجريبية؛ كان من النظار من جعلها[2] من جنس الأدلة العقلية، ومنهم من جعلها من جنس الأدلة السمعية، ومنهم من جعلها من جنس الأدلة العادية، والكل حق.

فالأول: هي الأدلة التي يستلزم مدلولها بذاتها من غير قصد أحد، ويمتنع وجودها بدون وجود مدلولها، كدلالة المحدَث علىٰ أنه لا بد له من محدِثٍ أحدثه، ودلالات المخلوقات علىٰ الخالق من هذا الباب، بل وكذلك دلالتها علىٰ وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته، وغير ذلك[3].

---

(١) عرف المصنف آية النبي (المعجزة) في كتاب (النبوات ٢/ ٨٠١) بقوله: «وآيات الأنبياء لا يقدر عليها جن ولا إنس، وآيات الأنبياء آيات لجنسها، فحيث كانت آية لله، تدل علىٰ مثل ما أخبرت به الأنبياء، وإن شئت قلت: هي آيات الله، يدل بها علىٰ صدق الأنبياء تارة، وعلىٰ غير ذلك تارة.».

(٢) أي المعجزة.

(٣) ينظر في هذا المبحث ما ذكره الشيخ في كتاب النبوات ١/ ٥٣٩، فإنه ذكر أن الأشاعرة يقسمون الأدلة إلىٰ قسمين، ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما هو الأجود في ذلك، فليطالعه من أراد الاستزادة فإنه نفيس.
=



والثاني(١): الدليل الذي يدل بقصد الدال وإرادته، فهو يقصد أن يعلم غيره بأمر من الأمور، ثم قد يعلمه بالخطاب، وذلك إنما يكون إذا عرف المخاطَب مرادَه بالخطاب، وقد يعلمه ذلك بإشارة غير الخطاب، أو بفعل من الأفعال.

وهذا النوع يدل علىٰ ما علمه الدال وأراده بخطابه، ثم إنْ عُلم أن ما علمه وأراده بخطابه هو مطابق للخارج عُلم مطابقة ذلك للخارج وإلا فلا.

ثم من الناس من يرجح النوع الأول علىٰ هذا لامتناع تغير الأول وإمكان تغير الثاني، ومنهم من يرجح الثاني لأنَّ الثاني قصد به الدالُّ الإعلام والتعريف بخلاف الأول، لأن الدلالة والتعريف والبيان بالثاني أتم وأكمل، ولهذا كان ما يعرفه الناس بخطاب الأنبياء -بل وبغير خطاب الأنبياء- أعظم وأكثر مما يعلمونه بنظرهم العقلي.

وكذلك تنازع الناس في السمع والبصر أيهما أفضل، والتحقيق: أن مدلول السمع أعم وأشمل، وتصور البصر أتم وأكمل(٢).

= وقال المحقق د.عبدالعزيز الطويان: «الأشاعرة يجعلون دلالة المعجزة علىٰ صدق النبي دلالة عادية وضعية، ولا يجعلونها دلالة عقلية؛ لأن الدلالة العقلية لا تتخلف، فإذا وجدت المعجزة التي هي الدليل، لا بد أن يوجد الرسول الذي هو المدلول. أما الدلالة العادية، أو الوضعية، فيجوز عقلا تخلف المدلول عن الدليل؛ أي الرسول عن معجزته. انظر: الإرشاد للجويني ص ٣٢٤. والعقيدة النظامية له ص ٦٨. ونهاية الإقدام للشهرستاني ص ٤٣٨ والمستصفىٰ للغزالي ١ ٦١. وشرح المواقف للجرجاني ٣ ١٨١-١٨٢. وشرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ١٦٦. وشرح المقاصد له ٢ ١٣٢.».

(١) أي الدليل الوضعي، وقد ذكر نحوه في النبوات ١/ ٥٣٨.

(٢) فصل المصنف في هذه المسألة في درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٢٥، وكذا تلميذه ابن القيم في بدائع الفوائد ٣/ ١١٠٦، حيث ذكرا اختلاف ابن قتيبة مع ابن الأنباري والجمهور في ذلك، قال المصنف: «والتحقيق في هذا الباب أن العيان أتم وأكمل، =

ومما رجح به الثاني[1]: أنَّ دلالة السمع مشروطة بالعقل بخلاف العكس، فمن عرف الأدلة السمعية عرف العقلية ولا ينعكس، فإنَّ السمع المجرد بدون العقل لا يكون دليلاً، فصارت الدلالة العقلية جزءًا أو شرطًا في الدلالة السمعية، فالسمعية تستلزم العقلية من غير عكس، ولهذا كان مَن عرف تفسير القرآن علىٰ الوجه التام عرف الأدلة العقلية علىٰ أصول الدين، من غير عكس، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن آيات الأنبياء تدل من جنس هذه الدلالة، ومن جنس هذه، ولهذا كان كثير من النظار يجعلونها كالدلالة العقلية، وكثير منهم يجعلونها كالدلالة الوضعية السمعية، والتحقيق أنها تجمع النوعين:

أما الأول: فلأن تخصيص خلق الآيات المعجزات بحال دعوىٰ النبوة والتحدي بها -الذي يوجب العلم الضروري بأن الرب قصد بخلقها تصديق المدعي للنبوة- يستلزم قصد الرب إلىٰ تصديقه، كما أن تخصيص الحوادث -بحال ووقت وزمان وصفة- تستلزم قصد الرب إلىٰ تخصيصها بتلك الصفة، وإحكامها وإتقانها تستلزم علم الرب لها، ونفس إحداثها تستلزم قدرة الرب، ونفس حدوثها يستلزم وجود الرب المحدِث لها، فكذلك آيات النبوة

= والسماع أعم وأشمل، فيمكن أن يعلم بالسماع والخبر أضعاف ما يمكن علمه بالعيان والبصر أضعافا مضاعفة، ولهذا كان الغيب كله إنما يعلم بالسماع والخبر، ثم يصير المغيب شهادة، والمخبر عنه معاينا، وعلم اليقين عين اليقين».
وختم ابن القيم مبحثه بقوله: «قال شيخنا والتحقيق أن السمع له مزية والبصر له مزية فمزية السمع العموم والشمول ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه فالسمع أعم وأشمل والبصر أتم وأكمل فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه».

(١) أي الوضعي.



وأعلامها تستلزم قصد الرب إلىٰ تصديق الآتي بها المدعي، ويمتنع وجود هذا الدليل بدون مدلوله، كما يمتنع في نظائره.

وقد أورد بعضهم علىٰ هذا سؤالاً، وزعم أن هذا ضعيف، قال: لأنَّ التصديق عندنا خبر عن الصدق وخبر الله أزلي لا يصح تعلق القصد به.

وهذا السؤال في غاية الفساد لوجوه (ظ١٧٥):

منها: أنَّ من جعل الصدق والتصديق قديما لازمًا لذات الرب؛ قال: معنىٰ كونه يصدق الأنبياء أي يظهر ما يدل علىٰ صدقهم، فتصديق الرب عبده معناه: إظهار ما يدل علىٰ أنه مُصدِّق لهم.

وقصد الرب عند هؤلاء يتوجه إلىٰ ما يحدثه من الأدلة علىٰ التصديق القديم الأزلي، كما أنَّ الحوادث عندهم تدل علىٰ علمه وإرادته وغير ذلك من صفاته القديمة.

ومنها: أنَّ جمهور المسلمين لا يقولون بهذا، بل الصدق والتصديق من أنواع الكلام، وجمهور المسلمين يقولون: إنَّه يتكلم بمشيئته وقدرته.

ثم منهم من يقول[1]: هو مخلوق منفصل.

وأمَّا السلف وأهل السنة وجمهور الأمة فيقولون: إنه قائم بذاته، مع كونه يتكلم بمشيئته وقدرته[2].

ثم من هؤلاء من يقول: إنه لم يكن يتكلم في الأزل بمشيئته لامتناع حوادث لا تتناهىٰ.

---

(١) يعني في مسألة الكلام.

(٢) سبق أن ذكر المصنف هذه المسألة في هذا الكتاب ٣/ ٢٧٨ ط العاصمة.

وأما السلف والأئمة فيقولون: لم يزل متكلمًا إذا شاء.

وعلىٰ كل قول من هذه الأقوال فقد اندفع السُّؤال.

وأما كونها[1] تدل دلالة الأدلة السمعية والوضعية: فلأنها جارية مجرىٰ التصديق بالقول، والتصديق بالقول وبالأفعال وغيرها كالتصديق بالخطاب والإشارة والأفعال ونحو ذلك، هو يدل علىٰ تصديق المصدق، لكن بعد أن يعلم أن ذاك إنما يقول ويفعل ذلك إذا قصد التصديق، كما يعلم أن المتكلم إنما يتكلم بذلك الكلام إذا قصد به ذلك المعنىٰ، فهذا يستدل به علىٰ علم مراده بذلك الخطاب والفعل، وذلك قد يُعلم مع سكوت المصدق.

كما لو قام رجل بين يدي ملك في محفله، وقال: أيها الملك، إنك أرسلتني إلىٰ هؤلاء لأبلغهم عنك ما أمرتني، وعلامة صدقي أنك تقوم وتقعد وتقوم وتقعد، فقام الملك وقعد عقب ذلك، علم الحاضرون أنه إنما فعل ذلك لأجل تصديق هذا المدعي، وأن قوله: «وعلامة صدقي أنك تفعل هذا» أي: أن تجعل هذا الفعل منك مجرىٰ قولك لي: صدقت[2].

فهذا يدل علىٰ أنه صدقه بما أحدثه من دليل تصديقه، ولكن هذا الدليل هو قيامة وقعوده، وإنما صار دليلاً لما قصد به الدلالة علىٰ تصديقه، فهو دليل بالقصد والإرادة والمواضعة، لا بذاته، ولكن مجموع دعوىٰ ذاك في هذا المشهد وإحداث هذا الفعل يدل دلالة عقلية لا يمكن انتقاضها.

ولهذا من ظن نفس المعجزة دليلاً علىٰ الصدق منع أن تكون لغير الأنبياء لئلا ينتقض الدليل، ونفس المعجز -الذي هو خارق العادة- ليس دليلاً

---

(١) أي آيات الأنبياء.

(٢) انظر شرح صورة هذا المثال في شرح الأصفهانية ص٧١١.

بمجرده حتىٰ يقترن بدعوىٰ النبوة، وهـذا المجموع يمتنع لغير النبي، وامتناع ذلك يعلم تارة بالضرورة، وتارة بالنظر، كما قد بسط في موضعه.

ويدل أيضًا دلالة العاديات[1]، كما تدل حمرة الخجل وصفرة الوجل، وهذه الدلالة تكون مع قرائن وأمارات، كما يميز بها بين حمرة الخجل، وحمرة المحموم، وحمرة الغضبان، ولكن من يجوِّز انخراق العادات بلا سبب وحكمة -ويقول: إن المعجزة لم تدل إلا دلالة عادية- يُجوِّز أنْ يخلق مثل معجزات الأنبياء علىٰ يدي الكذابين، فقيل لهم: إذا جوزتم هذا فبم تعرفون صدقه؟ قالوا: قد نعلم بالضرورة أن العادة لم تنخرق مع جواز انخراقها، كما نعلم أن الجبل لم ينقلب ياقوتا، والبحر لم ينقلب زئبقا، مع تجويزنا ذلك[2].

وقالوا: وإذا كان قد حصل لنا علم ضروري عادي بأنَّ هذا الفعل إنما أحدثه الرب مقارنًا لصدق هذا؛ لم يقدح في ذلك تجويزنا أن يخلقه بدون هذا، قالوا: ولو خرقت العادة في علوم بني آدم بحيث جاز أن يخلق في قلوبهم علوم ضرورية ويكون جهلاً لا علما لم نثق بشيء من العلوم (ظ١٧٦)، لكن نعلم قطعًا أن هذه العادة لم تخرق، بل ما خلقه الله من العلوم الضرورية في النفوس السليمة لم تكن إلا حقًا.

وقال هؤلاء: نحن -وإن جوزنا علىٰ الباري أن يُضل عباده- فلم نجوز اجتماع الضدين، ولم نجوز زوال قدرته، ولم نقل: إنه يضلهم مع خلق الهدىٰ والعلم في قلوبهم، بل مع زوال الهدىٰ والعلم في قلوبهم، فإذا خلق في قلوبهم علما ضروريا كان قد هداهم ولم يضلهم، وهذا هو الهدىٰ العام الذي جعله الله

---

(١) أي الطبيعيات.

(٢) انظر النبوات ٢/ ٩٣٥.



لكل أحد(١)، كما قال تعالىٰ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢-٣]، وقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ونحو ذلك.

فقد جعل في نفس كل سليم أن الجبال لم تنقلب يواقيت، والبحر لم ينقلب لبنًا، وهو يعلم ذلك علما ضروريًّا، وأن جواز أن الله قادر علىٰ تغيير ذلك ولو شاء لفعله؛ فكذلك نحن نعلم بالاضطرار أن فرعون لما سأل موسىٰ آية فألقىٰ العصا فصارت حية تسعىٰ أنَّ الله فعل ذلك دلالةً وآيةً لموسىٰ، وهذا العلم الضروري لا يندفع عن قلوبنا بتجويز أن الله لو شاء أن يفعل ذلك مع نقص الرسول لفعله.

وأمَّا مَن قال: الدلالة عقلية ذاتية، أو كالسمعية الوضعية الإرادية، فجوابه ظاهر، فإنه يقول: تجويز الإضلال إنما يكون مع عدم وجود العلم في القلب، فإنه يجوز أن يجعل المحل أسود لكن بشرط عدم البياض، فمع العلوم العقلية اليقينية يمتنع أن يجعل العالم بها غير عالم بها، كما يمتنع أن يجعل الدليل غير دال، أو يجعل العلم جهلاً.

---

(١) الهدىٰ أربعة مراتب، أولها: الهدىٰ العام: وهو هداية كل نفس إلىٰ مصالح معاشها وما يقيمها وهو أعم مراتبه.
وهذا يشمل سائر الحيوان (مجموع الفتاوىٰ ١٦/ ٢٦٤).
والمرتبة الثانية: الهدىٰ بمعنىٰ البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلىٰ مصالح العبد في معاده، وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولىٰ وأعم من الثالثة.
المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدىٰ وإرادته، والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل.
المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلىٰ طريق الجنة والنار (شفاء العليل ص٦٥).

ومن قال بالثاني قال: إذا كانت دلالة المعجزة وضعية إرادية كدلالة القول فهي كالتصريح بالقول: إن هذا رسولي، والتصريح بالقول يستلزم العلم بمراده ضرورة، وذلك يمتنع أن يكون به إضلال، وإنما يكون الضلال مع هذا لعدم العلم بالمراد، لا مع العلم به، كما يكون الغي مع العلم بالمراد واتباع الهوىٰ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦]، وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، الإسماع المراد به الإفهام(١).

والإنسان إنما يكون سعيدًا ناجيًا مهتديًا راشدًا إذا عرف الحق وعمل به، فإذا كان لا يفهم القرآن لم يعرف الحق، وإذا كان يفهمه ولكن له هوىً في خلاف الحق لم يتبعه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ

---

(١) أي فهم ما أنزل الله علىٰ نبيه ﷺ، قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره، حتىٰ يعقلوا عن الله ﷻ حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتىٰ يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلهم علىٰ صحته مواعظ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به» (تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٢).

﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:١-٤].

فوصف الرسول بأنه لا يضل ولا يغوىٰ بل هو مهتد راشد، ووصف مخالفيه بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣].

وكذلك وصفهم بقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم القرآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ القرآن مع أن هذه الحال حالهم، لا خير فيهم، ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إذ كانوا يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن يتبعون أهواءهم، ولهذا وصف أهل الاستقامة الذين أمرنا أن نسلك سبيلهم بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧] فوصفهم بالمغايرة لأهل الغضب والضلال المذكورين في قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧] ووصفهم بالهدىٰ والفلاح في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وفي قوله (ظ١٧٧) ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] ووصف مخالفتهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي عن الذكر الذي أنزلته ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ فوصفه بالمعيشة الضنك والعمىٰ، وهو الغضب والضلال[1].

(١) والضنك الضيق، والمعنىٰ: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيقا، وعيش ضنك: الذكر والأنثىٰ والواحد والاثنان والجمع بلفظ واحد (تفسير الطبري ١٨/ ٣٩٠).

فصل:

وقوله: «إني رسول الله» خبر عن إرسال الله تعالىٰ له، يتضمن إنشاء الرسالة، وهو: أمره بتبليغ رسالة ربه، والآيات الدالة علىٰ رسالته تدل علىٰ تصديق الله له في قوله: إني رسول الله، وعلىٰ إنشاء الله إرساله، وهو أمره بالتبليغ، فهي تدل علىٰ خبر الله بأنه رسول، وعلمه بأنه رسول، وعلىٰ حكمه بأنه رسول، وأمره بتبليغ الرسالة، ولهذا كان الواجب علىٰ الناس تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أوجب وأمر، فإن الله صدقه في قوله: «إني رسول الله».

والله أمر بتبليغ رسالته، وأمر الناس بطاعته، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

ومن النظار من جعل هذه مسالة نزاع في وجه دلالة المعجزة، فمنهم من قال: تدل علىٰ خبر الله لتصديقه، فهو خبر صدق، ومنهم من قال: تدل علىٰ إنشاء الرسالة له، ويعنون بذلك أنها تدل علىٰ أمر الله له بالتبليغ، وكلا القولين صحيح، واحد الأمرين مستلزم للآخر.

فإنه إذا صدقه في خبره لم يكن صدقًا إلاَّ إذا كان الله أرسله، وإذا كان الله أرسله فهو صادق في قوله: «إن الله أرسله»، لكن من جعل المدلول هو التصديق يقول: فلا بد أن يقول: ومن صدَّقَه فهو صادق، لامتناع الكذب عليه، فإن التصديق نوع من الخبر، يمتنع أن يكون مُصَدّقا لخبر كاذب، إذ كان ذلك كذبًا، ويستدلون علىٰ ذلك بما يستدلون به علىٰ امتناع الكذب.

وأما من قال مدلوله الإنشاء، فيحتاج أن يقول: وهو لا يرسل من يكذب عليه، فهذا من جهة حكمته المناقضة لإرساله من يكذب، وذلك من جهة صدقه المناقض لتصديق من يكذب.

فصل[1]:

والمنتسبون إلىٰ الرسل يطلقون القول بأن العالم محدث، وأن ما سوىٰ الله مخلوق ومصنوع، ونحو ذلك، مما يدل عليه قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد:١٦][2].

ثم هم بعد هذا علىٰ ثلاث طبقات[3]:

١-طبقة يعتقدون في الباطن خلاف ما بينته الرسل:

ولم يمكنهم إظهار مخالفتهم، فوضعوا ألفاظ الرسل لمعاني يعتقدونها، وجعلوا يطلقون ألفاظ الرسل ليعتقد الناس أنهم موافقون للرسل، ثم يفسرونها بما يعتقدونه لخاصتهم.

وهذه طريقة الباطنية القرامطة من المتفلسفة وغيرهم، كما يقولون: العالم محدث، ويقولون: الحدوث ينقسم إلىٰ حدوث ذاتي وحدوث زماني[4]، والعالم محدث الحدوث الذاتي، وأما الحدوث الزماني ممتنع، لأن ذلك يقتضي حدوث الزمان ويوجب أنه متأخر عن الباري، والتأخر إنما يكون بالزمان، فيلزم الجمع بين إثبات قدم الزمان ونفيه، إلىٰ غير ذلك من الشبه.

---

(١) للمصنف رسالة بعنوان: مسألة حدوث العالم، وهي مطبوعة، وقد بسط فيها القول في هذه المسألة.

(٢) ذكر المصنف أن أكثر الناس علىٰ هذا القول، بما فيهم أكثر المشركين، وأنه قول أساطين الفلاسفة القدماء الذين كانوا قبل أرسطوطاليس، وأنه إنما ظهر القول بقدم العالم من الفلاسفة المشهورين من جهة أرسطو وأتباعه (انظر: الصفدية ١/ ٢٣٧، النبوات ١/ ٤٣٢ وتعليق المحقق د. الطويان)

(٣) ذكرها المصنف بالتفصيل في درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٢٥-١٢٦.

(٤) الحدوث الذاتي أي أنه معلول لعلة قديمة أزلية أوجبته فلم يزل معها، وغيره الحدوث الزمني، (انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٢٦).

ومعلوم بالاضطرار أن لفظ الحدوث في لغة العرب وسائر الأمم لا يراد بها إلا: «ما كان موجودا بعد عدمه»[1].

فأما القديم الأزلي الذي لم يزل ولا يزال ولم يكن مسبوقا بعدم ولا وجود فلا يقال له: محدث، ولا حادث.

فإن كان من أطلق ذلك من هؤلاء المتفلسفة والباطنية لا يفهم معنىٰ الحادث فهو نظير من يطلق لفظ القديم علىٰ القرآن، أو علىٰ ما يسمع من أصوات العباد بالقرآن، أو علىٰ شكل الحروف الذي في المصاحف، أو علىٰ ما يقوم بالعباد من أقوالهم أو أعمالهم ونحو ذلك.

وهو لا يتصور معنىٰ القديم، بل قد يظن أن القديم هو المتقدم علىٰ غيره بزمان طويل، أو ما كان موجودا في علم الله فهو قديم عنده، لتقدمه في العلم، فإذا قيل فعلىٰ هذا تكون أنت (ظ١٧٨) وجميع الموجودات قديمة لتقدم علم الله بها، فلا فرق علىٰ هذا بين كلام الله وغيره.

أو قيل: لا نزاع في أن الله أنزل التوراة قبل الإنجيل، والإنجيل قبل القرآن، وأن بعض كلام الله متقدم علىٰ بعض بهذا الاعتبار، وقد يحتج علىٰ مراده بحديث موضوع[2]: «إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق خلقه بألفي عام»[3].

---

(١) انظر: مفردات الراغب الأصفهاني ٢٢٢، وفيه: الحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن، عرضا كان ذلك أو جوهرا، وإحداثه: إيجاده، وإحداث الجواهر ليس إلا لله تعالىٰ، والمحدث: ما أوجد بعد أن لم يكن..

(٢) كذا في الأصل، وكتب فوقها: صح، وكتب في الهامش: ضعيف، وفوقها: ط.

(٣) رواه الدارمي (٣٤٥٧)، والطبراني في الأوسط (٤٨٧٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٠٧)، والمستغفري في فضائل القرآن (٨٣٠)، والبيهقي في الشعب (٢٢٢٥) =

فإذا قيل له: القديم المتنازع فيه لا يتقدر بألف سنة ولا ألفين، أو قيل له: فأيهما قرأ قبل الأخرىٰ، أو قيل له: فسائر القرآن لم يقرأه؟ بقي حائرًا، لأنه أطلق لفظًا لم يتصور معناه.

فهؤلاء في لفظ القديم أعذر من أولئك في لفظ الحادث.

فإنَّ القديم في لغة العرب: هو المتقدم علىٰ غيره[1]، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، وقال الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ

= من حديث إبراهيم بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن المهاجر بن المسمار، عن عمر بن حفص بن ذكوان، عن مولىٰ الحرقة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ قرأ طه و يس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألف عام -وفي بعض المصادر: بألفي عام- فلما سمعت الملائكة القرآن، قالت: طوبىٰ لأمة ينزل هذا عليها، وطوبىٰ لأجواف تحمل هذا، وطوبىٰ لألسنة تتكلم بهذا».

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به: إبراهيم بن المنذر.

قلت: مولىٰ الحرقة هو عبدالرحمن بن يعقوب.

وعمر بن حفص بن ذكوان شديد الضعف جدا، قال أحمد: تركنا حديثه وخرقناه، وقال علي: ليس بثقة، وقال النسائي: متروك، وقال الدارقطني: ضعيف (لسان الميزان٦/ ٨٨).

قال الحافظ (في إتحاف المهرة ١٥/ ٣٠٣): «وزعم ابن حبان وتبعه ابن الجوزي: أن هذا المتن موضوع. وليس كما قالا، والله أعلم، فإن مولىٰ الحرقة: هو عبد الرحمن بن يعقوب من رجال مسلم، والراوي عنه وإن كان متروكا عند الأكثر، ضعيفا عند البعض، فلم ينسب للوضع، والراوي عنه لا بأس به، وإبراهيم بن المنذر من شيوخ البخاري».

قلت: إبراهيم بن المهاجر بن مسمار قال البخاري فيه: منكر الحديث (ضعفاء العقيلي ١/ ٦٦).

(١) مفردات الراغب الأصفهاني ٦٦١.

ﭐلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقال تعالىٰ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

ويقال: «قال الشافعي في قوله القديم وقال في قوله الجديد».

فهؤلاء لما سمعوا ما تنازع الناس فيه من كلام الله أو القرآن هل هو قديم؟ فهموا هذا المعنىٰ لظهوره في هذا اللفظ، ولكن المتنازعون إنما أرادوا المعنىٰ الاصطلاحي الخاص، وهو: ما لم يسبق بعدم أو لم يسبق بوجود غيره.

فكل ما كان بعد أن لم يكن فليس قديمًا علىٰ اصطلاحهم، وكل ما وُجد بعد غيره فليس قديمًا علىٰ اصطلاحهم، ومن قال من[1] سمع الناس يتنازعون في القرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق -ورأىٰ أن الصواب مع من يقول: إنه غير مخلوق، وسمع بعضهم يقول: إنه قديم- فصار يظن أنه معنىٰ قديم غير مخلوق، كما أن منهم من اعتقد أن كل ما ليس بمخلوق فلا يكون إلا قديمًا أزليًا لامتناع قيام الأمور الاختيارية بذات الرب عنده لامتناع قيام الحوادث عنده، فهؤلاء في هذه الاصطلاحات أعذر ممن سمىٰ القديم الأزلي الذي لم يزل محدثا، وقال: معنىٰ ذلك أنَّه محدث الحدوث الذاتي، لأنَّه معلول للعلة الأولىٰ، وجعل هذا مراد الأنبياء بقولهم: إن الله خلق السماوات والأرض.

فإن هذا افتراء بيِّن معلومٌ بالبديهة علىٰ الأنبياء، إذ كان من المعلوم بالاضطرار مرادهم بقولهم إنَّ الله خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والجان وأنه خالق كل شيء -ونحو ذلك-: أنه أحدث هذا المخلوق بعد أن لم يكن، لم يريدوا بذلك أنه معلول له مع كونه قديمًا أزليًا لم يزل.

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: ممن.

فهذا المعنىٰ لو كان حقًّا لم تكن هذه الألفاظ مستعملة فيه، ولا هو مراد مَن تكلَّم بهذه الألفاظ من الأنبياء وأتباع الأنبياء، فكيف إذا كان كون الشيء مفعولاً مصنوعًا مع كونه قديمًا أزليًّا جمع بين المتناقضين، وكان هذا مما لم يُعرف عن أحد من طوائف العقلاء، إلا طائفة من متأخرة الفلاسفة -كابن سينا وأمثاله- جعلوا الشيء قديمًا أزليا مع كونه مصنوعًا مفعولاً، ومع كونه ممكنًا يقبل الوجود والعدم، مع تصريحهم في موضع آخر بما صرح به سلفهم وعامة العقلاء: أنَّ الممكن الذي يقبل الوجود والعدم لا يكون إلاَّ معدومًا تارة وموجودًا أخرىٰ، فلا يكون إلا محدثًا يمتنع أن يكون قديمًا أزليًّا.

وهؤلاء جعلوا الشيء الممكن هو الشيء الموجود الذي يكون نسبته إلىٰ الوجود والعدم نسبة واحدة، لا يترجح أحد طرفيه إلاَّ بمرجح، وأنه يكون مع ذلك قديمًا أزليًا ممتنع الوجود لا يمكن عدمه البتة، وغايتهم أن يقولوا: إنَّ ماهيته زائدة علىٰ وجوده، والماهية من حيث هي هي تقبل الوجود والعدم، وهذا باطل كما بُيِّن في غير هذا الموضع: أن وجود كل شيء عين ماهيته، ولو قدر أن الأمر كما قالوه فيقال: ماهية الذي هو عندكم قديم أزلي كالفلك لا ينفك عن الوجود، بل لا تزال موجودة ولا تزال فيمتنع خلوها (ظ١٧٩) عن الوجود في وقت من الأوقات، ويمتنع انفكاك الوجود عنها.

فإذا قلت: هو بالنظر إلىٰ ماهيَّته يقبل الوجود والعدم، قيل لكم: بالنظر إلىٰ ماهيته إذا قُدِّرت مجردة عن وجوده أو بالنظر إلىٰ ماهيته المحققة، فأما الثاني فباطل، فإنَّ ماهيته المحققة ليست مجردة عن الوجود، ويمتنع تجردها عن الوجود، وأما إذا قدرتم الماهية مجردة عن الوجود فهذا تقدير ممتنع، كما يقدر إله آخر مع الله، وكما يقدر الواجب ممتنعًا والموجود معدومًا، ونحو ذلك من تقدير الأمور الممتنعة، وإذا كان ذلك تقديرًا لأمر ممتنع في نفسه لم تكن

الماهية قابلة للوجود والعدم، إلا علىٰ تقدير هذا الأمر الممتنع، وما لم يثبت إلاَّ علىٰ تقدير ممتنع لم يلزم أن يكون ممكنا في نفس الأمر ولا ثابتًا، فلا يدل ذلك علىٰ أنه يمكن كون هذه الماهية قابلة للوجود والعدم.

وإذا قلتم: نحن ننظر إليها من حيث هي هي.

قيل: تقديرها من حيث هي هي لا تكون إلاَّ في الذهن، وهو تقدير أمر ممتنع، إذ هذه الماهية المعينة عندكم تمتنع أن تكون إلا موجودة فتقديرها مجردة ومن حيث هي هي ونحو ذلك تقدير ممتنع، كتقدير سائر الممتنعات.

وهذا من المغاليط التي بها ضل هؤلاء وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وهو كتقديرهم الكليات مجردة عن المعينات[1]، واستدلالهم بهذا التقدير علىٰ إمكان وجود ما لا يمكن الإشارة إليه، وكتقديرهم تقسيمات الذهن، واستدلالهم بإمكان التقسيم علىٰ إمكان وجود كل قسم، كما استدلوا علىٰ إمكان وجود موجود لا يشار إليه بأن قالوا: يمكن أن يقال: الشيء إما متحيز وإما حال في المتحيز، وإما غير متحيز، ولا حال في المتحيز، فقيل لهم: هذا كقول القائل: الشيء إما أن يكون قديمًا أو محدثًا أو لا قديمًا ولا محدَثا، وإما أن يكون غنيًّا عن غيره، وإما أن يكون محتاجًا إليه، وإما أن يكون لا غنيًا ولا محتاجًا، فهذه الأقسام لا تستلزم إمكان ذلك في الخارج، فضلاً عن وجوده.

وإن قالوا: الموجود إما أن يكون قديمًا وإما أن يكون محدثًا، وإمَّا أن لا يكون قديمًا ولا محدَثا، كان هذا كذبًا، كذلك سائر الأقسام.

---

(١) سبق كلام المصنف عن ذلك في المثل الأفلاطونية في ما مضىٰ من الكتاب، ٣/ ٢٢٤، وانظر: الرد علىٰ المنطقيين ٦٦، الصفدية ٢٩٩، منهاج السنة النبوية ٢/ ١٩٠، درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢١٦.



فمن حصر الموجود أو الممكن في أقسام فلا بد له من إثبات تلك الأقسام، ومِنْ نفي ما سواها؛ فكما أنه إذا قال: الموجود إما جسم وإما عرض، والممكن إما جسم وإما عرض، يحتاج إلىٰ دليل علىٰ نفي ما سوىٰ ذلك؛ فكذلك يحتاج إلىٰ دليل علىٰ إثبات كلٍّ من القسمين.

فإذًا الموجود: إما مشارٌ إليه وإما قائم بالمشار إليه، وإمَّا لا هذا ولا هذا، فيحتاج إلىٰ إثبات كلٍّ من الثلاثة، وإلىٰ نفي ما سواها.

وإذا قال: الموجود إما واجب وإما ممكن، فيحتاج إلىٰ إثبات القسمين، ونفي ثالث.

فيقال له: ما تعني بالممكن؟ أتعني به ما وجوده بعد عدمه، وهو المحدث، أم تعني به: ما يعم القديم والمحدث، وهو: ما يدعىٰ أنه قديم أزلي مع إمكان وجوده وعدمه؟

فإن عنيت الأول: كانت القسمة صحيحة مسلمة، وإن أردت الثاني: فهذا القسم لم يعلم وجوده، فلا نعلم أن الموجود ينقسم إلىٰ هذين القسمين.

وإن قال: أردت بالممكن ما يقبل الوجود والعدم، مع دوام وجوده، كالفلك عنده، كان التقسيم مردودًا في النفي والإثبات، فهذا القسم منتفٍ عند أكثر العقلاء، والمدعي له لا يثبت وجوده، ولا دليل له علىٰ وجوده، ولو قدر وجوده لم يكن الموجود منحصرًا فيه، بل ثمَّ قسم ثالث، وهو المحدث الكائن بعد عدمه، بل جميع الممكنات التي تقبل الوجود والعدم هي من هذا النوع، فكيف يجعل الممكنات من قسم معدوم ممتنع ويدع الممكن (ظ١٨٠) الموجود، فهذا هذا.

٢-والصنف الثاني من القائلين بأن العالم محدث، هم: أهل الكلام المحدث.

الذين جعلوا هذا من أصول الدين، فصدروا به كتبهم، وأثبتوا حدوث العالم بأنه مستلزم للحوادث لا ينفك منها، ولا يمكن وجوده دونها، وما لا ينفك من المحدث فهو محدث.

ثم منهم من اعتقد هذه قضية صحيحة، ومنهم من تفطن للفرق بين نوع الحوادث وبين آحادها، فاحتاج أن يقرر ذلك بامتناع حوادث لا أول لها، وهؤلاء قالوا: معنىٰ كون العالم محدثا أنَّ الرب لم يزل غير محدث لشيء من الأشياء، ولا متكلم بمشيئته البتة، لا بكلام قائم به ولا بائن عنه، لم يزل كذلك إلىٰ أن حدث ما حدث من المحدثات، إما السماوات والأرض، وإمَّا شيء قبل ذلك، وحدث ما حدث من كلامه، إما قائمًا بنفسه عند طائفة، وإما مخلوقًا بائنًا عنه عند طائفة أخرىٰ.

وجعلوا هذا القول هو قول الأنبياء وأتباعهم، وهو قول أهل الملل والنحل، واستدلوا علىٰ ذلك بأدلة عقلية ظنها كثير من الناس صحيحة، وهي أدلة ضعيفة فاسدة في العقل، فغلط هؤلاء فيما أتوا به من جهة السمع والعقل، فلم يفهموا مراد الرسل بما أخبرت به من خلق الله للمخلوقات، وظنوا أن ما ذكروه من العقليات يدل علىٰ ذلك، فغلطوا في السمعيات والعقليات.

وهؤلاء أهل الكلام المحدث المبتدع في الإسلام، الذي ذمه السلف والأئمة وعابوه، وجعلوهم جهالاً مبتدعين، جهالاً في العقل، مبتدعين في الشرع، وقالوا: العلم بالكلام هو الجهل.

والذين قالوا: كلام الله مخلوق أو حادث تكلَّم بعد أنْ لم يكن متكلما، أو أنه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته قديم أزلي -إما معنىً

وإما حروف وأصوات قديمة أزلية- هم من هؤلاء، ولهذا كانت أقوالهم لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا يدل عليها دليل صحيح لا سمعي ولا عقلي.

لكن لكل طائفة من هؤلاء من الرد علىٰ غيرهم من أهل البدع والإلحاد ما ينتفع به في الرد علىٰ أولئك الملحدين المبتدعين، وإن كان الراد قد ابتدع من وجه آخر، كالملوك الذين يتقاتلون وكل منهم يدفع من ضرر الآخر وظلمه ما يدفعه، وإن كان فيه هو أيضًا نوع من الظلم والضرر.

وكان ما قاله هؤلاء مما تسلط به أولئك الملحدون، فإنهم رأوا ما قالوه باطلاً في العقل، فأخذوا يردون عليهم، وهم أجهل منهم بالشرع، فظنوا الشرع جاء بهذا، فصار ذلك قادحًا في الشرع عندهم، فمنهم من يقول: الشرائع خاطبت الناس بما ينتفعون باعتقاده وإن كان باطلاً لا حقيقة له في نفس الأمر.

ومنهم من قال: بل له تأويل يفهمه الخاصة، والعامة أريد منهم فهم تلك المعاني التي ليست حقًّا في نفس الأمر لانتفاعهم بها، ثم إذا أخذوا في التأويلات احتاجوا إلىٰ تغيير اللغة ووضع مبتدع، كما فعلوه في لفظ المحدث والمخلوق، ونحو ذلك، بخلاف أولئك الذين يعتقدون أنَّ ما قالوه موافق للرسول، فإنهم يقولون: الرسل أرادتْ من الناس أن يعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في تأويل كلامهم بما يوافق المعقول، فهم وإن كانوا لم يثبتوا السمعيات ولا العقليات لكنهم كلفوا الخلق بطلب العلميات، وتأويل السمعيات.

وحقيقة قول هؤلاء: إن الرسل لم يهدوا الخلق إلىٰ سمعي ولا عقلي، بل كان ما جاؤوا به يقتضي إضلالهم، لكنهم مع هذا كلفوهم الهدىٰ بعقولهم، وكلفوهم أن يتأوَّلوا أقوالهم بما يخالف مدلولها المعروف.

وحقيقة قول هؤلاء: نسبة الأنبياء إلىٰ الهدىٰ (ظ ١٨١) مع أنهم لم يبينوه، بل كان ما قالوه إلىٰ نقيض الهدىٰ أقرب منه إلىٰ الهدىٰ.

وطائفة ثالثة: لا تعرف الحق بعقل ولا بسمع، وتقول: إن الأنبياء تكلموا بما لم يفهموه هم ولا أحد، وإن معاني ما قالته الرسل وبلغته لا يعلمه أحد ولا يفهمه أحد إلا الله، فنسبوا الرسل وأتباعهم إلىٰ الجهل بما قالوه، وأنهم لا يعرفون العقليات ولا السمعيات، لكنهم لم يقولوا: إن الرسل كلفوا الناس بمعرفة ما ابتدعوه من العقليات، وتأويل ما جاءت به الرسل من السمعيات.

٣-الصنف الثالث: المتبعون لما جاءت به الأنبياء وما كان عليه السلف:

من أنَّ الله خالق كل شيء وربه ومليكه وكل ما سواه مخلوق حادث بعد أن لم يكن، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء، فعالا لما يشاء، فلا يثبتون معه قديما أزليًّا بائنًا عنه، ولا يجعلونه لم يزل معطَّلاً عن الفعل بل وعن الكلام بمشيئته، وهذا القول هو الموافق لصحيح المنقول، وصريح المعقول، وعليه كان السلف، كما قال غير واحد -منهم عبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما-: «إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء»[١].

وكما ذكر البخاري عن نعيم بن حماد الخزاعي: «إنَّ الحي هو الفعال فلا يكون حي إلا فعالا»[٢].

---

(١) انظر: الرد علىٰ الجهمية لأحمد بن حنبل ١٣٩، شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢/ ٣٦٤.

(٢) ذكره المصنف في مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٢٣، ونص كلام البخاري -كما في خلق أفعال العباد ص٨٥-: «ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بخلق، وأن العرب لا تعرف الحي من الميت إلا بالفعل، فمن كان له فعل فهو حي ومن لم يكن له فعل فهو ميت، وأن أفعال العباد مخلوقة، فضيق عليه حتىٰ مضىٰ لسبيله، وتوجع أهل العلم لما نزل به، وفي اتفاق المسلمين دليل علىٰ أن نعيما ومن نحا نحوه ليس بمفارق ولا مبتدع، بل البدع والرئيس بالجهل بغيرهم أولىٰ، إذ يفتون بالآراء المختلفة، مما لم يأذن به الله».

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: «هو المتحرك فلا يكون حي إلا متحركا»[1].

وذكر الثعلبي –بإسناده– عن جعفر بن محمد الصادق، أنه قال: «لم يزل الله فيما لم يزل محسنا إلىٰ من شاء لما شاء»[2].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس لما سأله نافع بن الأزرق عن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، وقيل له: كأنه شيء كان ثم انقطع، فقال: هو سمىٰ نفسه بذلك، ولم يزل كذلك[3].

---

(١) ذكر ذلك الدارمي في أكثر من موضع من نقضه (١/ ٣٥٦)، وقال (١/ ٢١٥): «وأما دعواك: أن تفسير «القيوم» الذي لا يزول من مكانه ولا يتحرك؛ فلا يقبل منك هذا التفسير إلا بأثر صحيح، مأثور عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه أو التابعين؛ لأن الحي القيوم يفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء، ويهبط ويرتفع إذا شاء، وينقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء؛ لأن أمارة ما بين الحي والميت التحرك، كل حي متحرك لا محالة، وكل ميت غير متحرك لا محالة، ومن يلتفت إلىٰ تفسيرك وتفسير صاحبك مع تفسير نبي الرحمة».

(٢) رواه الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ٦٠) في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(سورة المؤمنون)، من طريق أحمد بن نصر قال: سئل جعفر بن محمد: لم خلق الله الخلق؟ قال: لأن الله سبحانه كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل، إلىٰ ما لم يزل فأراد ﷻ أن يفوض إحسانه إلىٰ خلقه وكان غنيا عنهم، لم يخلقهم لجر منفعة، ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتىٰ يفصلوا بين الحق والباطل، فمن أحسن كافأه بالجنة، ومن عصىٰ كافأه بالنار.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، سورة حم السجدة، ورقم الحديث الذي يليه (٤٨١٦). ولكن ليس في الصحيح أن السائل هو نافع، قال الحافظ (في الفتح ٨/ ٥٥٧): «كأن هذا الرجل هو نافع بن الأزرق الذي صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج، وكان يجالس ابن عباس بمكة، ويسأله ويعارضه، ومن جملة ما وقع سؤاله عنه صريحا ما أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة قال: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله تعالىٰ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ و﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ =

فأخبر ابن عباس أنه لم يزل متصفا بذلك، وأنه هو سمىٰ نفسه بذلك، فجعل القديم الأزلي اتصافه بذلك.

وأما تسمية نفسه بذلك فلم يقل إنَّه قديم لأنَّ التسمية تكلمه بمشيئته وقدرته، وكلامه غير مخلوق، لكن تكلمه بالقرآن وتسميته لنفسه بذلك من القرآن غير مخلوق، ولا يلزم أن يكون قديمًا أزليًّا.

ومن لا يقول بقدم الصفات الفعلية مع قوله بقدم الكلام المعين -كالأشعري وأتباعه، وابن عقيل، والقاضي في أول قوليه- يقول: تسميته لنفسه بذلك قديم أزلي، وأما اتصافه بذلك فيمتنع أن يكون أزليًّا.

وهذا نقيض قول ابن عباس.

وهؤلاء يقسمون صفاته إلىٰ صفات ذاتية وفعلية، كما تقسمها المعتزلة، وهو عندهم لا يتصف بفعل قائم بنفسه، بل الفعليات كلها مخلوقة، فالمعتزلة والجهمية يجعلون موصوفا بالمخلوقات المباينة له، وهؤلاء يلزمهم ذلك في مواضع لكنهم يتناقضون.

= وقوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ و ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ الحديث، بهذه القصة حسب، وهي إحدىٰ القصص المسئول عنها في حديث الباب وروىٰ الطبراني من حديث الضحاك بن مزاحم قال: قدم نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر في نفر من رؤوس الخوارج مكة، فإذا هم بابن عباس قاعدا قريبا من زمزم والناس قياما يسألونه، فقال له نافع بن الأزرق: أتيتك لأسألك، فسأله عن أشياء كثيرة من التفسير ساقها في ورقتين، وأخرج الطبري من هذا الوجه بعض القصة، ولفظه: أن نافع بن الأزرق أتىٰ بن عباس فقال قول الله ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وقوله ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقال: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت لهم: أتي ابن عباس فألقي عليه متشابه القرآن.. الخ».

فصل:

أكثر المعتزلة -وكثير من غيرهم- أنكروا خروق العادة لغير الأنبياء، والجهمية ومن اتبعهم -كأبي الحسن وأصحابه، ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، كالقاضي أبي يعلىٰ وأبي المعالي الجويني وأبي الوليد الباجي وأمثالهم- لم يذكروا فرقًا بين معجزات الأنبياء وآياتهم، وبين كرامات الأولياء وسحر السحرة، إلا: أن المعجزة تقترن بدعوىٰ النبوة ويمتنع معارضتها، والولي برٌّ والساحر فاجر(١).

ومن هؤلاء من يسوي بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، ولا يسوي بين ذلك وبين السحر، بل يقولون: كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، ولا يقول بمثل ذلك في السحر، لكونه لم يعرف ان السحر فيه خوارق عادات، كالطيران في الهواء، والمشي علىٰ الماء(٢).

وكذلك المتفلسفة المتكلمون في ذلك، كابن سينا (ظ١٨٢) وأمثاله، لم يذكروا فرقًا بين ذلك، إلا: أنَّ النبي والولي بر، والساحر فاجر.

---

(١) انظر هذا المبحث في كتاب النبوات ٢/ ٧٩٨.
وفيه قول الشيخ في الفرق بين المعجزات والسحر عند الأشاعرة: «ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر، فلا يجدون فرقا؛ إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر».
وقد ذكر الشيخ أن أكثرهم اتبع القاضي الباقلاني في (البيان ص٥٠)، وقال: «وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه، وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه؛ كالقاضي أبي يعلىٰ، وأبي المعالي، والرازي، والآمدي، وغيرهم».

(٢) لم يذكر الشيخ في هذا الفصل الفرق بين المعجزة والكرامة، وقد بين ذلك في كتاب النبوات (٢/ ٨٠١) في مبحث نفيس قسم فيه الآيات إلىٰ صغرىٰ وكبرىٰ، فليراجع.

وسبب ذلك:

أنَّ هؤلاء جعلوا ذلك كله من قوىٰ النفس، ولكن النفوس تختلف بالبر والفجور، وأسباب الحوادث -خوارقها وغير خوارقها عند هؤلاء- ثلاثة: القوىٰ الفلكية، والقوىٰ الطبيعية، والقوىٰ النفسية، إذ كانت الحوادث عندهم كلها عن حركة الفلك، وحركة الفلك هي بالنفس الفلكية، وذلك تحرك العناصر السفلية فتتحرك حركة طبيعية، ثم النفوس التي تتعلق بها يحصل بها الأمور النفسانية، فمبدأ الحوادث كلها عندهم النفس الفلكية.

وحقيقة مذهبهم: أنَّ الحركة النفسانية وما يحدث عنها يحدث بلا محدث، كما قد بسطنا القول علىٰ مذهبهم في غير هذا الموضع.

ولا يعرفون ملائكةً ولا جنًّا إلاَّ ما يُثبتونه من الأعراض في هذه الأعيان، أو ما يدَّعونه من العقول العشرة[1]، ولهذا إذا جمعوا بين أصولهم وبين الشريعة جعلوا الملائكة هي العقول العشرة، أو القوىٰ النفسانية، أو الطبعية، أو قالوا: هي الكواكب، كما جعل أصحاب رسائل إخوان الصفا لملك الموت من روحانية زحل، ورضوان من روحانية المشتري، وجبرائيل من روحانية المريخ، وجعل الكواكب الثابتة هي حملة العرش ومن حوله، إذ كانوا يقولون: العرش هو الفلك التاسع، وقد وافقهم علىٰ أن الفلك التاسع هو العرش من تفلسف في

(١) سبق للمصنف أن عرف العقول العشرة (٣/ ٧٧) بقوله: «وزعم كثير من الكفار أن لله ﷻ بنين وبنات، وأن الملائكة بناته، وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون: العقول العشرة هي بنوه، والنفوس الفلكية هي بناته وهي متولدة عنه لازمة لذاته، فجاء القرآن الذي هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعاني ومنع استعمال هذا اللفظ في حق الله تعالىٰ..الخ».

هذا الموضع، كابن حزم وأبي حامد والرازي وغيرهم[1].

وبسط هذا له موضع آخر.

وأما الأولون: فإنَّ أصل قولهم الذي أوقعهم في هذا أنهم لا يثبتون أسبابًا وحكما يفعل لأجلها، ولا يثبتون قُوىً وقُدَرًا وطبائع تؤثر في آثارها، ولا يفرقون بين مأمور ومأمور، فلا يختص عندهم بعض الأفعال والأقوال بصفات تقتضي أن تكون من الحسنات المأمور بها، ولا بصفات تقتضي أن تكون من السيئات المنهي عنها، ولا يفرقون بين شخص في جواز تخصيص الله له بالنبوة، بل يجوزون أن يرسل كل أحد، وأن يأمر بكل شيء، وأن ينهىٰ عن كل شيء، وأن يفعل كل شيء ممكن، ليس من الأفعال ما ينزهونه عنه أن يفعله، ولا من الممكنات والمقدورات ما ينزهونه عنه.

ولكن ما أخبر أنه لا يفعله أو فعله علم بخبره وقوعه وعدم وقوعه، وإن كان لا ينزه عن واحد منهما، فإذا أخبر أنه يثيب عباده المؤمنين فهو كإخباره أنه لا يغفر أن يشرك به مع جواز أن يأمر بالشرك عندهم، ولا عندهم من أفعال العباد أيضًا ما ينزهونه عن الأمر به، والنهي عنه، ولا في الحوادث عندهم شرط ولا سبب، ولا مانع، بل كل ممكن يجوز أن يكون مقدورًا بلا سبب، ولا حكمة، وإنما المخصص محض المشيئة، والقادر عندهم يخص أحد الجائزين

---

(١) معنىٰ كلامهم: أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، ويكفي فيه قول النبي ﷺ: «فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش» (رواه البخاري:٣٣٩٨، ومسلم: ٢٣٧٣) فلو كان فلكا مستديرا لما كانت له قوائم..
وينظر في هذه المسألة: الرسالة العرشية للمصنف، وهي مطبوعة كذلك ضمن مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٤٥، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٧.

المتماثلين بمحض مشيئته، من غير سبب يقتضي تخصيصه، ولا لحكمة تقتضي تخصيصه، فانسدَّ عليهم بهذه الأصول التميز بين النبي والساحر، وبين النبي والولي، إذ كان الله قادرا علىٰ خرق العادة مطلقا[1] عندهم، لا يميزون عادة من عادة ولا يشترطون لذلك شروطا، ولا له مانع عندهم، ولا يعلمون ما يفعل مما لا يُفعل إلا بالعادة أو بالخبر خبر الأنبياء، فقبل خبر الأنبياء لا مستند لهم في الفرق إلا العادة، والعادة عندهم يجوز نقضها.

وحينئذ فاحتاجوا أن يقولوا: إنا نعلم بالاضطرار أنَّ العادة الفلانية لم تخرق مع تجويزنا أن تخرق، ولا مستند للفرق إلا مجرد ما يخلق في قلوبنا من العلم الاضطراري من غير أن يكون للمعلوم سبب يختص بما وصفوه به (ظ١٨٣)، ولا للعلم سبب يختص بحدوثه في قلوبهم، دون نقيضه، قالوا: وكذلك نعلم أنَّ من ادَّعىٰ النبوة وأتىٰ بالخارق فإنا نعلم صدقه بالاضطرار، وإن كان مثل ذلك الخارق يأتي به الساحر والولي، ويحصل العلم الضروري هنا ولا يحصل هنا، لا لفرق إلاَّ مجرد اقتران دعوىٰ النبوة به.

ولهذا يتناقضون كثيرًا، ويذكرون بين النبي والولي وبينهما وبين الساحر فروقا يتناقضون فيها، ويقولون أحيانا: إنَّ الأمة مجمعة علىٰ أن إحياء الموتىٰ لا ينال بالسحر، فيلزم أن لا يتوصل الساحر إلىٰ إحياء جماد.

وهذا الذي ذكروه من إجماع الأمة لا ينفعهم إن لم يبينوا ثبوت ذلك بالأدلة العقلية علىٰ أصلهم، وإلا فالإجماع دليل سمعي.

---

(١) كتبها في الأصل: مطقا.



والقرآن والسنة وإجماع السلف والأئمة والأدلة العقلية تدل علىٰ الفرق بين النبي والساحر من وجوه:

١-من جهة نفس الشخصين:

فإنَّ النبي لا يكون إلا صادقا برا، والذي تقترن به الشياطين -كالساحر والكاهن- لا يكون صادقًا بارًّا، بل أفاكًا أثيمًا.

فهذا أحد الفروق، وهو مبني علىٰ: أنَّ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالاته، فلا بد أن يكون النبي مختصًّا بما يناسب النبوة، وأقل ذلك: أن يكون صادقًا بارًّا.

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:١٦١].

فهذا أصل عظيم، فإن تجويز النبوة في كل أحد من أصول الضلال.

٢-الفرق الثاني: الفرق بين الدعوتين.

فإنَّ النبي إنما يدعوا إلىٰ التوحيد والصدق والعدل وطلب الدار الآخرة، فلا بدَّ أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، والساحر لا يدعو إلىٰ ذلك، بل إلىٰ اتباع الهوىٰ، وإن كان شركًا وظلما وفجورًا، وهذا الفرق يناسب الأول، فإنَّ الأول في أقواله وأعماله وأخلاقه في نفسه، وهذا الثاني هو الفرق فيما يأمر به ويدعو إليه ويخبر به.

٣-والفرق الثالث: في نفس آياته.

سواء كانت من جهة القدرة والتصرف، أو من جهة العلم والخبر، فإنَّ معجزات الأنبياء خارجة عن جنس مقدور الإنس والجن والحيوان، وأما خوارق السحرة والكهان فلا تخرج عن جنس مقدور هؤلاء، مثل: إمراض النفوس، وقتلها، وهذا من جنس مقدور البشر، لكن يختلف أسبابها.

فالساحر يفعل ذلك بأسباب خفية لا تظهر للناس، وكذلك إزالة عقل الرجل وجعله محبًّا لآخر، ومبغضًا له، فإن هذا من جنس ما قد يفعله الناس، لكن يختلف طرقه وأسبابه.

وكذلك إزالة الأمراض التي يعتاد إزالتها، فإنَّ الساحر قد يزيلها بأسباب غير الأسباب المعلومة، وكذلك الأخبار عن بعض الأمور الغائبة التي قد يعلم نظيرها، إمَّا بمنام وإمَّا بخبر الجن والفراسة، ونحو ذلك.

بخلاف ما يخبر به النبي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وما يأتون به من الآيات، كانقلاب العصا حية، وخروج الماء من الحجر، ونحو ذلك، ومثل انشقاق القمر، ونبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام القليل من غير مادة تزاد عليه، فإنَّ هذا لا يأتي به ساحر، ولكن قد يأتي بطعام أو شراب أو مال من مكان آخر، لأنَّ الشياطين تحمله له، ولهذا لم يكن شيء من هذا من معجزات النبي ﷺ، وإنما كانت معجزاته من القسم الأول.

وقولنا في هذا: «من جنس مقدور الحيوان»، لم يُردْ به ما يريده بعض الناس بأنَّ مقدور المخلوق لا يكون إلا في محل قدرته، ويقولون (ظ١٨٤): كل ما خرج عن نفس المخلوق فليس مقدورًا له، ولا يجعلون لقدرته تعلقًا بغير محلها، كما يقوله أبو الحسن وأتباعه، كالقاضي أبي يعلىٰ وغيره.

بل نريد ما يقدر الحيوان أن يحصل بسعيه وبسببه، كما يقدر بعض الناس علىٰ قتل غيره وتمريضه، وكما تقدر الجن والريح والطير علىٰ أن تحمل شيئًا بين السماء والأرض.

وأيضًا: فلا نريد بذلك أنَّ الأنبياء لا تأتي بشيء من هذه الخوارق التي جنسها مقدور للحيوان، بل تأتي بها وبغيرها، فما كان غير مقدور في العادة للإنسان قد تقدر عليه بعض الناس بأسباب غريبة، كما يقدر الساحر والكاهن بما يقترن به من الشياطين وبغير ذلك علىٰ أمور غريبة، لكنها مُعتادة من جنسه، كما يقدر أهل الحيل الطبيعية علىٰ أنواع من العجائب التي لا يقدر عليها غيرهم.

فهؤلاء إذا جاؤوا بهذا الجنس اقترن به ما يُبين كذبهم، مثل: أن يخبر أحدهم بأمور غائبة ويكذب في كثير مما يخبر به، ويمكن غيره أن يمنعه من تلك ويعارضه بنظيرها، والدليل إذا أمكن إبطاله بالممانعة والمعارضة بطلت دلالته، كمن يخبر من الكهان ببعض الغائبات لكاهن آخر مثله يخبر بها، ويمكن أن يمنع من الإخبار إما بشيطان أقوىٰ من شيطانه، يمنع شيطانه أن يخبره، وإمَّا برجل مؤمن قوي الإيمان معه مِن ذكر الله وأسمائه وكتابه ما يطرد به الشياطين، فلا تخبره بشيء، بل ولا تتصرف له بشيء، بخلاف إخبار المسيح عليه السلام لهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، فإنه لا كذب فيه، ولا يمكن أحدًا أن يمانعه ولا يعارضه.

وكذلك مسرىٰ محمد ﷺ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ فإنه كان آية بيِّنة لقومه لما أخبرهم بصفة بيت المقدس صفةً مُفصَّلة، لا يقدر عليها إلاَّ من رآه، وهم يعلمون أنه لم يره قط، ولم يكن المقصود بذكر المسرىٰ هذا بل المقصود أنْ يكون هذا دليلاً ووسيلة علىٰ ما يكون بعده من المعراج الذي

رأىٰ فيه من الآيات الكبرىٰ، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١].

فإنَّ قطع المسافة في الهواء مقدور للطير وللجن ولمن تحمله الجن، كما أخبر تعالىٰ عن العفريت الذي قال لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩].

وكما قد تواتر عندنا -وعند غيرنا- ممن تحمله الجن في الهواء وتذهب به إلىٰ مكان بعيد، مع كونه كافرًا وفاجرًا، وتذهب به إلىٰ مكة وغير مكة، مع كونه فاجرًا ومنافقًا، فهذا الذهاب الذي تفعله الشياطين يكون لشيء تريده الشياطين بهذا وأمثاله، من إضلاله وإغوائه لا لمصلحة الدين ولا الدنيا، بخلاف حمل الريح لسليمان، فإنه كان من نعم الله الذي ينتفع بها في الدين والدنيا بلا مضرة راجحة.

وأمَّا مِعْراج نبينا ﷺ فكان أعلا من ذلك، فإنه كان فيه من مصالح الدين ما لم يكن لغير سيد المرسلين، وهؤلاء الذين تحملهم الشياطين في الهواء يمكن ممانعتهم ومعارضتهم من جنسهم المؤمنين، كما قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

ويقترن بهذه الأمور ما يستلزم فجورهم وكذبهم المناقض للولاية والنبوة.

والدجال: عامة ما يأتي به من جنس ما يفعله السحرة والشياطين، لكنه أقوىٰ من غيره في ذلك، ولهذا لم يكن مِنْ خَلق آدم إلىٰ قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ حين قال: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمَّته الدجال حتىٰ نوح أنذر أمته (ظ١٨٥) الدجال، وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه

كافر كـ ف ر يقرأه كل مؤمن قارئ وغير قارئ، واعلموا أنَّ أحدًا منكم لن يرىٰ ربه حتىٰ يموت»[1].

فلما كانت شبهات الدجال قوية -لم يأت بشر بمثلها- ذكر النبي ﷺ من الدلائل الدالة علىٰ كذبه ما هو بيِّن لكل أحد:

-أحدها: أنه أعور، وهو يدعي الإلهية، ومعلوم أن الله ليس بأعور، فإن الشيطان وإنْ شبَّه علىٰ بعض الناس وجوَّز أن يكون الله يحل أو يتحد ببشر -كما قالته النصارىٰ في المسيح، وكما يقوله كثير من الضلال في شيوخهم- أو جوَّز أن يكون الله نفسه مثل آدمي -كما يتوهمه كثير من الضلال- فلا ريب أن الله أكمل من غيره، وأنَّ العور صفة نقص، فيعلم كل أحد أن الله لا يكون أعور.

ومما يشبه هذا ما حدثني به بعض أصحابنا عن بعض الاتحادية من اليونسية[2] -وهم يعتقدون في أحدهم أنه الله- وكان هذا يعتقد في نفسه أنه الله، قال عن نفسه: فكرتُ في نفسي يوما -وكان أعور- فوجدتني أعور، وأنا عاجز عن إزالة الضرر عن نفسي، فتبين لي أني[3] لست إلها إذ لو كنتُ إلهًا لقدرت أن أزيل هذا النقص عن نفسي، وأجعل نفسي صحيح العينين.

-وذكر النبي ﷺ أنه مكتوب بين عينيه كافر، وأن كل مؤمن يقرأ ذلك، وهذا يُبيِّن أن أهل الإيمان بما في قلوبهم من الإيمان يبين الله لهم من الحق ما لا يبصره غيرهم.

---

(١) سبق تخريجه، وانظر: صحيح البخاري ٣٠٥٧، وصحيح مسلم ١٦٩.
(٢) سبق التعريف باليونسية، ينظر ٢/ ٢٧.
(٣) في الأصل: فتبين لي أن أني..

-وقال كلمة جامعة: «واعلموا أن أحدا منكم لن يرىٰ ربه حتىٰ يموت» فدل بذلك علىٰ أن كل ما يرىٰ بالعين قبل الموت فليس هو الله، وأن أحدًا لا يرىٰ الله بعينه في الدنيا.

-وكذلك ما تقدم من إنذار الأنبياء وإخبارهم به صار مُبينا أنَّه كذاب، وكذلك دعواه الإلهية الممتنعة لذاتها مما سوىٰ الله، لما كانت الدعوىٰ ممتنعة لم يمكن أن يقوم علىٰ صحتها دليل، فعلم أن ما جاء به لم يكن آية علىٰ دعواه، وأن الله جعل ذلك محنةً وفتنة يبلوا بها عباده ليجتهدوا في تحقيق الإيمان والثبات عليه، كسائر ما ابتلاهم به من نحو ذلك.

كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢].

والفتنة تكون بالشبهات تارة[1]، والشهوات تارة، فيفتنون بالشبهات ليعرفوا الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، ويفتنوا بالشهوات ليتميز الراشد من الغوي، والمطيع من العاصي، والله أعلم.

---

(١) كتبها لحقا في الهامش، وفوقها: خـ.

٤-الفرق الرابع: أن المعجزات لا يمكن معارضتها بخلاف خوارق السحرة.

فإنه يمكن معارضتها، لأن النبي لا يعارضه نبي قبله، إذ كان الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، وغير الأنبياء لا يمكنهم الاتيان بمثل آيات الأنبياء.

وأمَّا السحرة فإنه بعضهم يعارض بعضًا، ولهذا كان السحرة يبطل بعضهم سحر بعض، ويسحر المسحور للساحر، كما يوجد بين المتقاتلين من بني آدم، بخلاف آيات الأنبياء.

***

آخر ما وجد في الكراس وبه كمل جميع الكتاب(١)

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

علقه لنفسه أحمد بن محمد بن أحمد بن المحب عبدالله المقدسي، عفا الله عنهم، وفرغ منه في العشر الأوسط من شهر رمضان المعظم، سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

والحمد لله علىٰ الإسلام والسنة.

(١) هامش الأصل وبه كمل جميع الكتاب: بلغ مقابلة بنسخة قوبلت علىٰ الأصل خط المؤلف، قدس الله روحه، ولله الحمد والمنة، علىٰ الإسلام والسنة.

فهرس موضوعات المجلد الرابع